

مَوْلَانِمْ

مَوْلَانِمْ مَوْلَانِمْ مَوْلَانِمْ
مَوْلَانِمْ مَوْلَانِمْ مَوْلَانِمْ

مَوْلَانِمْ
مَوْلَانِمْ
مَوْلَانِمْ
مَوْلَانِمْ

الجزء الثالث

تأليف سماحة العلامة الراحل

آيَةُ اللَّهِ الْحَاجِّ السَّيِّدِ مُحَمَّدِ الْحُسَيْنِ الْحُسَيْنِيِّ الطَّهْرَانِيِّ

أفاض الله علينا من بركات نفسه الفضية

تعريب:

عباس هوار الصافي

دار الهجرة البيضاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرست

فهرس مطالب وموضوعات

معرفة الله

الجزء الثالث

الصفحات

المطالب

البحث الخامس والعشرون إلى البحث الثلاثين :

جميع الناس - سوى العرفاء - يرون الله بنظرة مزدوجة

الصفحة ٣ إلى الصفحة ١٥٨

يشمل المطالب التالية :

- ٥ تفسير العلامة لسورة التكاثر
- ٧ شأن نزول سورة أَلْهَبِكُمْ أَلْتَّكَاثُرُ
- ٩ مرجع السؤال عن النعيم إلى السؤال عن العمل بالدين
- ١١ المراد بالنعيم هو الولاية
- ١٣ العلامة : من المقابلة بين النعيم والجحيم يستنتج أن النعيم هو الولاية
- ١٧ العلم العادي ، علم اليقين ، عين اليقين ، حق اليقين
- ١٩ كلام الشبليّ البغداديّ في التوحيد
- ٢١ كيفية أحوال وسلوك المرحوم السيّد حيدر الأمليّ قدس الله سرّه
- ٢٥ سؤال كميل لأمير المؤمنين عليه السلام : ما الحقيقة ؟
- ٢٧ شرح السيّد حيدر لحديث كميل «ما الحقيقة»

- ٢٩ معنى : لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا اَزْدَدْتُ يَقِيناً
- ٣١ الاستدلال الجميل للسيّد حيدر على وحدة الوجود بحديث كميل
- ٣٣ السيّد حيدر : إثبات وحدة الوجود من آية : كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ وَجْهُهُ
- ٣٩ توضيح شرح السيّد حيدر لحديث كميل
- ٤١ تفسير سماحة الأستاذ العلامة لآية : أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ
- ٤٣ تفسير الحقير لكيفية إطلاق آية «مد الظل»
- ٤٥ ترجمة أحوال الحاج المولى هادي السبزواري بقلم الدكتور غنى
- ٤٧ أشعار غزلية للحكيم السبزواري في العظمة العرفانية للمقام الإنساني
- ٥١ مقتطف من قصيدة «ساقى نامه» التوحيدية لرضي الدين الآرتماني
- ٥٧ قصيدة «ساقى نامه» المشبعة بذكر خمر الفناء ، للمرحوم السبزواري
- ٦٣ ابتلاء القائلين بأصالة الماهية من الحشوية بالثنوية في الباطن
- مراد السبزواري من القائل بأصالة الوجود والماهية : الشيخ الأحسائي الأحسائي سبب
- ٦٩ ظهور مذاهب البدعة لعدم حيازته علوم المعقول
- ٧١ الشيخية يعتقدون بالركن الرابع
- ٧٣ كلام الحكيم السبزواري في أصالة الوجود وعينية وجود الحق
- ٧٥ تبع الإيرانيون القدماء دين زرادشت ؛ فقالوا بأصلين : خير وشر
- ٧٧ الأحسائي معتقد بثنوية «يزدان» و«أهريمن» في لباس الوجود والماهية
- ٨١ حسب النقل التاريخي : كان الإيرانيون الآريون يقولون بالثنوية
- ٨٣ كون زرادشت موحداً من الآثار الإسلامية وليس من تحقيق المؤرخين
- ٨٥ لم يستطع زرادشت أن يقضي على الثنوية ، وجاء الإسلام فقضى عليها
- ٨٩ بحث الحكيم السبزواري في الرد على شبهة الثنوية
- ٩١ الوجود خير ؛ والخيران المحض والغالب موجودان في عالم الخارج
- ٩٣ الشر أمر عديمي ، كعدم الملكة
- ٩٥ الشر أمر عديمي ، وعلته انعدام علّة الوجود

- ٩٧ كون الشرّ عدماً هو أمر بديهيّ لا يحتاج إلى برهان
- ٩٩ الإجابة الثالثة على إشكال الشرور ، والآثار الحسنة للشرور
- ١٠١ فلاسفة أوربأ عاجزون عن حلّ معضلات المسائل
- ١٠٣ علم الحكمة مستقلّ عن العلوم الطبيعيّة وقائم على البراهين العقليّة
- ١٠٥ أبيات الحكيم الكمبانيّ في خيريّة مبدأ وعالم الأمر
- ١٠٧ تقول الثنويّة : «أهريمن» قطب مستقلّ مقابل «أهورامزدا»
- ١٠٩ يقول القرآن الكريم إنّ الله خلق جميع الموجودات فأحسن تصويرها
- ١١١ كلا الجنّ والإنس مكلفان بالتكليف الإلهيّ
- ١١٣ على المعتدين أن يلوموا أنفسهم - لا الشيطان - يوم القيامة
- ١١٥ الشيطان مأمور مطيع لله للتمييز بين الخبيث والطيب
- ١١٧ الشيطان يقول : سألجم جميع ذرّيّة آدم - إلّا قليل منهم - بلجامي
- ١١٩ كلام سماحة العلامة في إيليس وعمله
- ١٢١ كلام العلامة في جميع الإشكالات المذكورة في قصّة إيليس
- ١٢٣ إجابة العلامة على جميع الإشكالات المذكورة في قصّة إيليس
- ١٢٥ العلامة يوضّح قضية إيليس بأحسن وجه
- ١٢٧ العلامة : تصرّف الشيطان في الإنسان يتمثّل في نظره الاستقلاليّة
- ١٢٩ العلامة : «الاحتناك» بمعنى الإلجام ، كما يُلجم الراكب فرسه
- ١٣١ نقل العلامة للإشكالات الإيليسيّة الستّة التي أوردّها شارح الإنجيل
- ١٣٣ إجابة العلامة البليغة على الإشكالات الإيليسيّة الستّة
- ١٣٥ التوراة تنسب الكذب إلى الله والصدق إلى الشيطان !
- ١٣٧ التوراة تقول : الدين يدعو إلى الجمود والعمى
- ١٣٩ مسألة الشرور غير محلولة لدى المادّيين ، فينظرون إلى العالم بتشاؤم
- ١٤١ قضية أبو طلحة وأمّ سليم وموت الابن ، ودعاء النبيّ لهما
- ١٤٣ ما السبب في عدم كون العالم خيراً محضاً بلا شرور

- ١٤٥ الاختلافات في عالم الخلقة صحيحة ؛ وليس هناك من تمييز وتفرقة
 ١٤٧ «أنا» التي يقولها زيد دليل على وجوده وتمامه ، وغير ذلك محال
 ١٤٩ أمثال عبارة «لِمَ لَمْ أكن الشيخ الطوسي» تبطل نفسها بنفسها
 ١٥١ «الذاتي لا يُعلّل» قاعدة فلسفية لا تتخلف
 ١٥٣ جنة آدم هي جنة القابلية ؛ وهي غير الجنة الفعلية التي تليها
 ١٥٥ طي قوس الصعود يبلغ بالإنسان إلى جنة الفعلية وظهور الأعمال
 ١٥٧ الكلام البديع لهشام بن الحكم في الرد على الثنوية

البحثن الحادي والثلاثون والثاني والثلاثون :

القائلون بوجود أثر لغير الله مُبتلون بالشرك الخفي

الصفحة ١٦١ إلى الصفحة ٢٠٧

يشمل المطالب التالية :

- ١٦٣ الحق سبحانه وتعالى هو عين الوجود وحقيقته
 ١٦٥ كلام الفيض الكاشاني في الجمع بين ظهور الله وخفائه
 ١٦٧ أمير المؤمنين عليه السلام : ظاهرٌ في غيبٍ ، وغائبٌ في ظهور
 ١٦٩ البحث القيم لكاشف الغطاء في وحدة الوجود والموجود
 ١٧١ إثبات أصالة الوجود ، وإبطال أصالة الماهية
 ١٧٣ الاشتراك اللفظي في إطلاق لفظ الوجود على مراتبه يستلزم المحذورات
 ١٧٥ توحيدُه تمييزُه عن خلقه ؛ وحكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة
 ١٧٧ وجود واجب الوجود في نفسه بنفسه لنفسه
 ١٧٩ إطلاق الوجود على مصاديقه على نحو الاشتراك المعنوي
 ١٨١ «بسطُ الحقيقة كُلِّ الأشياء» هي مفاد «إنا لله وإنا إليه راجعون»
 ١٨٣ كاشف الغطاء : الوجود واحد ؛ والموجود واحد أيضاً
 ١٨٥ الأمثلة الكثيرة التي أوردها العرفاء على وحدة الوجود

١٨٧	برهان وحدة الوجود ؛ والردّ على الشبهات الواردة في شأنه
١٩١	في وحدة الوجود ، الموجود هو الحقّ الأزليّ وجميع الكائنات أطواره
١٩٣	في كلّ طائفة من أصحاب العرفان أفراد أقحموا أنفسهم بدون معرفة
١٩٥	كاشف الغطاء برهن على وحدة الوجود والموجود وجعلها ملموسة
١٩٧	تعليقة آية الله الحكيم على فتوى المرحوم السيّد في «العروة»
١٩٩	الوحدة الحقيقيّة للوجود والموجود والكثرة الاعتباريّة لهما قمة التوحيد
٢٠١	الآيات الراقية للميرزا محمّد رضا القمشيّ في وحدة الوجود
٢٠٣	المتفكّهون أضافوا إلى النجاسات «وحدة الوجود» هرباً من المسؤولية
٢٠٥	موقف أصحاب الرسائل بدون الولاية الإلهيّة خطر يوم القيامة
٢٠٧	فساد الاستدلال بالآيات لإثبات الثنائية الحقيقيّة بين الخالق والمخلوق

البحث الثالث والثلاثون إلى الرابع والثلاثين :

الحشويّة والشيخية والقشريّة لا خلاق لهم من الله

الصفحة ٢١١ إلى الصفحة ٢٧٢

يشمل المطالب التالية :

٢١٣	ليس هناك اختلاف في مسألة ما بقدر الاختلاف في الله تعالى
٢١٥	الشيخ أحمد الأحسائي لا يعتبر الله حتّى منشأ لانتزاع الصفات
٢١٧	أصحاب التنزيه يعدّون الحقّ خالياً من الحياة والعلم والقدرة
٢١٩	التنزيه فاقد للدليل العقليّ والشهوديّ والشرعيّ
٢٢١	سيّد الموحّدين من يشبهه الله تعالى في عين تنزيهه
٢٢٣	بطلان منهج الحلول والاتحاد
٢٢٥	جهات خطأ منهج الاعتزال
٢٢٧	وقع عدد من علمائنا من أهل الحديث - لا الحكمة - في شرك المعتزلة
٢٢٩	الأشاعرة قائلون بالجبر في المبدأ والخلقة والإنسان

٢٣١	لا يعني عدم فعل الله تعالى لكثير من الأمور أنه مسلوب الإرادة
٢٣٣	ينبغي عدّ مَنْ يُنكر الرجوع إلى العقل من البهائم
٢٣٧	بيان العلامة في شأن هويّة الحقّ تعالى وجنسيّته
٢٣٩	رموز وإشارات سورة الإخلاص في تفسير العلامة قدّس سرّه
٢٤١	الروايات الواردة في تفسير سورة الإخلاص
٢٤٣	الروايات الواردة في تفسير معنى «الصمد»
٢٤٥	غزليّة الفيض الكاشانيّ البليغة في «لا إله إلاّ الله»
٢٤٧	مواجهة النبيّ إبراهيم عليه السلام قومه بطريقة البحث العقليّ
٢٤٩	كانت مواجهة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام مع مَنْ خالفهم منطقيّة
٢٥١	القرآن الكريم هو رصيد الحكمة والفلسفة
٢٥٣	أثبت العلماء المتألهون التوحيد بالبراهين الفلسفيّة والحكمة
٢٥٥	تكفير أصحاب المعقول ناشئ من عدم فهم القصد من كلامهم
٢٥٧	جهود حكماء الإسلام في تعليم علوم المعقول
٢٥٩	منطق الشهود والعرفان أعلى وأسمى من جميع المناهج
٢٦١	كانت براهين احتجاجات النبيّ والأئمّة على الكفّار والمخالفين فلسفيّة
٢٦٣	عرف الأنبياء والأولياء والأئمّة الله عن طريق الشهود والوجدانيّ
٢٦٥	ألزم النبيّ إبراهيم قومه العرفان الشهوديّ عن طريق البحث الفلسفيّ
٢٦٧	النبيّ إبراهيم عليه السلام هو أوّل من أشرق في قلبه نور يقين الملكوت
٢٦٩	أبيات الفيض الكاشانيّ الراقيّة في طريق السلوك إلى الله تعالى

البحثان الخامس والثلاثون والسادس والثلاثون :

الحشويّة والشيخيّة والقشريّة لا خلاق لهم من الله

الصفحة ٢٧٥ إلى الصفحة ٣٤٩

يشمل المطالب التالية :

- ٢١٣ ليس هناك اختلاف في مسألة ما بقدر الاختلاف في الله تعالى
- ٢١٥ الشيخ أحمد الأحسائي لا يعتبر الله حتى منشأ لانتزاع الصفات
- ٢١٧ أصحاب التنزيه يعدّون الحقّ خالياً من الحياة والعلم والقدرة
- ٢١٩ التنزيه فاقد للدليل العقليّ والشهوديّ والشرعيّ
- ٢٢١ سيّد الموحّدين مَنْ يشبّه الله تعالى في عين تنزيهه
- ٢٢٣ بطلان منهج الحلول والاتّحاد
- ٢٢٥ جهات خطأ منهج الاعتزال
- ٢٢٧ وقع عدد من علمائنا من أهل الحديث - لا الحكمة - في شرك المعتزلة
- ٢٢٩ الأشاعرة قائلون بالجبر في المبدأ والخُلقة والإنسان
- ٢٣١ لا يعني عدم فعل الله تعالى لكثير من الأمور أنّه مسلوب الإرادة
- ٢٣٣ ينبغي عدّ مَنْ يُنكر الرجوع إلى العقل من البهائم
- ٢٣٧ بيان العلامة في شأن هويّة الحقّ تعالى وجنسيّته
- ٢٣٩ رموز وإشارات سورة الإخلاص في تفسير العلامة قدّس سرّه
- ٢٤١ الروايات الواردة في تفسير سورة الإخلاص
- ٢٤٣ الروايات الواردة في تفسير معنى «الصمد»
- ٢٤٥ غزليّة الفيض الكاشانيّ البليغة في «لا إله إلاّ الله»
- ٢٤٧ مواجهة النبيّ إبراهيم عليه السلام قومه بطريقة البحث العقليّ
- ٢٤٩ كانت مواجهة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام مع مَنْ خالفهم منطقيّة
- ٢٥١ القرآن الكريم هو رصيد الحكمة والفلسفة
- ٢٥٣ أثبت العلماء المتأهّون التوحيد بالبراهين الفلسفيّة والحكمة
- ٢٥٥ تكفير أصحاب المعقول ناشئ من عدم فهم القصد من كلامهم
- ٢٥٧ جهود حكماء الإسلام في تعليم علوم المعقول
- ٢٥٩ منطق الشهود والعرفان أعلى وأسمى من جميع المناهج
- ٢٦١ كانت براهين احتجاجات النبيّ والأئمّة على الكفّار والمخالفين فلسفيّة

- ٢٦٣ عرف الأنبياءُ والأولياءُ والأئمةُ الله عن طريق الشهود والوجدانيّ
- ٢٦٥ ألزم النبيّ إبراهيم قومه العرفان الشهوديّ عن طريق البحث الفلسفيّ
- ٢٦٧ النبيّ إبراهيم عليه السلام هو أوّل من أشرق في قلبه نور يقين الملكوت
- ٢٦٩ أبيات الفيض الكاشانيّ الراقية في طريق السلوك إلى الله تعالى

البحث الخامس والعشرون في الثلاثين

جميع الناس - سوى العرفاء - يرون الله بنظرة مزدوجة

وتفسير سورة النّاز

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ مِنَ الْآنَ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

قَالَ اللَّهُ الْحَكِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ :
أَلْهَبِكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا
سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ
لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ .
(سورة التكاثر كاملة ، وترتيبها الثانية بعد المائة)

يقول سماحة أستاذنا الأعظم العلامة الطباطبائي قدس الله سره في
تفسيره هذه السورة المباركة :

«بيان :

توبيخ شديد للناس على تلهيهم بالتكاثر في الأموال والأولاد
والأعضاء وغفلتهم عما وراءه من تبعة الخسران والعذاب ، وتهديد بأنهم
سوف يعلمون ويرون ذلك ويُسألون عن هذه النعم التي أُوتوها ليشكروا
فتلهوا بها وبدلوا نعمة الله كفراً .

قوله تعالى : أَلْهَبِكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، قال في
«المفردات» : اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه . قال ، ويقال : أَلْهَاهُ

كذا ، أي شغله عما هو أهم إليه ، قال تعالى : **أَلْهَبَكُمْ التَّكَاثُرَ** - انتهى .
 وقال الراغب : **والمُكَاثِرَةُ والتَّكَاثُرُ** : التباري في جميع المال والعز .
 وقال أيضاً : **المَقْبَرَةُ** (بكسر الميم وفتحها) : موضع القبور ، وجمعها **مَقَابِر** ؛
 قال **حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ** كناية عن الموت - انتهى كلام الراغب .

فالمعنى على ما يعطيه السياق شغلكم التكاثر في متاع الدنيا وزينتها والتسابق في تكثير العدة عما يهتمكم ، وهو ذكر الله ، حتى لقيتم الموت فعمتكم الغفلة مدى حياتكم .

وقيل : المعنى شغلكم التباهي والتباري بكثرة الرجال بأن يقول هؤلاء : نحن أكثر رجالاً ، وهؤلاء : نحن أكثر حتى إذا استوعبتم عدد الأحياء صرتم إلى القبور فعددتهم الأموات من رجالكم فتكاثرتم بأمواتكم . وهذا المعنى مبني على ما ورد في أسباب النزول أن قبيلتين من الأنصار تفاخرتا بالأحياء ثم بالأموات ، وفي بعضها أن ذلك كان بمكة بين بني عبد مناف وبني سَهْم فنزلت السورة ، وستأتي القصة في البحث الروائي .

قوله تعالى **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ، ردع على اشتغالهم بما لا يهتمهم عما يعينهم وتخطئة لهم ، وقوله : **سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ، تهديد معناه على ما يفيد المقام سوف تعلمون تبعة تلهيكم هذا وتعرفونها إذا انقطعتم عن الحياة الدنيا .

قوله تعالى : **ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ، تأكيد للردع والتهديد السابقين ، وقيل : المراد بالأول علمهم بها عند الموت ، وبالثاني علمهم بها عند البعث .

قوله تعالى : **كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ** ، ردع بعد ردع تأكيداً ، واليقين العلم الذي لا يداخله شك وريب .

وقوله : **لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ** ، جواب لو محذوف ، والتقدير لو تعلمون الأمر علم اليقين لشغلكم ما تعلمون عن التباهي والتفاخر بالكثرة ، وقوله : **لَتَرُونَ الْجَحِيمَ** ، استئناف في الكلام ، واللام للقسمة ، والمعنى أقسم لتروُنَّ الجحيم التي جزاء هذا التلهي كذا فسروا .^١

قالوا : ولا يجوز أن يكون قوله : **لَتَرُونَ الْجَحِيمَ** جواب لو الامتناعية ، لأن الرؤية محققة للوقوع وجوابها لا يكون كذلك .

وهذا مبني على أن يكون المراد رؤية الجحيم يوم القيامة كما قال : **وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى** ،^٢ وهو غير مسلم ، بل الظاهر أن المراد رؤيتها قبل يوم القيامة رؤية البصيرة وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين على ما يشير إليه ، قوله تعالى :

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ .^٣

وقد تقدّم الكلام فيها ، وهذه الرؤية القلبية قبل يوم القيامة غير محققة لهؤلاء المتلهين ، بل ممتنعة في حقهم لامتناع اليقين عليهم .
قوله تعالى : **ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ** ، المراد بعين اليقين نفسه ،

١- ومن القائلين بهذا التفسير : البيضاوي في تفسيره ، حيث قال : فحذف الجواب للتفخيم ، ولا يجوز أن يكون قوله : «لَتَرُونَ الْجَحِيمَ» جواباً ، لأنه محقق الوقوع ؛ بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوضح به ما أنذرهم منه بعد إبهامه تفخيماً .

٢- الآية ٣٦ ، من السورة ٧٩ : النازعات : وباعتبار أن هذه السورة تتحدث عن أحوال القيامة ، فإن عبارة : **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ * تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ** تفيد يوم القيامة . كما أن كلمة **بُرِّزَتِ** ؛ تفيد هذا المعنى أيضاً ، لأن عالم القيامة هو عالم ظهور الحقائق وبروزها وليس أصل عالم الحقائق .

٣- الآية ٧٥ ، من السورة ٦ : الأنعام .

والمعنى لتروُّتها محض اليقين ، وهذه بمشاهدتها يوم القيامة ، ومن الدليل عليه قوله بعد ذلك **ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ، فالمراد بالرؤية الأولى رؤيتها قبل يوم القيامة ، وبالثانية رؤيتها يوم القيامة .

وقيل : الأولى قبل الدخول فيها يوم القيامة ، والثانية إذ دخلوها . وقيل : الأولى بالمعرفة ، والثانية بالمشاهدة . وقيل : المراد الرؤية بعد الرؤية ، إشارة للاستمرار والخلود . وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة .

قوله تعالى : **ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ، ظاهر السياق أن هذا الخطاب وكذلك الخطابات المتقدمة في السورة للناس بما أن فيهم من اشتغل بنعمة ربّه عن ربّه فأنساه التكاثر فيها عن ذكر الله ، وما في السورة من التوبيخ والتهديد متوجه إلى عامة الناس ظاهراً واقع على طائفة خاصة منهم حقيقة وهم الذين **أَلْهَاهُمُ التَّكَاثُرُ** .

وكذا ظاهر السياق أن المراد بالنعيم مطلقه وهو كلّ ما يصدق عليه أنه نعمة ، فالإنسان مسؤول عن كلّ نعمة أنعم الله بها عليه .

وذلك أن النعمة - وهي الأمر الذي يلائم المُنعم عليه ويتضمّن له نوعاً من الخير والنفعة - إنّما تكون نعمة بالنسبة إلى المُنعم عليه إذا استعملها بحيث يسعد بها فينتفع ، وأمّا لو استعملها على خلاف ذلك كانت نقمة بالنسبة إليه ، وإن كانت نعمة بالنظر إلى نفسها .

وقد خلق الله تعالى الإنسان وجعل غاية خلقته التي هي سعادته ومنتهاى كماله التقرب العبوديّ إليه كما قال : **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ^١ .

وهي الولاية الإلهية لعبده ، وقد هيأ الله سبحانه له كلّ ما يسعد

١- الآية ٥٦ ، من السورة ٥١ : الذاريات .

ويستفَع به في سلوكه نحو الغاية التي خُلِقَ لها وهي النعم فَاسْبِغْ عَلَيْهِ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً^١.

فاستعمال هذه النعم على نحو يرتضيه الله وينتهي بالإنسان إلى غايته المطلوبة هو الطريق إلى بلوغ الغاية وهو الطاعة، واستعمالها بالجمود عليها ونسيان ما وراءها غيٌّ وضلال وانقطاع عن الغاية وهو المعصية، وقد قضى سبحانه قضاء لا يُردّ ولا يُبدّل أن يرجع الإنسان إليه فيسأله عن عمله فيحاسبه ويجزيه، وعمله هو استعماله للنعم الإلهية، قال تعالى:

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى^٢.

فالسؤال عن عمل العبد سؤال عن النعيم كيف استعمله، أشكر النعمة أم كفر بها.

«بحث روائي»

في «المجمع»، قيل: نزلت في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبني فلان أكثر من بنو فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا. ضلالاً، عن قتادة.

وقيل: نزلت في فخذ من الأنصار تفاخروا، عن أبي بريدة.
وقيل: نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف بن قصي، وبني سهم بن عمرو، تكاثروا وعدّوا أشرفهم فكثروهم بنو عبد مناف.
ثم قالوا: نعدّ موتانا حتى زاروا القبور فعدّوهم وقالوا: هذا قبر فلان وهذا قبر فلان فكثروهم بنو سهم، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية، عن

١- اقتباس من الآية ٢٠، من السورة ٣١: لقمان: وَأَسْبِغْ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ وَظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ.

٢- الآيات ٣٩ إلى ٤٢، من السورة ٥٣: النجم.

مقاتل والكلبي .

وفي تفسير «البرهان» عن البرقي ، عن أبيه ، عن ابن أبي عمير ، عن هشام بن سالم ، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الَّذِينَ ، قال : المعاينة .

أقول : الرواية تؤيد ما قدمناه من المعنى .

وفي «تفسير القمي» بإسناده عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ . قال : تُسْأَلُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِرَسُولِهِ ثُمَّ بِأَهْلِ بَيْتِهِ .

وفي «الكافي» بإسناده عن أبي خالد الكابولي قال : دَخَلْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَدَعَا بِالْغَدَاءِ ، فَأَكَلْتُ مَعَهُ طَعَامًا مَا أَكَلْتُ طَعَامًا أَطْيَبَ مِنْهُ قَطُّ وَلَا أَلْطَفَ .

فَلَمَّا فَرَعْنَا مِنَ الطَّعَامِ قَالَ : يَا أَبَا خَالِدٍ ! كَيْفَ رَأَيْتَ طَعَامَكَ - أَوْ قَالَ : طَعَامَنَا - !؟

قُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ ! مَا أَكَلْتُ طَعَامًا أَطْيَبَ مِنْهُ قَطُّ وَلَا أَنْظَفَ ، وَلَكِنْ ذَكَرْتُ الْآيَةَ الَّتِي فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : «ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» !

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّمَا يَسْأَلُكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ! وفيه بإسناده عن أبي حمزة قال :

كُنَّا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمَاعَةً ، فَدَعَا بِطَعَامٍ مَا لَنَا عَهْدٌ بِمِثْلِهِ لَذَاذَةً وَطَيِّبًا ، وَأَتَيْنَا بِتَمْرٍ تَنْظُرُ فِيهِ أَوْجُهَنَا مِنْ صَفَائِهِ وَحُسْنِهِ .

فَقَالَ رَجُلٌ : لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ الَّذِي تَنْعَمْتُمْ بِهِ عِنْدَ ابْنِ

رَسُولِ اللَّهِ !

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَكْرَمُ وَأَجَلُّ أَنْ

يُطْعِمَ طَعَامًا فَيَسْؤُوكُمْ بِهِ ، ثُمَّ يَسْأَلُكُمْ عَنْهُ !
 إِنَّمَا يَسْأَلُكُمْ عَمَّا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَآلِهِ .

أقول : وهذا المعنى مروى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بطرق
 أخرى وعبارات مختلفة وفي بعضها أن النعيم ولايتنا أهل البيت .
 ويؤول المعنى إلى ما قدمناه من عموم النعيم لكل نعمة أنعم الله بها
 بما أنها نعمة .

بيان ذلك أن هذه النعم لو سئل عن شيء منها فليست يسأل عنها بما
 أنها لحم أو خبز أو تمر أو ماء بارد أو أنها سمع أو بصر أو يد أو رجل
 مثلاً ، وإنما يسأل عنها بما أنها نعمة خلقها الله للإنسان وأوقعها في طريق
 كماله والحصول على التقرب العبودي ، كما تقدمت الإشارة إليه ، وندبه إلى
 أن يستعملها شكراً لا كفراً .

فالمسؤول عنها هي النعمة بما أنها نعمة ، ومن المعلوم أن الدال على
 نعيمية النعيم وكيفية استعماله شكراً والمبين لذلك كله هو الدين الذي جاء
 به النبي صلى الله عليه وآله ونصب لبيانه الأئمة من أهل بيته .

فالسؤال عن النعيم مرجعه السؤال عن العمل بالدين في كل حركة
 وسكون ، ومن المعلوم أن السؤال عن النعيم الذي هو الدين سؤال عن النبي
 صلى الله عليه وآله والأئمة من بعده الذين افترض الله طاعتهم وأوجب
 اتباعهم في السلوك إلى الله الذي طريقه استعمال النعم كما بينه الرسول
 والأئمة .

وإلى كون السؤال عن النعيم سؤال عن الدين يشير ما في رواية أبي
 خالد من قوله : إِنَّمَا يَسْأَلُكُمْ عَمَّا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْحَقِّ .

وإلى كونه سؤال عن النعيم الذي هو النبي وأهل بيته يشير ما في

روايتي جميل وأبي حمزة السابقتين من قوله : يُسْأَلُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِرَسُولِهِ ثُمَّ بِأَهْلِ بَيْتِهِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ .

وفي بعض الروايات النَّعِيمُ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْعَالَمِ فَاسْتَنْقَذَهُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ .

وفي بعضها إِنَّ النَّعِيمَ وَلَايَتُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ .

والمآل واحد ومن ولاية أهل البيت افتراض طاعتهم واتباعهم فيما يسلكونه من طريق العبودية .

وفي «المجمع» ، وقيل : النَّعِيمُ الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ عَنْ عَكْرَمَةَ ، ويعضده ما رواه ابن عباس عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : نِعْمَتَانِ مَعْبُودٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ .

وفيه ، وقيل : هو يعني : النَّعِيمُ الْأَمْنُ وَالصَّحَّةُ . عن عبد الله بن مسعود ومجاهد ، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله .

أقول : وفي روايات أخرى من طرق أهل السنة أَنَّ النعيم هو التمر والماء البارد وفي بعضها غيرهما ، وينبغي أن يحمل الجميع على إيراد المثال وفي الحديث النبوي من طرقهم : ثَلَاثٌ لَا يُسْأَلُ عَنْهَا الْعَبْدُ : خَرْقَةٌ يُوَارِي بِهَا عَوْرَتَهُ ، أَوْ كِسْرَةٌ يَسُدُّ بِهَا جُوعَتَهُ ، أَوْ بَيْتٌ يَكْسُهُ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ - الحديث .

وينبغي أن يحمل على خفة الحساب في الضروريات ونفي المناقشة فيه والله أعلم^١

كان هذا ما ذكره الأستاذ الأكرم قدس الله سره في تفسيره . وأمّا ما سمعه الحقيير خلال بحوثه الشفهية ودونته عنه ، فهو أكثر صراحة ممّا قيل

١- «الميزان في تفسير القرآن» ج ٢٠ ، ص ٣٥٠ إلى ٣٥٥ .

في إثبات وحدة الذات المقدسة للحقّ تعالى . فقد قال سماحته صراحة :
«لا توجد لدينا آية أكثر وضوحاً وصراحة في إثبات الوحدة من هذه . بل
إنّ هذه الآيات قد تجاوزت حدود الصراحة كذلك ، وإنّما عجبنا علينا من
عدم إصغائنا لها !» .

فهذه الآيات تقول : يا أيّها الناس لقد كنتم تعرضون عن رؤية الحقّ
الواحد المعبود المسجود ولقائه في طوال سنّي عمركم حتّى تُقبرون ، حيث
تصوّرتموه في شؤون الكثرات بصورة المقيّد والمتعيّن ؛ وهذه هي حقيقة
الجحيم والنار النّزاعة للشوى المتمثّلة بحجبكم وجه الحقّ تعالى .

ضعوا عنكم ستار التعيّن لعالم الوجود والكثرة حتّى يتجلّى لكم
جمال الواحد الأحد ، فتلبسون لباس النعمة الحقيقيّة وهي لباس الولاية
والعبوديّة الصرفة في مقابل هكذا ربّ . لا أن تزيلوا ذلك النعيم وتبطلوه
وتحرموا أنفسكم من فيض الولاية التي هي حقيقة القرب ، وأن تحرق نار
الكثرات والتعيّنات المستعرة أعينكم ؛ وما ترونه في هذه الدنيا سيظهر لكم
في الدار العقبى على صورة جهنّم .

فإنّ أزلتم ستار حجاب الملكوت عن أبصاركم الرمضاء والحولاء ،
فسوف ترون في الحال بعلم اليقين والمعانيّة أنّ التهافت على التكاثر
والاستزادة إنّما هما سدّ عظيم صنعتموه بأيديكم ولن يتسنى لكم رؤية
جمال الحقّ تعالى إلّا بتخليكم عن الكثرات والمباهاة في كثير من الأمور
الواهية والاعتباريّة والمجازيّة فتشاهدوه وتأنسوا به وتمتّعوا بقدر كاف
من واقعيّة النعيم !

قال العلامة : «إنّ التفسير الأوّل والذي يخصّ السورة ليس مستساغاً
بما فيه الكفاية ؛ خلافاً للتفسير الثاني الذي يعتبر مقبولاً ومرضياً» . ولمزيد
من البيان ، نورد هنا مقتطفات من كلامه الذي ذكرناه في ذكره :

قال : «ففي الآية إطلاق وإنّ أيّ نوع من أنواع الاستكثار [سواء في الأموال والأولاد ، أو في الخيرات ، أو في العلم ، أو في الفقه والأصول والحكمة والحديث والتفسير وسائر العلوم والفنون] يحول من بلوغ الإنسان إلى مقام الوحدة والسلوك إلى الله .
إنّ هذا التفسير أفضل من التفسير الأوّل : فالأوّل ليس مقبولاً بما فيه الكفاية» .

وقال : «وقد اجتاز القرآن مرحلة أو دائرة الصراحة في بعض الأماكن ؛ ولكن في الوقت ذاته تأبى أنفسنا إلا أن نأول ذلك تأويلاً آخر .
لقد حال الاستكثار والحرص بينكم وبين رؤية جمال الحق والوحدة المطلقة وجعلكم تغفلون عن ذلك حتّى أقبرتم» .

وقال أيضاً : «ومعنى ذلك هو : أنّ هذه الكثرات والاستكثارات والحرص كلّ ذلك أشغلكم بأنفسكم ، وألهاكم عن لقاء الحق ورؤيته حتّى حان الموت . أيّ أنكم تجرون وراء الكثرات ما دمتم أحياء ؛ وهكذا حتّى يأتىكم اليقين ويدرككم الموت ! فتموتون !»^١ .

وقال أيضاً : [قال الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً أبا حنيفة في أحد المجالس : ليس المراد بالنعيم الطعام والشراب وأمثالهما] بل المراد من النعيم ولايتنا أهل البيت فيسأل الناس يومئذ : ما مدى توليكم وسيركم على خطى أئمتكم وسيرتهم ومنهاجهم في سيركم وسلوككم إلى الله !؟

١- انظر : سلسلة العلوم والمعارف الإسلامية (٤) ، «الشمس الساطعة» ذكريات ولقاءات التلميذ مع العلامة العالم الرباني السيد محمد حسين الطباطبائي التبريزي أفاض الله علينا من بركات تربته ، القسم الثاني : اللقاءات ، البحوث الفلسفية ، الطبعة الأولى .

وإلى أي حد ذُبتُم في مقام العبودية المحضة المطلقة؟!
والمراد بـ **جنة النعيم** الواردة في القرآن هو هذه الجنة كذلك . أي:
«جنة الولاية» التي هي جنة المُخلصين والمقرّبين من أولياء الله والواصلين
إلى مقام التوحيد الذاتيِّ والمندكّين في عوالم الربوبية وصفات الجمال
والجلال الإلهيين . جنة أولئك الذين تخلصوا من أدرانهم الوجودية بالكامل
وسلموا كل ذلك بيد الحق تعالى .

وهكذا علمنا بوساطة جميع هذه الشواهد والقرائن الحاقية الداخلية
والعارضة الخارجية أن الولاية كُنيت بالنعمة ؛ وإن كان الظاهر أن المراد بها
هو مطلق النعمة ، إلا أنه في الحقيقة يجب أن يكون المراد بالنعمة هو
الولاية .

والحق أننا لا نروم من هذا التفسير (تفسير النعمة بالولاية) الحصول
على هذا المعنى بتضمين الروايات الواردة ، بل إن هدفنا هو استقاء هذا
المعنى من نفس الآيات والشواهد الموجودة فيها .

لاحظوا أنه بعد أن وُصف التكاثر باللغو ، وعُبر عنه بالجحيم والنار
المستعرة في حال وجود علم اليقين وعين اليقين ؛ فقد اعتُبر النعيم
بالمقابل ، وهو مقام التوحيد - الذي يتجلّى في العبد ويُعبّر عنه بالعبودية
المحضة - أكبر عامل يؤاخذ عليه ويُسأل عنه ؛ حيث يجب التغاضي عن
التكاثر وهو الزيادة والحرص والرجوع إلى النعيم الذي يمثل النظرة
الموحدة والوحدوية .

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ
الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ .

يُستفاد من الآية في حد ذاتها أن النعيم هدف سام جداً ومطلب
رفيع ، بل هو أسمى المهمات وأرفع الأهداف في عالم الخلقة . وكما قال

عليه السلام بأنَّ الرجل يُسأل عن كلِّ النعم الإلهية التي أُغدقت عليه من أوَّل عمره وحتى آخره وهذا المعنى ، حسبما يظهر ، بعيد جداً عن مفاد الآية .

ويعني هذا أنّ على أفراد البشر البحث عن النعمة الحقيقية والواقعية تلك هي الولاية التي تعتبر حلقة الوصل التي تربط بين عالم الخلقة وذات الله سبحانه ؛ وبين الخالق والمخلوق ، وبين الحادث والقديم ، وبين ممكن الوجود وواجب الوجود ؛ بجدّ وسعي حثيثين في الدنيا مستفيدين من كلِّ النعم التي وهبها الله إياهم .

فإذا تمَّ حصولهم على ذلك فهو (أهدى سبيلاً) وإلّا فقد دخلوا الضلال والإضلال .

إنَّ جميع البشر في العالم يعيشون ويتعاشرون ويتناكحون ويأكون ويستريحون وينامون ويشغلون في الزراعة والتجارة والصناعة ؛ ومع ذلك فإنَّ مجموعة منهم فقط ينظرون إلى ظاهر هذه الأمور ويُعرضون عن مواطنها ، فهؤلاء هم (كما قيل عنهم في القرآن الكريم) **بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا**^١.

وإنَّ جماعة صغيرة تبحث خلال هذه الأمور الكثيرة المتكاثرة عن حقيقة واحدة وهذا ما يدعى بالنعيم^٢.

وقد ذكر العلامة آية الله الحكيم والمتكلم والمفسر والمحدث والفقيه والأصولي والشاعر المرموق الجامع للعلوم الرياضية والطبيعية

١- الآية ٢٨ ، من السورة ١٤ : إبراهيم . **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** .

٢- «الشمس الساطعة» ذكرى العلامة ، القسم الثاني : اللقاءات ، البحوث القرآنية .

والفلكية والعلوم الغربية الأخرى ، والذي يُعتبر بحق فخر الإسلام ، العلامة
الشيخ بهاء الدين محمد العاملي الجبعي ، أعلى الله تعالى مقامه ، مسألة في
هذه الباب جديرة بالنقل هنا لما لها من شمولية بهذا الخصوص . فهو يقول :
«تبصرة» : إن المراد من معرفة الله تعالى هو التعرف والاطلاع على
نعوته والصفات الجلالية والجمالية بقدر وسع البشر . وأما الاطلاع على
حقيقة ذاته المقدسة ومعرفتها فهما من الأمور البعيدة جداً عن منال
الملائكة المقربين والأنبياء والرسل ولا أمل لهم في الحصول على ذلك ،
فما قولك بغيرهم ؟

ويكفي هنا استقراء كلام سيد البشر حيث قال : مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ
مَعْرِفَتِكَ !

وورد في حديث آخر أنه قال : إِنَّ اللَّهَ احْتَجَبَ عَنِ الْعُقُولِ كَمَا
احْتَجَبَ عَنِ الْأَبْصَارِ . وَإِنَّ الْمَلَائِئِلَ الْأَعْلَى يَطْلُبُونَهُ كَمَا تَطْلُبُونَهُ أَنْتُمْ !
وعلى هذا لا نعيم آية أهمية إلى من يظنون أنهم توصلوا إلى كنه
حقيقة ذاته المقدسة ، بل خسئوا ! ذلك أنهم لا ريب قد ضلوا طريقهم
واختاروا سبيل الضلال ، وكذبوا وافتروا بادعائهم هذا !
ذلك أن أمر الذات وشأنها أرفع من أن تلوث بظنون البشر وأسمى
وأطهر من ذلك كله . وأن ما يتصوره الراسخ في العالم عن الدين يُبعده في
الحقيقة فراسخ عن حرم كبريائه تعالى .

وأقصى ما يستطيع التفكير العميق من الوصول إليه والحصول عليه
تابع لدقته القسوى وتبحره . وما أجمل ما قيل حول ذلك في البيت التالي :
آنچه پیش تو غیر از آن ره نیست غایت فهم تست الله نیست^١

١- يقول : «ليس أمامك غير هذا الطريق ، وليس الله هو غاية علمك وفهمك» .

بل لو استثنينا ذات الله والكلام فيها ، فإنّ معرفتنا عن صفاته التي أثبتناها له سبحانه وتعالى هي معرفة محدودة تناسب حدود تفكيرنا وفهمنا وتلائم قوة مخيلتنا ومقدرتها على ذلك .

فنحن وبحسب عقولنا القاصرة نصف الله سبحانه بأنه أشرف ، من خلال صفتين كلّ منهما مناقضة للأخرى ،^١ في حين أنّ الله سبحانه وتعالى أرفع وأجلّ من جميع ما تصفه به !

وفي كلام الإمام أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام إشارة إلى

◀ ويسبق هذا البيت بيتان آخران هما:

هست در راه او به وقت دليل
نطق تشبيه ، خامشى تعطيل
گر نگوئى ز دين تهى باشى
ور بگوئى مُشَبَّهى باشى
يقول : «ستجد في طريقك إليه وفي الوقت المناسب دليلاً ؛ فالنطق تشبيه والصمت تعطيل .

فإذا لم تتحدّث فأنت إذن بلا دين وإذا تحدّثت عن ذلك فستكون من المُشَبَّهة» .
(التعليقة).

.....

گفتم همه مُلك حُسن سرمایه تست
خورشيد فلک چو ذرّه در سايه تست
گفتا غلطى ز ما نشان نتوان يافت
از ما تو هر آنچه ديده‌اى پايه تست
يقول : «قلت إنّ الحسن والجمال هما بأجمعهما رأس مالك ، وإنّ الشمس بما لها من عظمة ونور إنّما هي ذرّة بالنسبة إليك .
قال هذا هراء ، إنّك لن تستطيع إدراك كُنْهنا وحقيقتنا وإنّ كلّ ما توصلت إليه هو مَبْلَغك من العلم» .

١- على سبيل المثال : هناك صفتان متناقضتان فينا نحن بني البشر هما: العلم والجهل ، فنحن نقول إنّ العلم هو أشرف هاتين الصفتين ؛ فالله إذن هو العالم . وتوجد فينا كذلك صفتان متناقضتان أُخريان هما الموت والحياة ، ولأنّ الحياة لدينا أشرف من الموت ، لذا فإنّنا نقول إنّ الله الحيّ .

هذه المسألة المهمة : حيث قال :

كُلُّ مَا مَيَّزْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ فِي أَدَقِّ مَعَانِيهِ ، مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلِكُمْ ،
مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ ! وَلَعَلَّ النَّمْلَ الصَّغَارَ تَتَوَهَّمُ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى زُبَانَيْنِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ
كَمَالُهَا ، وَتَوَهَّمُ أَنَّ عَدَمَهُمَا نُقْصَانٌ لِمَنْ لَا يَتَّصِفُ بِهِمَا . وَهَكَذَا حَالُ
الْعُقَلَاءِ فِيمَا يَصِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِهِ - انتهى كلامه صلوات الله عليه .

وقال بعض المحققين^١ : هذا كلام دقيق ويحتوى في طياته على متانة
واستحكام ظريفيين ، وأروع منه أنه صادر عن مصدر وثيق ومورد دقيق .
ويكمن سرّ هذا الأمر في : أنّ التكليف المناط بيني البشر متوقف
على معرفة الله تعالى حسب وسعهم وطاقته ومستندون عليهما . وأنّ غاية
ما كلفوا به هو معرفة الله من خلال الصفات التي ألفوها واستأنسوا بها .
وهي صفات لمسوها في وجودهم ولاحظوها فيها ، مع طرح النقائص
الناشئة عن نسبة تلك الصفات إلى الإنسان ونبذها .

ولمّا كان وجود الإنسان واجب بالغير ، وكان عالماً وقادراً ومريداً
وحياً ومتكلماً وسميعاً وبصيراً فهو مكلف إذاً بالاعتقاد بوجود هذه
الصفات في الحقّ تعالى مع سلب النقائص الناشئة من نسبتها إلى الإنسان
ورفعها . والاعتقاد بأنّ الله سبحانه وتعالى واجب الوجود لذاته لا بالغير
عالم بجميع العلوم ، قادر على جميع الممكنات ؛ وهكذا الحال مع الصفات
الأخرى .

هذا ، ولم يُكَلَّفِ الإنسان بالاعتقاد بصفة في الله في حين لا وجود
لمثل تلك الصفة فيه هو ، أو لا يمكن العثور على وجه آخر لتلك الصفة في
وجوده .

١- ويقصد به المحقق الدواني .

ولو أنه كُلفَ بمثل هذا الأمر لاستحال عليه إدراك حقيقة تلك الصفة .
وهذا أحد المعاني المذكورة في قوله عليه السلام : مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ
عَرَفَ رَبَّهُ - انتهى كلام بعض المحققين .
اعلم أن للمعرفة التي يمكن لعقول البشر الوصول إليها مراتب
متخالفة ودرجات متفاوتة ومتباينة .

قال المحقق الطوسي طاب ثراه في بعض مصنفاته :
إن مراتب تلك المعرفة هي بمثابة المراتب التي للنار .^١
لأن أدنى تلك المراتب هي أن يسمع أحدهم أن في عالم الوجود
يوجد شيء يُفني كل شيء يُواجهه ، ويترك آثاره على أي شيء يكون في
مقابلة وبمحاذاته ، ولا يصيبه النقص أو النقصان على الإطلاق مهما أُخِذَ أو
اقتُبِسَ منه ؛ ويسمّون ذلك الموجود بالنار . ونظير هذه المرتبة هي مرتبة

١- جاء في «روضات الجنّات» ج ٣ ، ص ١٨٤ ، طبعة بيروت : «رأيت في تأريخ
حمدالله المستوفى أنّ أبا عليّ ابن سينا وأبا سعيد التقيا في محلّة ، فلما افترقا سُئل كلّ منهما
عن أحوال الآخر . فقال الشيخ أبو سعيد : ما أنا أراه هو يعلمه . وقال الشيخ أبو عليّ ابن سينا :
ما أعلمه هو يراه» .

يقول صاحب «الروضات» هنا : يُشير كلام هذين العالمين إلى درجات علم اليقين
وعين اليقين وحقّ اليقين ، وبعبارة أخرى : يقين الخبر ويقين الدلالة ويقين المشاهدة ، أي :
المكاشفة في الإخبار والمكاشفة في إظهار القدرة ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان . وتُشير
كلّ لفظة من هذه الألفاظ الثلاثة (العلم والعين والحقّ) إلى معنى اليقين نفسه ، مع هذا الفارق
في أنّهم يعتبرون علم اليقين هو كلّ ما يتأتّى بشرط البرهان . وأنّ عين اليقين هو عبارة عن كلّ
ما يتأتّى عن طريق شرط البيان وأنّ حقّ اليقين هو عبارة عن كلّ ما يتأتّى بصفة العيان .
وضربوا لذلك مثلاً وهو أنّهم يفهمون حقيقة معنى النار من خلال وصف الآخرين لها أو
رؤيتهم لها عياناً أو بواسطة تأثيرها في وجودهم . وعلى هذا يختصّ علم اليقين بالعقلاء
وعين اليقين بالعلماء ، وحقّ اليقين بالعرفاء .

معرفة المُقلّدين التي نجدها في باب معرفة الله تعالى وهم الذين قاموا باعتناق الدين دون وقوفهم على برهان أو حجة إلهية .

وأفضل من هذه المعرفة هي معرفة الشخص الذي يرى دخاناً فيعلم أن لابد من وجود مؤثر أوجد هذا الدخان ، فيحكم مستنداً على ذلك بوجود النار . ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى معرفة أهل النظر والاستدلال والذين يحكمون بوجود الصانع على أساس البراهين القاطعة .

وأعلى من تلك ، مرتبة من يُحسّ بحرارة النار بسبب مجاورته لها ويرى الموجودات بنورها فينتفع من ذلك الأثر . ونظير هذه المرتبة في معرفة الله سبحانه معرفة المؤمنين الخُصّ الذين تطمئنّ قلوبهم بالله وتهدأ ، فاستيقنوا أنّ «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» ؛ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِهَذَا أَيْضاً .

وأسمى من ذلك مرتبة من يُحرق كلّ وجوده ويذوب ويفنى فيها ، فيتلاشى وجميع كليته وآثاره في تلك النار . ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى معرفة أهل الشهود والفناء في الله سبحانه .

وهذه هي أعلى المراتب وأسماى الدرجات وآخر المراحل : رَزَقَنَا اللَّهُ الْوُصُولَ إِلَيْهَا وَالْوُقُوفَ عَلَيْهَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ - انتهى كلام الخواجة أعلى الله مقامه .^١

وقد ذكر الشيخ العارف الشبلي البغدادي كلاماً في علو مقام التوحيد وعظمة الفناء فيه والتي علمنا من خلال عبارات الخواجة أنّها آخر المراتب ، هذا نصّه :

١- «الأربعين» للشيخ البهائي رحمه الله ، ص ١٦ إلى ١٨ ، عند شرح الحديث الثاني ، طبعة الناصري ، سنة ١٢٧٤ هـ .

مَنْ أَجَابَ عَنِ التَّوْحِيدِ بِعِبَارَةٍ فَهُوَ مُلْحَدٌ ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِإِشَارَةٍ فَهُوَ زَنْدِيقٌ ، وَمَنْ أَوْمَى إِلَيْهِ فَهُوَ عَابِدٌ وَثَنٌ ، وَمَنْ نَطَقَ فِيهِ فَهُوَ غَافِلٌ ، وَمَنْ سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ جَاهِلٌ ، وَمَنْ وَهَمَ أَنَّهُ (إِلَيْهِ) وَاصِلٌ فَلَيْسَ لَهُ حَاصِلٌ ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ (مِنْهُ) قَرِيبٌ فَهُوَ (عَنْهُ) بَعِيدٌ ، وَمَنْ (بِهِ) تَوَاجَدَ^١ فَهُوَ (لَهُ) فَاقِدٌ .
وَكُلُّ مَا مَيَّزْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ وَأَدْرَكْتُمُوهُ بِعُقُولِكُمْ فِي أْتَمِّ مَعَانِيكُمْ ، فَهُوَ مَصْرُوفٌ مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ ؛ مُحَدَّثٌ مَصْنُوعٌ مِثْلَكُمْ!^٢

وأنشد الشيخ العارف الخواجة عبد الله الأنصاريّ قدس الله روحه

كذلك شعراً بهذا الخصوص حيث قال :

مَا وَحَدَّ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ	إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَدَهُ جَاحِدٌ
تَوْحِيدٌ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ	عَارِيَةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ	وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لِاحِدٍ

ويقول الشيخ العارف والفقير الصوفيّ الكامل بالمعنى الحقيقيّ ،
فخر الإسلام وسند الشيعة وذخر الملة ، العالم بالله وبأمر الله : السيّد حيدر
الأمليّ:^٣

١- جاء في «أقرب الموارد» : تَوَاجَدَ فُلَانٌ : أَرَى مِنْ نَفْسِهِ الْوَجْدَ .

وجاء في «أقرب الموارد» كذلك ما يلي : وَجَدَ الْمَطْلُوبَ (ض ، ل) وَوَجَدَهُ يَجِدُهُ - وَيَجِدُهُ بِضَمِّ الْحِيمِ لُغَةٌ عَامِرِيَّةٌ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْمَثَالِ - وَجَدًا وَجَدَةً وَوَجْدًا وَوُجُودًا وَوَجْدَانًا وَإِجْدَانًا بِقَلْبِ الْوَائِي هَمْزَةً : أَدْرَكَهُ وَأَصَابَهُ وَظَفَرَ بِهِ بَعْدَ ذَهَابِهِ ؛ يُقَالُ : وَجَدْتُ الضَّلَالَةَ . وَتَأْتِي وَجَدَ بِمَعْنَى عَلِمَ فَتَكُونُ مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ فَتَنْصِبُ مَفْعُولَيْنِ ، وَمَصْدَرُهَا الْوُجُودُ ؛ نَحْوُ وَجَدْتُ صِدْقَكَ رَاجِحًا .

٢- «جامع الأسرار ومنبع الأنوار» للسيّد حيدر الأمليّ ، ص ٧٢ ، القاعدة الثانية: في

تعريف التوحيد، بتصحيح ومقدمة هنري كربين .

٣- ذكر سماحة المحقّق المحترم السيّد محسن الموسويّ التبريزيّ والذي قام بتحقيق

كتاب تفسير «المحيط الأعظم والبحر الخضمّ» ، في تأويل كتاب الله العزيز المحكمّ ﴿

« من تأليف السيد حيدر الأملي ، في مقدّمة الجزء الأوّل ، ص ١٥ إلى ١٧ ما يلي :

«وصف النسخة المخطوطة وتفسير «المحيط الأعظم» من قِبَل بعض العلماء الأعلام:

كتب العلامة الحجّة المرعشي النجفي بظهر النسخة الخطيّة من تفسير «المحيط الأعظم» والمكتوبة بخطّ المؤلّف السيد حيدر الأملي والموجودة والمحفوظة في مكتبة السيد المرعشي العامّة في بلدة قم ، واصفاً تلك النسخة ومؤلفها ما يلي :

كتاب «المحيط الأعظم» في تفسير القرآن الكريم ، من تأليف العلامة الفقيه والمحدّث الحكيم والمتألّه المتكلّم والعارف الأديب السيد أبي محمّد ركن الدين حيدر بن تاج الدين علي پادشاه... ابن حمزة بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن الإمام سيّد الساجدين عليه السلام. وُلِدَ في (مدينة) آمل وخرج متجوّلاً من هناك نحو بلاد خراسان وجرجان وإصفهان ومكث في الأخيرة سنوات عديدة مستفيضاً من علمائها. ثمّ عاد إلى آمل واتّصل بفخرالدولة بن الشاه كبخسرو وأضحى من خواصّه. وفخر الدولة هذا هو من أولاد پادشاه أردشير بن حسن بن تاج الدولة وهو الذي مدحه الشاعر المعروف ظهير الدين الفاريابي .

فدخل السيد حيدر بذلك زمرة العرفاء ، وطفق راجعاً إلى إصفهان واجتمع بالشيخ العارف نصيرالدين الطهراني (نزيل محلّة «دردشت» والمعروفة بـ«باب شيراز» وهي من محلات إصفهان)، فوضع يده بيده وشرع في تعلّم الذّكر منه . ثمّ هاجر بعد ذلك إلى العراق حيث زار المراقد الشريفة للأئمة هناك وخطّ رحلّه في النجف الأشرف. ثمّ حجّ من هناك ورجع إلى النجف ثانية.

وقد تلقّى العلوم الرسميّة والمقدّمات من أبيه وعلماء آمل ، فأخذ العرفان عن الشيخ عبدالرحمن القدسي والفقه عن فخر المحقّقين ابن العلامة الذي كان يخاطبه باسم «زين العابدين» وقد روى السيد حيدر عنه بإجازة منه ، وتوجد صورة تلك الإجازة في الكتاب المذكور. وقد عبّر عنه الشيخ في إجازته له بالعبارات التالية:

السيد الأعظم ، الإمام المُعظّم ، أفضل العلماء في العالم ، أعلم فضلاء بني آدم ، مُرشد السالكين ، غياث نفوس العارفين ، مُحيي مَراسم أجداده الظاهرين ، الجامع بين المعقول والمنقول ، والفروع والأصول ، ذو النفس القدسيّة ، والأخلاق النبويّة ، شرف آل رسول ربّ العالمين ، أفضل الحاجّ والمعتبرين ، المخصّوص بعناية ربّ العالمين ، ركن الملة والدين - إلى آخره.

﴿ وقد كتبت هذه الإجازة في ظهر صفحة «جوامع الجامع» للطبرسي والذي قرأه السيد علي فخرالدولة وكان تأريخ الإجازة سنة ٧٦١ في الحلة.

وقد قرأ السيد كتابي «الفصوص» و«منازل السائرين» على الشيخ عبدالرحمن بن أحمد القدسي، فمنحه الإجازة وتأريخها هو ٧٣٥.

وقد صنّف السيد حيدر أربعاً وعشرين كتاباً ومن جملة تلك المصنّفات كتاب «المحيط الأعظم» في عدّة مجلّدات، وهذا مجلّد هو واحد من المجلّدات المذكورة. وقد كتبت جميع صفحات هذه المخطوطة بخطّ يده. وتوجد هذه المخطوطة في خزانة كتب حجّة الإسلام والمسلمين الحاجّ الآقا حسن الحسيني القميّ المشهور بـ«سيدي» في جملة كتب جدّه العلامة الحاجّ ميرزا أبو طالب القميّ الداماد المحقّق صاحب «القوانين». وقد تفضّل علينا بإدراج هذه النسخة الوحيدة في العالم لتكون ضمن كتب مكتبتي العامّة والموقوفة التي أسستها في مدينة قم. ويوجد المجلّد الآخر بخطّ المؤلّف في مكتبة الإمام عليّ عليه السلام، وللمؤلّف المذكور كتب أخرى من جملتها «الكشكول فيما جرى على آل الرسول» وكتاب آخر في العرفان والذي طبع في طهران بإشراف المستشرق الفاضل «مسيو كرين» مدرّس مادّة الإلهيات في جامعة باريس. وللسيد حيدر مؤلّفات أخرى كذلك في علوم مختلفة وفنون متنوّعة. وتوجد ترجمة المؤلّف في معاجم التراجم مثل «أعيان الشيعة» و«رياض العلماء» و«الروضات» و«ريحانة الأدب» ويلزم مراجعتها. وللسيد حيدر ذرّيّة في مازندران. حرّره الداعي الكتيّب شهاب الدين الحسيني المرعشي النجفي، ببلدة قم المشرفّة حرم الأئمّة عليهم السلام، في صبيحة الخميس، ١١ من ذي القعدة سنة ١٣٩١ القمريّ، حامداً مصلياً مسلماً مستغفراً؛ والحمد لله على نعمه وآلائه - انتهى تعليق آية الله المرعشي بظهر كتاب تفسير «المحيط الأعظم».

ويلزم هنا التنبيه إلى أمرين ضروريين: الأول: أنّ الحقيّر اقتبس ترجمة السيد حيدر من مقدّمة تفسير «البحر الأعظم»، لكونها احتوت أموراً كثيرة وهي مختصرة جداً وموجزة. إلّا أنّنا لم نجد مقدّمة جامعة تحوي هذه الأمور في كتاب «جامع الأسرار» والذي طُبع مع ملحق رسالة «نقد النقود في معرفة الوجود» بإشراف هنري كرين. في حين احتوى كتاب «المحيط الأعظم»، والذي طُبع مؤخراً بحمد الله، على مقدّمة مفصّلة وشيئة، لذا أثرنا الاقتباس منها.

﴿ التنبيه الثاني : يقول السيد حيدر في خاتمة كتاب «المقدمات من كتاب نصّ النصوص» والذي بيّن فيه كيفية أحواله وسلوكه في ص ٥٣٥ :

«لما كان الله قد أمرني أن أترك ما سواه ووجه انتباهي إليه على أكمل وجه فقد ألهمني البحث عن مكان أقيم فيه وأشتغل بطاعته وعبادته بحسب ما أمرني وأشار به عليّ . فتوجّهت صوب مكة شرفها الله تعالى ؛ وذلك بعد أن هجرت الوزارة والرياسة والمال والجاه والأب والأمّ وجميع الأقارب والإخوان والأقران . فلبست لباساً رثاً لا قيمة له ، وخرجت من بلدي (آمل) من نواحي طبرستان من نواحي خراسان . وكنتُ وزيراً لملك تلك البلدة وهو من أعظم ملوك فارس ، لأنّه كان من أعظم أحفاد كسرى واسمه الملك السعيد فخرالدولة بن الشاه المرحوم (شاه كيخسرو) طيب الله ثراهما وجعل الجنة مثواهما - وكان عمري آنئذٍ ثلاثين سنة...».

ويقول في ص ٥٣٦ و ٥٣٧ : «حتّى وصلتُ مكة وأديتُ مراسم الحجّ الواجب . وكان ذلك سنة (٧٥١) ... ثمّ رجعتُ بعد ذلك إلى النجف الأشرف سالماً وسكنتُ هناك ، وأقمتُ مراتب الرياضة والخلوة والطاعة والعبادة أكمل ما يكون ، وأحسن ما يُتصوّر . ثمّ أفاض على قلبي - غير ما ذكرت - من «تأويل القرآن» و«شرح الفصوص» من المعاني والمعارف والحقائق والدقائق ممّا لا يمكن تفصيله وشرحه بأيّ وجه من الوجوه ، لأنّها من كلمات الله التي لا تُعدّ ولا تُحصى والتي لا انتهاء ولا انقطاع لها .

ثمّ أمرني الحقّ تعالى أن أُبيّن بعضاً منها لخواصّ عباده . فشرعتُ في تصنيف كتاب في التوحيد وأسراره كما يستحقّ ، وأتممتُ كتابته في أقصر مدّة وسَمّيته «جامع الأسرار ومنبع الأنوار» . ثمّ واصلتُ بعد ذلك تأليف «رسالة الوجود في معرفة المعبود» ثمّ «رسالة المعاد في رجوع العباد» ثمّ ألفتُ بعدهما رسائل وكتب أخرى ، حتّى بلغت مؤلّفاتِي الأربعين بين رسالة وكتاب بالعربيّة والفارسيّة . ثمّ أمرني الحقّ تعالى بتأويل القرآن الكريم فدوّنته بعد كلّ الكتب والرسائل التي ذكرتها حتّى اكتمل في سبع مجلّدات ، وأسميته «المحيط الأعظم والطود الأشمّ» ، في تأويل كتاب الله العزيز المُحكّم» فخرج الكتاب المذكور في أبهى صورة وغاية الكمال ، ومنتهى البلاغة والفصاحة بعناية الملك ذي العزّة والجلال ؛ بحيث لم يسبقني إلى هذا أحد من قبل لا من جهة الترتيب ولا من جهة التحقيق أو التلفيق ، وقد مرّ بيان ذلك أيضاً في الفهرست .

«وأما أقوال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام والتي لا توجد في «نهج البلاغة» لكنّها مشهورة ومعروفة ، فهي كلامه الذي ذكرناه في مقدّمتنا والذي يُخاطب فيه كَمَيْلُ بْنُ زِيَادِ النَّخَعِيِّ رضي الله عنه :

كان كميل قد سأل الإمام في أوّل حديثه : مَا الْحَقِيقَةُ ؟

قَالَ : مَا لَكَ وَالْحَقِيقَةُ ؟!

قَالَ : أَوْلَسْتُ صَاحِبَ سِرِّكَ ؟!

قَالَ : بَلَى ! وَلَكِنْ يَرِشَحُ عَلَيْكَ مَا يَطْفَحُ مِنِّي !

قَالَ : أَوْ مِثْلَكَ يُخَيِّبُ سَائِلًا ؟!

قَالَ : الْحَقِيقَةُ كَشَفُ سُبُحَاتِ الْجَلَالِ مِنْ غَيْرِ إِشَارَةٍ .

وبعد هذا أمرني الحقّ تعالى بشرح «فصوص الحكم» والمنسوب إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ؛ والذي أوحاه في عالم الرؤيا إلى الشيخ الأعظم محيي الدين بن عربي أمراً إياه وقال : أَوْصَلُهُ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ الْمُسْتَحِقِّينَ الْمُسْتَعِدِّينَ . كما أوضحنا ذلك كذلك في الفهرست . فشرعتُ بكتابة هذا الشرح بحسب التقرير الذي مرّ بيانه والتحقيق الأنف الذكر .

وكان ابتداء شروعي بتأليف «شرح الفصوص» في سنة (٧٨١) للهجرة ، وانتهائي منه في سنة (٧٨٢) أي أنّ هذا الشرح انتهى واكتمل خلال سنة واحدة فقط أو أقل . وكان عمري يومئذٍ ٦٣ عاماً . رزقنا الله الوصول والبلوغ إلى الغاية ، وهو ما قرّره الله في اللوح المحفوظ ، ووفّقنا لإتمام مثله كثيراً ؛ بفضلهِ وكرمه ، وما ذلك على الله بعزيز .

هذا وقد وضع السيّد حيدر هذا المجلّد من الكتاب بأكمله في مقدّمات كتاب «نصّ النصوص» في شرح «الفصوص» ، ثمّ شرع بعد ذلك في الكتاب نفسه والذي يقع في مجلّدات أُخرى .

ونستتج ممّا ذكر في ملحق التواريخ أعلاه أنّ ولادته كانت سنة (٧٢٠) وقد صرّح بذلك في مقدّمة كتاب «جامع الأسرار» .

١- جاء في «أقرب الموارد» : السُّبْحَةُ بِالضَّمِّ : الدُّعَاءُ ... سُبْحَةُ اللَّهِ : جَلَالُهُ ، وَسُبْحَاتُ وَجْهِ اللَّهِ : أَنْوَارُهُ ؛ تَقُولُ : أَسْأَلُكَ بِسُبْحَاتِ وَجْهِكَ الْكَرِيمِ ، أَيِّ بِمَا تُسَبِّحُ بِهِ

قَالَ : زِدْنِي فِيهِ بَيَانًا !
 قَالَ : مَحْوُ الْمَوْهُومِ مَعَ صَحْوِ الْمَعْلُومِ .
 قَالَ : زِدْنِي فِيهِ بَيَانًا !
 قَالَ : هَتُّكَ السِّتْرِ لِعَلْبَةِ السَّرِّ .
 قَالَ : زِدْنِي فِيهِ بَيَانًا !
 قَالَ : جَذْبُ الْأَحَدِيَّةِ بِصِفَةِ التَّوْحِيدِ .
 قَالَ : زِدْنِي فِيهِ بَيَانًا !
 قَالَ : نُورٌ يَشْرُقُ مِنْ صُبْحِ الْأَزَلِ ، فَتَلُوحُ عَلَى هَيَاكِلِ التَّوْحِيدِ
 آثَارُهُ .

قَالَ : زِدْنِي فِيهِ بَيَانًا !
 قَالَ : أَطْفِ السَّرَاجَ فَقَدْ طَلَعَ الصُّبْحُ !^٢
 وقد أورد السيد حيدر كلاماً في شرح هذه المحاوراة قائلاً :
 «هذا الكلام يحتوي معانٍ كثيرة وقد ذكره الشارحون في شروحاتهم .
 وأما شرح ذلك (الكلام) بالإجمال فهو :
 يشير الإمام إلى ظهور الله تعالى في صورة المظاهر ، وعلى عدم
 المظاهر في عين ثبوتها . لأن قولها : كَشَفُ سُبُحَاتِ الْجَلَالِ مِنْ غَيْرِ إِشَارَةٍ ،
 إشارة إلى رفع الكثرة الأسمائية بعد رفع الكثرة الخلقية ، والتي يُعَبَّرُ عَنْهُمَا

⇐ من دلائل عَظَمَتِكَ . والسُّبُحَاتُ أَيضاً : مَوَاقِعُ السُّجُودِ ، ج : سُبُحٌ وَسُبُحَاتٌ .

١- جاء في «أقرب الموارد» : الْهَيْكَلُ : النَّبْتُ الَّذِي طَالَ وَعَظُمَ وَبَلَغَ ، وكذلك الشَّجَرُ ؛
 الواحدة : هَيْكَلَةٌ . و- : البناء المرتفع ، و- : الضَّخْمُ مِنْ كُلِّ حَيَوَانَ ، و- : مَوْضِعٌ فِي صَدْرِ
 الْكَنِيسَةِ يُقَرَّبُ فِيهِ الْقُرْبَانَ ، و- : بَيْتُ الْأَصْنَامِ ، و- : الصُّورَةُ وَالشَّخْصُ ، كقوله : كَسَاهَ اللَّهُ
 هَيْكَلَ آدَمِيٍّ ؛ ج : هَيَاكِلُ .

٢- «جامع الأسرار» ص ١٧٠ ، برقم ٣٢٧ ، في الأصل الأول ، القاعدة الرابعة .

بـ «المظاهر» .

وإشارة كذلك إلى إثباتها وتحققها دون إشارة ، سواء أكانت الإشارة عقلية أو حسية . وهذا هو رمز الخير والذي يشير إلى إحاطة الحق تعالى وإطلاقه ؛ وذلك بسبب أن المحيط المطلق ما كان ليقبل الإشارة أبداً . لأن تلك الإشارة لا يمكن لها أن تكون ، بل هي ممتنعة ومستحيلة .

وتقييد الـ «سُبُحات» بالجلال دون الجمال إنما هو بسبب أن الجلال مخصوص بالأسماء والصفات ، بينما اختصَّ الجمال بالذات ؛ أو اختصاص الجلال بالصفات القهرية ، والجمال بالصفات اللطيفة ، كما علمت . وعلى كلٍّ من التقديرين فإنَّ سُبُحات الجلال أنسب في التقدّم من سُبُحات الجمال ، لأنَّ كشف سُبُحات الجمال غير ممكن إلا بعد كشف سُبُحات الجلال وهذا هو سير من الكثرة نحو الوحدة ، ومن الخلق نحو الحق . وهذا السير مقبول لدى أكثر علماء الطريق والعرفاء بالله .

وقول الإمام مَحُوِّ الْمَوْهُومِ مَعَ صَحْوِ الْمَعْلُومِ يشير أيضاً إلى رفع المظاهر ومشاهدة الظاهر فيها بالحقيقة . وذلك أن السالك عندما يرى بالعيان محو الموهومات التي هي عبارة عن الـ «غير» والمسمّاة بالـ «مخلوقات» - والتي هي بدورها ليست سوى رَسْمٍ خالٍ موهوم استقرت ورسخت فيه بسبب استيلاء القوّة الواهمة والشیطان معاً عليه - وعندما يرى كذلك زوال ذلك كلّهِ وارتفاعه عن وجوده بصورة كاملة ؛ حينئذٍ سيبين معلومه الذي هو الحقّ تعالى من بين الشكوك والشبهات الوهميّة ، وسيتحرّر السالك تماماً من الحجاب وينال الخلاص .

أي أنّ سماء قلبه وروحه ستصفو من الغمام والكثرات الخلقية وستظهر ، تماماً كما تصفو السماء الحقيقية من الغيوم والسحاب وتروق ؛ وهكذا سيظهر له الحقّ تعالى من خلال غيوم الكثرة تلك كسطوع الشمس

بعد زوال الغيوم عن وجهها ؛ فيرى الحقّ تعالى كما يرى البدر في ليلة تمامه ، حسب قول الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم :

سَتْرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ !

وقول الإمام : هَتَّكَ السُّرِّ لِغَلَبَةِ السُّرِّ ، ينطوي على معنيين :

الأول : إذا ما تغلّب هذا السرّ على الإنسان فلن يقوى على إخفائه بعد ذلك أو تجنّب روجه عنه ؛ مثل الحلاج وغيره . بل على العكس إذ إنّه لن يخشى في كشفه وإظهاره لومة لائم . وقد يكون ذلك الكشف وهذا الإظهار خارجاً عن إرادته ومحض اختياره كما يتصرّف المخمور في الظاهر .

وقد أشار الإمام إلى هذا الأمر حيث قال : وَلَكِنْ يَرشُحُ عَلَيْكَ مَا يَطْفُحُ مِنِّي .

الثاني : إذا ما تغلّب هذا السرّ على الإنسان فلن يلتفت بعدها إلى السُّرِّ والحُجُب التي هي عبارة عن مظاهر ، ولن يعاين فيها إلا الظاهر فيها . وعلى حسب هذا المعنى ، يكون مفاد قوله هو أنّ الستار سيزول ويرتفع عن وجه المحبوب ، وسيُهتَك الحجاب عنه تماماً ويتمزّق . أي سيرتفع بالكامل ويزول .

وهذا المعنى أنسب من المعنى الأوّل قياساً إلى ما نقوم نحن بإثباته هنا .

وقول الإمام جَذَبُ الْأَحَدِيَّةِ (الإنسان) بِصِفَةِ التَّوْحِيدِ مباشرة بعد تلك الجملة خير شاهد على هذا المعنى ، وذلك لأنّ الإمام يعني أنّ مقام الأحديّة الذاتية الذي لا يقبل الكثرة والذي يلي هذه المرحلة سيجذبه نحو التوحيد الصرف ونحو الوحدة المحضة التي هي عبارة عن حضرة الجمع تعالى ومقام فناء المحبّ في المحبوب ، والذي سيأتي بيانه فيما بعد .

ولهذا شرع الإمام في مرحلة كيفية الظهور وتفصيل الحق الذي هو مقام الفرق من بعد الجمع ، بعد أن اجتاز بكلامه من هذا المقام وقال :

نورٌ يشرقُ منْ صُبحِ الأزلِ، فتلوحُ على هياكلِ التوحيدِ آثارُهُ.

أي أن الحق المسمّى بالحقيقة ، هو نور يُشرق أي يظهر من خلال صبح الأزل الذي هو الذات المطلقة . فيلوحُ على هياكلِ التوحيدِ أي يظهر على جميع مظاهر الوجود بآثاره وأفعاله وكمالاته وخصوصياته .

وهذا إخبار عن ظهور الذات في مظاهر الأسماء والصفات في الأزل والأبد ، ومشاهدة الوحدة في صور الكثرة ، والجمع في عين التفصيل ، ووجود التفاصيل في عين الجمع ؛ وهو ما مرّ ذكره توّاً . وتلك هي مرتبة لا يعلوها مقام ولا وجود للشهود في ما وراء ذلك ، وهو ما عبّر عنه الإمام بقوله لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا^١ وقال آخرون غير الإمام :

لَيْسَ وِرَاءَ عِبَادَانَ قَرْيَةٌ^٢.

١- أورده الأمدّي في «غرر الحكم ودرر الكلم» ، وذكره الآقا جمال الخونساري في شرح الكتاب المذكور والمطبوع بتصحيح المحدث الأرمويّ في ج ٥ ، ص ١٠٨ ، برقم ٧٥٦٩ . وقال في شرحه ما يلي :

«أي أنّ يقيني بأحوال المبدأ والمعاد وأصل مرتبة الكمال ، فلو كُشف الغطاء وشاهدتُ ذلك بالعيان لن يزداد يقيني ، لأنّه لن يكون أكثر ممّا عندي من يقين . و«لو» هنا تشير إلى المعنى الثالث من المعاني المذكورة ؛ والمراد هو أنّه لو كُشف الغطاء كذلك وظنّ به الزيادة في اليقين ، فلن يزداد بذلك يقيني ، باعتبار أنّه بالغ منتهى مرتبة الكمال ولا يُتصوّر الزيادة عليه .

٢- «مجمع الأمثال» للميدانيّ ج ٢ ، ص ٢٥٧ طبعة سنة ١٣٧٤ هـ ، تحقيق محمّد محيي الدين عبدالحميد ، و«أمثال وحكم دهنخدا» ج ٣ ، ص ١٣٧٥ ؛ وأنشد كمال أسماعيل :

صدر عمّار و مجد عبّادان
قريّة من وراء عبّادان

وقال منوچهري :

ولأجل هذا لما طلب كميل من الإمام زيادة في البيان وفضلة في الشرح أجابه الإمام : أطفئ السراج فقد طلع الصبح . والمقصود أطفئ سراج العقل والسؤال بلسان الفكر وقت طلوع صبح المكاشفة ومشاهدة وجه الحق في ذلك الكشف ! ذلك أن الكشف والشهود غنيان عن فهم ذلك وإداركه ؛ كما هو الحال مع الصبح في استغنائه عن السراج وتألقه . ولا حاجة للبيان إلى البيان ؛ وَلَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ .

فإذا قلتَ : إنَّ هذا الكلام غريب عجيب متناقض ؛ ولم نفهم معناه ولم نجد سبيلاً إلى إدراكه ؛ فأزح الستار قدراً وقل كلاماً أوضح من ذلك وأفصح منه ! أو إئتِ بصورة مثال يكون أقرب إلى الذهن بشرحه وبيانه حتى نعيه ونصل من خلاله إلى مقصودنا ومطلوبنا !

لأننا لا نشاهد في هذا العالم إلا الكثرات المتباينة والمختلفة والتي هي عرضة للزوال والتغير . ولا علم لنا بها ولا معرفة إلا أن تكون غير الحق وأنها مخلوقة ومصنوعة . في حين أنك تقول إنها حق وأن لا وجود لأي شيء في هذا العالم غير الحق تعالى ، وإن جميع الموجودات إنما هي مظاهر له ، وأن لا فرق في الحقيقة والواقع بين الحق ومظاهره !

وهذا أمر مشكل للغاية ، وكلام جدّ دقيق لا نفقه معناه . ونحن لا نفرّق بين الكثرات وبين الحق تعالى إلا على الوجه الذي قلناه ؛ وبهذا فإنّ بين كلامنا وكلامك بينونة واختلافاً شديدين .

أجبتك قائلاً : إنّ هذا الأمر سهل يسير ، بل إنّ إدراكه في غاية

⇐ بر فراز همّت او نیست جای نیست آن سوتر ز عبّادان دهی
يقول : «ليس فوق قدرته (أي الله سبحانه وتعالى) وعظمته قدرة أو عظمة أخرى؛ كما أنّ ليس وراء عبّادان قرية».

البساطة ، ومعناه واضح كلّ الوضوح ، وقد تكرر ذكره مراراً وتكراراً لكنك مُطوّق بظلمات الطبيعة ودركات البشرية ، بل في أسفل السافلين من الدرجات التقليديّة والتي هي من أعظم الحُجُب !
والحقّ أنّ النسبة بينك وبين هذه الجماعة التي تعي هذا المعنى كنسبة الجنين المقيّد في غياهب المشيمة والطفل المميّز ، أو كنسبة الطفل المميّز إلى الشخص العاقل ، أو كنسبة الشخص العاقل إلى الرجل العالم ، أو كنسبة الرجل العالم إلى الرجل العارف ، أو كنسبة الرجل العارف إلى الوليّ الكامل ، أو كنسبة الوليّ إلى النبيّ ! والفرق بين هذه المراتب كبير وعظيم .
ولهذا قال الله سبحانه : **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** .^١ حتى لا يطعم القشريّون وأصحاب العقول الخاوية في ذلك ؛ وأولئك أصحاب الظاهر والفسفة والمغالطة فقط . وهذا من جهة أنّ هذه الزمرة بالمقارنة مع الأنبياء والأولياء الكاملين الذين هم أولو الألباب كنسبة القشر إلى اللبّ .

ومع هذا فإنّنا سنشرع توّاً في بيان ذلك وتفسيره مرّة أخرى ، بل مرّات عديدة ، بأحسن وجه وألطف الأمثلة ؛ وسنسعى إلى إيصال هذه المعاني إلى ذهنك ، متّكلين في ذلك على الله تعالى .
وعلى هذا الأساس نقول : أعلم أنّك لمّا تحقّقت في هذه المسألة وبرهنت على أنّ الوجود واحد ، وأنّ ذلك الوجود مطلق لا مقيّد ، وأنّ

١- الواقع أنّه لا توجد في القرآن الكريم بهذه العبارة ، بل توجد آيات متشابهة من جملتها: **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** .
الآية ١٩٠ ، من السورة ٣ ، آل عمران . و: **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** . الآية ١٩ ، من السورة ١٣ : الرعد . و: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** . ذيل الآية ٢١ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

الموجودات المقيّدة منسوبة إلى ذلك الوجود المطلق ؛ وعلمت في هذه الحالة أنّ الموجودات المقيّدة لا وجود لها في الحقيقة ، ذلك أنّ وجودها إضافي نسبيّ ، لأنّها عبارة إضافة ونسبة المطلق إلى المقيّد وهذه الإضافة وتلك النسبة لا تحقّق لهما في الخارج .

وعلمت كذلك أنّ الوجود المطلق هو نفسه المقيّد بعينه ولكن بوجه آخر . وعلمت أنّ المقيّد هو المطلق نفسه مع قيد الإضافة . وعلمت أنّ لا وجود لموجود آخر في الخارج إلّا للوجود المطلق ، وذلك أنّك لو أسقطت الإضافات والنسب عن جميع الموجودات فإنّك ستري الوجود على صرافة وحدته ومحوضة إطلاقه ، وستجد كذلك أنّ الوجود المقيّد إنّما هو موجود بوجود المطلق ومعدوم بعدمه .

وهذا معنى كلامهم : التَّوْحِيدُ إِسْقَاطُ الْإِضَافَاتِ ١ .

١- جاء في «گلشن راز» ص ٧٧ ، طبعة العماد الأردبيليّ في تعريف «الخرابات» :
 خراباتی شدن از خود رهائی است خودی کفر است اگر خود پارسائی است
 نشانی داده اند اهل خرابات که التوحید إسقاط الإضافات
 يقول : «إنّ ترك الدنيا ومتعلقاتها والأهواء التي فيها معناه التحرّر (من كلّ القيود)؛
 والأنانيّة أو التفكير في الذات الشخصية وإن كان الشخص عابداً وزاهداً هي كُفْر .
 لقد أثبت الذين تركوا الدنيا وما فيها أنّ التوحيد هو عبارة عن إسقاط الإضافات» .
 وذكر الشيخ محمّد اللاهيجي من عرفاء القرن التاسع في شرح ذلك ، ص ٦٢٥ من طبعة
 منشورات المحمودي قائلًا :

«ولأنّ الخرابات هي مقام فناء الكثرات فقد قال : متن :

نشانی داده اندت از خرابات که التَّوْحِيدُ إِسْقَاطُ الْإِضَافَاتِ
 يقول : «لقد أعطيت علامة وأثر عن ترك الدنيا ؛ وهي أنّ التوحيد إسقاط الإضافات» .
 أي أنّ أرباب العرفان وأهل الإيقان قد أعطوك العلام عن «الخرابات» وقالوا: التوحيد
 إسقاط الإضافات، أي أنّ التوحيد هو إسقاط إضافة الصفة والوجود والخلقة لغير الحقّ . ⇨

ومثال هذا الأمر بعينه - أي مثال ذلك الوجود المطلق مع الوجود المقيّد ، والموجوديّة المقيّدة ومعدوميّتها - مثال الشمس والظلال الموجودة من أثرها وتكوّن هذه الظلال وتلاشيها ، ذلك لأنّ الظلال لا موجوديّة لها إلاّ بواسطة الشمس ، من جهة أنّه لو لم تكن الشمس موجودة لم يكن هناك وجود للظلّ على الإطلاق ، مع أنّ الشمس لو طلعت بنفسها ، لما كان هناك وجود للظلال . إذن فوجود الظلال منوط بالشمس ، وأمّا غيابها وانعدامها عن الشمس فسببه إلى جرم الشمس وأشعتها . وهذا من جهة أنّ الشمس لو ظهرت بشكلها وشعاعها لزال الظلال وتلاشت عن أصل وجودها وكيّونتها . ولو غابت الشمس بذاتها وجرمها عن الظلال وبقي أثر ظهورها عليها ، فإنّ تلك الظلال ستبقى على أصل حالها الوجودي ، فتغدو آنثدٍ ظلالاً متعيّنة بوجود ظلّيتها . فالواقع أنّه لا وجود إلاّ للشمس وأثرها ، ولا تمتلك الظلال شيئاً

﴿ واعلم أنّ ذات الحقّ هي عين جميع الأشياء باعتبار تجلّيه في المظاهر وظهوره فيها؛ وأنّ كلّ الأشياء موجودة بالحقّ وهي معدومة بدونه . ولأنّ ذات الحقّ متجلّية وظاهرة بصورة تلك الأشياء ، فإنّ لها يضاف الوجود . فمتى ما أسقطت عنها هذه الإضافة فإنّها لا شكّ ستكون معدومة في حدّ ذاتها ولن يبقى غير الحقّ شيء . وهذا هو معنى التوحيد إسقاط الإضافات . وقد أورد الحاجّ السبزواريّ شرحاً في معرض بحثه لأصالة الوجود وذلك عند قوله:

لو لم يؤصّل وحدة ما حصلت إذ غيره مثارَ كثرة أتت
ما وُحد الحقُّ ولا كلمته إلاّ بما الوحدة دارت معه

قال فيه : «بيانه أنّه لو لم يكن الوجودُ أصيلاً لم يحصّل وحدة أصلاً ، لأنّ الماهية مثارُ الكثرة وفطرتها الاختلاف ؛ فإنّ الماهيات بذواتها مختلفاتٌ ومتكثّراتٌ وتُشير غبارَ الكثرة في الوجود» .

وقال في تعليقه هنا : «قولنا وتُشير غبارَ الكثرة في الوجود ؛ ولذا قال العرفاء الشامخون: التوحيدُ إسقاطُ الإضافات» .

سوى الاسم والاعتبار ونحن نعلم أنّ الاسم والاعتبار إنّما هما أمران عدميتان ولا موجوديّة لهما في الخارج ، وعلى هذا فإنّ كلّ وجود للموجودات يكون بهذا الوجه بالنسبة إلى وجود الحق .

فلو ظهر الحق بوجوده ، لن يبقى عندها للمخلوق وجود ، لأنّ وجود الخلق - كما تقدّم - ليس إلّا أمراً إضافياً اعتبارياً ، ولا توجد الإضافة والاعتبار في الخارج .

واستناداً إلى ذلك ، لا وجود لوجود إلّا من أجل الحق ؛ وهذا معنى قوله تعالى : **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** .^١

أي جميع الموجودات التي لها (صفة) الإضافة والنسبة مع الحق كلّها هالكة وفانية إلّا ذاته . فالذات باقية أبداً . **لَهُ الْحُكْمُ** أي أنّ البقاء الحقيقيّ الأبديّ له . **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** بمعنى أنّ جميع هذه الموجودات بعد طرح النسبة وإسقاط الإضافة عنها راجعة إلى الله . وكلمة «وجه» باتفاق العلماء يُراد بها الـ «الذات» ولهذا يجب أن يكون التقدير في الآية راجع إلى لفظة ذات **كُلِّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، أَيْنَمَا تُولُّوا فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** .^٢

ولهذا يقول : **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ** .^٣

وإنّما أراد بكلمة «عليها» حقيقة الوجود التي بها يكون قيام الموجودات وقد مرّ تفسير هاتين الآيتين مراراً .

١- ذيل الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص ؛ وصدر الآية هو : **وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** .

٢- الآية ١١٥ ، من السورة ٢ : البقرة . **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** .

٣- الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

والحق أن هاتين الآيتين بعد قول الله تعالى : **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** - إلى آخر الآية ، ^١ وقوله تعالى : **سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ** - ^٢ إلى آخر الآية ؛ هما من أعظم آي القرآن وأشرفها في باب التوحيد والتحقيق .

وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ .^٣

ولو أشكلت فقلت : إن هذا المثال لا يطابق دعواك ولا يواءم ادعائك ، لأنك قد قلت : فلن يكون هناك وجود للظلال إلا بعد غيبوبة الشمس عنها . وقلت كذلك : لا وجود لأي شيء في هذا العالم غير الحق تعالى . بل وقلت أكبر من هذا إن وجود الخلق ليس إلا أمراً إضافياً اعتبارياً . في حين أن الظلال ليست كذلك .

ذلك أن الظل لا يمكنه أن يكون هو الشمس بعينها بأي وجه من الوجوه .

فأجيبك قائلاً : إن المطابقة في المثال أعلاه تكفي من وجهة واحدة ؛ وتلك الوجهة عبارة عن : **أنّ الظلال لا وجود لها إلا بالشمس ، وبغياب الشمس عنها بجسمها وذاتها ؛ وكذا الخلق بالنسبة إلى الحق فهو على هذا الشكل أيضاً ، لأن لا وجود للخلق إلا بالحق وبغيبه الحق عنه (أي عن الخلق) ذاتاً وحقيقة .**

إذن ، فكما أن غياب الشمس يمثل استقرار الظل وقيامه بنفسه

١- وقد قمنا ببحث هذه الآية الكريمة المباركة في البحثين الأول والثاني في الجزء الأول من كتاب «معرفة الله» سلسلة العلوم والمعارف الإسلامية .

٢- وقد بحثنا كذلك هذه الآية المباركة في البحثين الثالث والرابع من المصدر السابق .

٣- الآية ٤٣ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

وتعيينه ، وأنَّ حضور الشمس يعني فناء الظلّ وعدمه ، فكذلك غيبة الحقّ التي تمثّل قيام الخلق بنفسه وتقيده ، وحضوره تعالى يعني فناء ذلك الخلق وعدمه .

وكلام الله تعالى القائل : **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** إشارة (صريحة) إلى هذا المعنى . فافهم هذا المهمّ لأنّه دقيق ؛ لكنّه لطيف مع وجود الدقّة !

وليس هذا المثال (الشمس والظلّ) محصوراً بي ومقتصرّاً عليّ ، بل اعتمده جميع المفكرين وأرباب التحقيق ، ولا يخفى هذا الأمر على أهل وأصحابه ، وإن شاء الله تعالى ستجد ذلك في كلامهم فيما بعد .

وقد أشار الحقّ جلّ جلاله إلى هذا المعنى في كلامه :

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ١ .

ولا يمكن أن يكون مراد الحقّ تعالى من الظلّ والشمس في هذه الآية هو الليل والنهار ؛ وهو ما سار على نهجه أرباب التفسير . لأنّه تعالى ذكر بعد ذلك قائلاً : **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا** ٢ .

بل المراد من الشمس والظلّ هو «الوجود والعدم» كما أشرنا إلى ذلك في الأصل الثاني والثالث من هذا الكتاب . وأمّا تأويل هذه الآية فطويل مطنّب وتفسيرها عريض مسهب وهو ما لا يتسع له المجال هنا .

١- الآيتان ٤٥ و ٤٦ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٢- صدر الآية ٤٧ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

جاء في «أقرب الموارد» : السُّبَاتُ بِالضَّمِّ : الدهر ، و- : الداهية من الرجال ، و- : النَّوْمُ ، وقيل خَفَّتُهُ ، وقيل ابتداؤه في الرُّأْسِ حَتَّى يَبْلُغَ الْقَلْبَ ، قيل وَأَصْلُهُ الرَّاحَةُ ؛ ومنه في القرآن : **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا** .

ومعنى كلامنا هو أنّ المراد بالظّل وتمديده يشير إلى الوجود الإضافي الاعتباري المقرّر على جميع الموجودات أزلاً وأبداً . والمراد بسكونه إعدام تلك الموجودات وإهلاكها على الوجه الذي ذُكِرَ آنفاً . والمراد بجعل الشمس دليلاً له هو أنّ الشمس حقيقة ولها وجود مطلق مُسمّى بالنور ، في قوله تعالى : **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** . والمراد من قبضه عدم إضافته إلى الوجود المطلق ونسبته إليه ، وإسقاط ذلك بالجملة . وأمّا المراد من يسيراً هو يسر إسقاط الإضافة والاعتبار وسهولتهما ، وإبقاء الوجود على صرافة وحدته .

فكلّ ما ذكرناه بهذا الخصوص إنّما كان يستند إلى اصطلاحات العرفاء بالله ، وذلك لأنّهم ذكروا هذا الاصطلاح في هذه المسألة ؛ فشرعوا بدءاً بتعريف الظلّ وتحقيقه ، ثمّ قسّموا الظلال وأطلقوا على تلك الأقسام أسماءً مثل الظلّ الأوّل والظلّ الثاني وهكذا ، ثمّ بعد ذلك عمدوا إلى تفصيل الظلال وتعيينها .

فأمّا ما قالوه في تعريف ذلك فهو : إنّ الظلّ عبارة عن وجود إضافي يظهر بتعيين أعيان الممكنات ؛ وأمّا أحكام الظلال التي هي معدومات فهي تظهر باسم الحقّ الذي هو «نور» ووجود خارجيّ والذي إليه تُنسب التعيينات .

وعلى هذا فإنّ النور الظاهر بصور الأعيان الممكنة يتسبّب في زوال ظلّمة عدميّتها . ولذا تغدو الأعيان الممكنة ظلّلاً ، وذلك لأنّ ظهور الظلّ إنّما يكون بوساطة النور وعدميّته في نفسه وبواسطته هو .

قال الله تعالى : **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ** ، أي أنّ الله تعالى أضفى على الممكنات وجوداً إضافياً . وعليه فإنّ الظلّمة المتكوّنة في مقابل هذا النور إنّما هي عبارة عن العدم ، فكلّ ظلّمة تعني انعدام النور من شيء له

شأنية الاستنارة . وعلى هذا الأساس سُمِّي الكُفْرُ ظلمة وذلك لانعدام نور الإيمان في القلب الذي له شأنية الاستنارة . يقول الله تعالى : **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** - إلى آخر الآية ^١ . كانت تلك عباراتهم (أي عبارات العرفاء بالله) في تعريف الظل ، وأما كلامهم في تفصيل الظلال وتقسيمها فهو من جهة أنّ هؤلاء العرفاء اعتبروا العقل الأول «ظلاً أولاً» ، واعتبروا جميع العالم «ظلاً ثانياً» . فأمّا اعتبارهم العقل الأول ظلاً أولاً فهو من جهة كلامهم القائل : إنّ الظلّ الأول عبارة عن العقل الأول لأنّه كان أولّ تعيّنٍ ظهر بنور الحقّ تعالى وتقبّل صورة الكثرة - والتي هي من شؤون الوحدة الذاتية - على نفسه . وكذلك من جهة أنّ الإنسان الكامل المُسمّى بـ «الإنسان الكبير» هو حقيقة هذا العقل أو قل هو العقل نفسه ؛ وسَمَّوه بـ «ظلّ الإله» قائلين :

ظَلُّ الإِلهِ هُوَ الإِنْسَانُ الكَامِلُ المُتَحَقِّقُ بِالحَضْرَةِ الوَاحِدِيَّةِ .

وكذا يقاس هذا الأمر في تسميتهم خلفاء الله بـ «الظلّ» في كلامهم الذي يقولون فيه : **أَوْلَيْكَ ظِلُّ اللهِ فِي الأَرْضِ .**

وهكذا الحال في ما قالوه مجازاً عن السلاطين من أنّهم : **ظِلُّ اللهِ فِي الأَرْضِ ؛** وأمثال ذلك .

وأما اعتبارهم جميع العالم ظلاً ثانياً ، فذلك لقولهم : العالم هو الظلّ الثاني ولا شيء في عالم الوجود غير وجود الحقّ الظاهر بصور جميع الممكنات .

ولهذا سُمِّي الوجود الحقّ بـ «سوى» و«غير» لظهور الحقّ بتعينات الممكنات باعتبار إضافة الحقّ ونسبته إلى الممكنات ، وذلك لأنّه لا وجود

١- صدر الآية ٢٥٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

للممكن إلا بهذه النسبة ، وإلا فالوجود هو عين الحق ، والممكنات ثابتة في علم الحق على الرغم من عدميتها ؛ فالممكنات شؤون ذاتية للحق .
وبناءً على ذلك فإن العالم هو صورة الحق ، والحق هو هوية العالم وروحه .

وهذه التعيينات في الوجود هي أحكام للاسم «الظاهر» للحق حيث إن «الظاهر» مجلي للاسم «الباطن» ؛ والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب^١ .

وعموماً كان هذا شرح وتفصيل لحديث كميل والذي ذكره السيد حيدر ، والحق أنه لم يترك في توضيح ذلك وتفسيره شيئاً من الشرع والعقل والشهود إلا واستخدمه فيهما . إلا أنه قد استند في موضعين إلى ظاهر لفظ القرآن بدل تأويله :

الأول : قال في الآية كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَأَرَادَ بِـ «عَلَيْهَا» حَقِيقَةَ الْوُجُودِ الْقَائِمَةِ بِهَا الْمَوْجُودَاتُ^٢ . مع أنه واضح من جهة لفظة القرآن وإرادة المعاني الظاهرية أن مرجع الضمير في عليها يجب أن يكون إلى الأرض لا إلى حقيقة الوجود .

ثم إذا كان بالإمكان استنتاج تلك المعاني بالمعنى التأويلي فلا إشكال فيه . فليس لمعاني القرآن الباطنية أية تنافٍ أو ضدية مع المعاني الظاهرية له ، بل إنهما سائران على خط واحد ، فبالحفاظ على المعاني يمكن التمسك ببواطن القرآن ؛ لا أن يُبطل المعنى الباطني فيه المعنى الظاهري ، ويمتنع

١- «جامع الأسرار ومنبع الأنوار» للسيد حيدر الأملي ، مع مقدمة وتصحيح بقلم هنري كرين، ص ١٧٠ إلى ١٨٠ ، برقم ٣٢٧ إلى ٣٤٣ ، الأصل الأول ، القاعدة الرابعة .
٢- «جامع الأسرار» ، ص ١٧٦ .

أو يتجنب التمسك بذلك والاستظهار به فيزيل ذلك الظاهر من الأصل .
 الثاني : قال في الآية أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ - إلى آخر الآية :
 وَلَيْسَ مُرَادُهُ بِالظِّلِّ وَالشَّمْسِ ، اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ كَمَا هُوَ رَأْيُ أَرْبَابِ التَّفْسِيرِ ؛
 لِأَنَّهُ قَالَ عَقِيْبُهُ : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا » . بَلِ الْمُرَادُ
 بِهِمَا الْوُجُودُ وَالْعَدَمُ .^١

وهنا يقال كذلك : بناءً على أصل حجّية ظواهر كتاب الله الكريم ،
 يجب أن يكون لفظ الشمس والظلّ والليل والنهار بهذا المعنى المصطلح
 عليه والمفهوم عند العرف والعامّة ، وإنّاطة استنتاج المعنى التأويلي من
 ذلك إلى حقيقة وجود الحقّ والتعيّنات ؛ لا أن نسلخ الآية من معناها الظاهر
 بشكل مجرّد ونستعيض عنه بالمعنى الباطني !

ومضافاً إلى هذا لم يتبيّن استدلاله واستشهاداه بحسب مدّعا هو
 بالآية التي تلتها : « وَهُوَ الَّذِي » . فما الإشكال والاختلاف بين هاتين الآيتين
 لو أنّنا أخذنا لفظي الشمس والظلّ بمعناهما الظاهريّ والاحتفاظ بمعنى
 الليل والنوم في الآية التي بعدها ؟!

ولهذا نرى أنّ سماحة أستاذنا الأعظم قدّس الله تربته قد أبقى على
 ظاهر معاني الشمس والظلّ في تفسيرها لهذه الآيات ، حيث قال في
 تفسيره :

« وأما ما ذكروه من أنّ هذه الآيات نزلت ببعض الأدلّة عن التوحيد
 على أثر جهل المعرضين عن ذلك وضلالهم ، فإنّ سياق الآيات لا يعين
 على هذه الدعوى . ونتطرّق هنا لإيضاح ذلك بإيجاز ، فنقول :

إذن فإنّ كلام الله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ

١- «جامع الأسرار» ص ١٧٧ و ١٧٨ .

لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ، تنظير لشمول جهالة بني آدم وضلالتهم ورفع الله تعالى ذلك برسالة الرسل ودعوتهم الحقّة كما يشاء هو . ويلزم أن يكون المراد من امتداد الظلّ ، ذلك الظلّ الحادث الذي يصبح عارضاً بعد زوال الشمس ثمّ يتزايد شيئاً فشيئاً من جهة المغرب باتجاه المشرق ، بحسب اقتراب الشمس من الأفق وميزان ذلك ؛ بحيث لو غربت كان بلغ مقدار امتداد الظلّ غايته فيجئ الليل .

وهذا الظلّ متحرّك في جميع حالاته ولو شاء الله لجعله ساكناً .
 وقول الله تعالى : **ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا** ؛ دليل على وجود هذا الظلّ والشمس وحدها بنورها هي التي يمكنها أن تدلّ على وجود ظلّ ما ؛ وبانبساط ذلك النور واتساعه بالتدرّج ، تدلّ على تمدّد وانبساط الظلّ تدريجياً .

ولو لم تكن الشمس موجودة ما تنبه أحد أصلاً لوجود الظلّ . وذلك أنّ السبب العامّ والعلة الكلّية لتمييز الإنسان بعض المعاني عن بعضها الآخر ، هو تحوّل الأحوال المختلفة واختلاف الحالات المتباينة التي تعرض له من فقدانها ووجدانها .

فالإنسان يتفقد وجود الشيء الذي كان بحوزته إذا فقدّه ؛ ولو عشر على الشيء الذي كان قد فقدّه عندها يتنبّه إلى غيابه . ولا يمكن تصوّر أمر ثابت لا يعتريه أيّ تغيير ولا يشوبه أيّ تبدّل على الإطلاق .

وقوله تعالى : **ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا** معناه أنّنا نزيل ذلك الظلّ بشروق الشمس وارتفاعها تدريجياً في الفضاء حتّى ننسخه تماماً ويمّحي . وقد استخدم تعالى لفظة «قبض» للتعبير عن معنى إزالة الظلّ ونسخه ، واجتذابه نحوه ، ووصف القبض بال«يسير» ؛ وكلّ ذلك يدلّ على كمال القدرة الإلهية ، وأن لا شيء يعسر عليه ، وأنّ فقدان الأشياء بعد وجودها

لا يعني بطلان تلك الأشياء وانعدامها ، بل رجوعها إلى الله تعالى وما لها إليه .

فما ذكرناه في تفسير «مَدَّ الظِّلَّ» بتمديده بعد زوال الشمس مُستنبط من سياق الآيات - كما أشرنا إلى ذلك - وإن كان يتألف من معنى لم يذكره المفسرون ، إلا أنه غير مخالف لما قالوه .

كقول بعضهم : المراد هو الظل الذي يكون ما بين طلوع الصبح الصادق إلى طلوع الشمس . وكقولهم : المراد هو الظل الذي يكون ما بين غروب الشمس إلى طلوعها . أو كقول البعض الآخر : هو ذلك الظل الذي يظهر ويتكوّن مقابل الجبال الشامخة أو الأبنية أو الأشجار في مقابل ضوء الشمس . وكذلك قول بعضهم - وهو أسخف الأقوال - المراد به هو ذلك اليوم الذي خلق الله فيه السماء وجعله على شكل القبة ، ثم بسط الأرض تحت تلك السماء فسقط ظل السماء على الأرض»^١ .

لا جرم ، أنّ ما تفضّل به حضرة الأستاذ في هذا المقام ، والذي هو في منتهى الدقة والإتقان ، لا غبار عليه ؛ ولكن خطرت في بال العبد الحقير ملاحظة فيما يخصّ أقواله وجدت من المناسب ذكرها هنا ، وهي : لماذا نأتي على ذكر ظلّ الشمس من وقت زوالها وحتى غروبها حصراً ؟ في حين يمكننا أنّ نعمم الآية على جميع الجهات ، وأن يكون المراد من الظلّ ، الظلّ في طوال الليل والنهار ، من زوال الشمس إلى الزوال اللاحق .

نوضح هنا : إلى أنّ الإنسان يرى الظلّ يكبر شيئاً فشيئاً من مكانه باتجاه المشرق وذلك وقت زوال الشمس من دائرة نصف النهار ، أي حينما تكون الشمس واقعة على سمت رأسه ، ويكون أقلّ ذلك الظلّ عند

١- «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٥ ، ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

الزوال وأكبره عند غروبها واستتارها وراء الأفق . وحسب افتراضنا هذا أول الظل . وهو يظهر بوساطة شيء بارز كالجبل أو البناء أو الأشجار وغير ذلك .

ثانياً ، أنه ظلّ الليل ذلك الذي يصنع حقيقة الليل ، وهو عبارة عن الظلّ الحاصل من غروب الشمس وحتى طلوعها . وعلى الرغم من أن هذا الظلّ غير متباين ، وذلك من جهة عدم سطوع النور عليه ، وأن الليل كلّه متساوٍ بالنسبة لوقوعه تحت ظلمة الظلّ المخروطيّ المحيط بنصف الكرة الأرضيّة ، لكنّه يختلف من ناحية الشدّة والضعف .

فكلّما ابتعدنا عن الغروب ، فإنّ ظلّ الليل يشتدّ ويثبت أكثر فأكثر ، حتّى تبلغ ظلمة الليل أقصى حدّها وذلك عند منتصف الليل حينما تكون الشمس واقعة على سمت القدم في الطرف الآخر من الأرض . أمّا ابتداءً من منتصف الليل وحتى طلوع الشمس فإنّ شدّة الظلّ وظلمته تضعف حتّى تصل إلى أضعف درجاتها وذلك قبيل شروق الشمس .

ثالثاً ، أن ظلّ النهار يكون من لحظة طلوع الشمس وحتى زوالها . وبمجرد طلوع الشمس فإنّ ظلّ الليل يتوارى ولا تحمل أيّة ذرّة أو نقطة منه أدنى تحقّق وجوديّ ؛ ولكن ما أن تشرق الشمس حتّى تتكوّن الظلال على الأرض في إزاء الأشياء البارزة والأبنية والأشجار والجبال وغيرها ، وذلك باتجاه الغرب ، وأطول هذه الظلال تتكوّن لحظة الشروق ، وكلّما ارتفعت الشمس أخذت بالتقلّص تدريجيّاً حتّى تصل إلى أقلّ حدّها وذلك عندما تفصلها عن الزوال لحظة واحدة .

وطوال فترة الليل والنهار تلك يكون الظلّ موجوداً ؛ ولامتداده (أي امتداد الظلّ) مصداق خارجيّ . ودلالة الشمس عليه متحقّقة أيضاً ؛ والله قادر على إيقاف ذلك الظلّ في أيّة لحظة شاء ، وذلك بإيقاف حركة الأرض

وتباطؤ اختلاف الليل والنهار . وكذلك الحال مع جذب الله الظلّ نحو الذي دعاه بالقبض ، فهو يمتلك مصداقاً خارجياً في كلّ لحظة من الليل والنهار . وسهولة جذب الظلّ وقبضه واحدة كذلك لدى الحقّ المتعال .

إنّ شروق شمس الرسالة وتلاؤ نورها وبسطه للمؤمنين والتابعين موجود على الدوام ؛ وكذلك عناد المعاندين وعدم إيقانهم وإيمانهم وضلاتهم وجهالتهم ، فهي موجودة بأشكال مختلفة على الدوام ؛ فيزداد عنادهم شيئاً فشيئاً منذ الزوال الأوّل الذي عبّرت عنه الآية في تنظيرها بالظلّ ، ويستمرّ بالتزايد تدريجياً حتّى غروب الشمس حيث تصل الضلالة أقصى حدّها دون توقّف ، بل وتصل الضلالة الحدّ الأعلى والأكمل لها عند منتصف الليل حين تكون شمس الرسالة في أبعد نقطة عنهم . وعندها يقبض الله سبحانه الضلالة نحوه ويبدأ الظلّ الليليّ بالتضاؤل حتّى طلوع الشمس حيث لن يبقى لذلك أيّ أثر .

ومنذ طلوع الشمس حيث يوجد أطول ظلّ ممتدّ إلى جهة المغرب ، لا يزال حكم ضلاتهم الصرفة وتيهيم البحت قائماً ، حتّى تتحوّل تلك الضلالة إلى هداية وظلمة الظلّ إلى نور وذلك بارتفاع شمس الرسالة وشروقها تدريجياً ؛ وهكذا فلن يبقى أثر لتلك الضلالات البحتة حتّى الزوال ، لأنّ شمس الرسالة قد جذبت الكلّ نحوها فزالت جميع الظلال وامّحت .

وعلى هذا يكون من الأنسب التمثيل بحالة الشمس والظلّ في جميع أقسام الليل والنهار وذلك للتعبير عن الضلالة والهداية اللتين ورد ذكرهما في الآيات السابقة وآية مَدَّ الظِّلَّ والتنظير عن ذلك .

ومن وقت الزوال حتّى منتصف الليل حيث يزداد اتّساع الظلّ تدريجياً وتتوسّع رقعة الظلام يكون في حكم المعاندين الذين لم يتبعوا

ضياء شمس الرسالة فكبرت دائرة ضلالتهم يوماً بعد آخر وغمرتهم الجهالة أكثر فأكثر حتى وصل ذلك أقصى حد له . ومن منتصف الليل حتى الزوال له حُكم المعاندين والضالّين والذين يبدأون بالتخلُّص من عنادهم فيتَّجهون نحو الإيمان وصفائه ، ويستمرّ ذلك حتى الزوال حيث لن تبقى في داخلهم ذرّة واحدة من تلك الظلمة ؛ فقد أصبح أولئك موخّدين خُلص وأناساً كاملين ، وصاروا أطهاراً ومن أهل اليقين والعرفان ؛ فجذب الله ضلال وجودهم لتصدّق عليهم حينئذٍ عبارة قَبْضًا يَسِيرًا .

نعم ، وقد تفضّل فخر الفلاسفة والحكماء المرحوم الحاجّ الملا هادي السبزواريّ قدّس الله تربته^١ بنظم بعض الغزليّات اللطيفة لطلاب صومعته

١- كتَبَ المرحوم الدكتور قاسم غني شرحاً في ترجمة أحوال الحكيم السبزواريّ قدّس الله سرّه في مجلة «يادرگار (=الذكرى) لصاحبها عبّاس إقبال الآشتيانيّ ، السنة الأولى ، العدد ٣ ، ذي القعدة ١٣٦٣ ، ص ٤٣ إلى ٤٨ ، فارتأينا أن نقل هنا موجزاً من تلك الترجمة: «يُعتَبَرُ الحاجّ الملا هادي من أعظم حكماء القرن الثالث عشر الهجريّ ، وربما كان أكبر مدرّسي فلسفة الإشراق بعد الأخوند الملا صدرا . وكان قد انتشر في العالم الإسلاميّ ، قبل هجوم المغول ، مسلكان فلسفيّان مهمّان ، أحدهما حِكْمَة (فلسفة) المشائين بالشكل الذي سجّله وذكره أبو عليّ ابن سينا ، والآخر مبدأ الوحدة الوجوديّة لمحيي الدين بن عربيّ المؤلّفة من الفلسفة الإشراقية والعرفان . وكان المدرّسون في تلك الأيام يدرّسون هاتين الفلسفتين وقد كتبوا شروحات وإيضاحات وتذييلات وتعليق في هذه المسائل في العصور المختلفة وذلك بمقتضى الزمان والمكان .

وانطفأ سراج الفلسفة والعلم على أثر اجتياح المغول وتخريبهم للبلاد زمناً ، ثم استطاع صدرالدين محمّد بن إبراهيم الشيرازيّ والمعروف بـ(الأخوند الملا صدرا) أن يُشعل ذلك السراج من جديد خلال عهد الصفويّين ؛ بحيث يمكن اعتباره «مجدّد الفلسفة» في الفترات التي تلت غزو المغول .

ولا يعتبر الملا صدرا مؤسس أو مُوجِد فلسفة حديثة ، بل تكمن مهمّته المتميّزة في إحياء وترميم الفلسفة التي ظلّت متروكة لمدّة طويلة . أي أنّ الملا صدرا تمكّن من إحياء

بحوث الحكمة والفلسفة التي شاعت في البلاد الإسلامية بفضل جهود كبار الفلاسفة أمثال الفارابي وأبي علي ابن سينا وابن رشد الأندلسي ومحيي الدين بن عربي والتي ظلت مهملة سنين طوال بعد هجوم المغول. وتكمن براعة الملام صدرًا في أنه قد ألبس الفلسفة لباساً شرعياً وواءم المسائل الدينية والفلسفية مع مقتضيات ذلك العصر ووفق بينها في العهد الصفوي حيث كانت الفلسفة فيه تعاني من انحطاط وتدهور وخلو العصر من رجال الفلسفة الكبار.

وعلى هذا فإننا حين نقول إن الآخوند الملام صدرًا ليس مؤجداً لفلسفة جديدة، علينا أن لا ننسى مسألة مهمة وهي أن الملام صدرًا لم يكن معلماً عادياً؛ بل أستاذاً ماهراً مزج فلسفة المشائين وحكمة محيي الدين بن عربي وأصول الشرع مع بعضها فأثار للحكمة سراجاً جديداً.

وبعد رحيل الملام صدرًا انطفأ ذلك السراج، إلا أنه بقي من يشتغل في الفلسفة وتدريسها.

ويتمي المرحوم الحاج الملام هادي السبزواري إلى الجيل الخامس بعد الآخوند الملام صدرًا، فكان قبلة المشتغلين بالفلسفة في تلك الفترة.

ففي الوقت الذي كان المدرسون والفلاسفة من الطبقات الأربع منشغلين فقط في تدريس وشرح «الأسفار» للملام صدرًا في الفترة ما بين الأخير والملام هادي السبزواري، كان السبزواري قد لمع نجمه في الفلسفة وتبحر فيها فعد في مستوى الملام صدرًا تقريباً.

ومضافاً إلى البعد العلمي للحاج الملام هادي وإحاطته بالمسائل الفلسفية والعرفانية، فقد كان سقراط عصره في مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات والتقوى والعفة والصدق والنقاء والمنعة والشخصية الذاتية والبساطة وعدم التكلف والتواضع وخصوصاً بالنسبة إلى خواص أهل العلم مضافاً إلى تميزه بسجايا فاضلة أخرى، وكان لشخصيته الممتازة وأخلاقه العالية دوراً كبيراً في خدمة الفلسفة؛ أي أنه ألبس الحكمة والفلسفة اللباس اللائق بها مما أرغم المتشدين بالعلم الذين كانوا يتهجمون على الحكماء باستمرار على احترام الفلسفة.

والخلاصة أن الحاج الملام هادي كان متخلفاً بأخلاق الحكماء المتألهين مضافاً إلى تخصصه في العلم والفلسفة اللتين كانتا حرفته الرئيسية حيث ألف فيهما كتاباً قيماً وتلمذت على يده مجموعة كبيرة من العلماء وكان لتصلبه في الالتزام بسيرة الفلاسفة السابقين

وعشاق محيَّاه في إمكان العبور من مراحلهم النفسية ومنازلها والوصول إلى مقام الفعلية الإنسانية التامة وحرم حضرة المتكبر سبحانه ؛ نكتفي هنا بنقل ثلاث غزليات منه :

الغزلية الأولى :

سینه بشوی از علوم زاده سینا
نور و سنائی طلب ز وادی سینا
یار عیان است بی نقاب در اعیان
لیک در آعین کجاست دیده بینا^١

« والعلماء العاملين دوراً كبيراً في الارتقاء بالحكمة إلى أعلى قممها وجعلها موضع تقدير الخاصة والعامّة واحترامهم . ومضافاً إلى اتّصافه بالصفات العلميّة والأخلاقيّة، فقد كان المرحوم الحاجّ الملا هادي ذا طبع شاعريّ موزون وصاحب ذوق لطيف ورفيع وأدب راق وكان يكتب أشعاره باسم مستعار هو «أسرار» ، وله ديوان في الغزل طبع مراراً وهو ديوان مليء بحقائق العرفان طافحاً بالوجد والشوق ، مكتوب بمتهى الفصاحة والملاحة والظرافة، وسنذكر في آخر هذه المقالة بعضاً من قصائده الغزلية على سبيل المثال لا الحصر» .

ثمّ يقول «حتّى ذكر بأنّ السجايّا الأخلاقيّة والإحاطة العلميّة وحسن تقرير الملاّ السبزواريّ قد جعلت منه علماً مشهوراً ، وبعد أن حلّ به المطاف في سبزوارة واستقرّ فيها واشتغاله بالتدريس، تدفّق على حلقاته التدريسيّة طُلاب العلم من الهند والممالك الغربيّة والبلاد العثمانيّة، وليس فقط من إيران ، وقد واصل التدريس في مدرسته ما يقرب من أربعين سنة بالدقّة والانضباط والالتزام بالمواعيد والإخلاص في العمل بشكل يذكّرنا بالفيلسوف الألمانيّ «كانت» .

ثمّ ينقل الدكتور غني بعضاً من ترجمة أحوال السبزواريّ بقلمه هو ، مع إيراد أربع قصائد في الغزل خاتماً مقاله بهذا .

١- يقول : «دعك من علوم ابن سينا واطلب النور والسناء من وادي سيناء .

فالحبيب ظاهر غير محبوب عن العيان ، ظاهر في الأعيان ولكن أين العين البصيرة» .

ساغر مينا ز دست پير مغان گیر
 چند خوری غم به زیر گنبد مينا
 طعنه به وِيسِ قَرَنُ زَنِي وقرين است
 ديو وددت قرنھا وساءَ قَرينا
 نيست روا ما قرين ظلمت ديگور
 روی تو عالم فروغ ماه جبينا
 پرتو مهر از فلک به خاک گر افتد
 خود چه شود ، عيسيا سپهر مکينا
 یک نفس ای خاک راه دوست خدا را
 بر سر اسرارِ زارِ خاک نشين آ^١

الغزلية الثانية :

ما ز ميخانه عشقيم گدايانی چند
 باده نوشان و خموشان و خروشانى چند^٢

١- يقول : «خذ الكأس من يد شيخ مجرب وارشف منه جرعات لتنس الهم والغم .
 إن الطعن على أويس القرني والقرين هو شيطان وسعلاة يقترن بك وساء قريناً .
 ليس من اللائق أن نغرق في ظلمة حالكة ونور جبينك يُنير العالم .
 ماذا يحصل إذا سقط ضياء الشمس على الثرى من الفلك ؛ كأنها العيس النازلة من
 العلباء .

يا تراب سبيل أحبة الله ! فليهب منك نفس واحد على رأس «أسرار» المنتحب المتمرغ
 في التراب!» .

«ديوان الحاج الملا هادي السبزواري» المعروف بـ «أسرار» ص ١٦ ، منشورات مكتبة
 الثقفي ، إصفهان ؛ وكذلك سلسلة مجلة «يادگار» (=الذكرى) عباس إقبال الآشتياني ، السنة
 الأولى ، العدد ٣ ؛ ذي القعدة ١٣٦٣ هـ ، ص ٤٧ ، نقلاً عن الدكتور قاسم غني .

٢- يقول : «نحن فقراء حانة العشق مرتشفي الصهباء نهداً ساعة ونهيج أخرى .

ای که در حضرت او یافته‌ای بار ببر
 عَرَضَهُ بِنَدَگِی بی سر و سامانی چند
 کای شه کشور حُسن و مَلِک مَلِک وجود
 منتظر بَر سر راهند غلامانی چند
 عشق ، صلح کل و باقی همه جنگ است و جدل
 عاشقان جمع و فِرَق جمع پریشانی چند
 سخن عشق یکی بود ولی آوردند
 این سخنها به میان زمرة نادانی چند
 آنکه جوید حرمش گو به سر کوی دل آی
 نیست حاجت که کند قطع بیابانی چند
 زاهد از باده فروشان بگذر دین مفروش
 خرده بینهاست درین حلقه ورندانی چند
 نه در اختر حرکت بود و نه در قطب ، سکون
 گر نبودی به زمین خاک نشینانی چند^۱

۱- يقول: «يا من سَعِدْتَ بحضرته اغتنم هذه الفرصة؛ واعرض عبوديتك (وطاعتك) التي تكمن في عدم راحتك واستكانتك.

يا سلطان الحُسن ومالك المُلْك والوجود فالغلمان منتظرون على الطريق.
 العشق سلام يعمّ الجميع وكلّ ما سواه حرب وجدال ، والعاشقون مجتمعون وباقي الفِرَق مُشْتَتَة.

فحديث العشق واحد لكنّ الجهلاء نسجوا حوله كلّ تلك الأحاديث.
 قل لمن يبحث عن حرمه : تعال إلى قَمّة جبل القلب ، فليس من حاجة إلى قطعه الصحارى.

أيها الزاهد! اترك بائعي الخمر ولا تبع دينك فليس عندهم غير الترهات والسفاسف.
 لم تكن هناك حركة في نجم ولا سكون في قُطب ، لو لم تكن على أرض المُعدمين».

ای که مغرور به جاه دو سه روزی بر ما
کشش سلسله دهر بود آنی چند
هر در اسرار که بر روی دلت بر بندند
رو گشایش طلب از همّت مردانی چند^۱

الغزليّة الثالثة :

اختران ، پرتو مشکوة دل انور ما
دل ما مظهر کل ، کل همگی مظهر ما
نه همين اهل زمين را همه باب اللهم
نُه فلک در دورانند به دور سر ما
بر ما پير خرد طفل دبیرستان است
فلسفی مُقتبسی از دل دانشور ما
گر چه ما خاک نشینان مرقع پوشیم
صد چو جم خفته به در یوزه گری بر در ما^۲

۱- يقول : «يا من تعاليت وتكبرت علينا بمقامك الزائل ! فليس الدهر إلا لحظات .
فإذا أغلقوا عليك باباً من الأسرار ، فتوجه نحو الرجال واطلب حاجتك منهم» .
«ديوان السبزواريّ» ص ٥٨ و ٥٩ ؛ وكذلك العدد المذكور في الهامش السابق من مجلّة
«يادگار» ص ٤٨ ، مع اختلاف في المجلّة بعدم إيراد البيت الأخير ، بل ورد عجز البيت الثاني
مكان عجز البيت التاسع من الغزليّة .
۲- يقول : «الكواكب والنجوم شعاع مشكاة قلوبنا البتيرة ، فقلوبنا مظاهر الكلّ ، والكلّ
مظهر لنا .

ليس أهل الأرض وحدهم باب الله ، فهناك تسعة أفلاك تدور حولنا .
إنّ الشيخ العجوز والمجرب ليس بالنسبة لنا إلا طفلاً في أوّل مراحل المدرسة
والدراسة ؛ والفيلسوف بالقياس معنا ليس إلا مُقتبس لبعض العلم من قلبنا العالم بكلّ شيء .
إنّا وإن كانت ثيابنا رثة ومرقعة وكنا مُعدمين إلا أنّ هناك جمع غفير من المساكين ⇨

چشمه خضر بود تشنه شراب ما را
 آتش طور شراری بود از مَجمر ما
 ای که اندیشه سر داری و سر می خواهی
 به کدوئی است برابر سر و افسر بر ما
 گو به آن خواجه هستی طلب و زهد فروش
 نبود طالب کالای تو در کشور ما
 بازی بازوی نصیریم نه چون نسر به چرخ
 دو جهان بیضه و فرخی است به زیر پر ما
 ماه گر نور و ضیا کسب نمود از خورشید
 خود بود مکتسب از شعشعه اختر ما
 خسرو مُلک طریقت به حقیقت مائیم
 کُله از فقر به تارک ز فنا افسر ما
 عالم و آدم اگر چه همگی اسرارند
 بود اسرار کمینی ز سگان در ما^۱

⇨ مستلقین عند بابنا».

۱- يقول: «نبع الخضر ظمآن لشرابنا ونار الطور شرارة من موقدنا.
 یا مَنْ تريد الزعامة والرئاسة اعلم أنّ الرأس وتاج الملوك عندنا مثل يقطينة.
 قل للخواجة الذي باع زهده وبيحث عن الوجود لا يوجد في بلدنا مشتر لبضاعتك.
 نحن الباز الواقف على ذراع النصر، ولسنا كالنسر السابح في الفضاء، وإنّ العالمين
 (الدنيا والآخرة) أضحيا كالبيضة والفرخ تحت جناحنا وظلالنا.
 إذا كان القمر يكتسب نوره من الشمس، فإنّ الشمس تكتسب منّا ذلك النور وهذا
 الوهج.
 نحن ملوك عالم الطريقة (في الواقع)، ونحن المتوجون بتاج الفقر والاستغناء عن
 الدنيا.»

وجدير بالذكر أن الأشعار العرفانية والحقائق العلوئية للحكيم الأديب والفيلسوف النادر الوجود المرحوم الحاج الملا هادي السبزواري رفع الله مرتبته غير مقتصرة على قالب الغزل، بل كان ينظم أيضاً الترجمات والشعر المثنوي والمقطعات والرباعيات والخمريات والتي تحوي كل منها أسراراً ولطائف جمّة؛ وخصوصاً قصيدته الخمرية التي صبّ فيها جام أحاسيسه، إذ أعطى الموضوع حقّه مستخدماً من الكنايات وتشبيهات المعقول بالمحسوس أعلاها مرتبة، على غرار القصيدة الخمرية لِرَضِيِّ الدِّينِ الأَرْتِيمَانِيِّ^١ - في سلاسة الفكرة وعذوبة الذوق في اختيار

⇨ إنَّ العالم والإنسان وإن كانا محفوفين بالأسرار، فهذه الأسرار هي أتفه من الكلاب التي تحرسنا».

«ديوان أسرار» ص ١٧ و ١٨.

١- تُعتبر خمرية الأرتيماني (والذي كان معاصراً للشاه عباس الصوفي) من أرقى القصائد المكتوبة في العرفان ووحدة الوجود، فقد احتوت القصيدة المذكورة من الإشارات والكنايات والدقائق والحقائق ما استحقت بها أن تكون جديرة بالتأمل والتدبر. وتتألف تلك القصيدة بمجموعها من مائة واثنين وعشرين بيتاً نقل هنا بعضاً منها:

الهى به مستان ميخانهات	به عقل أفريمان ديوانهات
الهى به آنانكه در توگمند	نهان از دل وديده مردمند
به درياكش لُجَّة كبريا	كه آمد به شأنش فرود انما
به دُزى كه عرش است او را صدف	به ساقى كوش، به شاه نجف
به نور دل صبح خيزان عشق	ز شادى به انده گريزان عشق
به آن دل پرستان بى پا وسر	به شادى فروشان بى شور وشر
به رندان سر مست آگاه دل	كه هرگز نرفتند جز راه دل
به مستان افتاده در پاى خُم	به مخمور با مرگ در اشتلم
به شام غريبان به جام صبح	كز ايشانست شام سحر را فتوح
كز آن خوبرو چشم بد دور باد	غلط دور گفتم كه خود كور باد ⇨

سرپای من آتش طور کن
 کزین تهمتِ هستیم وارهان
 دل زنده و جان آگاه ده
 به هر سو شدم سر به سنگ آمدم
 برآرد سبواز دل آواز هو
 بدن را فروزان تر از دل کند
 کند غنچه را گوهر شب چراغ
 لب شیشه تبخاله از تب زند
 به شب سر زند از دل آفتاب
 تواند در آن دید حق را عیان
 همه «قُل هو الله» آید از او
 برآرد ز خود آتشی چون چنار
 مبدل به خیر اندر او جمله شر
 مئی گشته معجون راز و نیاز
 شود خون فتد قطره‌ای گر به خاک
 به یک آه بیمار ما درگذشت
 شدی چون از آن مست هوهو زنی
 حذر کن که دیوانه هوئی شنید
 که پیلم کند یاد هندوستان
 فرو نایدم سر به کاوس وکی
 شراب ز شب مانده باقی کجاست
 سر مست از پنا ندارد خبر

که خاکم گیل از آب انگور کن
 خدا را به جان خراباتیان
 به میخانه وحدتم راه ده
 که از کثرت خلق تنگ آمدم
 مئی ده که چون ریزیش در سبو
 از آن می که در دل چو منزل کند
 از آن می که چون عکسش افتد به باغ
 از آن می که چون عکس بر لب زند
 از آن می که گر شب ببیند به خواب
 از آن می که گر عکسش افتد به جان
 از آن می که چون ریزیش در سبو
 از آن می که در خم چو گیرد قرار
 مئی صاف ز الودگی بشر
 مئی معنی افروز و صورت گداز
 مئی از منی و توئی گشته پاک
 به یک قطره آبم ز سر در گذشت
 چشی گر از آن باده کوکو زنی
 دماغم ز میخانه بوئی شنید
 بگیری زنجیرم ای دوستان
 دماغم پریشان شد از بوی می
 پریشان دماغیم ساقی کجاست
 بزن هر قدر خواهیم پا به سر

يقول: «إلهي! أقسم عليك بسكاري حانتك، وبعقلائك المجانين.

وبأولئك الذائبين فيك، المحجوبين عن قلوب الناس وأبصارهم.

وبالهائم في لجاج كبريائك الذي نزلت فيه «إنهما».

⇐

⇨ بالدِر الذي صار العرش صدفةً له ، وبساقى الكوشر وسلطان النجف .
 وبأنوار يبكرون للحب في الأسحار ، الذين يهربون من الفرح إلى حزن العشق .
 وبالعشاق الحيارى ، وببائعي الفرح دون تكلف أو مئة .
 بالسكارى الماضين في طريقهم بيقين الذين لم يسيروا إلا في طريق القلب .
 بالسكارى الساقطين عند دنّ الخمر ، وبالنشوان الذي قهر الموت .
 وليلة الغربة وكأس الصبوح ، والذي به سينقضي ذلك الليل ويأتي الفتح .
 (أحلّفك إلهي) أن تُبعد عن ذلك المحيّا الجميل كلّ حاسد ، بل أن تفقأ عين الحاسد
 وتُعميها تماماً .

وأن تمزج ثراى بعصير العنب ، واجعل من وجودي ناراً للطور .
 إلهي ! أسألك بحقّ الفانين فيك ، أن تُخلّصني وتُنجيني من تهمة وجودي .
 اهدني إلى حانة وحدتي ، وامنحني قلباً حياً وروحاً يقظة .
 إذ سئمتُ من كثرة الخلق ، وأينما توجّهتُ ، اصطدمت بحجر .
 اسقني خمره إذا ما صبّت في الكأس ، صاح الكأس من الأعماق ، «باهو» .
 وإذا استقرت تلك الخمرة في القلب ، توهج البدن أكثر من القلب .
 خمرة إذا ما سقطت صورتها على البستان ، أحالت البرعم إلى دراً يضيء في الليل .
 وإذا انعكست صورتها على الشفاه ، أحرقت حافة الكأس من الحمى .
 خمرة إذا ما حلّم الليل بها ، سطعت عليه شمس من القلب .
 خمرة إذا ما سقطت صورتها على الروح ، استطاعت من خلالها رؤية الله جهرةً .
 خمرة إذا ما صبّت في الكأس ، سمعت نداء «قل هو الله أحد» من كلّ جوانبها .
 خمرة إذا ما استقرت في قعر الدنّ ، خرجت منه نار كئنا احتراق شجرة الصنوبر .
 خمرة طاهرة من دنس البشر ، بها تتحوّل الشرور إلى خير مطلق .
 خمرة تُثير المعاني ويحمر لها وجهي ، خمرة أضحت ممزوجة بالأسرار والأدعية .
 خمرة منزّهة من الد(أنا) والد(أنت) ، وتتحوّل إلى دم إذا ما سقطت منها قطرة على
 التراب .

خمرة إذا ارتشفت منها قطرة استسلم لها رأسي ، وتُتميت صَبنا بقول الآه مرّة واحدة .
 خمرة إذا ما تجرعت شيئاً منها صحت (أين أين) ، وإذا ما سكرت بعد ذلك صحت ⇨

﴿ هو هو ﴾.

لقد شم أنفي رائحة من الحانة ، احذر فإن المجنون قد سمع صرخة ما .
امسكوا بسلاسلي وقودي أيها الرفاق ، فإن هوى الهند قد يحيلني إلى فيل .
لقد تهيج أنفي من رائحة الخمر ، ولن أطأ رأسي لا لـ «كاوس» ولا لـ «كيكاس» .
لقد تهيجت أنوفنا فأين ثمالة كأس البارحة ، أيها الساقى ! أين هو ؟
ارقص وامرح ما شئنا ذلك ، فإن الرأس المخمور لا يعي شيئاً .

مئی را که باشد در او این صفت	نباشد بغير از می معرفت
تو در حلقه می پرستان درآ	که چیزی نبینی بغير از خدا
کنی خاک میخانه گر توتیا	ببینی خدا را به چشم خدا
به میخانه آ و صفارا ببین	ببین خویش را و خدا را ببین

يقول : «إن خمرة تحوي هذه الصفة والميزة ، ليست إلا خمرة المعرفة .
انضم أنت إلى زمرة عشاق الخمرة ، فإنك لن ترى شيئاً غير الله .
إذا ما جعلت ترى الحانة كحلال لك ، فإنك ستري الله بعين الله .
هلم إلى الحانة وتمتع بالصفاء ، انظر إلى نفسك وإلى الله» .

بیا تا به ساقی کنیم اتّفاق	درونها مصفی کنیم از نفاق
چو مستان به هم مهربانی کنیم	دمی بی ریا زندگانی کنیم
بگیریم یک دم چو باران به هم	که اینک فتادیم یاران به هم
معنی سحر شد خروشی برآر	ز خامان افسرده جوشی برآر
که افسرده صحبت زاهدم	خراب می وساجر وشاهدم
بیا تا سری در سر خم کنیم	من وتو ، تو ومن همه گم کنیم
سرم در سر می پرستان مست	که جز می فراموششان هر چه هست

يقول : «هلم حتى نعقد اتفاقاً ونقسم بالساقى ، على تنقية داخلنا من النفاق» .

﴿ ونأف على بعضنا مثل السكارى ، ونعيش لحظةً دون رثاء .
فلتتحد كقطرات المطر المنهمر ، ويلتزم بعضنا البعض كالأحبة .
أيها المطرب ! أنشد لنا شيئاً فقد بانَّ السَّحَر ، وأدخِلْ إلى قلوب السكارى المكتئبين
ثورةً .

إنني منزعج من حديثي مع الزهاد المرثئين ، في حين أنني هائم في الخمرة والكأس
والمحجوب .

تعال لننظر قليلاً داخل الدنّ ، ونُضِيع الد(أنا) والد(أنت) جميعاً .
لأجتمع بعشاق الخمرة ، الذين نسوا كل شيء دون الخمرة» .

فزون از دو عالم تو در عالمی
چه افسرده‌ای رنگ رندان بگير
از اين دين به دنيا فروشان مباش
چه درمانده دلچ و سجاده‌ای
مکن قصه زاهدان هيچ گوش
حديث فقيهان بر ما مکن
که نور يقين از دلم جوش زد
قلم بشکن و دور افکن سَبَق
که گفته که چندين ورق را بين
تعالی الله از جلوه آفتاب
بدین جلوه از جا نرفتی چه‌ای
صبح است ساقی برو می بیار
نماز ارنه از روی مستی کنی

بدین سان چرا کوتهی و کمی
چرا مرده‌ای آب حیوان بگير
بجز بنده باده نوشان مباش
مکش بار محنت بکش باده‌ای
قدح تا توانی بنوشان ونوش
زقطره سخن پیش دریا مکن
جنون آمد و بر صف هوش زد
بشویان کتاب و بسوزان ورق
ورق را بگردان و حق را بین
که بر جملگی تافت چون آفتاب
تو سنگی کلوخی جمادی چه‌ای
فتوح است مطرب دف ونی بیار
به مسجد درون بت پرستی کنی

يقول: «أنت أعلى مقاماً وأسمى رتبة من العالمين ، فَلِمَ أراك صغيراً متواضعاً؟
لِمَ أراك كئيباً؟ اتَّبِعْ مسلك اللاأباليين ، لِمَ أراك ذابلاً؟ خُذْ شيئاً من ماء الحياة .
ولا تكن من الذين باعوا الدين بالدنيا ، ولا تكن عبداً إلا لشاربي الخمر .

.....

◀ ولا تكن أسير الخرقه والسجادة ، بل اجرعْ الخمرة ولا تتجرع المحنة .
 ولا تُصغِ إلى حديث الزاهدين ، بل ارتشفْ من الكأسِ واسقِ الآخرين ما استطعت .
 ولا تُحدِّثنا بما يرويه الفقهاء ، ولا تحدِّث البحر بحيث القطرة .
 لقد سطع نور اليقين من فؤادي ، وجاء الجنون فنحى العقل جانبا .
 اكبرُ القلم وابتعدْ عن (سَبَق) ، واغسل الكُتُب واحرق الورق .
 من قال أنْ عليك النظر في كلِّ تلك الصحف؟ اقلب الصفحات وطلع الحق .
 تعالى الله سبحانه عن الشمس ، فهو قد شعَّ على الجميع كالشمس .
 ما أنت؟ إنك لم تنبهر بهذه الجلوة .
 وما أنت؟ هل أنت صوان أم جماد؟
 إنَّه الصباح ، أيها الساقى ! فهاتِ الخمرة ، إنَّه الفتوح ، أيها المطرب ! فهاتِ الدفَّ
 والمزمار .

إذا لم تُقِم الصلاة وأنت سكران ، فإنك كمن يعبد الأصنام داخل المسجد» .

.....

رخ ای زاهد از می پرستان متاب تودر آتش افتاده ای ما در آب

.....

يقول : «لا تصعِّر خدك لشاربي الخمرة أيها الزاهد ، فإنك ساقط في النار ونحن نسبح في الماء» .

.....

ندوزی چو حیوان نظر بر گیاه	بیایبی اگر لذت اشک وآه
همه مستی وشور و حالیم ما	ز تو چون همه قیل وقالیم ما
دگر طعنه باده بر ما مزن	که صد مار زن بهتر از طعنه زن
به مسجد رو وقتل و غارت ببین	به میخانه آ و طهارت ببین
به میخانه آ و حضوری بکن	سیه کاسه ای کسب نوری بکن
چو من گر از آن باده بی من شوی	به گلخن در آن رشگ گلشن شوی
چه آب است کآتش به جان افکند	که گر پیر نوشد جوان افکند

◀

.....

قوالب العبارات البديعة وسبكها - حتى ليتوجّب علينا اعتبارها كرامة من كراماته .

فمثلاً يقول في قصيدته المفعمة بالحيوية والإلهام :

⇨ يقول : «إذا ما استوعبت لذة الدموع والآهات ، فإنك لن تنظر إلى النبات كما يفعل الحيوان .

إننا جميعاً سكارى ومُتهيجون ونشوى بسببك ، لأننا جميعاً لسنا إلا كالقيل والقال . فلا تلمزنا بعدُ بالخمرة ، فإن عظة مائة أفعى أهون من اللمز .

أذهب إلى المسجد وانظر إلى القتل والسلب هناك ، ثم أعرج على الحانة وانظر الطهارة والنقاء .

تعال إلى الحانة وأقم هناك ، إنك مثل الكأس المظلمة ، تعال واكتسب نوراً . فلو أصبحت مثلى بلا (أنا) بسبب تلك الخمرة ، فإن مثلك سيكون كمثل البستان وسط جفنة النار .

أي شراب هي تلك التي تُضرم النار في الروح ؟ ولو تناولها الشيخ لتحوّل إلى شابّ» .

وينتمي السيد ميرزا رضي الأرتيماني - وهو من السادة الجليلي القدر - إلى «أرتيمان» من قرى تويسركان . عاصر الأرتيماني فترة الشاه عباس الصفوي ، وكان أحد شعراء النصف الأول من القرن الحادي عشر المجديين والجدلين . وشاعرنا هو والد الآقا ميرزا إبراهيم الأدهم الذي يعدّ هو كذلك من الشعراء المعروفين .

وتُعتبر «خمريّة الأرتيماني» من القصائد الفريدة التي تطرقت في هذا الموضوع . وقد ورد ذكر هذه القصيدة في ملاحق كتاب «تذكرة الحانة» من ص ٩٢٥ إلى ٩٣٤ ، إلا أنّ المؤلّف أورد (١٦١) بيتاً للقصيدة المشار إليها . لكننا اعتمدنا في نقل القصيدة هنا على بعض النسخ الخطيّة لبعض الأحبة والتي استنسخنا لأنفسنا واحدة منها في سالف الأيام وهي تشتمل على (١٢٢) بيتاً .

وجدير بالذكر أنّ كتاب «تذكرة الحانة» هو من تأليف الملا عبد النبي فخر الزمانيّ القزويني والذي انتهى من تأليف الكتاب المذكور سنة ١٠٢٨ هـ ، وقد قام السيد أحمد گلچين معاني بتصحيح وطبع الكتاب ثمّ أضاف إليه بعض الملاحق .

دگر بارم افتاد شوری به سر
 به جانم شده آتشی شعله‌ور
 که دستارِ تقوی ز سر افکنم
 ز پاگنده نام را بشکنم
 ملولم از این خرقه و طیلسان
 که بتهاست در آستینم نهان
 تو بنمای آن چهره آتشین
 که آتش فتد در بت و آستین
 چه آتش که از خود ستاند مرا
 نه ز اغیار تنها رهاند مرا
 ز وحدت دلا تا کی اندر شکی
 یکی گو، یکی دان، یکی بین، یکی
 بیا ساقیا در ده آن راحِ روح
 که یابم ز فیضش هزاران فتوح^۱

۱- يقول: «لقد أصابني الهوس والجنون؛ وشببت في جسمي النار المستعرة. سأرمي العمامة من على رأسي؛ وسأزيل عني شهرتي واسمي. لقد ملئت هذه الخرقه وهذا الطيلسان؛ وأشعر أن أصناماً وأوثاناً قد اختفت في رديهما.

أظهر هذا الوجه الذي أشعل النار في الرُدن والأصنام. أي نار تلك التي سلبتني من نفسي؛ ولم تبعدني من الأغيار وحسب. إلى متى تشك بالوحدانية يا قلب؛ قل (هو) واحد، وآمن بأنه واحد، وانظر إليه على أنه واحد، واحد (لا غير).
 هلم أيها الساقى واسقنا راح الروح؛ حتى أحصل من فيضه على نشوة آلاف الفتوح والانتصارات».

صباح است ساقى صبوحى بيار
 مئى كاو نخواهد صراحي بيار
 بلى كئى صراحي بود راز دار
 به بزمى كه نبود خودى را شمار
 نخستين كه كردند تخمير طين
 گل ما نمودند با مى عجین
 نديمان وصيت كنم بشنوید
 كه عمر گرامى به آخر رسید
 چو اين رشته عمر بگسسته شد
 به آغاز انجام پيوسته شد
 بشد مُلك تن بى سپهدار جان
 به يغما ربودند نقد روان
 خدا را دهيدم به مى شست وشوى
 بپاشيد سدرم از آن خاك كوى^١

١- يقول: «إنه الصباح ، أيها الساقى ، فهاتِ الصبوح ؛ هاتِ خمرة لا تحتاج إلى كأس . فمتى كان الكأس حافظاً للأسرار ؛ وله ، في الحفل الواحد ، ما لا يُعد ولا يُحصى من الشاربين فيه؟

لَمَا صنعوا طينة خلقتنا في البدء ؛ عجنوا تلك الطينة بالخمر (بدل الماء).
 أُريد أن أوصيكم ، يا ندماي ، فاسمعوا ؛ فلقد وصل العمر الغالي إلى آخره .
 إذا انتهت سنِّي هذا العمر وانقضت فسوف يرجع الأمر إلى ما كان عليه من البرء .
 وسوف لن يكون للجسم (هذا) أي سلطان من الروح (التي فارقته) ؛ تلك الروح التي
 سُلِبَتْ منه واقتُلِعَتْ .

أحلّفكم بالله أن تغسلونني بالخمر ، وانثروا عليّ من ثرى ذلك الدرب ليكون سدرأ
 لي» .

بـجويد خشتم ز بهر لَحد
 ز خشتی که بر تازک خُم بود
 بسازید تابوتم از چوب تاک
 کنیدم می آلوده در زیر خاک
 چو از برگ رَز نیز گفتم کنید
 به پای خم باده دفنم کنید
 بکوشید کاندر دَم احتضار
 همین بر زبانم بود نام یار
 نه شمعم جز آن مه به بالین نهید
 نه حرفم جز از عشق تلقین دهید
 ز مرد وزن اندر شب وحشتم
 نیاید کسی بر سر تربتم
 بجز مطرب آید زند چنگ را
 مغنی کشد سرخوش آهنگ را^۱

۱- يقول: «واسعوا إلى أن تكون حجارة قبري ولحدي؛ من تلك الحجارة التي تُوضَع على راقود الخمر.

واصنعوا تابوتي من خشب الكروم؛ وغطّسوني بالخمرة، ثم ادفنوني.

وكفّنوني بورق الكرم كذلك؛ ثم ادفنوني عند وعاء الخمر.

واسعوا عند احتضاري؛ أن ألهج باسم الحبيب.

ولا تضعوا على قبري أية شمعة غير ذلك البدر (أي الحبيب)؛ ولا تلقّنوني كلاماً سوى

حديث العشق.

ولا تسمحو لأبي رجل أو امرأة بالحضور ليلة دفني.

إلا المطربين وهم يضربون على (آلة) القيثارة؛ والمغنيين الذين ينشدون بأصواتهم

الشجية».

به خونم نگارید لوح مزار
 که هست این شهید ره عشق یار
 چهل تن ز رندان پیمانہ زن
 شهادت کنند اینچنین بر کفن
 که این را به خاک درش نسبت است
 ز دُردی کشانِ می وحدت است
 که می ساختی شیخ سجّاده کیش
 به یک دم زدن ، عاشق باده کش
 ز نظّاره گردی اهل کینشت
 همه پارسایانِ تقوی سرشت
 نبودى بجز عاشقی دین او
 جز این شیوه پاک آئین او^١
 همه کیش او خدمت می فروش
 ز جان حلقه بندگیش به گوش^٢

١- يقول : «واکتبوا بدمي لوحة مزارى ؛ هذا شهيد الحبّ .
 وليشهد أربعين نديماً من ندماء الحانة المخضرمين وليمضوا على كفني : أنّ هذا هو
 منسوب إلى تراب بابہ (أي باب الحبيب) ؛ وهو شارب ثمالة خمرة الوجدانية .
 ولقد صار الشيخ (الذي اعتاد على حمل السجّادة - سجّادة الصلاة-)؛ العاشق الولهان
 والسكّير بلحظة واحدة .
 ولم يكن غيره من بين أهل المعابد والأديرة ؛ أو من بين كلّ العباد وأهل التقوى ، من
 كان دينه العشق والغرام ؛ أو كان لبّ مذهبه واعتقاده هو التيم والحبّ .
 ٢- ذكر في تعليقه ما يلي : وردت الأبيات الثلاثة التالية بعد هذا البيت في نسخة
 أخرى :

نديدیم کاری از او سرزند بجز آنکه پیوسته ساغر زند

الهي به خاصان درگاه تو
 به سرها که شد خاک در راه تو
 به افتادگانِ سرکوی تو
 به حسرت کشان بلاجوی تو
 به درد دل دردمندان تو
 به سوز دل مستمندان تو
 به حقّ سبوکش به میخوارگان
 که هستند از خویش آوارگان
 به پیر مغان ومی ومیکده
 به رندان مست صبحی زده
 که فرمان دهی چون قضا را که هان
 ز اسرار نقدِ روانش ستان^۱

﴿ چو ساغر منزه ز چون وز چند چو خورشید تابان بر اوج بلند
 نباشد صداعش ، نیارد خمّار کند یار ، بینش هم از چشم یار
 يقول : «لم نره یقترف عملاً ! إلا ضرب الکؤوس بعضها ببعض .
 وهو کالكأس ، منزه عن کلّ شائبة ؛ وکالشمس الساطعة فی کبد السماء .
 وما شهدناه یصاب بالصداع أو السکر ؛ فکان یری من خلال عینی حبیبه» .
 ۱- يقول : «إلهی ! بحقّ خواصّ بابک وساحتک ؛ وبحقّ الهامات التي سقطت شهيدة
 فی سبیلک واستحالت تراباً .
 وبحقّ من سقط صریعاً فی دربک ؛ وبحقّ الذین يتحسّرون لإصابة ببلاياک ومحنک .
 وبحقّ آلام قلوب الوالهیین بک ؛ وبحقّ حرقة قلوب ضعفائک .
 وبحقّ السکاری وشاربی الخمر ؛ الذین هم عن أنفسهم غرباء ومشردون .
 بحقّ شیوخ المعبد وبحقّ الخمر والخمّارة ؛ بحقّ السکاری الشاربین للصبح .
 (أسألک بحقّ کلّ أولئک) أن تأمر إذا جاء القضاء والقدر ؛ وقبل قبض روح «أسرار» .

نخستين ز آيشش پاڪ كن

پس آنگاه منزلگهش خاك كن^١

كلّ الناس ، سوى العارفين ، يرون الله رؤية مزدوجة

لا جَرَمَ أَنَّ الثنويّة وكلّ السائرين على هديها ، سواء أكانوا حشويّين من الإخباريّين كالشيخيّة والميرزائيّة والقشريّين المنكبيّين على الظواهر والمتشبّثين بها ، أم كلّ مَنْ يعتقد بالأصل والأصالة للماهية في مقابل الوجود ، وسواء أقرّوا بوحدانية الحقّ سبحانه وتعالى لفظاً أم بغير لفظ ؛ فهم جميعاً مصابون بعقيدة الثنوية والازدواجية بصورة عمليّة في الإسلام سواء في العمل أم في حقيقة العقيدة التي يحملونها . وهؤلاء يرون الله بأعين حولاء ونظرة مزدوجة وهم مطاردون من قِبَل الآيات والروايات وبشدة ، خلافاً لأهل التوحيد ، بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ ، الذين يؤمنون عملياً بأنّ الله هو المؤثّر في جميع عالم الوجود ، ولا يقرّون لغيره بالاستقلال والأصالة على الإطلاق ؛ الذين بلغوا واقع معنى كلمة لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فاستقرّت حقيقة لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا هُوَ إِلَّا هُوَ ومفادها في لبّ روحهم وفؤادهم .

ولتوضيح هذا الأمر نكتفي بذكر برهان واستدلال الحكيم المعروف

الحاجّ الملاهادي السبزواريّ قدّس الله تربته كدليل عقليّ فقط :

يقول السبزواريّ في الفصل الموسوم بـ «عُرُرُ في أصالة الوجود» ما

أن تُظهِره من كل دنس ؛ ثمّ اجعَلْ مثواه القبر».

«ديوان الأسرار» ص ١١٧ و ١١٨ .

١- يقول : «أن تُظهِره من كل دنس ؛ ثمّ اجعَلْ مثواه القبر».

«ديوان الأسرار» ص ١١٧ و ١١٨ .

نصه :

«اعلم أن كل ممكن زوج تركيبى له ماهية ووجود. والماهية التي يقال لها الكلى الطبيعى ، ما يقال في جواب ما هو. ولم يقل أحد من الحكماء بأصالتها معاً .

إذ لو كانا أصليين لزم أن يكون كل شيء شئين متباينين ، ولزم التركيب الحقيقى في الصادر الأول ، ولزم أن لا يكون الوجود نفس تحقق الماهية وكونها ؛ وغير ذلك من التوالى الفاسدة.»
ثم قال في تعليقه :

«ويلزم وجود شئين متباينين لأي شيء ، وذلك من جهة أنه لما كان علينا مثلاً أن ندعو البياض والعاج شئين متباينين - إذ إن أحدهما ينتمي إلى مقولة «كيف» والآخر إلى مقولة «الجوهر» - مع وجود أصل بينهما بحسب الوجود ؛ فكيف لا يتحقق إذاً التباين بين «الماهية» والتي هي من أصل عدم الإباء من الوجود والعدم ، وبين «الوجود» الذي هو من أصل الإباء من العدم ؟» .

وقال موضحاً معنى ولم يقل أحد من الحكماء بأصالتها معاً :
«وممن نعاصرهم ، من الذين لا يستندون إلى قواعد الحكمة ، من يقول بأصالتها (أي أصالة الوجود والماهية) ؛ فهو يقول في بعض مؤلفاته :
إن الوجود مصدر الحسنه والخير ، والماهية مصدر السيئة والشر ؛
وهذه الصوادير أمور أصيلة ؛ فمصدرها أولى بالأصالة .

وهنا يقول المرحوم الحاج : «وأنت تعلم أن الشرور إنما هي عبارة عن إعدام الملكة ؛ وعلّة العدم هي العدم ؛ فأنى للماهية الاعتبارية أن تكون كافية لتحقيق ذلك ؟!» .

وفي شرح لزم أن لا يكون الوجود نفس تحقق الماهية قال : «وذلك

من جهة أنه في هذه الصورة لزم أن يكون ما أُشربت معه الماهية وأُشبعَت وتغذت فيه كون وتحقق الماهية نفسها لا الوجود؛ وأن يكون للوجود كونٌ وتحققٌ خاصٌّ به» .

وفي بيانه لعبارة وغير ذلك من التواليي الفاسدة ، يقول : «مثل عدم انعقاد الحمل بين ذاك الشيعين ، وكمثل لزوم ثنوية خارجية واقعية . ففي هذه الصورة يكون الوجود الحقيقي نوراً والماهية ظلمة ، والحال وجوب كونهما معاً موجودين أصيلين»^١ .

وعموماً يجب أن نعلم أنّ : مراد الحكيم السبزواريّ قدس الله سرّه من قوله «وممن نعاصرهم من الذين لا يستندون إلى قواعد الحكمة» ممن يقول بأصالة الوجود والماهية ، هو الشيخ أحمد الأحسائيّ ؛ ولا شك في هذه النسبة بين العلماء والحكماء بُعيد عصر الحكيم السبزواريّ .

ومما ذكره جناب السيّد مرتضى المدرّسيّ الجهاردهيّ في شرح حال الشيخ الأحسائيّ والذي قام بتصحيحه السيّد عباس إقبال الأشتيانيّ^٢

١- «شرح منظومة الحكيم المُعظّم الحاجّ الملاّ السبزواريّ ، ص ٥ ، طبعة الناصريّ .

٢- قال السيّد عباس إقبال الأشتيانيّ في مجلة «يادگار» تحت عنوان «أحوال العظام»

ما يلي :

«الشيخ أحمد الأحسائيّ (١١٦٦ - ١٢٤١) بقلم السيّد مرتضى المدرّسيّ الجهاردهيّ : يمثل الشرح التالي جزءاً من كتاب قيّم يقوم السيّد مرتضى المدرّسيّ الجهاردهيّ بتأليفه وكتابه منذ مدة طويلة بتشجيع ورعاية من قبل الأستاذ الكبير العلامة السيّد محمّد القزوينيّ مدّ ظلّه في شرح حال المشاهير وكبار العلماء الإيرانيين خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة. هذا الكتاب الفاخر الذي نتمنى أن ينتهي منه المؤلّف قريباً ويُزيّن بحلية الطبع ، لا شك أنه سيكون كتاباً نفيساً جداً وذلك لما يبذله المؤلّف المحترم من جهد دؤوب ومثابرة لا تعرف الكلل أو الملل ليلاً ونهاراً ، سواء أكان ذلك ممثلاً في ماكرس المؤلّف نفسه فيه لجمع المعلومات اللازمة لهذا الموضوع أم الذوق الرفيع الذي يحاول من خلاله»

ما يلي :

«٨- مذهب الشيخ وأتباعه :

كتب الحكيم المعروف المرحوم الحاج الملا السبزواري حاشية في شرح منظومته في بحث أصالة الوجود ، تيقن من خلالها جميع أساتذة العلم والحكمة أن المحقق السبزواري إنما عنى بكلامه ذلك الشيخ أحمد الأحسائي . ونقل هنا الحاشية التي كتبت على المنظومة :

«لم يكن أحد من الحكماء يعتقد بأصالة الوجود أو أصالة الماهية إلا واحداً من المعاصرين القائل بهذا المبدأ غاضباً النظر عن القواعد الفلسفية ، وقد قال في بعض مؤلفاته :

إن الوجود مصدر الحسنة والخير ، والماهية مصدر السيئة والشر ؛ وهذا الصوادر أمور أصيلة ؛ فمصدرها أولى بالأصالة .

وبديهي أنكم تعلمون أن الشر عدم الملكة ؛ وعلّة عدم هي العدم وكيف أنه يولد الماهية الاعتبارية .

اعلم أن كلّ ممكن زوج تركيبّي له ماهية ووجود . والماهية التي يقال لها الكلّي الطبيعيّ ، ما يقال في جواب ما هو .

ولم يقل أحد من الحكماء بأصالتها معاً . إذ لو كانا أصيلين لزم أن

بذل قصارى جهده في سبيل إخراج الكتاب المذكور بالحلّة اللانثقة به . والحق أن السيّد المدرّسيّ بعمله هذا يقوم برفع ثقل كبير عن كاهل الأجيال القادمة الذين لا جرّم سيجوسون خلال الكتب لاستقصاء الأعلام من رجالات عصرنا الحاضر والمشاهير بحرص ولهفة .

ونورد هنا الشرح المذكور والذي تطرّق فيه الكاتب إلى تعريف وشرح أحد مشاهير إيران في القرن الماضي ، وأعني بذلك الشيخ أحمد الأحسائيّ ، مؤسس مذهب الشيخية والملهم لعدد من النهضات الدينية في هذا البلد ، مؤشّحاً بشيء من التوضيحات والإضافات والتصرّف فيه بإذن من المؤلّف نفسه مع تقديم خالص شكرنا له . (مجلة «يادگار»).

يكون كلّ شيء شيئين متباينين»^١ .

وقد كتب الحاجّ الملا نصر الله الدزفولي أحد العلماء المشهورين في عهد ناصر الدين شاه والذي قام بترجمة كتاب «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، إلى الفارسيّة امتثالاً لأمر الشاه المذكور ، فخرج في ستّة أجزاء ، الشرح المذكور في آخر ترجمة الجزء السادس ، والذي يخصّ موضوع الشيخ أحمد الأحسائي ومذهب الشيخية ، بعبارات كأنّها ترجمة حرفيّة من العربيّة إلى الفارسيّة وهي بعيدة كلّ البعد عن الأصول اللغويّة وقواعد الفارسيّة :

«وعلينا أن نعلم في الجملة أن هناك مناقشات ومخالفات حصلت كذلك بين أصحاب مذهب الإماميّة وخاصّة بين علمائهم المتأخّرين . والسبب في حدوث ذلك يرجع إلى التشبّث بمتشابه الأخبار الواردة في كتب الأخبار ، وتأويل القرآن استناداً إلى الأخبار غير الموثوقة ، فيما يتعلّق بأئمّتهم وبالجملة الغلوّ في شأنهم . ممّا نتج عن ذلك نشوء المذهب الذي يسمّونه بـ (مذهب الشيخية) الذي أسّسه الشيخ أحمد الأحسائي ، وكلّ تلك المصطلحات المستخدمة إنّما هي منه .

ومن هنا ارتفعت أهداف الشيخ بذلك المسلك وسمت به ، حتّى صار ذلك المذهب يُنسب إليه . وكان يقال له مذهب السيّد الكاظمي . وكان من بين تلامذته جهلة وأمّيون ، وطلاب شهرة ومجد ، وقد ادّعوا ما لم يدّعيه الشيخ أحمد أو السيّد الكاظمي ، ومنهم برزت الأسماء المختلفة كالركن الرابع والباب وقرة العين الواضحة الأهداف والمضامين .

١- «شرح المنظومة» للحاجّ الملا هادي السبزواري ، ص ٥ ، طبعة طهران - ١٢٩٨

(التعليقة).

يعتبر العلماء هذه المفاصد من جملة مقدمات ظهور المهديّ وقائم آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم» .

وكتب الملام محمد إسماعيل بن سميع الإصفهانيّ أحد الحكماء المعاصرين للشيخ الأحسائيّ شرحاً على «الرسالة العرشية» ، للملام صدرا الشيرازيّ والذي طبع القسم الأوّل منه في نهاية كتاب «أسرار الآيات» للملام صدرا في طهران .

وقد أورد الإصفهانيّ في هذا الشرح بعض الانتقادات على شرح عرشيّة الشيخ الأحسائيّ وأجاب على اعتراضاته بأسلوب فلسفيّ حكيم .
ونورد هنا مقدّمة الملام محمد إسماعيل :

«قام الفاضل النبيل البارع الشامخ شيخ المشايخ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائيّ حفظه الله من جميع البلايا ورعاه بكتابة شرح على عرشيّة الملام صدرا مليء بالمثالب والتجريح ؛ وذلك بسبب جهله مراد المصنّف من الألفاظ والعبارات ، وعدم اطلاعه على الاصطلاحات .

فكتاب «الرسالة العرشية» سفر عظيم ... وقد طلب منّي بعض الأصدقاء أن أكتب شرحاً عليه وأرفع عنه بعض الحُجُب»^١ ...

وقد أطنب مؤلّف «روضات الجنّات» في مدح الشيخ أحمد عند شرحه لأحواله ؛ وكتب في نهاية ذلك الشرح شرحاً آخر قيم جداً مع إيجازه عن حال الشيخ رجب البرسيّ ، في باب ظهور السيّد عليّ محمّد باب ؛ وبحث فيه تأريخ ظهور الأوهام والخرافات في مذهب الشيعة الاثني

١- توجد أربعة أجزاء من كتاب «ترجمة شرح نهج البلاغة» في مكتبة الأديب المعظم الأستاذ الجامعيّ السيّد محمّد مشكاة وقد تمّ تأليف الجزء الأخير منه سنة ١٢٩٠ .
(التعليقة).

عشريّة ، وينسب ذلك البحث إلى الشيخ أحمد ، وحول «مشرب الشيخية» كتب يقول :

«ظهر أتباع هذه الجماعة ، الذين اتخذوا التأويل تجارة وحرقة لهم ، مؤخرًا ، والحق أنّهم ذهبوا في غلوهم إلى أبعد ممّا ذهب إليه الغلاة ... وهم يُدعون بالشيخية وبـ «پشتِ سرية» وهي كلمة فارسية منسوبة إلى الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائيّ .

وسبب ذلك أنّ هذه الفئة تقيم صلاة الجماعة في القسم الجنوبيّ من الحرم الحسينيّ ، على العكس من مخالفيهم أي فقهاء تلك البقعة المباركة الذين يصلّون في الناحية الشماليّة من الحرم الشريف والذين اشتهروا بـ «بالا سرية» .

ومثل هذه الطائفة كمثّل النصارى المغالين في عيسى القائلين بالثلاث .

ويعتبر أتباع مذهب الشيخية أنفسهم نواب الحجّة عجل الله تعالى فرجه والباب إليه^١ .

وكتب المرحوم إدوارد براون في مقدّمة «نقطة الكاف» حول الشيخية وأصولهم العقائدية يقول :

«الغلاة فرق عديدة وهم يختلفون مع بعضهم في الجزئيات إلا أنّهم لا يخرجون بمعتقداتهم تلك عن إطار العقائد الأربع : التناسخ والتشبيه أو الحلول والرجعة والبداء حسبما ذكره محمّد بن عبد الكريم الشهرستانيّ في «الملل والنحل» .

ويعتبر الشيخية ، أتباع الشيخ أحمد الأحسائيّ ، في عداد المعتقدين

١- «روضات الجنّات» ص ٢٨٥ و٢٨٦ ، طبعة طهران ، (التعليقة).

بالبداء .

وكان الميرزا علي محمد الباب ومنافسه الحاج محمد كريم خان الكرمانّي والذي لم تزل رئاسة الشيخية في عقبه كلاهما من هذه الفرقة ، أي الشيخية .

ولهذا فإذا ابتغينا استقصاء أصول الطريقة البائية وجذورها توجب علينا بحثها في معتقدات الشيخية وطريقتهم . وتتلخص أصول الشيخية وعقائدهم بما يلي :

١ - الاعتقاد بأنّ عليّاً والأئمة الأحد عشر من ولده هم مظاهر إلهية تمتلك نعتاً وصفاتاً إلهية كذلك .

٢ - لما كان الإمام الثاني عشر قد غاب عن الأنظار سنة ٢٦٠ هـ ولن يظهر إلا في آخر الزمان ليملاً الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً ، ولما كان المؤمنون يحتاجون دوماً إلى هدايته وإرشاده ، ولما كان على الله سبحانه وتعالى أن يقضي حوائج الناس وذلك بمقتضى رحمته الكاملة وأن يجعل من الإمام الغائب قريباً منهم ؛ بناءً على هذه المقدمات توجب أن يكون هناك مَنْ يقوم بدور الوساطة بين المؤمنين وبين الإمام الغائب .

ويسمّون هذا الوسيط «بالشيعي الكامل» .

٣ - عدم اعتقادهم بالمعاد الجسماني ؛ فهم يقولون بأنّه لا شيء يبقى من عناصر بدن الإنسان بعد انحلاله إلا جسم لطيف يسمّونه بـ «الجسم الهور قليائي» أو النجمي .

وعلى هذا فإنّ الشيخية يؤمنون بأربعة أركان فقط من أركان الدين ، وهذه الأركان هي :

١ - التوحيد ، ٢ - النبوة ، ٣ - الإمامة ، ٤ - الإيمان بالشيعي الكامل ؛

في حين أنّ المتشّرعة أو البالا سرّيّة «أي الشيعة العاديّون» يؤمنون بالأصول الخمسة وهي :

١- التوحيد ، ٢- العدل ، ٣- النبوة ، ٤- الإمامة ، ٥- المعاد .

ويعترض الشيخيّة على الأصلين الثاني والخامس بقولهما : إنهما باطلان ولا حاجة إليهما ؛ لأنّ الإيمان بالله ورسوله يستلزم بالضرورة الإيمان بالقرآن مع كلّ ما يحويه من الصفات الثبوتية والسلبية لله عزّ وجلّ والإقرار بالمعاد وغير ذلك . وإذا تقرّر أن يكون العدل ، الذي هو من الصفات الثبوتية لله تعالى ، أحد أصول الدين ، فلماذا لا تكون الصفات الثبوتية الأخرى مثل العلم والقدرة والحكمة وغيرها من أصول الدين ؟^١ والشيخيّة أنفسهم قد أضافوا ، في المقابل ، أصل آخر على أصول

١- لإثبات أنّ العدل أصل من أصول الدين ، ورد في كتاب «العدل الإلهي» ص ١٤ و١٥ ، طبعة سنة ١٣٩٠ هجرية ، ما يلي :

«العدل أصل من أصول الدين : في جميع مسائل الإلهيات ، إذا كانت هنالك من شبهات أو إشكالات ، فهي موضع بحث الفلاسفة والمعنيين . ومع كون هذه المسائل صعبة ، إلّا أنّها خارجة عن حدود فهم العامة من الناس ، وإنّ كلاً الإشكال والردّ عليه هما في مستوى أعلى من إدراك الجمهور ؛ ومع ذلك ، فإنّ الإشكالات التي تحيط بمسألة «العدل الإلهي» قد جرى تداولها على صعيد العامة . فهذه المسألة موضع تشكيك القرويّ البسيط وفي نفس الوقت مثار اهتمام الفيلسوف المفكّر ؛ ومن هنا ، اكتسبت أهميّة خاصّة ومكانة نادرة ، وقد يكون ذلك من الأسباب التي جعلها تصنّف ضمن أعمدة الدين ، وأن تعرّف على أنّها الأصل الثاني من الأصول الخمسة للدين ، وإلّا ، فالعدل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان من المقرّر أن تكون الصفات الإلهية ضمن أصول الدين ، فيجب أن تكون باقي الصفات مثل العلم والقدرة والإرادة و... ، غير مستثناة من هذه القاعدة .

إنّ لموضوع العدل سجّل طويل في الإسلام ، وترجع بدايات طرحه ومناقشته بين المسلمين إلى القرن الثاني الهجريّ ؛ وهذا الموضوع بالذات أدى إلى ظهور الفرقتين الكبيرتين ، الأشاعرة والمعتزلة (أو العدليّة) .»

الدين في باب الاعتقاد بالشيوعي الكامل ، والذي هو الوسطة الدائمة لفيض الإمام على الأمة ، هذا الأصل أطلقوا عليه بـ «الركن الرابع» ؛ ولا شك أن الشيخ أحمد الأحسائي ومن بعده الحاج السيد كاظم الرشتي كانا يُعتبران في نظر الشيخية مثال الشيوعي الكامل وواسطة الفيض تلك .

بعد وفاة الحاج السيد كاظم الرشتي في عام ١٢٥٩ ، لم يكن يُعرف بعد من سيخلفه من بعده ، أي ذلك الشيوعي الكامل ، ولم يمر وقت طويل حتى خرج مدعيان لهذا المنصب ؛ الأول ، وهو الحاج محمد كريم خان الكرمانلي والذي أصبح فيما بعد الزعيم الأوحد للمتأخرين من الشيخية ، والثاني ، الميرزا علي محمد باب الشيرازي الذي لُقّب نفسه بـ «الباب» .

وكان المعنى المقصود من هذه الكلمة هو بالضبط نفس المعنى الذي أُريد به من كلمة «الشيوعي الكامل»

بالرجوع إلى مؤلفات الشيخ المرحوم الأحسائي يتأكد لنا بأنه كان يحمل مذاقاً أخبارياً ولكن كان يحمل تلك الأخبار والأحاديث على مشربه الفلسفي ويشرحها وفق هذا المسلك ، وكان يعارض العرفان والعرفاء والفلسفة الإشراقية والمشائية ، وخير دليل على صحة هذا القول كتابه الموسوم بـ «شرح الفوائد» ؛ حيث يحوي على مصطلحات وشروحات خاصة ، والذي يُظهر مذهبه الخاص به في الفلسفة في إزاء سائر الفلاسفة والعرفاء ، مما كان السبب في تعرّضه للانتقاد من قبل حكماء عصره^١ .

نعم ، إن أصل الإشكال لدى القائلين بـ «أصالة الوجود والماهية» هو الشرك في مبدأ الله تعالى كما هو الحال مع المجوس والزرادشتيين القائلين

١- سلسلة مجلة «يادگار» ، ذكرى المرحوم عباس إقبال الآشتياني ، السنة الأولى ، العدد الرابع (ذي الحجة ١٣٦٣) ، ص ٣٠ إلى ٤٧ ، من منشورات مكتبة الخيام.

وجود مبدأين أصليين هما النور والظلمة ، وإن صوادِر العالم نابعة من هذين المبدأين . ومضافاً إلى كون هذا القول مغلوطاً بالبرهان الأكيد فإنه يتناقض ومسألتي التوحيد ووحدة الحق تعالى ، وقد وقع الشيخ الأحسائي كما وقع المجوس ، في هذا الفخ وسقط في هذه التهلكة كما سقطوا .

وعلى هذا يتوجب العدول عن هذه العقيدة بلا أدنى تردد وأن نرى لأيّ منهما ترجع الأصالة في عالم الوجود ؟ أَللوجود أم للماهية ؟ قال الحكيم السبزواري قدس سره :

إِنَّ الْوُجُودَ عِنْدَنَا أَصِيلٌ دَلِيلٌ مِّنْ خَالَفْنَا عَلِيلٌ

وقد قال الحكيم في شرحه لهذا البيت : «لقد اختلف الحكماء بخصوص القولين ، وذلك أولاً أنّ الأصالة في التحقق هي للوجود وأنّ الماهية هي أمر اعتباري ومفهوم يُشير إليه ويتحد معه ، وهذا هو قول المحققين من المشائين والصفوة من أصحابنا . وثانياً أنّ الأصالة تكمن في تحقق الماهية وأنّ الوجود إنما هو أمر اعتباري لا غير ، وهو قول شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي قدس الله سره»^١ .

وعلى كلّ حال ، فإنّ هذا البحث متعلّق بالموجودات التي تحمل كلتا الصفتين ، أي الوجود والماهية ، أمّا ما يخصّ الذات المقدسة للحقّ تعالى فإنّ ماهيتها هي عين وجودها ولا ماهية لها خارج عينية وإنّية الوجود ونفس تحقق الكينونة حتّى يُطلق عليها ماهية في مقابل وجوده تعالى كما قال :

وَالْحَقُّ مَا هَيْئَتُهُ إِنِّيَّتُهُ إِذْ مُقْتَضَى الْعُرُوضِ مَعْلُومِيَّتُهُ

ويقول في شرح البيت المذكور : «لَكِنَّا إِذَا قُلْنَا إِنَّهُ حَقٌّ فَلِأَنَّهُ الْوَاجِبُ

١ - «المنظومة» ص ٥ و ٦ .

الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ بَطْلَانٌ ، وَبِهِ يَجِبُ وُجُودُ كُلِّ بَاطِلٍ ؛
* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَّا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ *

انتهى (قول المعلم الثاني) .

«مَاهِيَّتُهُ» أَي مَّا بِهِ هُوَ هُوَ «أَيْتُهُ» إِضَافَةُ الْإِنِّيَّةِ إِلَيْهِ تَعَالَى إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ عَيْنِيَّةَ وُجُودِهِ الْخَاصِّ الَّذِي بِهِ مَوْجُودِيَّتُهُ ، لَا الْوُجُودَ الْمُطْلَقَ الْمَشْتَرَكُ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ زَائِدٌ فِي الْجَمِيعِ عِنْدَ الْجَمِيعِ .
فَهُوَ صَرَفُ النُّورِ وَبَحْتِ الْوُجُودِ الَّذِي هُوَ عَيْنُ الْوَحْدَةِ الْحَقَّةِ وَالْهُوِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ ١ .

ولعل أبرز الإشكالات التي تعترض مسألة توحيد الحق تعالى هي الشرور ، فتارة تُناقش هذه المسألة من ناحية صفة العدل وتارة من ناحية حكمته . ويروي لنا التاريخ أنّ الإيرانيين كانوا من أوائل الشعوب التي رأت أنّ حلّ تلك الإشكالات يكمن في وجود مبدأين في عالم الخلقة والتكوين وفي عالم صفة الذات الأزليّة القديمة فاعتقدت بالثنويّة في الوجود ٢ . وهو الأمر نفسه الذي كان الشيخ أحمد الأحسائي يزرع تحت

١- «المنظومة» ص ١٦ .

٢- ورد في كتاب «تاريخ الشعوب» ص ٥١ إلى ٥٤ ، في القسم الثاني الخاصّ بـ«تاريخ إيران»، الطبعة الحجرية ، بحثاً حول مذهب الإيرانيين القدماء . ونقل أدناه تفصيل ذلك البحث :

«الدين» :

صنّف الإيرانيون القدماء ، كما بيّنا ذلك في تأريخ الأقوام الآرية ، بادئ ذي بدء الظواهر والقوى الطبيعيّة إلى مجموعتين من الموجودات ، شريرة وخيرة ، واعتقدوا كذلك بوجود صراع دائمٍ بين هاتين المجموعتين . ولهذا كانوا يقدّسون النور والنار والريح والمطر والسماء حيث كانوا ينسبونهما إلى المجموعة الأولى ، ولكي يأمنوا شرّ الظلمة والشتاء والجذب والأمراض والكوارث وغير ذلك والتي كانوا يعتقدون بأنّها تنسب إلى

↳ المجموعة الثانية فقد كانوا يقومون بتلاوة الأدعية والتعاويذ . وكما قلنا سابقاً فإنّ هذه العقائد مهّدت لوجود الخرافات وانتشار السّحر والشعوذة ولهذا أعلن زرادشت حرباً على تلك العقائد.

وزرادشت أو زراثشترا هذا هو ابن پور شَسب واختُلف في مكان ولادته وتاريخ ظهوره؛ فنسبه البعض إلى أورميّة (في آذربايجان) في حين نسبه آخرون إلى بلخ الغربيّة (شمال أفغانستان الحاليّة) . وأمّا ظهوره فقد اختُلف فيه أيضاً حيث اعتقد البعض أنّه ظهر قبل حوالي ستّة آلاف سنة قبل الميلاد ، بينما قال البعض بظهوره في حوالي سنة ستمائة قبل الميلاد. وقد بُعث زرادشت نبياً من قبل الله وهو في سنّ الثلاثين وأُمر بدعوة الناس إلى عبادة الله الواحد ، فأبدى زرادشت جُلّ سعيه في هذا الأمر وقام بتعديل وإصلاح معتقد قدماء الإيرانيين إلاّ أنّه جوبه بمعارضة بعض رجال الدين والسّحرة الذين عقدوا العزم على قتله .

فاضطُرَّ إلى الهجرة إلى شرق إيران وقام بالدعوة إلى دينه في منطقة سيستان وأفغانستان الحاليّة، وبسبب من معارضة الملأ له هناك لم يفلح في نشر دعوته، فلجأ إلى بلاط جُشتاسب (ويشتاسب) ملك بلخ فتبّنى الأخير دعوته وقويت شوكته بمساعدة جاماسب وزير الملك. إلاّ أنّه قُتل في المعركة التي جرت بينه وبين شعب توران بقيادة أرجاسب.

الأفستا :

ويُدعى كتاب الزرادشتيين المقدّس بـ«أوستا» ويبدو أنّ تدوين هذا الكتاب تمّ في عصر الماديّين. وكانت هناك نسختان رسميتان من كتاب الأوستا في زمان الملوك الهخامنشيّين، الأولى في تخت جمشيد [وهي من الآثار الإيرانيّة القديمة المنسوبة إلى الملك جمشيد في مدينة استخر الواقعة شمالي شيراز. (م)] حيث أُحرقَت في هجوم الإسكندر الذي أشعل النار في القصور الملكيّة ؛ وأمّا النسخة الثانية فقد وقعت بأيدي اليونانيّين الذين قاموا بترجمة محتوياتها من العلوم الطيّبة والفلك والنجوم وغيرها إلى اليونانيّة، ثمّ قاموا بإحراقها.

هذا وكان الملك الأشكانيّ بلاش الأوّل قد أمر ، كما سنأتي على ذكر ذلك لاحقاً، بجمع الأوستا مرّة أخرى ، كما كلف أردشير بابكان (رأس السلالة الساسانيّة) أحد رجال

وطأته هو الآخر ، ولهذا رأينا كيف أنه كان يؤمن بأصلين أصيلين وركنين شديدين وأساسين قويمين أزليين في حلّه مسألة الشرور في مقابل

⇒ الدين والمفكرين الإيرانيين بتنظيم الأوستا وترتيبها ، ثم تمكن ابنه شاپور الأوّل بعد ذلك من جمع ما اقتبسّه اليونانيون والهنود وسائر الشعوب من الأوستا في مجال الطبّ والنجوم والفلسفة وغير ذلك . وقد كُتِبَ تفسير للأوستا في عهد الساسانيين باللغة البهلوية حيث دُعِيَ بالـ«زند» . وتجدر الإشارة إلى أنّ رُبْعاً من كلّ كتاب الأوستا الأصلي موجود اليوم في أيدينا وأمّا الباقي فقد طواه التأريخ في سلّة مجهولاته .

ومن كلام زرادشت أنّه كان يقول : يستند العالم كلّهُ إلى مبدأين اثنين هما : الخير والشرّ أو النور والظلمة وهما في صراع مستمرّ . فأما الخيرات فبابعة من أهورا مزدا ، وأمّا الشرور فمن أنكره مينو أو أهريمن .

فأهورامزدا أو (هرمزد) يُدير العالم بمعونة ستّة ملائكة والمُسَمَّوْنَ بِأَمِشَاسَپَنْدَان ومعناها (الأطهار الخالدون) ، وأسماء تلكم الملائكة هي : بَهْمَن ، أُرْدَ بيهشت ، شهربور ، اسفندارند ، خرداد وأمرداد ، ويُدير كلّ ملك من هؤلاء جزءاً معيّناً من عالم الموجودات ، ثمّ هنالك المزيد من الملائكة تحت إمرة كلّ ملك من الملائكة الستّة .

وأما أهريمن فتوجد تحت سلطانه كذلك ستّة عفاريت والذين يُعيّنه على أعمال الشرّ ويُوازرون الأشرار من المخلوقات .

وممّا اعتقد به زرادشت أيضاً هو أنّ : أهورامزدا يقود العالم ويهديه بواسطة النور واليمن والخير؛ ولكي يتغلّب الخير في الكون على الشرّ ويفنى أهريمن رمز ذلك الشرّ ، يتحتّم على أفراد البشر محاربة جند أهريمن ومساعدة أهورامزدا . ومن هنا يتوجّب على أولئك البشر ممارسة الزراعة وتربية الحيوانات الداجنة كالخروف والكلب والديك وما شابه وهي مخلوقات خلقها أهورامزدا وفي المقابل عليهم إبادة الحيوانات الضارّة والمؤذية كالحية والفراشة والحشرات وكلّ الحيوانات التي تتسبّب في إيجاد الآفات الزراعية إذ هي مخلوقات قام أهريمن بإيجادها . وعلى البشر إبعاد الماء والنار والتراب والرياح عن أيّ تلوث أو دَسّ ، وكذا اجتناب تلويث النار والماء بأجساد الأموات . على الجميع أن يسعوا في اكتساب الفكرة الحسنة والكلام الطيّب والأفعال الحميدة ، والابتعاد عن الكذب وتعويد النفس على الخُلُق الحسن والصدق والخير .

الخيرات ، وكان يُقرن الماهية والوجود جنباً إلى جنب في هذه المسألة ؛ ثمّ لجأ في نهاية الأمر إلى الاعتقاد بـ يزدان^١ وأهريمن^٢ باسم الوجود والماهية .

ولا شك أنّ هذه المسألة هي من أوضح المسائل موضع نقاش في الإسلام وأبلغها دلالة وأسطعها برهاناً حتّى أنّ المجوس في الماضي تقبلوا فكرة التوحيد التي يعالجها القرآن بالرغم ممّا عُرف عنهم من تصلّب في عقيدة الثنويّة وبالرغم كذلك من وجود حكماء وفلاسفة ذوي شأن لديهم في هذه المسألة ، مضافاً إلى ما كانوا يمتلكونه من عقل ودراية وكياسة . ثمّ تغيّر ذلك الدين القويم والمعتقد العميق الجذور الذي كان راسخاً بينهم لآلاف من السنين ومتأصلاً فيهم ، بحيث خرج فيهم فلاسفة مشهورون بحثوا مسألة التوحيد والقرآن منذ بداية ظهور الإسلام حتّى أصبحوا بذلك أمثلة يُحتذى بها . والحقّ أنّ نبيّ الله زرادشت لم يستطع أن يستأصل جذور الثنويّة في بداية دعوته ، ومع أنّه كان يدعو إلى التوحيد ، ويعزي مصدر الشرور إلى أهريمن الذي هو أحد مخلوقات الله ، واعتبار اهوز مزّدا المؤثر الوحيد في الخلقة والصفات ؛ إلاّ أنّه وبالرغم من ذلك لم تمض على شريعته فترة طويلة حتّى تغيّرت بشكل جذريّ بعد وفاته وعاد عمّة الناس من جديد إلى الثنويّة التي كانت معتقدهم الأوّل والمتجذّر فيهم ، فبدلوا شريعة زرادشت وحرّفوها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

والحقّ أنّ إعجاز القرآن وكرامته وأصالته ورسالة نبيّنا كان لهما أبلغ الأثر في نفوس قدماء الإيرانيين والفرس الأوائل ممّا جعلهم يتقبّلون

١- إله وهو بصيغة الجمع ، وأصله إيزد (فارسيّة).

٢- إله الشرّ في ديانة زرادشت ، ويقابله أرْمُزْد.

مذهب التوحيد وأُشربوا في قلوبهم هذا الدين الجديد ، وطووا صفحة أهور مزدا وأهريمن (يزدان وديو = الإله والشیطان) وإلى الأبد . فخرّجوا للعالم علماء ذوي شأن وحكماء فطاحل ومؤرّخين يحملون فكرة التوحيد ، وأخيراً ذوي عزة ومقام ومجاهدين صادقين .

ولعلّ من المناسب واللائق أن نورد هنا مزيداً من البيان والتوضيح حول جذور الثنوية مقتبسين بعضاً من كلام الصديق العزيز المرحوم آية الله الحاج الشيخ مرتضى المطهريّ أعلى الله مقامه إحياءً لاسمه وتخليداً لذكراه ، مادنا هنا نبحت مسألة الثنوية ونبذها من وجهة نظر الإسلام وذلك لإبطال عقيدة أصالة الوجود والماهية ومذهب الشيخية ، بعد أن قمنا بتفنيد أصول معتقداتهم في هذه المسألة وبيننا أنّ جميع الكوارث الثقافية والعقائدية التي رمت بالشيخ الأحسائي في أحضان الثنوية المتهرئة والفاصلة منشأها جهله بمسائل الحكمة والأصول المتقنة للفلاسفة والنهج الصحيح للعرفاء بالله وأوليائه ، بسبب تعنته وتشبّثه بآرائه الشخصية في دخوله معترك مسائل المعقول بحيث لم يستطع النجاة بنفسه من هذا المستنقع .

فبعد أن يناقش (الشيخ المطهريّ) بعض الأسئلة المطروحة من قبل المادّيين والشيوعيين ، وبعض الأفراد الذين يجهلون مسائل التوحيد وذلك فيما يخصّ الشرور والأضرار والآلام والمصائب والأمراض والوفيات والجراثيم والزلازل والفيضانات والمعوقين على الأخصّ وأنسالهم ، يقول :

«هذه بعض الأسئلة التي تُطرح حول مسألتَي العدل والظلم . ومهما يكن من أمر فإنّه يمكن طرحها مع قليل من الاختلاف تحت عناوين أخرى والتي هي الأخرى تنطوي تحت لواء مسائل الإلهيات تماماً

كمسألتي العدل والظلم ، من مثل الغايات في العلة والمعلول ، ومسألة العناية الإلهية عند بحث صفات الواجب

وهذه المسائل نفسها يمكن طرحها عند بحث مسألة التوحيد مع اختلاف طفيف تحت عنوان «الخير والشر» . ويكمن الإشكال في أنّ : هناك مبدأً ثنائياً يتحكّم بالطبيعة ، وعليه يلزم أن يكون للمسألة أصلاً . في الواقع ، أنّ مسألة الخير والشرّ تُبحث أحياناً في باب التوحيد لتفنيده شبهة الثنوية ، وتُبحث أحياناً أخرى في باب العناية الإلهية التي ترجع إلى مسألة الحكمة البالغة .

وهنا يقال : إنّ العناية الإلهية تستوجب أن ننسب كلّ حدثٍ إلى الخير والكمال ، وإنّ النظام الموجود هو النظام الأمثل ؛ ولذا فمن المفروض أن لا تكون هناك شروور ونقائص تُنزل بالنظام الأمثل أذىً كبيراً ، في حين أنّنا نشهد وجود هذه الشروور والنقائص موجودة

مسألة الشروور :

إنّ الإشكال المزدوج الوارد على العدل والحكمة الإلهيتين يكمن في وجود المصائب والمحن ، وبعبارة أدقّ «مسألة الشروور» .

ويمكن إدراج مسألة الشروور في باب الظلم ، أي باعتبارها مثلباً موجّهاً إلى العدل الإلهي ؛ ويمكن أن تدرج كذلك في باب الظواهر العبيثية كنفية للحكمة الإلهية البالغة . ومن هذا المنطلق ، يمكن اعتبارها أيضاً سبباً للانحراف نحو الماديّة .

فمثلاً عندما نعتبر التحصينات الدفاعية والأمنيّة للكائنات الحيّة ضدّ الأخطار شاهداً ودليلاً على النظام والحكمة الإلهيتين ، يطرح هذا السؤال نفسه وهو : لماذا يوجد هناك خطر أساساً حتّى تبرز الحاجة إلى اتّخاذ

أنظمة دفاعية وأمنية ؟

ما الهدف من وجود جراثيم ضارة حتى تتم محاربتها بواسطة الكريات البيض ؟

لماذا تُخلق الوحوش المفترسة لتكون هناك حاجة إلى امتلاك أرجل قوية للفرار أو قروناً قوية للدفاع ؟

ففي عالم الحيوان نرى مثلاً أن الحيوانات الضعيفة المعرضة للافتراس من قبل الوحوش والحيوانات القوية تتميز بالخوف والجفول وغريزة الفرار ، في حين تتسم الأخيرة بالوحشية وصفة الافتراس .

ويواجه بنو البشر سؤالاً محيراً وهو : لماذا كل أسباب الهجوم والاعتداء تلك حتى يكون هناك بالمقابل وسائل دفاعية مصممة على أساس محسوب ومدروس ؟

وكما ذكر آنفاً فإن مسألة الشرور تصطدم ببحوث الإلهيات في مكان آخر كذلك ؛ وأعني بذلك مسألة : التوحيد والثنوية .

الثنوية .

صنّف البشر ، وخصوصاً الجنس الآري ، منذ أقدم العصور ، الظواهر في العالم إلى قسمين (الخير والشر) . فكانوا يعتبرون النور والمطر والشمس والأرض وأشياء أخرى كثيرة في عداد الخير أو الحسنات ؛ في حين عدّ الظلمة والجذب والقحط والفيضان والزلازل والأمراض والوحوش المفترسة والعظائيات في عداد السيئات والشرور .

والواقع ، فإنّ البشر كان يتخذ من نفسه مقياساً لهذا التصنيف ومحوراً له ؛ أي أنه كان يصنّف كلّما يدرّ عليه بالخير والفائدة في قائمة الخير ، وفي المقابل كان يطلق على كلّ ما يجلب له الضرر شراً .

حتى خطرت هذه المسألة في أذهان الأوائل من البشر وهي هل يكون خالق الحسنة والخيرات هو نفسه الخالق للسيئات والشُرور، أم أنّ للخيرات خالق وللسيئات موجداً آخر غيره؟ وهل يكون الخالق للخير والشرّ واحد أم يجب القول بوجود مبدأين في هذا العالم؟

فاعتقد البعض أنّ ذلك يعتمد على الخالق نفسه، فإمّا أن يكون خيراً وخيّراً، أو أن يكون شرّاً وشرّيراً. فإن كان خيراً أحجم عن خلق الشرور، وإذا كان شرّاً امتنع عن إيجاد الخيرات والحسنة. فاضطروا، نتيجة لذلك، إلى الاعتقاد بمبدأين وخالقين في هذا العالم.

وهنا ظهرت الثنوية في إيران القديمة، وهي عبادة إلهين معاً، فآمنوا بوجود إلهين هما أهورامزدا وأهريمن اللذين عبّر عنهما فيما بعد بيزدان وأهريمن.

ويروي لنا التأريخ أنّ الجنس الآريّ ذهب بعد استقراره في بلاد إيران إلى عبادة مظاهر الطبيعة - مظاهر الخير بالطبع - كالنار والشمس والمطر والتراب والريح.

ويعتقد المؤرّخون أنّ الإيرانيين لم يعبدوا الشرور؛ إلاّ أنّه كان هناك شعبٌ غير الجنس الآريّ يعيش جنباً إلى جنب معه وكان هذا الشعب هو الذي يعبد السيئات والشرور كذلك حيث كان الهدف من عبادته تلك إرضاء الأرواح الخبيثة.

فما كان موجوداً في إيران القديمة يتمثل بالاعتقاد بأصلين وخالقين وليس عبادة إلهين معاً. أي أنّ الإيرانيين كانوا يقولون بـ«الشرك في الخلق» لا «الشرك في العبادة».

ثمّ ظهر زرادشت بعد ذلك؛ ولا يُعرف بوضوح من الناحية التأريخية على الأقلّ فيما إذا كانت دعوة زرادشت هذا في الأصل دعوة توحيدية أو

دعوة ثنويّة .

مضافاً إلى ذلك فإنّ كتاب الأوستا الموجود في حوزتنا حالياً لم يتكفل برفع تلك الشبهة أو إزالة ذلك الغموض ، ويرجع السبب في هذا إلى وجود اختلاف وتناقض كبيرين بين أجزاءه وفصوله المختلفة . فالقسم المسمّى منه بال « وَنْدِيدَاد » ينطق صراحة بالثنويّة ، في حين لا يمكن العثور على ذلك في القسم الذي يبدأ فيه من الـ « كَاتَا »^١ بجلاء ، بل العكس من ذلك فإنّ بعض المحققين يجيز لنفسه الادّعاء باستنباط آثار واضحة المعالم حول التوحيد في هذا القسم .

وبسبب هذا التباين والاختلاف الكبير يعتقد أهل البحث والتحقيق : أنّ كتاب الأوستا الموجود حالياً ليس من نتاج شخص واحد ، بل إنّ كلّ جزء منه يعود لشخص معيّن .

والبحوث التّاريخيّة في هذا الحقل غير وافيه ، لكننا وطبقاً للتصورات الإسلاميّة التي نحملها عن المجوس نستطيع أن نستنبط بأنّ الديانة الزرادشتيّة كانت في البداية شريعة توحيدية . لأنّ الزرادشتيين ، وحسب اعتقاد غالبيّة العلماء المسلمين ، يدخلون تحت لواء أهل الكتاب . ويؤيّد الباحثين من المؤرّخين كذلك هذه الفكرة ويضيفون بأنّ تأثيرات الثنويّة كانت موجودة في الدين الزرادشتيّ حتّى قبل ظهور زرادشت نفسه فيما يخصّ عقيدة عبادة إلهين عند الجنس الآريّ .

ويجب الإشارة هنا إلى أنّه يمكننا اعتبار شريعة زرادشت إحدى الشرائع التوحيدية فقط عن طريق منهج التعبّد ، أي من خلال الآثار الإسلاميّة ، فمن الناحية التّاريخيّة أو الآثاريّة التي تُنسب إلى زرادشت ،

١- هو الفصل المنظوم من أغاني زردشت .(م)

لا يمكننا الاستناد إلى الـ «گاتا» فحسب واعتبارها معياراً للبت فيما إذا كان دين زرادشت توحيدياً أم لا ، وذلك لأن أقصى ما توصل إليه الباحثون في باب التوحيد بالاستناد إلى الـ «گاتا» هو أنّ زرادشت كان مؤيداً للتوحيد الذاتي ، أي أنه كان يقول بوجود موجود واحد قائم بذاته ذلك هو «أهورامزدا» وأنّ جميع الموجودات - بما فيهم أهريمن أنگره مئيو «أنگره مئيو» - هي مخلوقات أهورامزدا .

أي أنه لم يقل بغير أصل واحد لشجرة الوجود ، إلا أنه كان ثنويّاً بمعنى الكلمة من جهة التوحيد في الخالقية ، إذ استفاد من تلك التعاليم أنّ القطب المخالف لـ «انگره مئيو» (= الفكرة الخبيثة) هو «سپنت مئيو» (= الفكرة المقدسة) فـ «سپنت مئيو» هو مصدر الأشياء الحسنة ، أي تلك الأشياء النابعة من الخير والتي يجب أن تكون كذلك .

في حين أنّ «انگره مئيو» أو «أهريمن» هو مصدر الشرّ ، أي مصدر الأشياء التي ما كان من الواجب أن تُخلق : وأهورامزدا ليس مسؤولاً عن خلق هذه الأشياء ، بل المسؤول هو «أنگره مئيو» .

وطبقاً لهذه الفكرة فإنّ الوجود ذو شعبتين وإن كان ليس ذا أصلين . أي أنّ الوجود الذي ينبثق عن أهورامزدا ينقسم إلى شعبتين : شعبة الخير التي تمثّل «سپنت مئيو» وآثاره الحسنة ، وشعبة الشرّ التي تمثّل «انگره مئيو» وكلّ مخلوقاته وآثاره الشريرة .

فلو اتخذنا الـ «گاتا» ، وهو الكتاب المعترف الوحيد الذي بحوزتنا من زرادشت ، معياراً فإننا سنرى أنّه قد وقع في خمس أو ست حالات متناقضة من الخير والشرّ وأنّ النظام الموجود ليس بالنظام الأمثل الذي ينسجم والحكمة البالغة . ولعلّ هذه هي الصفة الوحيدة التي تفصله عن قافلة الأنبياء .

وبسبب هذا النقص وأُمور أُخرى لم يتمكن دين زرادشت من محاربة الثنوية ؛ بحيث إنها (الثنوية) عادت من جديد بين الإيرانيين بعد وفاة زرادشت لتقول بأصلين اثنين للوجود ، وكان أتباع الدين الزرادشتي في العهد الساساني والمانوية والمزدكية (اللتين يعتبرهما الإيرانيون شعبتين من الزرادشتية) يمثلون ذروة الثنوية .

والواقع أنه يجب القول : إن دين زرادشت فشل في استئصال أصول الشرك وجذور الثنوية من قلوب الإيرانيين ولو في حدود التعاليم الـ « كاتا » ، بل يمكن القول أيضاً إنه هو نفسه أصبح أسير العقيدة الخرافية والتحريف . في حين استطاع الإسلام وحده طرد هذه الخرافة من عقول الإيرانيين والتي كانت راسخة فيهم لآلاف السنين بفضل كلمة لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

هذه هي إحدى مظاهر عظمة الإسلام وتأثيره العميق في روح الإيرانيين حيث تمكن من إنقاذهم من براثن الثنوية التي كانت معجونة في دماءهم وكانوا مكبلين بقيود هذه الخرافة التي اضطرتهم حتى إلى تحريف دينهم في سبيلها - لدرجة حدت ببعض المستشرقين (أمثال دومزيل) إلى الاعتقاد بأن الثنوية هي أساس الفكر الفارسي . -

نعم ، إنه الإسلام الذي صنع من الإيرانيين شعباً موحداً بعد أن كان يؤمن بالثنوية ، وقد استولى عليهم حبُّ الله والخليقة والوجود والعالم وملاً كل كيانهم بفضل كلمة الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ^١ والاعتقاد ب: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ^٢ ، والإيمان

١- صدر الآية ١ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢- صدر الآية ٧ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

وإدراك حقيقة أن: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى؛^١ حتى أنشدوا في مدح نظام الوجود قائلين:

به جهان خرّم از آنم که جهان خرّم از اوست
عاشقم بر همه عالم که همه عالم از اوست

به ارادت بخورم زهر که شاهد ساقی است
به جلادت بکشم درد که درمان هم از اوست^٢
ولم يكتفِ الإيرانيون بعدم القول بأنّ الشرور أصلٌ موازٍ لله، بل
آمنوا بتلاشي الشرور وذلك من زاوية عرفانية راقية، فقالوا: لا وجود للشر
أساساً أو: إنّ الشرّ عدم.^٣

١- الآية ٥٠، من السورة ٢٠: طه: قَالَ رَبُّنَا... - الآية.

٢- يقول: «إني سعيد ومُبتهج بهذا العالم لأنّ العالم كلّ سعيد ومُبتهج به هو؛ وأنا عاشقٌ لكلّ العالم لأنّ العالم كلّ أت منه (ومخلوق من قبّله).
إني لأشرب السمّ بفرح ورغبة إذ إنّ ساقِي ذلك هو الحبيب؛ وأتحمل الألم والمعاناة بجَلَدٍ وشكّيمة (لأنّي أعلم) أنّ العلاج والشفاء بيده هو».
ديوان «سعدی» (التعليقة).

٣- وردت في كتاب «أمثال وحكم دهنخدا» ج ١، ص ٣٩٩، باب «ب د ا»، بعد بيان هذا المثل، عبارة: «راجع الوجود خيرٌ وراجع: أبلهي ديد ... شود» وفي ص ٢٨٠ وردت عبارة: «الوجود خيرٌ. نظير: الشرّ عدم. راجع أبلهي ديد ... شود».

وقال في ص ٧٩ و ٨٠:

گفت نقشت همه کز است چرا؟ ابلهي ديد اشتري به چرا
عيب نقاش می کنی هس دار در گفت اشتر که اندرين پيکار
توز من، راه راست رفتن خواه کزيم مکن به عيب نگاه

(السنائي)

يقول: «رأى أحقّ جملاً يرعى في المرعى؛ فقال: لماذا كلّ هذا الاختلاف والتشوّه

⇐

في شكلك وخلقتك؟

.....

﴿ فقال الجمل؟ هل تعيب الخالق والصانع بكلامك هذا؟

فلا تنظر إلى شكلي وخلقتي؛ بل انظر إلى سيرتي ومشيتي المستقيمة.﴾

ومثله:

هر چیز که هست آنچنان می باید آن چیز که آنچنان نمی باید نیست

(الخيام)

وقد نسب البعض هذه الرباعية كذلك إلى الخواجة الطوسي (التعليقة).

يقول: «إنَّ كلَّ ما هو موجود هكذا قَدَّر له أن يكون؛ وكلَّ ما ليس مقدَّر له أن يكون

ليس موجوداً».

*** ليس في الإمكان أبدع مما كان ***

(الغزالي)

Tout est au mieux dans le meilleur des mondes Possibles (التعليقة).

* هر چیز بجای خویش نیکوست *

يقول: «كلُّ شيءٍ حسنٍ في موضعه» (الشبستري).

هر چیز که هست آنچنان می باید ابروی تو گر راست بدی کج بودی

يقول: «إنَّ كلَّ ما هو موجود هكذا قَدَّر له أن يكون؛ فلو كان حاجباك مستقيمين

لبدوت شاذاً وقيحاً».

* اندرین ملک چو طاووس به کار است مگس *

يقول: «إنَّ الذبابة شأنها شأن الطاووس، فهي مشغولة بعملها (ولها واجبات وحقوق

معينة لها كما هو الحال مع الطاووس)» (السنائي).

لا مُعطلٌ في الوجود.

شاه را چون خزانة آر اید چیز بد هم چو نیک در باید

(السنائي)

يقول: «إذا نظَّم السلطان خزانته؛ فإنَّ الطيب والخبيث على السواء يكون فيها مُنظَّمًا».

اژدهاگر چه عمر کاهان است هم نگهبان گنج شاهان است

مار اگر چه به خاصیت نه نکوست پاسبان درخت صندل اوست

مرگ هر چند بد نکوست ترا مال ومیراث جمله زوست ترا ﴿

مرگ ، این را هلاک و آنرا برگ زهر این را غذا و آنرا مرگ
(السنائی)
يقول : «إِنَّ التَّنَانِينَ وَإِنْ كَانَتْ تَهْدِدُ حَيَاةَ النَّاسِ ؛ فَإِنَّهَا فِي نَفْسِ الْوَقْتِ تَحْرُسُ كَنُوزَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينَ.

والحيّة وإن كانت غير مرغوبة لذاتها ؛ لكنّها ترعى شجرة الصندل.
والموت وإن كان نذير شؤم لك ؛ فإنّه يورثك المال والثروة.
والموت يهلك واحداً ويُغني آخراً ، كالسمّ هو غذاء للبعض وهلاك للبعض الآخر».
مدان بدهر آن بدنمائی که هست که آن نیز نیکوست جائیکه هست
سیه مار کز کفچه شد زهرسنج زر پخته هم بخشد از دیگ گنج
همان زهر کو دشمن جان بود بسی دردها را که درمان بود
(أمیر خسرو)

يقول : «لا تحسبن السيئ ما يبدو سيئاً ؛ فإنّ ذلك (السيئ) حسن وجميل في المكان الذي خُلِقَ له.

رُبّ أفعى سوداء مفلطحة ذات سمّ قاتل دلت على الذهب كذلك.
فإنّ ذلك السمّ الذي هو عدوّ للروح وقاتلها ؛ قد يكون ترياقاً ودواءً وعلاجاً ناجعاً لكثير من الأوجاع والأمراض».

اهل هنر گر بشماری درند بی هنران نیز بکاری درند
نی که تهی روید از خاک رود گر بدمد باد سر آید سرود
قهقهه زد کبک به رفتار زاغ کز چه نهی پای پریشان به باغ
زاغ بدو گفت که پرواز کن گر گرو از من ببری ناز کن
هیچکسی نیست ز زیبا وزشت کش نه حکیم از پی کاری سرشت
(عن «زُهر الریاض»)

يقول : «إذا وضعت أهل الصنعة والحرفة والمهارة كلاً في موضعه ؛ فسيكون لأولئك الذين لا حرفة لهم ولا صنعة مكاناً أيضاً ينشغلون به.
فحتّى القصبه التي تراها جوفاء ووحيدة تنمو في الأرض ؛ يكون لها صفيّر عند هبوب الريح عليها.

قال الغزالي: **لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ أَبَدَعُ مِمَّا كَانَ** ، أي أنه لا يمكن أن يوجد نظاماً أجمل من النظام الموجود . إنه الإنسان الذي تربى في مدرسة الإسلام ، والذي صار يمتلك هكذا تفكير لطيف وسامٍ ، وهو وحده يرى كلّ البلايا والمصائب والمعاناة التي تبدو قبيحة وغير مرغوب فيها ، جميلة وإنها لطف وذلك من زاوية أسمى وأعمق .

بر كار هيچكس منه انگشت اعتراض

آن نیست کلكِ صنّع كه خطّ خطا كشد^١

وقد بيّن الشاعر حافظ هذه الحقيقة كذلك بنظمٍ ذي معنيين غامض :

پير ما گفّت خطا بر قلم صنّع نرفت

آفرین بر نظر پاک خطا پوشش باد^٢

ويقصد بذلك أنّ الشيخ الكبير والمُسنّ يعتبر جميع الأخطاء زائلة ومحجوبة وذلك من وجهة نظر راقية ورؤية سامية ؛ وهناك سوف لن ترى العين أيّ خطأ .

فعين الشيخ ترى جميع الأشياء جميلة وزاهية ، فكلّ الأخطاء بالنسبة لها نسبيّة وقياسيّة ، وهي (الأخطاء) لا تُرى إلا من خلال نظرة متدنيّة

⇐ سَخر السمانى من مشية الزاغ قائلاً: فيم حضورك وتجوالك في هذا البستان؟
فأجاب الزاغ: تعال نتبارى في الطيران؛ فإذا غلبتني حينئذٍ يحقّ لك الدلال.
فلا فضل لأحد على أحد لا في الجمال ولا في القبح؛ فذاك صنع الحكيم وله في ذلك
حكمة».

١- يقول: «لا تعترض على عمل أيّ أحد؛ فليس قلم الخالق الصانع -الذي يجزّ خطّ
البطلان على الأشياء- بيدك».

٢- يقول: «قال شيخنا ومُرشدنا إنّ قلم الصنع والخلقة لم يخطئ، فمرحى للنظر
النزيه الستار للعيوب!».

ومستوى واطئ .

ولا جرم أن هذا النمط من التفكير ولّد خصلة حميدة في الأخلاق الإسلامية قوامها الرضا بالقضاء وتقبل الأنظمة الكونية .
يقول المولوي :

عاشقم بر لطف وبر قهرش به جد

اين عجب ، من عاشق اين هر دو ضد^١

وللحكيم الباحث السبزواري قدس سره بحث موجز وشامل حول شبهة الثنويين في كيفية تأثير الموجودات الخبيثة والمضرة والتي يُعبر عنها بـ «الشور» فهو يقول :

عُرِّرَ فِي دَفْعِ شُبْهَةِ الثَّنَوِيَّةِ ، بِذِكْرِ قَوَاعِدِ حِكْمِيَّةٍ :
ثُمَّ الْوُجُودَ أَعْلَمَ بِلَا التَّبَاسِ

خَيْرًا هُوَ النَّفْسِيُّ وَالْقِيَاسِيُّ

وَالْخَيْرُ كَالشَّرِّ اِحْتِمَالًا حَوِيًّا

الْمَحْضُ وَالْكَثِيرَ وَالْمَسَاوِيًّا

فَالْمَحْضُ كَالْعُقُولِ وَالَّذِي كَثُرَ

خَيْرَاتُهُ مِثْلُ الْمَعَالِيلِ الْأُخْرَى

إِذِ الْكَثِيرُ الْخَيْرِ مَعَ شَرٍّ أَقْلُ

فِي تَرْكِهِ شَرٌّ كَثِيرٌ قَدْ حَصَلَ

١- يقول : «إني أعشق لطفه وغضبه ؛ وهذا عجب أن أكون عاشقاً لشيئين نقيضين أو ضدّين» .

«العدل الإلهي» ص ١٣ ، إلى ٢١ ، منشورات حسينية الإرشاد ، ذي الحجة الحرام

١٣٩٠ هـ .

تَرْجِيحُ مَرْجُوحٍ وَمَا تَمَانِيًا
 شَرًّا كَثِيرًا مَعَ مُسَاوٍ أَبْطَلَا
 وَالشَّرُّ أَعْدَامٌ فَكَمْ قَدْ ضَلَّ مَنْ
 يَقُولُ بِالْيَزْدَانِ ثُمَّ الْأَهْرَمَنْ
 وَإِنْ عَلَيْكَ اعْتَاصَ تَأْثِيرُ الْعَدَمِ
 مِزْ سَلْبَ قَرْنٍ مِنْكَ عَنْ سَلْبِ النَّعْمِ

وفيما يلي موجز ما ورد في شرح هذه الآيات والتعليق عليها :
 «ونذكر هذا البحث لدفع شبهة الثنوية (القائلين بأصلين وعبادة
 الأزل). فهم يقولون : إننا نرى الخيرات والشرور في عالم الوجود مثل
 الجدب والقحط والغلاء والوباء والأمراض والفتن والمحن ونحو ذلك ،
 ولا يُجيز لنا عقلنا أن نعتبر هذه الشرور نابعة من مبدأ الخير المحض الذي
 يوصف بالسلامة والرحمة والغنى عن العالمين ؛ وعلى هذا يجب القول إنه
 نابع من مبدأ شرير غير مبدأ الخيرات وناشئ عنه . ويدعون ذلك
 بـ «أهريمن» .

ويعتقد القائلون بأصلين وإلهين أنه «أي أهريمن» قديم وفعال
 ويمتلك حرية واستقلالاً تامين لإيجاد الشرور وخلقها . وبواسطة عقيدة
 القدم والاستقلال هذه انفصل أرباب الشرائع والملل الإلهية عن مذهبهم .
 وذلك ، لأن الشيطان لا هو قديم ولا هو يمتلك استقلالاً في العمل ، بل هو
 مخلوق من مخلوقات الله لا يمتلك فاعلية استقلالية ، لأن الوجودات
 الإمكانية ، بشكل عام وكلّي ، مجعولة ومخلوقة من قبل الله تعالى .

لكن الوجود في ذاته وبالنسبة إلى الغير هو خير من الناحيتين .
 فالوجود الذاتي هو الوجود الذي يمكن ملاحظته في حدّ نفسه ويطلقون
 عليه اسم الوجود النفسي . والوجود النسبي هو الوجود الذي لا يمكن

ملاحظته إلا بإضافته ونسبته إلى الغير ، ويسمونه بالوجود الإضافي .
وعلينا أن نعلم أن الوجود خيرٌ على الإطلاق ، سواء أكان وجوداً
نفسياً أم وجوداً إضافياً . ولا يمكن تصوّر الشرّ في الوجود النفسي ، وأمّا
في الوجود الإضافيّ يمكن ملاحظة شرٌّ قليل في بعض الأشياء التكوينية
التي تقبل الفساد ، وذلك عند مقارنتها مع الموجودات التي تكون من نفس
طبقتها و صنفها ومقايستها بها .

وأما قولنا عند مقارنة تلك الموجودات مع موجودات أخرى من
نفس طبقتها ، فالسبب في ذلك هو أننا نقوم في بعض الأحيان بقياس
الموجودات الإضافية مع عللها ، وفي هذه الحالة لا نرى انعدام الشرّ فيها
وحسب ، بل نرى أنّ جميع المعلولات متطابقة مع عللها التي أوجدتها
ومنسجمة معها .

وهناك الموجودات الإضافية والنسبية قياساً إلى الموجودات الأخرى
من نفس الطبقة ، حيث تصدر عنها أحياناً بعض الشرور . وهنا يبقى أمامنا
أن نجيب ونبرهن على أنّ تلك الشرور هي خير وأنّ وجودها فرض ، أي
أنّها أمر عديمي ولا وجود لها في عالم الكينونة أصلاً .
فاختار أرسطو طاليس الجواب الأوّل في حين آثر أفلاطون الجواب
الثاني .

فأمّا جواب أرسطو المنقول عن كتب الحكمة فهو : أننا ننيط الشبهة
في ذلك إلى الخير والشرّ في تقسيمنا للوجود ، ونتخذ من هذا النمط من
التقسيم نفسه لدفع الشبهة .

على أساس أنّ : كلاً من الخير والشرّ يمكنه أن يكون محضاً أو كثيراً
أو مساوياً من جهة الاحتمال العقليّ ، وذلك لأنّ الشّيء الخارجيّ أو الخير
هو محضٌ مثله كمثل العقول ؛ لأنّها لا تمتلك قابليّة ولا تأهباً ، بل هي فعلية

محضة وكلمات إلهية تامة لَا تَنْفَدُ وَلَا تَبِيدُ ؛ وهي أيضاً كالفلكيات . وعلى هذا فإن هذا النوع من الموجودات هي خير محض بالمعنيين النفسي والنسبي ، وهي موجودة في الخارج ومنوطة بالحق تعالى وتقدس ومربوطة ومعلولة به .

فإذا تغلب خيرها على شرّها فهي كثيرة الخير مع شرّ قليل مثل باقي المعلولات والموجودات في عالم الكون والفساد والطبيعة . وفي هذه الصورة يجب أن تكون موجودة حتماً لأنّ الخير والشرّ نقيضان : الخير = اللا شرّ ؛ والشرّ = اللا خير . ولما كان رفع هذين النقيضين أمراً محالاً فإنّ عدم وجود كثير الخير وقليل الشرّ = وجود كثير الشرّ وقليل الخير .

أي أنّ عدم وجود موجود كثير الخير أو قليل الشرّ يلزم وجود موجود قليل الخير وكثير الشرّ . ولما كنّا نعلم أنّ هكذا موجود محال وجوده من جانب العلة الأولى ، أي الحق تعالى ، وذلك بواسطة لزوم ترجيح المرجوح ؛ فعلى هذا محال أن يوجد هكذا موجود ، ومن جانب آخر يكون نقيضه ، أي المعلولات الكثيرة الخير والقليلة الشرّ ، لازم الوجود . كان على افتراض أن يكون خيرها كثيراً وشرّها قليلاً .

وأما إذا كان كلا خيرها وشرّها متساويين ومتناظرين ، لزم أن يكون ذلك ممتنع التحقق في الخارج كذلك بسبب استحالة الترجيح من دون مرجح . أي أنّ إيجادها وخلقها من لدن الحق تعالى محال ، لأنّ خيرها وشرّها في كفتين متساويتي الوزن والاعتبار .

وأما إذا كان شرّها كثيراً وخيرها قليلاً أو كانت شرّاً محضاً ، ففي كلتا صورتين يكون إيجادها من لدن المبدأ تعالى مستحيلاً . ففي الصورة الأولى بسبب يكون ذلك بسبب ترجيح المرجوح ، في حين يرجع السبب في الصورة الثانية إلى الأولوية في عدم الإيجاد ، وذلك لأننا إذا اعتبرنا

صورة قليل الخير وكثير الشرّ مُحالة ، وأنّ صدورها من المبدأ الفيّاض صاحب الرحمة غير ممكن ، فمن باب أولى أن يكون إيجاد موجود هو شرٌّ محض مستحيلاً .

وأما ما يقوله الحكماء إنّ : الوجود خيرٌ بذاته ، فذلك لأنّ ديدن الوجود طرد العدم ونفيه ، ورفع القوّة والاستعداد وإزالتها وإضفاء الفعلية ، وهو النور الصريح والظهور البيّن وعين الحبّ المطلوب .

ألا ترّ إلى النملة كيف تنقبض وتنكمش فوراً إذا ما نَحَسَتْ رأسها بطرف الشوكة المدبّ ؛ فتولّي هاربة خوفاً من مفارقة معشوقها الذي هو وجودها والذي هو مقوم وجودها وقيوم حقيقتها .

وسبب ربطنا عنوان الشرّ ببعض الأشياء الكونية القابلة للفساد في أوقات قصيرة هو أن لا وجود للشرّ في الأفلاك والفلكيات ، فما بالك بوجوده في عالم الفعليات والعقليات .

وذلك إمّا أن يكون الشرّ معدوم الذات ، أو غير مكتمل الذات ؛ كفقْدان أصل البدن أو فقْدان صحّته ، وكعدم وجود الفاكهة أو كعدم وجود اللون والطعم المتوقّع منها بسبب عروض البرد وغيره . ولهذا فلا مجال لتحقّق الشرّ في العالم العلويّ الذي لا يأتيه الفساد من بين يديه ولا من خلفه .

نعم ، يمكن توقّع النقص وتحقّقه في جميع ما سوى الله ، إلّا أنّنا يجب أن نعلم أنّ النقص غير الشرّ إلّا إذا استخدمنا الشرّ مجازاً في الناقصات .

وأما سبب قولنا بالأوقات القصيرة ، وذلك مثلاً إذا قسنا تضرّر زيد في بدنه وأمواله بسبب مجاورته للنار مع مقدار انتفاعه بها سواء من ناحية قوام وجوده الأصليّ أم من ناحية تكامله ؛ سنرى أنّ نسبة ذلك مع المنافع

التي لا تُحصى والتي يمكنه استغلالها قليلة جداً ، فما بالك بمقارنة تضرّره مع المنافع التي تحصل عليها جميع الموجودات في عالم التركيب وغيرها من النار .

وأما اقتصار الموجودات في العالم بالخير المحض وبكثير الخير فلأنّ كلّ واحد من هذين العنوانين (الخير والشرّ) ينقسم إلى أربع صور باعتبار تجويز العقل هي : المحض ، الأكثر بالنسبة إلى العنوان المقابل ، والأقلّ بالنسبة إلى العنوان المقابل ، (وأخيراً) المساوي . ومن الصور الثمان هذه فإنّ صورة الأكثرية لكلّ واحد بالنسبة إلى المقابل تستلزم الأقلية لكلّ واحد بالنسبة إلى ذلك ؛ وعلى هذا تسقط تلك صورتان . ويضحى عنوان (المساوي) كذلك الذي هو مكرّر واحداً ، فيكون الباقي خمس صور فقط . صورتان موجودتان في الخارج هما صورة الخير المحض وكثير الخير .^١ وثلاث صور أخرى هي صورة الشرّ المحض وكثير الشرّ والمساوي الممتنع .

لا ريب أنّ تقسيم الخير والشرّ في الوجود على هذه الشاكلة يتمّ بحسب الفرض العقليّ واحتماله ؛ وإلا فقد علمنا أنّ ما هو متحقّق في

١- وليس مناسباً أن يُهمل الخالق الحكيم كثير الخير وقليل الشرّ في حالة وجوده ولا يخلقه. فلا يجب إهمال وجود النار في الخارج أو حذفها من قائمة المخلوقات لمجرد شرّها القليل الذي لا يمكن إعارته أهميّة تُذكر مع كلّ ما تحمله في طبيّاتها من خيرات لا تحصى ولا تُعدّ.

ومضافاً إلى ذلك فهي مجعولة بالعرض لكونها مؤدّية إلى شرور قليلة، ومجعولة بالذات لكونها ملزومة بالخيرات الكثيرة . ولهذا وخصومة العدوّ الجزئيّة لا للخوف من الميت أو خشية عدم وصول الرزق ، إلاّ بالعرض . ويمكن قياس باقي أمثلة الشرور على هذه الأمثلة أيضاً. (التعليقة)

الخارج لا يتعدّى أن يكون إحدى صورتين فقط .
هذا هو منهج أرسطو في حلّ المسألة بهذه الطريقة ، وذكروا أنّه كان
يفتخر في دفع الشبهة بهذه الطريقة ، لأنّه جعل مناط دفع الشبهة هو نفسه
مناط الشبهة التي تمثّل تقسيم الوجود إلى الخير والشرّ ؛ ولكن مع هذا فإنّ
المنهج الذي انتهجه أفلاطون يبدو أكثر استقامة وسلاسة وحلاوة .
يقول أفلاطون : ليس للشرّ وجود خارجيٍّ على الإطلاق ، بل هو
عدم . بمعنى الشرور القليلة التي تقع في الخارج لا تحتاج إلى علّة
الموجود ، لأنّها تعود إلى العدم ، كما أنّ الوجود يعود إلى الوجود .
ومحصّل هذا الكلام هو : الوجود علّة الوجود ، والعدم علّة العدم ، أي
أنّ علّة الأشياء الموجودة يجب أن تكون موجودة حتماً ، في حين يكفي
عدم تحقّق علّة الوجود في الأشياء المعدومة ؛ إذاً فعلة العدم عبارة عن عدم
علّة الوجود .

وعلينا أن نعلم أنّ الشرور التي تحدث في الخارج ليست كسائر
الأُمور العدميّة فتكون نافية للإيجاب ، بل إنّها معدومة المَلَكَة ، ولا حظّ
للوجود في معدوم المَلَكَة . وعلى هذا يجب أن لا يستعصي على الإنسان
فهم تأثير العدم في إيجاد الشرّ .

وتشبه حالة معدوم المَلَكَة حالة العدم في الشيء الذي يمتلك
المقومات والعوامل اللازمة لأن يوجد ولكن لا يتحقّق هذا الوجود ،
كالعمى الذي هو أمرٌ عديميٌّ ، لكنّ حالة عدم الإبصار هذه موجودة في إنسان
يمتلك عينين وكان يمكن له الرؤية بواسطتهما .

فإذا أُصيب شخص ما بالعمى فهذا يعني أنّ شرّاً ما قد حصل ، لأنّه
إنسان يمتلك قابليّة الإبصار وعلى أن يكون ذا عينين . ويقال لهذا العدم أي
عدم وجود علّة الإبصار شرّاً . لأنّ مرجعه هو انعدام تحقّق علّة وجود

الإبصار . وواضح أنّ انعدام علّة الإبصار تسبّب في العمى . إذاً علّة الشرّ هنا كانت أمراً عدمياً وهو عدم تحقّق علّة الإبصار في الخارج . وعلى هذا لا يُسمّى الجدار الذي لا عين له أعمى وذلك لفقدانه قابليّة امتلاك العين . واستناداً إلى هذا ، فإنّ عدم امتلاك الجدار للعين لا يُعتبر شرّاً بالنسبة له سوى أنّه سلب هذا العنوان ، أي عدم امتلاكه للعين كسائر الأمور العدميّة .

فإذا تأملت جيّداً ستري أنّك لا تمتلك قروناً ! وهذا ليس بشرّاً أو عيب أو ضرر لك ، وذلك لأنّ الإنسان ليست له قابليّة امتلاك القرون ، ولم تُخلَق في وجوده تلك القابليّة أصلاً حتّى يتسبّب فقدانها في إيجاد منقصة أو عيب أو ضرر فيه . في حين أنّك لو ألفت نفسك أصمّاً أو أعمى أو أبكماً فهذا هو الشرّ والضرر والعيب بعينه ، لأنّ ذلك حصل في حالة امتلاك لحاسة السمع والبصر والنطق . ولهذا يبدو واضحاً لك أنّ علّة الصمم تكمن في عدم وجود علّة السمع ، وعلّة العمى في عدم وجود علّة البصر ، وعلّة البكامة في عدم وجود علّة النطق وحسب ، لا أمراً وجودياً آخر غير ذلك .

وعلى هذا الأساس ، فإنّ علّة جميع أقسام العدميّات هي العدم ؛ أي عدم علّة الوجود . وأمّا فيما يخصّ مسألة الشرور فإنّ هذا العدم يتخذ لنفسه صبغة خاصّة وعدم ملكة ، لأنّه متحقّق في موضوع كان له قابليّة الوجود في حين كان يفتقدها .

فما أضلّ أولئك الذين كانوا يقولون بأصلين لهذا العالم (يزدان) و(أهريمن) . إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده خالق الوجود ولا علّة للانعدام سوى العدم . فلم يخلق الله سبحانه في الأعمى علّة الإبصار ، وعلى هذا فعلة ذلك عدم إيجاد علّة الوجود ، لا أن يكون للعمى علّة خاصّة به في مقابل

البصر .

وما أكثر وضوح مسألة انتماء مسألة الشرور إلى الأمور العدميّة حتّى تمّ اعتبارها من البديهيّات . أي أنّهم اعتبروا خيريّة الوجود وشرّيّة العدم من البديهيّات ، وعلى هذا فهي لا تحتاج إلى برهان . ومع ذلك فقد ذكر العلامة الشيرازيّ دليلاً قوياً وبرهاناً ساطعاً على ذلك في شرح «حكمة الإشراف» .

ولذا فإنّ أولئك الذين قاموا بقدرح العلماء والإشكال عليهم قائلين : لقد اكتفوا بذكر الأمثلة العديدة لهذه المسألة ولم يبرهنوا ذلك ووقعوا في الخطأ ، مع أنّ لهذه المسألة أهميّة قصوى في التوحيد .

ومن جملة الأمثلة التي ذكروها في هذا الباب ، هذا المثال وهو إذا قام أحدٌ بقتل شخص ما ، فلا جرّم أنّ الضرر والشرّ قد وقعاً للمقتول في عمليّة القتل هذه . وعليه يجب البحث والتقصّي في هذه المسألة للعثور على مكن علة الضرر والشرّ ؟ فهل يكمن العيب والضرر والشرّ في قدرة القاتل وحركة يده ، أم في حدّة سيفه ، أم يكمن في تقبّل عضو الشخص المقتول وضعفه الذي أدّى إلى قبول القطع ؟ أم أنّ ذلك يكمن في أمور وجوديّة أخرى غيرها ؟

وبقليل من التأمل والدقّة نتبيّن أنّ كلّ تلك الأشياء هي خيارات وحسنات ؛ ولكلّ منها أثرها الصحيح والجذاب في عالم الوجود ، بحيث لو كانت غير ذلك لكانت خراباً وعبياً .

فالشرّ في هذه القصّة يرجع فقط إلى عدم تعلق الروح بجسد المقتول وذلك أمر عدميّ . أي أنّ دوام العمر واستمراره فيه كان مطلوباً ، وقد تسبّب هذا السيف في قطعه فقصر بذلك عمره . أي أنّ وجود عمره «أي المقتول» ودوامه وطوله مطلوب ؛ فتسبّب هذا القتل في عدم وجود ذلك في

هذا المقطع الزمني .

وأما المثال الآخر فهو : أن البرد الذي يصيب الفواكه ويتسبب في فسادها إنما هو خير من جهة أنه كيميّة وجوديّة وقوّة فعلية لها أثر كبير في تنظيم عالم الكون وهو مضافاً إلى ذلك واسطة الجود والفيض للوجود الربانيّ . وقبول الفواكه للون الأسود في ظروف كهذه على أساس الفعل والانفعال والتأثير والتأثر في العالم كلّ ذلك هو خير .

ويكمن الشرّ في عدم حلاوة الثمر هنا في حين يمتلك ذلك الثمر القابليّة والاستعداد لذلك . وعدم الحلاوة هذا هو شرّ ؛ أي عدم وجود علّة الحلاوة في الفواكه ^١ .

وأعتقد أن أفضل مثال ضربه الحكماء هو مثال الظلّ والشمس . فإذا وضعنا في الأرض عموداً نرى أن الجهة المعاكسة للشمس مظلمة ؛ ويقال لهذه الظلمة ظلّاً . فالظلّ هو عدم النور ؛ وكلّما ازداد العدم ، أي كلّما ابتعدت الشمس أكثر صار الظلّ أكثر ظلمة ؛ حتّى يغدو كالليل المدلهمّ حين تكون الأرض واقعة في الظلّ المخروطيّ الشكل للشمس فتصل ظلمة الليل أوجها . والواقع أن حقيقة الدّرف الذي يقال له الظلّ هو فقدان النور ، وليس هناك أكثر من مبدأ وجوديّ واحد للنور والظلّ وهو الشمس . فالبقاع المضيئة على الأرض تستمدّ نورها من الشمس ويرجع السبب في استنارتها إلى تشعشع الشمس نفسها . في حين أن الظلّ لا يملك مبدأ آخر لكي يبعث بشعاع ظلّه من هناك وإيصاله إلى جميع البقاع الظليلة ، وذلك لأنّ نور الشمس يخالط العدم (أي النور الضعيف) فيبرز على أثره ظلّاً فاتح

١- «شرح منظومة الحكمة» للسبزواريّ ، ص ١٤٨ إلى ١٥٠ ، المقصد الثالث : في الإلهيات بالمعنى الأخصّ ، طبعة ناصري .

اللون ؛ وأما إذا زال نور الشمس فجأة وظهر الليل فستكون النتيجة ظهور ظلّ غامق وستغمُرُ العالم ظلمة بحتة وديجور صرف . فمبدأ الظلّ الذي هو أمر عديمي ، هو مبدأ عديمي أيضاً : أي عدم وجود علّة النور .
نعم ، كان هذا قسمين من عدّة أقسام في الجواب حول الإشكال الوارد على مسألة الشرور والذي سبق لنا ذكره . وقد ورد جواب آخر في كتب حكماء الإسلام وهو عبارة عن البحث في فوائد الشرور وآثارها الحسنة ، وأن كلّ شرٍّ مُؤلِّدٌ للخير .

ففي القسم الثاني حول كون الشرور أمور عديمية ، يُجاب فيه على أتباع الثنوية القائلين بوجود أصليين للوجود ؛ وبإضافة القسم الأول فقد أُجيب على المادّيين الذين يعتقدون بأنّ الشرور هي إشكال وارد على الحكمة الإلهية ، وعلى من استندوا إلى إشكال الشرور في انتقاص العدل الإلهي .

ويُعرض القسم الثالث من البحث النظام الجميل والبديع لعالم التكوين ، حيث يمكن اعتباره جواباً مستقلاً لكن إقناعياً ، أو جواباً مُكمّلاً ومفيداً للجواب الأوّل^١ .

ولصديقنا الراحل المرحوم بيان موجز حول عجز الفلسفة الغربية عن حلّ إشكالات المسائل الواردة في فلسفة الشرق ، لكنّه بيان جامع يستحقّ أن نذكره هنا :

نحن وفلاسفة الغرب :

لا شكّ في أنّ مسألة النظام الأحسن هي من أهمّ المسائل الفلسفية . وكما بيّنا في القسم الأوّل فإنّ هذه المسألة كانت السبب في ظهور الفلسفة

١- «العدل الإلهي» ص ٦٧ و٦٨ ، طبعة سنة ١٣٩٠ هـ .

الثنوية والمادية والتشاؤمية . وقلّما يوجد شخص لم يُعرِ هذه المسألة أهميّة واضحة أو يُبيّن فيها رأيه .

فقد استرعت مسألة إشكال الشرور إنتباه فلاسفة الشرق والغرب على السواء ، إلا أنّ فلاسفة الغرب ، حسب ما آل إليه علمي ودراستي ، لم يفلحوا في صياغة الجواب القاطع لهذا الإشكال^١ .

ولقد صادفني أثناء بحوثي في الفلسفات الأوروبية أنّ الأوروبّيين لم يتمكنوا من حلّ هذه الشبهة . في حين قام فلاسفة الإسلام وحكمائه بتحليل ودراسة هذا الإشكال ، والحقّ أنّه يجب أن نعتزّ بأنهم قد أحسنوا الإجابة عنه فحلّوا بذلك لغزاً مهمّاً .

ومن المناسب أن نذكر جملة تخصّص الحكمة الإلهية في الشرق وأن نُثني جزيل الثناء على هذه المكتبة المعنوية الكبيرة . إنّ الحكمة الإلهية في

١- كتب المرحوم الحكيم الجليل آية الله المحقّق الشعرائيّ قدّس سرّه في كتاب «الفلسفة الأولى» نقلاً عن مجلة «نور العلم» العددان الثاني والثالث من المجلّد الخامس، برقم ٥٠ و ٥١، ص ٦٨ و ٦٩، حول الثنوية يقول:

الثنوية (Dualisme) هي القول بأصلين أزليّين وقديم ، كما هو معروف من خلال المذهب المانويّ . وقال بعض الأوروبيّين إنّ أفلاطون وأرسطو كانا يقولان بقدّم الله والمادّة، أي أنّ الله لم يخلق المادّة من العدم ، بل إنّهُ يحولّها من حالة إلى أخرى .

وأما ما نعلمه نحن عن أرسطو فهو أنّ هذا الحكيم كان يعتقد بقدّم المادّة ، على أنّ هذا القدّم يكون عندما لا يتنافى والخلقة . كافتراضنا قدّم الشمس وأزليّتها ، فيكون نورها كذلك قديماً وأزليّاً؛ لكنّه مع ذلك موجود ومخلوق من قبل الشمس . ولمّا كان الجسم باعتقاد أرسطو مركّباً من مادّة وصورة وأنّ كلّ واحد منهما في حاجة إلى الآخر ؛ فليس أيّاً منهما واجب الوجود ، بل هما مخلوقا الله من الأزل . ولمّا كانت بحوث العليّة والمعلوليّة عند فلاسفة أوروبا غير منقّحة بشكل جيّد ، جاز أن يكون ناقل كلام أرسطو الذي قال: المادّة قديمة قد فهم من ذلك عدم خلقتها».

بلاد الشرق هي تراث عظيم وقيم وُلد في أحضان نور الإسلام الوهاج؛ لكن ومما يؤسف له لم تسبر أعماق هذا التراث إلا فئة قليلة وأشخاص معيّنون، وما أكثر الظلم الذي لحق بهذا التراث من قبل العابثين والأعداء المتعصّبين.

ويعتقد البعض أنّ الحكمة الإلهية الإسلامية هي نفسها الفلسفة اليونانية القديمة، حيث دخلت الإسلام خلسة. فأولئك قد وقعوا في خطأ جسيم مرتكبين وعن قصد أو بغير قصد، جناية عظيمة بحق الإسلام والمعارف الإسلامية.

فنحن نعتقد أنّ هذه الفكرة إنّما هي وليدة الاستعمار. فما بين الحكمة الإسلامية والفلسفة اليونانية بون شاسع يشبه إلى حدّ كبير البون الموجود مثلاً بين الفيزياء عند أينشتين والفيزياء عند اليونان.

وهناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى أنّ حكمة ابن سينا كذلك لم تصل أوروبا كاملة، إذ لا زال الأوروبيون يجهلون هذا التراث القيم.

وكما ذكرنا في هوامش الجزء الثاني لـ «أصول الفلسفة ومنهج الواقعية»^١ فإنّ مقولة ديكارت المعروفة: «أنا أفكر إذن أنا موجود»، والتي لقيت رواجاً كبيراً في الفلسفة الأوروبية باعتبارها فكرة جديدة وإلماعة قيّمة، لم تكن غير كلمة جوفاء لا معنى لها. وقد نقلها ابن سينا في النمط الثالث في «الإشارات» في صراحة تامّة ووضوح كامل؛ ثمّ دحضها ببرهان محكم فلو كانت فلسفة ابن سينا تُرجمت إلى الأوروبيين بدقة، ما كان كلام ديكارت ليكون أساساً للفلسفة الجديدة تحت عنوان «اكتشاف جديد» و«فكرة بكر». لكن ما العمل والحال أنّ كلّ شيء مختوم بختم أوروبي

١- طبعة سنة ١٣٣٣ قمرية شمسية (= ١٩٥٤ ميلادية) - (التعليقة).

يكون مرغوباً وجذاباً ، وإن كان ذلك الشيء كلاماً فاسداً أكل الدهر عليه وشرب»^١ .

وللحكيم الباحث والفقير المتبحر المعاصر الذي كان وجوده لطفاً من لدن الحق سبحانه وتعالى وفقدانه خسارة كبيرة للإسلام والتشيع وعالم البشرية والإنسانية المرحوم آية الله أبو الحسن الشعرانيّ تغمّده الله في بحار رضوانه وبحبوحات نعيمه ، بحث موجز بهذا الخصوص من المناسب ذكره هنا :

قيمة عمل صدر المتألهين :

يجب التذكير بأن عقيدة الشيعة تعني وجوب اللطف على الله تعالى ؛ أي ما يقربنا إلى الطاعة من غير إجبار ، لإتمام الحجّة على الناس من قبل الحق جلّ شأنه . وكان وجود صدر المتألهين في هذا المقطع الزمنيّ هو لطف من قبل الله تعالى .

ففي الوقت الذي بدأت فيه الصناعات الماديّة تأخذ طريقها إلى التقدّم ، ونحا الناس باتجاه العلوم الطبيعيّة واستُخفّ بآراء أصحاب المدرسة اللاهوتية ؛ جاء الله بهذا الرجل العظيم في العصر المذكور (القرن السابع عشر الميلاديّ) وألهمه إحكام القواعد الإلهية عن طريق الاستدلال والبحث وبقالب من الفصاحة لا نظير له واقتفاء للأخبار بشكل ولّهت قلوب الكثيرين إليه دون أن يكون له أيّ مطمع دنيويّ ، إذ قضى جلّ عمره في كسب مرضاة الله ونشر علومه ، حتّى غدا معظم العلماء في الوقت الحاضر يهتدون بأفكاره ويستندون إليها في دفاعهم عن الشريعة^٢ .

١- «العدل الإلهي» ص ٣٥ و٣٦ .

٢- تعليقات «أسرار الحكّم» ص ٢٧ - (التعليقة).

ومحصّلة كلام المحقق الشعرانيّ في هذه المسألة هي أنّ الفلسفة الأولى والحكمة الإلهيّة فنّ وعلم مستقلّان عن العلوم الطبيعيّة ، وهي قائمة على أصول عقليّة ثابتة ورصينة . ولا تأثير يُذكر لتطوّرات العلوم الطبيعيّة على مسيرة الأمور الأساسيّة فيها . وحسب قول الفيلسوف الشهيد المطهريّ فإنّ «المسائل الرئيسيّة في الفلسفة والتي تشكّل العمود الفقريّ لها هي من نوع المسائل الفلسفيّة الصرفة باستثناء بعض من المسائل الفرعيّة في باب العلة والمعلول وقسم من بحوث القوّة والفعل والحركة وجانبٍ من فروع أخرى تعتمد على النظريّات العلميّة . والحقيقة أنّ المسائل ذات العلاقة بمعرفة عالم الوجود من الناحية الكليّة والعموميّة كمسائل الوجود والعدم ، والضرورة والإمكان ، والوحدة والكثرة ، والعلّة والمعلول ، والمتناهي واللامتناهي وغيرها . لها بُعد فلسفيّ صرف»^١ .

ومن هنا يمكن استنباط سداجة القائلين بأنّ مصير المسائل الفلسفيّة مرهون بآراء العلوم الطبيعيّة وفرضياتها والقائلين بأنّ تطوّر المعارف العلميّة هو أساس تطوّر المسائل الفلسفيّة . فهؤلاء لم يعرفوا حقيقة الفلسفة الأولى حتّى معرفتها فراحوا يخلطون بينها وبين الفلسفة العلميّة . وقد تحدّثنا عن ذلك في موضع آخره»^٢ .

١- «أصول الفلسفة ومنهج الواقعيّة» ج ٣ ، ص ١٤ - (التعليقة).

٢- مجلّة «نور العلم» السلسلة الثالثة ، رقم ١١ ، مقالة «العلاقة والاختلاف بين الفلسفة والعلوم العمليّة من وجهة نظر الشهيد المطهريّ» ؛ وكتاب «إيضاح الحكمة» ج ١ ، ص ٢١ إلى ٢٣ - (التعليقة)؛ مجلّة «نور العلم» السلسلة الخامسة ، العدد الثاني والثالث : في الذكرى العشرين لرحيل العلامة الشعرانيّ ، مقالة لجناب العالم الجليل الحاجّ الشيخ عليّ الرّبّانيّ الكلبايكانيّ تحت عنوان «نظرة إلى الأفكار الفلسفيّة والكلاميّة لآية الله الشعرانيّ» ص ١٢٠ و١٢١ .

وينشد الحكيم والفقيه المحقق آية الله الشيخ محمد حسين الإصفهاني الكمباني قدس سره الأبيات التالية ، فيما يخص خيرية الذات وخيرية الأفعال ، وعدمية الشرور واقتصارها على عالم الخلق وليس عالم الأمر :

وَالْمَبْدَأُ الْكَامِلُ خَيْرٌ مَحْضٌ وَحُبُّ صِرْفِ الْخَيْرِ حَتْمٌ فَرَضٌ
إِلَى أَنْ قَالَ :

وَحَيْثُ إِنَّ الذَّاتَ مَرَضِيٍّ بِهَا	وَفَعَلَهَا كَذَا لَدَى أُولِي النَّهْيِ
وَهُوَ وَجُودٌ مُطْلَقٌ كَمَا وَصِفٌ	وَكَوْنُهُ خَيْرًا بَدِيهِيًّا عُرِفٌ
وَلَا يَكُونُ الشَّرُّ إِلَّا عَدَمًا	فَلَيْسَ بِالذَّاتِ مُرَادًا فَاعْلَمَا
وَعَالَمُ الْأَمْرِ هُوَ الْقَضَاءُ	لَا بَدْعَ فِي أَنْ يَجِبَ الرِّضَاءُ
إِذْ هُوَ نُورٌ لَا تَشُوبُهُ الظُّلْمُ	فَكُلُّهُ خَيْرٌ عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ
وَعَالَمُ الْخَلْقِ هُوَ الْمَقْضِيُّ	فَالْفَرْقُ مَا بَيْنَهُمَا مَرَضِيٌّ
فَإِنَّهُ تَصَحُّبُهُ الشُّرُورُ	فَفِي الرِّضَا بِحَدِّهِ الْمَحْدُورُ ^١

ويشير في البيت الأخير هذا إلى مصاحبة الشرور للإنسان في عالم الخلق والتحذير من الرضا بذلك ، والمراد مصاحبة الشيطان الذي يقتصر تأثيره على عالم الخلق وليس عالم الأمر ، ووقوع الإنسان في دركات الجحيم إنما هو على أثر إتباع الشيطان والانقياد له ، والتجرد من جميع المقامات الإنسانية . وخلاصة الأمر ، فإن انجراف النفس الأمارة بالسوء وراء وساوس الشيطان ، تودي بالإنسان المختار في الإرادة والعمل معاً إلى أسفل السافلين من جهنم وتلقي به في السعير .

وبما أن الحديث قد آل بنا إلى هذا المآل ، فإنه من المناسب هنا أن

١- «تحفة الحكيم» ص ٧٩ و ٨٠ ، طبعة النجف الأشرف .

نتوسّع بالبحث قليلاً ونتحدّث عن الشيطان وكيفية وجوده وظهوره وعمله ،
وذلك لتبرز عظمة الإسلام الذي يستند إلى التوحيد ، وكذلك ليتوضّح
الفارق بينه وبين أهريمن الذي تؤمن به الثنوية :

الشيطان :

يُعتبر الشيطان من عجائب عالم الخلق ، حيث دلّ عليه القرآن
الكريم دلالة صريحة في مواضع عديدة ، وهو بمثابة المحك للإنس والجن
وهو مُكلّف بمهمة تفتيشية ؛ ومن خلاله (أي الشيطان) يبلغ الإنسان الفعلية
التامة والكمال الإنسانيّ وذلك عن طريق القابلية والاستعداد .

تخالف هذه النظرية بشكل تامّ النظرية الثنوية . فالشيطان (أهريمن)
باعقادهم يمتلك وجوداً استقلالياً إزاء (أهورامزدا) . ولهذا فهُم يعزلونهما
عن الأقطاب والمحاور الثلاثة : الشهود والوجدان ، والعقل والبرهان ،
والشرع والإيمان .

ويتكرّر اسم موجودٍ في تعاليم الأوستا هو أهورامزدا باعتباره منشأ
ومصدر جميع الخيرات والبركات كالحياة والسلامة والرفاه والعافية والنور
والحيوية وما شابه ذلك . ويتكرّر اسم موجود آخر هو انگره مئنيو وهو
مصدر جميع السيئات والآفات والشور والظلمات والوفيات والأمراض
وأمثال ذلك .

ويظهر من خلال التعاليم الأوستائية وخاصة القسم المسمّى
بـ «وَنديدا» أنّ مثل أهريمن كمثل أهورامزدا مخلوق أزليّ أبديّ بحدّ ذاته
مستقلّ بالذات لم يُخلَق من قِبَل أهورامزدا ، بل اكتُشِفَ من قِبَله . في حين
يبدو واضحاً من خلال تعاليم أخرى في الأوستا تدعى بالـ «گاتا» أنّ
أهورامزدا كان قد خَلَقَ موجودَيْن هما : الأوّل «انگره مئنيو» (= الفكرة

الخبیثة) ، والثاني «سپنت مئنیو» (= الفكرة المقدسة) .
ومهما يكن من أمر فإن انكره مئنیو ، الموجود القبيح والخبیث ،
يمتلك استقلالية في العمل . وكان الزرادشتيون يعتقدون وما زالوا بأن
الموجودات والمخلوقات في العالم تنقسم إلى مجموعتين : الخير والشر ؛
أو الخيرات المفروض وجودها والمفيدة لنظام العالم الكلي والتي يُفترض
بجميع البشر الاجتهاد والسعي لإنمائها وإكثارها ، والشرو التي تُعتبر
مُضرة للعالم ، وهذه لم يخلقها أهورامزدا ، بل هي نتاجات أهریمن ، وعلى
الناس جميعاً تقع مسؤولية محوها وإزالتها من العالم .
فهذه الشرو مخلوقات أهریمن سواء أكان هو نفسه مخلوق
أهورامزدا أم لم يكن .

وعلى هذا ، فإن ما يمكن استنباطه من الأوستا هو أنّ أهریمن خالق
الشرو والظلمات والسيئات ، وبذلك يقع القسم القبيح والخبیث من العالم
هذا في قبضته . فهو إما أن يكون شريكاً لأهورامزدا في الذات وأصلاً
قديماً أزلياً . وإما أن يكون مخلوقه لكنّه شريك له في الخلق والتكوين .
وأياً كان ذلك فإنّ (أي أهریمن) يمتلك استقلالاً وجودياً في العمل
والخلق ، والمحتك في الخلق وعالم التكوين والتدبير .

لكنّ الأمر مختلف تماماً في نظرية الإسلام . ففي إطار التفكير
والعرفان الإسلاميين جميع الموجودات في العالم خاضعة لمسألة الجمال
والخير والقبول والحمد والشكر والتمجيد والتحميد والمدح والإطراء .
فالخالق واحد وكلّ ما هو مخلوق بيده واحد كذلك . وذلك هو منتهى الروعة
والبهجة والنزاهة والكمال والتمام والإتقان .

ذَلِكَ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ

شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ^١.
 قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ
 هَدَى^٢.

سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ
 فَهَدَى^٣.

إن أصل خِلقة الشيطان في الأساس هو خير ، لأن ذلك حادث طبقاً
 لحكمة الله . وقد علمنا أنه هو أيضاً مخلوق من مخلوقات الله ؛ وكل
 مخلوق من مخلوقات الله هو خير .

وطبقاً لما ورد في الآيات القرآنية الكريمة فإن الشيطان لا أثر له في
 عالم الخِلقة والتكوين ؛ ولا سلطان له في عالم الأمر والملكوت . وتقتصر
 دائرة إحاطته وفعليته في عالم الخلق والدنيا وحسب ، وحتى تلك الإحاطة
 والفعلية تكون مقتصرة على أفكار الجن والإنس ، وعلى نحو الاختيار
 والوسواس لا الإجبار والاضطرار ؛ حتى يتم له تضليل أي موجود شاء من
 الجن أو الإنس إذا ما انقادوا لوساوسه واتبعوا أغراضه وأهواءه ، ففي الواقع
 هو مأمور من قبل الله لتمييز الصالح عن الطالح ، والجميل عن القبيح
 والسعيد عن الشقي ، وأصحاب الجنة عن أصحاب النار ؛ فيكون الإنسان
 حينئذٍ مخيراً في انتقاء طريق السعادة أو الشقاء بملء إرادته في هذه الدنيا
 التي هي دار تكليف . وما كان بالإمكان وقوع هذا الأمر أو حصوله بغياب
 الشيطان ووساوسه في أفكار الإنس والجن .

١- الآيتان ٦ و ٧ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٢- الآيتان ٤٩ و ٥٠ ، من السورة ٢٠ : طه .

٣- الآيات ١ إلى ٣ ، من السورة ٨٧ : الأعلى .

في البدء ، أي قبل عالم التكليف كان الشيطان ملكاً من الملائكة ،
ولذلك تشير الآية التالية أيضاً في خطابها إلى زمرة الملائكة وأمرهم
بالسجود :

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ^١.

ولأن الشيطان كان مخلوقاً من النار وكان من زمرة الجنّ كان على
صورة ملك وفي صفّ الملائكة وذلك قبل التكليف ولهذا امتنع عن
الامتثال لأمر الله سبحانه :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ
فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ
بُئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا^٢.

الآن وقد تبين أنّ الشيطان كان من الجنّ ، ومن ناحية أخرى علمنا أنّ
الله سبحانه خلق الجنّ من ريح حارة طبقاً للآية الشريفة التالية :

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ :
والآية الشريفة :

١- الآية ١١ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢- الآية ٥٠ ، من السورة ١٨ : الكهف .

- جاء في «أقرب الموارد» : السموم : الريح الحارة ، مؤنّث . ج : سمائم . قال
أبو عبيدة : السموم بالنهار وقد تكون بالليل ؛ والحرور بالليل وقد تكون بالنهار . وقيل
السموم الحرّ الشديد النافذ في المسام .

سمّ يومئذ ، مجهولاً : اشتدّ حرّه وكان فيه سموم اي ریح حارّة . - و- النبات : أحرقتّه
السموم فهو مسموم .

والآية هي الآية ٢٧ ، من السورة ١٥ : الحجر .

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۱

ومن ناحية أخرى نعلم أنَّ خلقة الإنسان كانت من تراب كما تبين

الآية الشريفة :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۲

وعلى هذا تكون خلقة كليهما (الجنَّ والإنس) من عالم الطبيعة والكون والفساد وملوثة بالشروور والنقائص ؛ خاضعة للتكليف الإلهيِّ والأمر والنهي والطاعة والمعصية ، وأخيراً التحرك باتجاه المقصود والمطلوب الأصليين .

وقد شرفهما الله معاً بأمر التكليف والعبادة ، مُبَيِّناً أنَّ الغاية من

خلقتهما هي العبادة والعبودية :

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا

أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۳

ولهذا ذرأ الله جهنم لكلا الفريقين من الجنَّ والإنس لتكون مآلاً

ومستقراً لكلِّ من يتمرد على أوامره ويعصيه ويتبع الشيطان الرجيم :

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ

هُمْ أَضَلُّ أَوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۴

ثم سيخاطب هؤلاء بشدة من قبل الحقِّ تعالى في اليوم الآخر أن

١- الآية ١٥ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٢- الآية ١٢ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

٣- الآيات ٥٦ إلى ٥٨ ، من السورة ٥١ : الذاريات .

٤- الآية ١٧٩ ، من السورة ٧ : الأعراف .

لماذا لم تتبعوا رسلنا الذين نصحوا لكم وحذروكم يومكم المُستطير هذا؟!
يَمْعَشِرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ١

فلما كان ذلك مفعولاً على بيّنة منهم وطبقاً لانتخابهم هم أنفسهم
واختيارهم طريق الجنّة أو النار بأيديهم ونيّاتهم فإن جميع المخلوقات من
الجنّ والإنس ممّن تنطبق عليهم هذه الصورة مشمولون بكلمة العذاب أو
الرحمة هاتين وسوف يخلدون في مأواهم هناك إلى الأبد سواء أكان ذلك
المأوى هو الجنّة أم النار :

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ
الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ * وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ
أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢

ولا يختلف الشيطان إلا إلى الذين يعينهم ما يعنيه هو ؛ فيغويهم
ويزلّهم عن الطريق . ولأنّ هؤلاء لم يخطوا في هذه السبيل أو يتبعوا
خطوات الشيطان إلا بمحض إرادتهم وكامل قواهم العقلية ، وذلك بعد إتمام
الحجّة عليهم من جانب الحقّ تعالى بواسطة الرسل والوحي ، فإنّهم
سيوردون موارد الهلاك والعذاب في الدنيا ويكون مصيرهم الجحيم
والغضب الإلهي في الآخرة :

وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَمَا
تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ

١- الآية ١٣٠ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢- الآيتان ١٨ و ١٩ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

لَمَعَزُولُونَ.^١

هَلْ أَتَبْتُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلَ الشَّيْطَانُ * تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ *
يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ.^٢

ويدخل الشيطان بين نبي البشر بالكلام القبيح والتهمة والغيبة والحديث غير اللائق والغريب والتحريض على ارتكاب المعصية والفساد والقبائح والترغيب فيها :

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ^٣ بَيْنَهُمْ إِنَّ
الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا.^٤
الشَّيْطَانَ يَعِدُكُمْ^٥ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ
وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.^٥

وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا *
يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا.
أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا.^٦
ومع ذلك كله فإن كيد الشيطان ضعيف ولا يكون التغلب عليه إلا

١- الآيات ٢٠٨ إلى ٢١٢ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

٢- الآيات ٢٢١ إلى ٢٢٣ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

٣- جاء في «أقرب الموارد» : نَزَّغَهُ (ع) نَزَّغًا : طَعَنَ فِيهِ وَاعْتَابَهُ وَذَكَرَهُ بِقَبِيحٍ . و- بكلمة: نَحَسَهُ وَطَعَنَ فِيهِ ، مثل نَسَغَهُ وَنَدَغَهُ . و- بَيْنَ الْقَوْمِ (ع ، ض) : اُغْرَى وَأَفْسَدَ وَحَمَلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ؛ وَيُقَالُ : «نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ» .

نَزَّغَهُ الشَّيْطَانُ إِلَى الْمَعَاصِي : حَثَّه (عليها) . «لم تَرَمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِغِهَا عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ» : أَي بِمُفْسِدَاتِهَا ؛ جَمْعُ نَازِغَةٍ ، مِنْ النَّزْغِ .

٤- الآية ٥٣ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٥- الآية ٢٦٨ ، من السورة ٢ : البقرة .

٦- ذيل الآية ١١٩ والآيات ١٢٠ و ١٢١ من السورة ٤ : النساء .

بقوة رحمانية إيمانية إنسانية من الله سبحانه ، فلو استطاع المخلوق التخلص تماماً من وساوس الشيطان وحبائله فإنه لا جرم سيحوز على الظفر والنجاح والانتصار عليه .

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
الطَّغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا .^١

فليس للشيطان أي سلطان على المؤمنين والمتوكلين على الله . إن سلطانه إنما يكون على الذين مهّدوا لأنفسهم طريق ولايته ، واتّخذوه شريكاً مع الله سبحانه وكفوئاً له ، فتركوا باب غوايته لهم مفتوحاً على مصراعيه ثم انفعلوا بسبب ضعف نفوسهم ، وفتحوا نوافذ قلوبهم كاملة أمام وساوس الضعيفة وترهاته الواهية وادّعاءاته السخيفة ، فيتهيأون للتلوث بأية قذارة ويلقون أنفسهم بأنفسهم وبمعونة أهواءهم ومساعدة ذلك الخبيث المحبّث .

فَإِذَا قرأت الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ
سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى
الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ .^٢

وفي اليوم الآخر عندما يلوم المستضعفون المستكبرين قائلين : أنتم الذين أكرهتمونا على أن نطيعكم ونرتكب الآثام والمعاصي ، فعليكم اليوم أن تحملوا عتاً إصرنا والوزر الذي حمّلتونا إياه وترفعوا عذاب الله . فيجيبهم المستكبرون حينئذ : إنما نحن مثلكم متورّطون في هذا الأمر ، ولا حيلة لنا لأننا لا نمتلك الإرادة أو الاختيار وليست أزمة الأمور بيدنا !

١- الآية ٧٦ ، من السورة ٤ : النساء .

٢- الآيات ٩٨ إلى ١٠٠ ، من السورة ١٦ : النحل .

في هذا اليوم سيقول لهم الشيطان صراحة :

لقد وعدكم الله وعد الحق لكنتي وعدتكم باطلاً وأخلفتكم وها أنتم الآن تروون نتيجة ذلك ، فأنتم الذين تستحقون اللوم ، لأنه ما كان لي عليكم من سلطان أو قوّة إلا أن دعوتكم إليّ وإلى وساوسي فجئتموني مُلبّين دعوتي بملء إرادتكم واختياركم ؛ فلا تلوموني أو توتخوني على ذلك !!
فكلانا متورّط في هذا الأمر ، فلا أنا أستطيع أن أزيح همّاً عن قلوبكم فأعدّ لكم طريق الخلاص وأدلكم عليه ولا أنتم قادرون على الأخذ بيدي وتخليصي ممّا أنا فيه !

لقد كنتُ كفرتُ بما أشركتموني منذ اللحظة التي دعوتكم فيها فاستجبتم دعوتي واعتبرتموني مؤثراً في مقابل الله سبحانه وتعالى ولم أقبل بذلك الشّرك القديم ، وكنتُ أعلم أنّ الله الواحد القهار هو وحده المؤثّر في جميع عوالم الوجود :

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَبْنَا اللَّهَ لَهُدَيْنَاكُمْ
سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ
وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَنِ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ
بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ .^١

وممّا ذكر يمكن استنباط بعض الأمور المهمّة والأساسيّة في العقيدة

١- الآياتان ٢١ و ٢٢ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

الإسلامية النابعة عن التعاليم القرآنية :

أولاً : لقد تبين أن الشيطان لا يملك استقلالية لا في الوجود ولا في الذات ولا في الأثر ولا في الفعل . فوجوده وفعله أمران موكولان إلى الله تعالى وأمره سبحانه .

ثانياً : أنه (أي الشيطان) يؤثر في الجن والإنس معاً لا في الإنس وحدهم .

ثالثاً : ليس لتأثيره أي أمر قهري أو اضطراري أو اجباري ، فهو لا يستطيع سحب الإنسان من يده وجره إلى ارتكاب المعاصي ، بل يقتصر تأثيره في مجرد الوسوس وصرافة الدعوة ، على نحو ضعيف .

رابعاً : يتبع البشر الشيطان ووساوسه بمحض إرادته واختياره ، ولذا فالإنسان لا يملك أن يؤنب الشيطان أو يلومه في عالم الحق والحقيقة وعند الوقوف أمام الله سبحانه ، أو أن يقول له : أنت السبب في كل هذا فعليك أن تحمل اليوم عني إصري !

خامساً : أن أصل خلقة الشيطان خير ؛ وإنما خُلِقَ لامتحان البشر واختبارهم حتى يتمكن (أي البشر) من السير في الطريق الصعب واللطيف في نفس الوقت ، وذلك في عالم التكليف والأمر والنهي الإلهيين بملء إرادته .

فلولا الشيطان لاخْتَفَتْ كَلَّ الاستعدادات والقابليات في بوتقة الإجمال والإبهام . إذ لو كان العالم مملوء بدعوات الخير - سواء أكان ذلك من ناحية الشيطان الداخل والنفس الأمارة أم من ناحية الشيطان الخارج وإبليس اللعين - لانعدمت الحركة نحو الكمال ، ولم تحصل النهضة باتجاه دُرَى المعرفة وقممها . ولولا الشيطان لما كان هناك من خيرٍ أو شرٍّ أو تكليفٍ أو أمرٍ أو نهيٍ ، وما كان للعاطفة والحب والجهاد من أثر يُذكر .

ولولا الشیطان لما كان من وجود للشقاء أو السعادة أو الجنة أو النار . وبالجملة فلو لم يوجد الشیطان ما وُجِدَت كل تلك العجائب والبدايع في الخلقة والجمال البشريّ الواقعيّ الفتنان ؛ ولولاه لتبدل العالم بأجمعه ولكان مختلفاً عمّا هو عليه الآن ، كثير الشبه بسلسلة من الموجودات الثابتة غير العاشقة وغير المتحرّكة ، كما هو الحال مع عالم الملائكة .

وفي هذه الحالة ، كان يكفي وجود عالم الملائكة ولم تكن هناك حاجة إلى إيجاد عالم الخلقة بواسطة عالم المادة وخلق البشر وإبليس وسجود الملائكة وتمرد إبليس ، وحركة البشرية ومسيرتها من مبدأها حيث الاستعداد والقابلية إلى منتهاها حيث أعلى درجة الكمال واكتمال الذات في مقابل جنس الملائكة .

كأنّ الله الخالق والعليم والحكيم قد ذرأ الشیطان وادّخره لعالم الكثرة هذه ودار الاعتبار والتكليف لكي يتحقّق به اكتمال الخلقة ولعلّه السبب في أكملية الإنسان وأفضليّته وكونه أشرف من الملائكة المقرّبين .

إنّ الشیطان مكلف ومأمور من لدن الحقّ تعالى بالاختبار والتحقيق وتمييز الأفراد الملوّثين بإرادتهم - التي لا تنفصل عن إرادة الله تعالى ، بل هي عين اختياره ونفس إرادته - والذين اختاروا السبيل المعوجّ ، المُدّسّون بعفونة الكثرات المتعقّنة والذين هم غير مؤهلين للدخول إلى حرم الأمن وحريم الأمان الإلهيّ ، عن الأفراد الصالحين الطاهرين الطيبين ، مانعاً أو لثكم من أن يخطوا خطوة واحدة في عوالم قرب الحقّ . ويسمح الذين دخلوا عالم الخلوص وأفنوا عمراً في حبّ الحقّ الأزليّ والأبد وأضحوا بذلك من المقرّبين ، دفعة واحدة ، حتّى يتمكّنوا ببساطة وسهولة من التحليق في عوالم الحضرات ، ويدخلوا ذلك الحرم المنيع دون مانع أو رادع ويتعطّروا بعبير التوحيد الطيب والأريج الفوّاح للعرفان والفناء في ذات الحقّ ، بعد أن

اجتازوا حالة التعفن الحاصلة بالتوجه نحو الكثرات والملوثات الإنسائية المرهقة والمهلكة والمخرّبة ، وبعد أن طرحوا عنهم لباس الخلقة والتعین والتقيّد وخُلِعَت عليهم خَلَع رِبَانِيَّة ، وأووا إلى ركن شديد وروح وريحان ، حاملين لواء الحمد والتوحيد يوم القيامة .

إنّ الشيطان مأمور مطيع وممثل لأوامر الله ؛ مهمته تمييز الطيب عن الخبيث ؛ تماماً كالحراس من زنابير العسل الذين يؤمرون بالوقوف عند باب قفير النحل وتفتيش الزنابير التي طعمت الأزهار الكريهة الرائحة والمتعفّنة ليمنعوا دخولها إلى الخلية ويلسعونها شاطرين إياها نصفين ؛ ويُجيزون لتلك التي أدت مهمتها على أكمل وجه قطعتم الأزهار الطيبة الرائحة والعطرة الدخول إلى القفير .

وما أروع ما يصف القرآن الكريم ويبين مهمّة إضلال الشيطان البشر والتي شُرّف بها من قبل الله ، حيث يقول :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلَّا اِبٰٓلٰٓسَ قَالَ ؕ اَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا .

قَالَ اَرَاۤءَيْتَكَ هٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلٰٓى لٰٓنٍ اَخْرَجْنَا اِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ لَآخِتٰنِكَنۢ ذُرِّيَّتَهُۥٓ اِلَّا قَلِيْلًا .

قَالَ اَذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَاِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوْرًا .
وَاَسْتَفْزِرُّ مِنْۢ مِّنۡ اَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَاَجْلِبْ عَلَيْهِمۡ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ
وَشَارِكُهُمْ فِىۡ الْاَمْوَالِ وَالْاَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطٰنُ اِلَّا غُرُوْرًا .
اِنَّ عِبَادِىۡ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ وَّكَفٰىۤ بِرَبِّكَ وَكِيْلًا ۱ .

وتشير الآيات الشريفة التالية من سورة الأعراف إلى الأمر بالهبوط

١- الآيات ٦١ إلى ٦٥ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

بعد أن تستعرض قضية خلق آدم وسجدة الملائكة ورفض إبليس السجود ؛ وتبين كذلك مهمة الشيطان في إغواء الإنس بصورة وافية :
 قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
 وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ .

قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
 الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ .
 قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ .

قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
 شَاكِرِينَ .

قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءُومًا^١ مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
 مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ .^٢

ولأستاذنا سماحة العلامة الطباطبائي قدس الله سره بحث موجز لكنه شيق ومتين وأساسي فيما يخص إبليس وحقيقته وجود وتكوين بني آدم وسر ذلك وخلقته والملائكة ، وذلك خلال تفسيره الآيات الشريفة الواردة في سورة الأعراف .^٣ ثم ذكر كلاماً حول إبليس وعمله وطريقته وأسلوبه في العالم الإنساني وفيما يلي نص الكلام المشار إليه :

١- جاء في «أقرب الموارد» : ذَامَهُ (ع) يَذَامُهُ ذُأْمًا : عَابَهُ . و-: حَقَّرَهُ ؛ كَقَوْلِهِ : فَذَرْنِي وَأَكْرَمُ مِنْ بَدَا لِكَ وَأَذَامٌ . و-: ذَمَّهُ . و-: طَرَدَهُ ؛ وَفِي الْقُرْآنِ : أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءُومًا . و-: خَزَاهُ فَهُوَ مَذْءُومٌ . الذَّامُ : الْعَيْبُ ، وَتَرَكَ الْهَمْزَةَ أَكْثَرَ ؛ وَفِي الْمَثَلِ : وَقَدْ لَا تَعْدَمُ الْحَسَنَاءُ ذُأْمًا .
 ٢- الآيات ١٢ إلى ١٨ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٣- «الميزان في تفسير القرآن» ج ٨ ؛ ص ١٧ إلى ٣٣ ، الآيات ١٠ إلى ٢٥ من السورة المذكورة .

كلام في إبليس وعمله :

عاد موضوع «إبليس» موضوعاً مبتدلاً عندنا لا يُعبأ به دون أن نذكره أحياناً ونلعنه أو نتعوذ بالله منه أو نقبّح بعض أفكارنا بأنها من الأفكار الشيطانية ووساوسه ونزغاته دون أن نتدبّر فنحصل ما يعطيه القرآن الكريم في حقيقة هذا الموجود العجيب الغائب عن حواسنا ، وما له من عجيب التصرف والولاية في العالم الإنساني .

وكيف لا وهو يصاحب العالم الإنساني على سعة نطاقه العجبية منذ ظهر في الوجود حتى ينقضي أجله وينقرض بانطواء بساط الدنيا ، ثم يلازمه بعد الممات ثم ، يكون قرينه حتى يورده النار الخالدة ، وهو مع الواحد متاكما هو مع غيره هو معه في علائقته وسره يجاريه كلما جرى حتى في أخفى خيال يتخيله في زاوية من زوايا ذهنه أو فكرة يوارىها في مطاوي سريرته ، لا يحجبه عنه حاجب ، ولا يغفل عنه بشغل شاغل .

وأما الباحثون منّا فقد أهملوا البحث عن ذلك وبنوا على ما بنى عليه باحثوا الصدر الأوّل سالكين ما خطوا لهم من طريق البحث ، وهي النظريات الساذجة التي تلوح للأفهام العاميّة لأوّل مرّة ، تلقوا الكلام الإلهي ثمّ التخاصم في ما يهتدي إليه فم كلّ طائفة خاصّة ، والتحصّن فيه ثمّ الدفاع عنه بأنواع الجدال والاشتغال بإحصاء إشكالات القصة وتقرير السؤال والجواب بالوجه بعد الوجه .

لِمَ خلق الله إبليس وهو يعلم من هو ؟

لِمَ أدخله في جمع الملائكة وليس منهم ؟

لِمَ أمره بالسجدة وهو يعلم أنّه لا يأتّمر ؟

لِمَ لم يُوقفه للسجدة وأغواه ؟

لِمَ لَمْ يُهْلِكْهُ حِينَ لَمْ يَسْجُدْ ؟
لِمَ أَنْظَرَهُ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ أَوْ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ؟
لِمَ مَكَّنَهُ مِنْ بَنِي آدَمَ هَذَا التَّمَكِينِ الْعَجِيبِ الَّذِي بِهِ يَجْرِي مِنْهُمْ
مَجْرَى الدَّمِ ؟
لِمَ أَيْدَهُ بِالْجَنُودِ مِنْ خَيْلٍ وَرَجُلٍ وَسَلَّطَهُ عَلَى جَمِيعِ مَا لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ
مِنْ مَسَاسٍ ؟
لِمَ لَمْ يُظْهِرْهُ عَلَى حَوَاسِّ الْإِنْسَانِ لِيَحْتَرِزَ مَسَاسَهُ ؟ لِمَ لَمْ يُوَيِّدِ الْإِنْسَانَ
بِمِثْلِ مَا أَيْدَهُ بِهِ ؟
وَلِمَ لَمْ يَكْتُمِ أَسْرَارَ خَلْقَةِ آدَمَ وَبَنِيهِ مِنْ إِبْلِيسَ حَتَّى لَا يَطْمَعُ فِي
إِغْوَائِهِ ؟
وَكَيْفَ جَازَتْ الْمَشَافَهَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَهُوَ أْبَعَدُ الْخَلِيقَةِ مِنْهُ
وَأَبْغَضُهُمْ إِلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَلَا مَلَكًا ؟ فَكَيْفَ بِمَعْجَزَةٍ وَقِيلَ بِإِيجَادِ آثَارٍ تَدَلُّ
عَلَى الْمَرَادِ ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .
ثُمَّ كَيْفَ دَخَلَ إِبْلِيسَ الْجَنَّةَ ؟ وَكَيْفَ جَازَ وَقُوعَ الْوَسْوَسةِ وَالْكَذْبِ
وَالْمَعْصِيَةِ هُنَاكَ وَهِيَ مَكَانُ الطَّهَارَةِ وَالْقُدْسِ ؟
وَكَيْفَ صَدَّقَهُ آدَمَ وَكَانَ قَوْلُهُ مُخَالَفًا لَخَبَرِ اللَّهِ ؟
وَكَيْفَ طَمَعُ فِي الْمُلْكِ وَالْخُلُودِ وَذَلِكَ يَخَالَفُ اعْتِقَادَ الْمَعَادِ ؟
وَكَيْفَ جَازَتْ مِنْهُ الْمَعْصِيَةُ وَهُوَ نَبِيٌّ مَعْصُومٌ ؟
وَكَيْفَ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ وَلَمْ يَرِدْ إِلَى مَقَامِهِ الْأَوَّلِ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ
لَا ذَنْبَ لَهُ ؟
وَكَيْفَ ... ؟ وَكَيْفَ ... ؟
وَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِهْمَالِ الْبَاحِثِينَ فِي الْبَحْثِ الْحَقِيقِيِّ وَاسْتِرْسَالِهِمْ فِي
الْجِدَالِ إِشْكَالًا وَجَوَابًا أَنْ ذَهَبَ الْذَاهِبُ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِآدَمَ هَذَا ، آدَمَ

النوعي والقصة تخيلية محضة ، واختار آخرون أن إبليس الذي يخبر القرآن الكريم عنه هو القوة الداعية إلى الشر من الإنسان .
 وذهب آخرون إلى جواز انتساب القبائح والشنائع إليه تعالى وأن جميع المعاصي من فعله وأنه يخلق الشرّ والقبیح فيفسد ما يُصلحه ، وأن الحسن هو الذي أمر به والقبیح هو الذي نهى عنه .
 وآخرون : إلى أن آدم لم يكن نبياً .
 وآخرون : إلى أن الأنبياء غير معصومين مطلقاً .
 وآخرون إلى أنهم غير معصومين قبل البعثة وقصة الجنة قبل بعثة آدم .

وآخرون : إلى أن ذلك كله من الامتحان والاختبار .
 ولم يبينوا ما هو الملاك الحقيقي في هذا الامتحان الذي يضلّ به كثيرون ويهلك به الأثرون ، ولولا وجود ملاك يحسم مادّة الإشكال لعادت جميع الإشكالات .

والذي يمنع نجاح السعي في هذه الأبحاث ويختلّ به نتائجها هو أنهم لم يفرّقوا في هذه المباحث جهاتها الحقيقية من جهاتها الاعتبارية ، ولم يفسلوا التكوين عن التشريع فاختلّ بذلك نظام البحث ، وحكموا في ناحية التكوين غالباً الأصول الوضعية الاعتبارية الحاكمة في التشريعات والاجتماعيات .

والذي يجب تحريره وتنقيحه على الحرّ الباحث عن هذه الحقائق الدينية المرتبطة بجهات التكوين أن يحرّر جهات :

الأولى : أن وجود شيء من الأشياء التي يتعلّق بها الخلق والإيجاد في نفسه - أعني وجوده النفسي من غير إضافة - لا يكون إلاّ خيراً ولا يقع إلاّ حسناً ، فلو فرض محالاً تعلّق الخلقة بما فرض شرّاً في نفسه عاد أمراً

موجوداً له آثار وجودية يبتدئ من الله ويرتزق برزقه ثم ينتهي إليه ،
فحاله حال سائر الخليفة ليس فيه أثر من الشرّ والقبح إلا أن يرتبط وجوده
بغيره ، فيفسد نظاماً عادلاً في الوجود ، أو يوجب حرمان جمع من
الموجودات من خيرها وسعادتها ، وهذا هو معنى الإضافة المذكورة .

ولذلك كان من الواجب في الحكمة الإلهية أن ينتفع من هذه
الموجودات المضرّة الوجود بما يربو على مضرّتها ، وذلك قوله تعالى :
الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ١

وقوله تعالى : تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢

وقوله : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ ٣

الثانية : أنّ عالم الصنع والإيجاد على كثرة أجزائه وسعة عرضه
مرتبط بعضه ببعض معطوف آخره إلى أوّله ، فييجاد بعضه إنّما هو بإيجاد
الجميع ، وإصلاح الجزء إنّما هو بإصلاح الكل ، فالاختلاف الموجود بين
أجزاء العالم في الوجود وهو الذي صيّر العالم عالماً ثم ارتباطها يستلزم
استلزاماً ضرورياً - في الحكمة الإلهية - نسبة بعضها إلى بعض بالتنافي
والتضادّ ، أو بالكمال والنقص والوجدان والفقدان والنيل والحرمان ، ولولا
ذلك لعادت جميع الأشياء إلى شيء واحد لا تميّز فيه ولا اختلاف فيبطل
بذلك الوجود .

قال تعالى :

١- الآية ٧ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٢- الآية ٥٤ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٣- الآية ٤٤ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ١

فلولا الشرّ والفساد والتعب والفقدان والنقص والضعف وأمثالها في هذا العالم لما كان للخير والصحة والراحة والوجدان والكمال والقوة مصداق ، ولا عقل منها معنى لأننا إنما نأخذ المعاني من مصاديقها .

ولولا الشقاء لم تكن سعادة ، ولولا المعصية لم تتحقق طاعة ، ولولا القبح والذنب لم توجد حُسن ولا مدح ، ولولا العقاب لم يحصل ثواب ، ولولا الدنيا لم تتكوّن آخرة .

فالطاعة مثلاً امثال الأمر المولويّ ، فلو لم يمكن عدم الامتثال - الذي هو المعصية - لكان الفعل ضرورياً لازماً ، ومع لزوم الفعل لا معنى للأمر المولويّ لامتناع تحصيل الحاصل ، ومعه عدم الأمر المولويّ لا مصداق للطاعة ولا مفهوم لها كما عرفت .

ومع بطلان الطاعة والمعصية يبطل المدح والذم المتعلّق بهما والثواب والعقاب والوعد والوعيد والإنذار والتبشير ، ثم الدين والشريعة والدعوة ، ثم النبوة والرسالة ، ثم المجتمع والمدنية ، ثم الإنسانية ، ثم كلّ شيء ، وعلى هذا فقس جميع الأمور المتقابلة في النظام ، فافهم ذلك .

ومن هنا ينكشف لك أنّ وجود الشيطان الداعي إلى الشرّ والمعصية من أركان نظام العالم الإنسانيّ الذي إنّما يجري على سُنّة الاختيار ويقصد سعادة النوع .

وهو كالحاشية المكتنفة بالصراط المستقيم الذي في طبع هذا النوع أن يسلكه كادحاً إلى ربّه ليلاقيه ، ومن المعلوم أنّ الصراط إنّما يتعيّن بمتنه صراطه بالحاشية الخارجة عنه الحاقّة به ، فلولا الطرف لم يكن وسط ،

١- الآية ٥٠ ، من السورة ٥٤ : القمر .

فافهم ذلك وتذكر قوله تعالى: **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**^١.

وقوله تعالى: **إِذَا قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**].
قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ آتَبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ^٢.

إذا تأملت في هاتين الجهتين ثم تدبرت آيات قصة السجدة وجدتها صورة منبئة عن الروابط الواقعية التي بين النوع الإنساني والملائكة وإبليس قد عبّر عنها بالأمر والامثال والاستكبار والطررد والرجم والسؤال والجواب، وأن الإشكالات الموردة فيها ناشئة من التفريط في تدبر القصة، حتى أن بعض من تنبه لوجه الصواب^٣، وأنها تشير إلى ما عليه طبائع الإنسان والملك والشيطان فقد ذكر أن الأمر والنهي - يريد أمر إبليس بالسجدة ونهي آدم عن أكل الشجرة - تكوينتان، فأفسد بذلك ما قد كان أصلحه، وذهل عن أن الأمر والنهي التكويني لا يقبلان التخلف والمخالفة، وقد خالف إبليس الأمر وخالف آدم النهي.

الثالثة: أن دلالة قصة الجنة - على ما تقدم تفصيل القول فيها في سورة البقرة - تُنبئ عن أن الله سبحانه خلق جنة برزخية سماوية، وقد أدخل آدم فيها قبل أن يستقر على الحياة الأرضية، ويغشاه التكليف

١- الآية ١٦، من السورة ٧: الأعراف.

٢- الآيات ٣٩ إلى ٤٢: من السورة ١٥: الحجر.

٣- صحاب «المنار» في الجزء الثامن من التفسير، تحت عنوان «الإشكالات في

القصة».

المولويّ ، ليختبر بذلك الطباع الإنسانيّة فيظهر به أنّ الإنسان لا يسعه إلاّ أن يعيش على الأرض ، ويترتّب في حِجر الأمر والنهي فيستحقّ السعادة والجنّة بالطاعة ، وإن كان دون ذلك فدون ذلك .

وأن لا قدرة للإنسان ليقف في موقف القُرب وينزل في منزل السعادة إلاّ بقطع هذا الطريق .

وبذلك ينكشف أن لاشيء من الإشكالات التي أوردوها في قصّة الجنّة ، فلا الجنّة كانت جنّة الخلد التي لا يدخلها إلاّ وليّ من أولياء الله تعالى دخولاً لا خروج بعده أبداً ، ولا الدار كانت داراً دنيويّة يُعاش فيها عيشة دنيويّة يديرها التشريع ويحكم فيها الأمر والنهي المولويّان ، بل كانت داراً يظهر فيها حُكم السجّيّة الإنسانيّة لاسجّيّة آدم عليه السلام بما هو شخص آدم ، إذ لم يؤمّر بالسجدة له ولا أُدخل الجنّة إلاّ لأنّه إنسان كما تقدّم بيانه .

رجعنا إلى أوّل الكلام :

لم يصف الله سبحانه من ذات هذا المخلوق الشّرير الذي سمّاه إبليس إلاّ يسيراً ، وهو قوله تعالى : **كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**^١ .
وما حكاؤه عنه في كلامه : **خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ** .

فبيّن أنّ بدء خَلقته كان من نار من سنخ الجنّ وأما ما آل إليه أمره فلم يذكره صريحاً ، كما أنّه لم يذكر تفصيل خَلقته كما فصّل القول في خَلقة الإنسان .

نعم ، هناك آيات واصفة لصنعه وعمله يمكن أن يستفاد منها ما ينفع في هذا الباب ، قال تعالى حكاية عنه :

١- الآية ٥٠ ، من السورة ١٨ : الكهف .

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَنْتَبِهَهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ.^١
 فأخبر أنه يتصرف فيهم من جهة العواطف النفسانية من خوف ورجاء وأمنية وأمل وشهوة وغضب ، ثم في أفكارهم وإرادتهم المنبعثة منها .

كما يقارنه في المعنى قوله :

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ.^٢

أي لأزينن لهم الأمور الباطلة الرديئة الشوهاء بزخارف وزينات مهيأة من تعلق العواطف الداعية نحو اتباعها ، ولأغوينهم بذلك ، كالزنا مثلاً الذي يتصوره الإنسان ، وتزيينه في نظره الشهوة بقوتها ما يخطر بباله من المحذور في اقترافه ، فيصدق به فيقترفه .

ونظير ذلك قوله يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا.^٣

وقوله : فَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ.^٤

كل ذلك - كما ترى - يدل على أن ميدان عمله هو الإدراك الإنساني ، ووسيلة عمله العواطف والإحساسات الداخلة ، فهو الذي يُلقي هذه الأوهام الكاذبة والأفكار الباطلة في النفس الإنسانية ، كما يدل عليه قوله تعالى :
 أَلَوْسَوَّاسِ الْخَنَاسِ * أَلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ.^٥

لكن الإنسان مع ذلك لا يشك في أن هذه الأفكار والأوهام المسماة

١- الآيتان ١٦ و ١٧ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢- الآية ٣٩ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٣- الآية ١٢٠ ، من السورة ٤ : النساء .

٤- الآية ٦٣ ، من السورة ١٦ : النحل .

٥- الآيتان ٤ و ٥ ، من السورة ١١٤ : الناس .

وساوس شيطانية أفكار لنفسه يوجد لها هو في نفسه من غير أن يشعر بأحد سواه يُلقِيها إليه أو يتسبب إلى ذلك بشيء ، كما في سائر أفكاره وآرائه التي لا تتعلق بعمل وغيره ، كقولنا : الواحد نصف الاثنين ، والأربعة زوج ، وأمثال ذلك .

فالإنسان هو الذي يوجد هذه الأفكار والأوهام في نفسه ، كما أن الشيطان هو الذي يُلقِيها إليه ويخطر بها به من غير تزاحم ، ولو كان تسببه فيها نظير التسببات الدائرة فيما بيننا لمن ألقى إلينا خبراً أو حكماً أو ما يشبه ذلك لكان إقائه إلينا لا يُجامع استقلالنا في التفكير ، ولا نتفت نسبة الفعل الاختياري إلينا ، لكون العلم والترجيح والإرادة له لا لنا ، ولم يترتب على الفعل لوم ولا ذم ولا غيره .

وقد نسبه الشيطان نفسه إلى الإنسان فيما حكاه الله من قوله يوم

القيامة :

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ
وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ
بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ^١.

فنسب الفعل والظلم واللوم إليهم وسلبها عن نفسه ، ونفى عن نفسه

كل سلطان إلا السلطان على الدعوة والوعد الكاذب ، كما قال تعالى :

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ^٢.

١- الآية ٢٢ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٢- الآية ٤٢ ، من السورة ١٥ : الحجر .

فنفي سبحانه سلطانه إلا في ظرف الاتّباع ، ونظيره قوله تعالى :
قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ١
 وبالجملة فإنّ تصرّفه في إدراك الإنسان تصرّف طولي لا ينافي قيامه
 بالإنسان وانتسابه إليه انتساب الفعل إلى فاعله ، لا عرضي ينافي ذلك .
 فله أن يتصرّف في الإدراك الإنساني بما يتعلّق بالحياة الدنيا في
 جميع جهاتها بالغرور والتزيين ، فيضع الباطل مكان الحقّ ويُظهره في
 صورته ، فلا يرتبط الإنسان بشيء إلا من وجهه الباطل الذي يغرّه ويصرفه
 عن الحقّ ، وهذا هو الاستقلال الذي يراه الإنسان لنفسه أولاً ، ثمّ لسائر
 الأسباب التي يرتبط بها في حياته ، فيحجبه ذلك عن الحقّ ويلهوه عن
 الحياة الحقيقية ، كما تقدّم استفادة ذلك من قوله المحكيّ : **فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي
 لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ٢**

وقوله : **رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ٣**
 ويؤدّي ذلك إلى الغفلة عن مقام الحقّ ، وهو الأصل الذي ينتهي
 ويحلّل إليه كلّ ذنب ، قال تعالى : **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
 لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ
 بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ٤**
 فاستقلال الإنسان بنفسه وغفلته عن ربّه وجميع ما يتفرّع عليه من
 سيئ الاعتقاد وردّيء الأوهام والأفكار التي يرتضع عنها كلّ شرك وظلم

١- الآية ٢٧ ، من السورة ٥٠ : ق .

٢- الآية ١٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٣- الآية ٣٩ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٤- الآية ٧٩ ، من السورة ٧ : الأعراف .

إنّما هي من تصرّف الشيطان في عين أنّ الإنسان يخيل إليه أنّه هو الموجود لها القائم بها لما يراه من استقلال نفسه ، فقد صبغ نفسه صبغة لا يأتيه اعتقاد وعمل إلاّ صبغه بها .

وهذا هو دخوله تحت ولاية الشيطان وتدييره وتصرفه من غير أن يتنبأ لشيء أو يشعر بشيء وراء نفسه ، قال تعالى :

إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ^١.

وولاية الشيطان على الإنسان في المعاصي والمظالم على هذا النمط نظير ولاية الملائكة عليه في الطاعات والقربات ، قال تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^٢ . والله من ورائهم محيط وهو الولي الذي لا ولي سواه ، قال تعالى :

مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ^٣.

وهذا هو الاحتناك أي الإلجام الذي ذكره فيما حكاه الله تعالى عنه بقوله : قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ

١- الآية ٢٧ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢- الآيتان ٣٠ و ٣١ ، من السورة ٤١ : حم السجدة .

٣- الآية ٤ ، من السورة ٤١ : السجدة .

الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا^١.

أي لَأَلْجَمْتَهُمْ فَاتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ تَسَلَّطَ رَاكِبُ الدَّابَّةِ الْمَلْجَمِ لَهَا عَلَيْهَا ، يُطِيعُونِي فِيمَا أَمَرَهُمْ وَيَتَوَجَّهُونَ إِلَى حَيْثُ أَشِيرُ لَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَيِّ عَصِيانٍ وَجَمَاحٍ .

ويظهر من الآيات أن له جُنْدًا يَعِينُونَهُ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيُسَاعِدُونَهُ عَلَى مَا يَرِيدُ ، وَهَمَّ الْقَبِيلَ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ إِنَّهُ يَرِنُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ . وَهَوْلَاءُ وَإِنْ بَلَّغُوا مِنْ كَثْرَةِ الْعَدَدِ وَتَفَنَّنَ الْعَمَلُ مَا بَلَّغُوا فَإِنَّمَا صَنَعَهُمْ صَنَعَ نَفْسِ إِبْلِيسَ وَوَسْوَسَتِهِمْ نَفْسَ وَسْوَسَتِهِ ، كَمَا يَدَلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ^٢ . وَغَيْرُهُ مِمَّا حَكَّتْهُ الْآيَاتُ ، نَظِيرُ مَا يَأْتِي بِهِ أَعْوَانُ الْمَلَائِكَةِ الْعِظَامِ مِنَ الْأَعْمَالِ فَتُنْسَبُ إِلَى رَأْسِهِمُ الْمُسْتَعْمَلِ لَهُمْ فِيمَا يَرِيدُهُ ، قَالَ تَعَالَى فِي مَلِكِ الْمَوْتِ :

قُلْ يَتَوَفَّيْكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ^٣.

ثُمَّ قَالَ : حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ^٤.

إلى غير ذلك .

وتدل الآيات : الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ .^٥ عَلَى أَنَّ فِي جَنْدِهِ اخْتِلافًا مِنْ حَيْثُ كَوْنَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَبَعْضُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ .

ويدل قوله : أفتتخذونه وذريته أولياء من دُونِي وَهُمْ لَكُمْ

١- الآيات ٦٢ إلى ٦٤ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢- الآية ٣٩ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٣- الآية ١١ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٤- الآية ٦١ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٥- الآيات ٥ و٦ ، من السورة ١١٤ : الناس .

عَدُوًّا^١. أن له ذرّيّة هم من أعوانه وجنوده ، لكن لم يفصل كيفية إنتشاء ذرّيته منه .

كما أن هناك نوعاً آخر من الاختلاف يدلّ عليه قوله : وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ، في الآية المتقدّمة ، وهو الاختلاف من جهة الشدّة والضعف وسرعة العمل وبطؤه ، فإنّ الفارق بين الخيالة والمشاة هو السرعة في اللحوق والإدراك وعدمها .

وهناك نوع آخر من الاختلاف في العمل ، وهو الاجتماع عليه والانفراد ، كما يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى :

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ^٢.

ولعلّ قوله تعالى : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ^٣ من هذا الباب .

فمأخض البحث : أنّ إبليس لعنه الله موجود مخلوق ذو شعور وإرادة ، ويدعو إلى الشرّ ويسوق إلى المعصية ، كان في مرتبة مشتركة مع الملائكة غير متميّز منهم إلا بعد خلق الإنسان وحينئذٍ تميّز منهم ووقع في جانب الشرّ والفساد ، وإليه يستند نوعاً من الاستناد انحراف الإنسان عن الصراط المستقيم وميله إلى جانب الشقاء والضلال ، ووقوعه في المعصية والباطل . كما أنّ المَلَك موجود مخلوق ذو إدراك وإرادة ، إليه يستند نوعاً من

١- الآية ٥٠ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢- الآيتان ٩٧ و٩٨ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون . وجاء في «أقرب الموارد» : الهمزة ، ج : همزات ؛ وهمزات الشيطان : خطراته التي يخطرُ بها بقلْبِ لإنسان .

٣- الآيات ٢٢١ إلى ٢٢٣ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

الاستناد اهتداء الإنسان إلى غاية السعادة ومنزل الكمال والقرب .
 وأن أعوان من الجنّ والإنس وذريّة مختلفي الأنواع يجرون بأمره
 إيتاهم أن يتصرّفوا في جميع ما يرتبط به الإنسان من الدنيا وما فيها بإظهار
 الباطل في صورة الحقّ ، وتزيين القبيح في صورة الحسن الجميل .
 وهم يتصرّفون في قلب الإنسان وفي بدنه وفي سائر شؤون الحياة
 الدنيا من أموال وبنين وغير ذلك بتصرّفات مختلفة اجتماعاً وانفراداً ،
 وسرعة وبطؤاً ، وبلا واسطة ومع الوساطة ، وربّما كانت الوساطة خيراً أو
 شراً ، وطاعة أو معصية .

ولا يشعر الإنسان في شيء من ذلك بهم ولا أعمالهم ، بل لا يشعر إلا
 بنفسه ولا يقع بصره إلا بعمله ، فلا أفعالهم مزاحمة لأعمال الإنسان
 ولا ذواتهم وأعيانهم في عرض وجود الإنسان ، غير أنّ الله سبحانه أخبرنا
 أنّ إبليس من الجنّ وأنّهم مخلوقون من النار ، وكأنّ أوّل وجوده وآخره
 مختلفان .

بحث عقليّ وقرآنيّ

قال في «روح المعاني» : وقد ذكر الشهرستانيّ عن شارح الأناجيل
 الأربعة صورة مناظرة جرت بين الملائكة وبين إبليس بعد هذه الحادثة ،
 وقد ذكرت في التوراة ، وهي أنّ العين قال للملائكة : إنّي أسلم أنّ لي إلهاً
 هو خالقي وموجدي ، لكن لي على حكمه أسئلة :

الأوّل : ما الحكمة في الخلق ، لا سيّما وقد كان عالماً أنّ الكافر
 لا يستوجب عند خلقه إلا النار ؟!

الثاني : ما الفائدة في التكليف مع أنّه لا يعود إليه منه نفع ولا ضرر ،
 وكلّ ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة

التكليف؟!؟

الثالث : هب أنه كلفني بمعرفته وطاعته ، فلماذا كلفني بالسجود؟!؟
 الرابع : لما عصيته في ترك السجود ، فلم لعنني وأوجب عقابي ، مع أنه لا فائدة له ولا غيره فيه ولي فيه أعظم الضرر؟!؟
 الخامس : أنه لما فعل ذلك ، لم سلطني على أولاده ومكّني من إغوائهم وإضلالهم؟!؟
 السادس : لما استمهلتُهُ المدة الطويلة في ذلك ، فلم أمهلني ، ومعلوم أنه لو كان العالم خالياً من الشرّ لكان ذلك خيراً؟!؟
 قال شارح الأناجيل : فأوحى الله تعالى إليه من سرادق العظمة والكبرياء :

يَا إبْلِيسُ ! أَنْتَ مَا عَرَفْتَنِي ؛ وَلَوْ عَرَفْتَنِي لَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِي !
 فَإِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ؛ لَا أَسْأَلُ عَمَّا أَفْعَلُ - انتهى .

ثم قال الألويسي : قال الإمام الرازي : إنه لو اجتمع الأولون والآخرون من الخلائق وحكموا بتحسين العقل وتقبّحه لم يجدوا من هذه الشبهات مخلصاً ، وكان الكلّ لازماً .

ثم قال الألويسي : ويعجبني ما يحكى أنّ سيف الدولة بن حمدان خرج يوماً على جماعته فقال : قد عملت بيتاً ما أحسب أنّ أحداً يعمل له ثانياً إلا أن كان أبا فراس ، وكان أبو فراس جالساً ، فقيل له : ما هو ؟ فقال :
 قولي :

لَكَ جِسْمِي تَعْلُهُ فَدَمِي لَا تَطُلُهُ ؟!

١- عَلَّ مِنْهُ ضَرْباً : تَتَابَعَ عَلَيْهِ الضَّرْبُ . طَلَّ : طَلَّأً وَطُلُوْلًا الدَّمُ : أَهْدَرَهُ .

فابتدر أبو فراس قائلاً:

قَالَ إِنْ كُنْتُ مَالِكاً فَلِي الْأَمْرُ كُلُّهُ

أقول: ما مرّ من البيان في أوّل الكلام السابق يصلح لدفع هذه الشبهات السّنة عن آخرها ويكفي مؤنتها من غير أن يحتاج إلى اجتماع الأوّلين والآخرين ثم لا ينفع اجتماعهم على ما ادّعاه الإمام، فليست بذلك الذي يحسب، ولتوضيح الأمر نقول...^١.

وهنا يبدأ سماحة العلامة بالإجابة تفصيلاً على الشبهات الستّ خلال صفحات متعدّدة بلغت أربع عشرة صفحة^٢ وبأسلوب رائع رصين يسرّ القارئ ويدخله في بحر من العظمة وأفق من النور والبهجة، ولولا خشية الإطناب في هذا الكلام لقمنا بنقل ذلك كله هنا.

إنّه منطلق التوراة وتعاليمها التي تُصوّر الله مقهوراً لمنطق الشيطان ومغلوباً على أمره؛ إذ إنّ الشيطان بإيراده هذه الشبهات الستّ ودخوله الحديث مع الله والإشكال عليه، كأثما وضع الله والعياذ بالله في مأزق وخرج للجواب على هذه الشبهات وأجبره على استخدام هراوة الأنانيّة للطرق على رأس الشيطان للتهرّب من الجواب. في حين أنّه طبقاً لمنطق القرآن كما رأينا وكما ذكر سماحة العلامة ذلك بالبيان الفصيح واللسان المنطيق وكلام بليغ واستدلال رائع بالبراهين، استنتجنا مدى بُعد هؤلاء عن ركب الإنسانيّة جاعلين من نظام الخلق والإنسان والشيطان ألعوبة كما يقوم البعض باللهو في مسرح الدّمي.

فلم تُحَيّر الشبهات الإبليسيّة شارح الإنجيل فحسب، بل وكما رأينا،

١- «الميزان في تفسير القرآن» ج ٨، ص ٣٥ إلى ٤٥، سورة الأعراف.

٢- «الميزان في تفسير القرآن» ج ٨، ص ٤٥ إلى ٥٩.

فإنّها جرّت وراءها الإمام الفخر الرازيّ والآلوسيّ وسيف الدولة بن حمدان وشاعره أبا فراس وألقت بهم في غياهب بحر الشبهات . ومُلخّص الكلام أنّ كلّ مَنْ عجز عن التخلّص من هذه الشبهات وسقط في حبالها أو حبال بعض منها ، فهو محتاج إذن إلى نفس القدر من الهداية في داخل نفسه حتّى يتبيّن له الإسلام الحقيقيّ بوضوح وجلاء بعيداً عن كلّ ما يُسمّى بشبهة توحيدية .

والعجيب أنّ التوراة تُصوّر قضية إبليس وإغواءه آدم - أبو البشر - في الجنة بطريقة وشكل مختلفين تماماً عمّا ذكره القرآن الكريم . فالتوراة تعترف صراحةً أنّ الأكل من ثمر الشجرة المنهيّة (التي نهى آدم عن الأكل منها) كان في صالح آدم ، وأنّ إرادة الله كانت تكمن في إبقاء آدم داخل هالة من الجهل ؛ فلمّا علّم الشيطان ذلك قام بطريقته الخاصّة وأسلوبه المُميّز بإيقاظ آدم من غفلته وأوصله إلى حدود العلم والمعرفة ؛ فالله كان مخالفاً لتوصيل آدم إلى شاطئ العلم والمعرفة في حين كان الشيطان موافقاً على ذلك ! ولهذا فقد تنبّه (أي إبليس) إلى حيلة الله ومكره والعياذ بالله وأفهمها آدم ! فلمّا أطاع آدم الشيطان مخالفاً بذلك ما نهاه الله عنه ، تفتّحت بصيرته وعلّم ما كان يجهل من قبل ! فالشيطان إذاً نصير العلم والمعرفة والبصيرة والهداية ، في حين أنّ الله حاشا له نصير الجهل والأمية والعمى !

جريمة التوراة الحالية نحو عالم البشرية :

يذكر القرآن الكريم أنّ الشيطان الذي قام بإغواء آدم قال له :
« يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْك لا يبلى » .
والتوراة تقول : إنّ الشيطان الذي قام بإغواء آدم قال له : إذا أكلت من هذه الشجرة فإنّك ستحصل على العلم والمعرفة وتستنير بصيرتك .

وطبقاً لمنطق القرآن ، فإنّ آدم الذي أزلّه الشيطان وتناول من ثمار الشجرة التي نُهي عنها ، طُرِد من الجنّة ، وتسبّب أكله من الشجرة المذكورة في عدم خلوده لا في خلوده (كما تدّعي التوراة) ، إذن فكلام الله هو الحقّ ، وكلام الشيطان هو الكذب والباطل والافتراء .

وتقول التوراة إنّ آدم الذي أزلّه الشيطان وتناول من ثمار الشجرة التي نُهي عنها ، أصبح يملك عيناً وبصيرة وعلماً ومعرفة فوجد نفسه عرياناً ، ولذا فقد تناول من أوراق شجر الجنّة ووضعها على عورته ليسترها . وإنّ الله إنّما أراد بمنع آدم من الأكل من تلك الشجرة ونهيه عنها ، إبقائه على جهله وعدم اطلاعه على عورته أو كشفها ؛ لكنّه بانقياده للشيطان ومخالفته أمر الله تمكّن من كشف عورته وتوصّل إلى المعرفة . وهذا يعني أنّ كلام الله والعياذ بالله خطأ في حين أنّ كلام الشيطان كان صحيحاً مطابقاً للواقع !

لكنّ خطأ التوراة يكمن في ادّعائها أنّ الله كان قد وهب الشيطان العلم والمعرفة قبل أمره بالسجود لآدم . والآية المباركة :

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .^١

تدلّ دلالة صريحة وواضحة على هذا الأمر . لأنّ المراد من الأسماء هو حقائق الموجودات حيث إنّ كلّ موجود هو اسم لذات الله المقدّسة وعلامة له ؛ وهذه المسألة كانت واضحة مسبقاً لدى آدم وكان قد حصل على العلم والمعرفة من قبل .

بل إنّ الشجرة ، طبقاً للعقيدة الإسلاميّة ، كانت شجرة خبيثة كخبث

١- الآية ٣١ ، من السورة ٢ : البقرة .

الحسد والبخل والضغينة ؛ وآدم ، بإطاعته الشيطان وتناوله من تلك الشجرة ، صار موجوداً مادياً وشق طريقه نحو الحسد والبخل والضغينة ، فكان مصيره أن طرد من الجنة التي هي مقر الأطهار ودار مقامه .
 وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا .
 وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ .
 فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى .

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ .
 فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ
 وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ .

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءُ تُهْمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ
 الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ .^١

ويعرف القرآن الشجرة المذكورة بأنها شجرة خبيثة ، والشيطان ، الذي ادعى أنها شجرة الخلد ، كذابٌ وعدوٌ لآدم . لكن التوراة تقول غير هذا . فهي تقول : إنها شجرة العلم والمعرفة . وإن الله أراد أن يبقى آدم في الجنة جاهلاً دون علم أو معرفة ، وإن الشيطان إنما دعا آدم لياكل من تلك الشجرة ، فلما تناول منها حصل على العلم والمعرفة فوجد نفسه عرياناً .

وحسب كلام التوراة فإن الشيطان صادق وصاحب مخلص لآدم ، وهو الذي دلّه على الحقيقة والواقع وهداه إليهما ؛ في حين أراد الله أن يبقى آدم بعيداً عن تلك المعرفة وجاهلاً وبمناى عن ذلك العلم ، ولهذا منعه من تناول ثمر شجر المعرفة .

١- الآيات ١١٥ إلى ١٢١ ، من السورة ٢٠ : طه .

وعلى هذا الأساس تقول التوراة : إنَّ الله والدين يدعوان إلى الجمود والركود والجهل والعمى ، ويريدان من الإنسان أن يكون محاطاً دوماً بالجهل . وإذا أراد الإنسان أن يخرج من تلك الحالة ويحصل على المعرفة ، وجب عليه أن يتخلَّص من قوانين الدين وتعاليمه ؛ لأنَّ تلك القوانين والتعاليم لا تمثِّل إلاَّ الجهل والعمى وهي إنَّما حُجُبٌ وموانع تحول دون الوصول إلى الحقائق والواقعيَّة . ولذا يمكن القول : إنَّ تعاليم التوراة هذه أكبر جريمة تُرتكب بحق البشريَّة .

وللمرحوم آية الله المحقق والباحث الشيخ جواد النجفيِّ البلاغيِّ رضوان الله عليه أبحاث قيِّمة في هذا المجال .^١

نعم ، ولا بأس هنا ونحن مُقبلون على إنهاء مسألة الشرور في قصَّة آدم وإبليس أن لا يفوتنا ذكر موضوعين آخرين كذلك ؛ الأوَّل التَّشَاوُمُ الفيلسفيِّ ، والثاني : الاختلافات والتباينات .

فأمَّا ما يخصُّ المسألة الأولى ، نكتفي بإيراد ما قاله المرحوم الصديق العزيز الشهيد الفقيد : آية الله الحاجَّ الشيخ مرتضى المطهريِّ قدس سرّه الشريف . يقول المرحوم :

«يطرح القرآن مسألة الشيطان بشكل مذهل ومحير حقاً بحيث لا يؤثر سلباً على مسألة التوحيد الذاتيّ وأصل لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»^٢ وكذا أساس التوحيد في الخالقيَّة ، وأصل أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ^٣ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ

١- «الرحلة المدرسيَّة والمدرسة السيَّارة» ص ٧ إلى ١١ ، تحت عنوان (نهى آدم عن الشجرة والكذب، والحَيَّة والصدق) ، وعنوان (هل عندنا الله جلُّ شأنه كذب وغش؟!) ، طبعة النجف الأشرف ، وسنة ١٣٨٢ هـ .

٢- قسم من الآية ١١ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٣- قسم من الآية ٥٤ ، من السورة ٧ : الأعراف .

كُلِّ شَيْءٍ ،^١ لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ^٢ .

التشاؤم الفلسفي :

من آثار «مسألة الشرور» الأخرى هي ظهور التشاؤم الفلسفي . والفلاسفة المتشائمون هم - عادةً - من الماديين ، وهناك علاقة وترايط لا يُنكران بين المادية وبين التشاؤم الفلسفي . ويرجع السبب في تشاؤم الماديين إلى بقاء مسألة الشرور في الفلسفة بدون حل .

حسب النظرة الفلسفية الإلهية فإنَّ الوجود يعني الخير ، وأما الشرّ فهو أمر إضافي ونسبي ، وفي خفايا كلّ شرّ هناك خير كامن ؛ ولا وجود لهذا الشيء حسب النظرة المادية .

إنَّ النظرة التشاؤميّة نحو العالم هي أمر مؤلم . إنها لكارثة كبيرة أن يعتبر الإنسان العالم بلا إحساس أو إدراك أو هدف . عندما يفكر هذا الإنسان . الذي يرى نفسه طفلاً صغيراً في هذا العالم وأنَّ له طموحاً ، ويتأمل مع نفسه قائلاً بأنَّ الكون الذي أنجبني وأفكاري وعلمني أن أكون صاحب هدف ، هو نفسه بلا هدف ، سيسيطر عليه القلق بلا شك .

إنَّ مَنْ يظنّ بانعدام العدالة في الكون ، وأنَّ هناك تمييز وظلم ؛ سيظلّ على تشاؤمه وعدم ارتياحه ولو أُعطي نِعَم الدنيا وكنوزها .

وطبيعيّ فإنَّ جهود هكذا فرد لنيل السعادة والنجاح له ولبني البشر

١- قسم من الآية ١٦ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٢- ليس لدينا آية في القرآن بهذه العبارة : فالآية ١١١ ، من السورة ١٧ : الإسراء ، ليست فيها كلمة «صاحبة» فهي تقول : لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ . وفي الآية ٣ ، من السورة ٧٢ : الجنّ : مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا . أي أنها جاءت مع ما النافية لا مع لم .

لن تكون مقرونة بالأمل والاطمئنان . وعندما يكون الظلم هو أساس الوجود ، فلا معنى من التحدّث عن العدالة .

ولمّا كان أصل العالم عبثاً فمن الحُقم أن نفكر بأن يكون لنا هدف . ومن هنا نرى أنّ المؤمنين يمتلكون الاستقرار والراحة النفسية أكثر من غيرهم ، لأنّهم لا يَرون العالم أبلهاً ، بل يؤمنون بأنّه (أي العالم) ذو هدف وحكمة ، وأنّه عادل وعادل . وأمّا فيما يخصّ السيئات والشرور فيعتقد أصحاب الأديان والموحدون أنّ كلّ ذرّة منها خاضعة للحساب الدقيق ، وهي لا تعدو عن احتماليين ، عقابيّة عادلة ، أو ابتلائيّة ذات هدف وثواب .

ولكن ما حيلة غير المؤمنين ؟ بماذا يسلون ؟ فهم يلجأون إلى الانتحار ، وعلى رأي أحدهم فهم يحتضنون الموت بشهامة . ومن ناحية أخرى ، أعلنت منظمة الصحة العالمية في إحصائية نشرتها عن ارتفاع معدلات الانتحار وخصوصاً بين المثقفين . وحسب تقرير المنظمة المذكورة فقد ارتفع بشكل مريع معدّل الانتحار في ثمان دول أوروبية ، حيث تأتي سويسرا - التي نحمل تصوراً عنها أنّها غارقة في النعيم في عداد هذه الدول - وجاء في ذلك التقرير أنّ الانتحار يأتي في المرتبة الثالثة من أسباب الوفيات . أي أنّ ضحاياه تفوق ضحايا السرطان ، وأنّ نسبته في الطبقات المتعلّمة ، ومع الأسف ، أكثر منها في غير المتعلّمة . ويضيف التقرير بأنّ معدّل الانتحار يرتفع بشكل مضطرب في الدول النامية التي تُضيعُ إيمانها يوماً بعد آخر . ففي المانيا الغربية مثلاً ، يموت حوالي ١٢٠٠٠ شخص انتحاراً ، و ٦٠٠٠٠ آخرون يُقدمون على الانتحار ولكن يتمّ إنقاذهم .

هذا هو الفارق بين من يعتقد بعدم وجود مالك لهذا العالم وبين من

يؤمن بأن للكون رب عالم وهو رب العالمين .
 أما المتشربون للتربية الإسلامية ، فحين تحلُّ بهم المصائب وتعصف
 بهم الأحداث فإنهم يضعون هذه الحقيقة نصب أعينهم وهي **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
 رَاجِعُونَ** ^١.

وينقل هنا المرحوم المطهريّ قضية أبي طلحة وأم سليم وقصة موت
 ولدهما المعبرة ، وذلك لبيان أثر روح الإيمان على المسلم ، حيث إنه ومع
 كثرة المصائب الكبيرة والمشاكل التي تقصم الظهر ، فإنه ليس فقط
 لا يهن ، بل يثبت ويحتسب كالجبل الأشم ويشكر البارئ على نعمه .
 وارتأينا هنا أن نورد نصّ القصة لما تحمل من دلالات وعبر جمّة :
 روى العلامة المجلسيّ رضوان الله عليه في «بحار الأنوار» نقلاً عن
 كتاب «مُسْكَنُ الْفَوَادِ» للشهيد الثاني رفع الله درجته عن كتاب «عيون
 المجالس» عن معاوية بن قرة حيث قال :

كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يُحِبُّ ابْنَهُ حُبًّا شَدِيدًا . فَمَرَضَ ، فَخَافَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ
 عَلَى أَبِي طَلْحَةَ الْجَزَعَ حِينَ قَرَبَ مَوْتُ الْوَلَدِ ، فَبَعَثَتْهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَآلِهِ .

فَلَمَّا خَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ مِنْ دَارِهِ تُوْفِيَ الْوَلَدُ . فَسَجَّتْهُ أُمُّ سُلَيْمٍ بِثَوْبٍ
 وَعَزَلَتْهُ فِي نَاحِيَةِ مِنَ الْبَيْتِ . ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَى أَهْلِ بَيْتِهَا وَقَالَتْ لَهُمْ :
 لَا تُخْبِرُوا أَبَا طَلْحَةَ بِشَيْءٍ . ثُمَّ إِنَّهَا صَنَعَتْ طَعَامًا ثُمَّ مَسَّتْ شَيْئًا مِنْ
 الطَّيِّبِ .

١- الآية ١٥٦ ، من السورة ٢ : البقرة : الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
 رَاجِعُونَ .

«العدل الإلهي» ص ٢٥ إلى ٢٧ ، طبعة سنة ١٣٩٠ هجرية قمرية .

فَجَاءَ أَبُو طَلْحَةَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ: مَا
فَعَلَ ابْنِي؟!

فَقَالَتْ لَهُ: هَدَأَتْ نَفْسُهُ! ثُمَّ قَالَ: هَلْ لَنَا مَا نَأْكُلُ؟!
فَقَامَتْ فَفَرَّبَتْ إِلَيْهِ الطَّعَامَ. ثُمَّ تَعَرَّضَتْ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهِمَا. فَلَمَّا أَطْمَأَنَّ
قَالَتْ لَهُ: يَا أَبَا طَلْحَةَ! أَنْغَضُ مِنْ وَدِيعَةٍ كَانَتْ عِنْدَنَا فَرَدَدْنَاهَا إِلَى
أَهْلِهَا؟!

فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ؛ لَا!

فَقَالَتْ: ابْنُكَ كَانَ عِنْدَنَا وَدِيعَةً فَقَبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى!
فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: فَأَنَا أَحَقُّ بِالصَّبْرِ مِنْكَ! ثُمَّ قَامَ مِنْ مَكَانِهِ فَاعْتَسَلَ
وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَخْبَرَهُ بِصَنِيعِهَا.
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: فَبَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي
وَقَعْتِكُمَا!

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي
أُمَّتِي مِثْلَ صَابِرَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.
وجاء في نهاية القصة:

«فقيل: يا رسول الله! صلى الله عليه وآله وسلم ما كان من خبرها؟
فقال: كان في بني إسرائيل امرأة وكان لها زوج، ولها منه غلامان، فأمرها
بطعام ليدعو عليه الناس ففعلت، واجتمع الناس في داره، فانطلق الغلامان
يلعبان فوقاً في بئر كانت في الدار، فكرهت أن تنغص على زوجها
الضيافة، فأدخلتهما البيت وسجتهما بثوب، فلما فرغوا دخل زوجها فقال:
أين ابناي؟ قالت: هما في البيت؛ وإنما كانت تمسحت بشيء من الطيب
وتعرضت للرجل حتى وقع عليها. ثم قال: أين ابناي؟ قالت: هما في
البيت. فناداها أبوهما فخرجا يسعيان. فقالت المرأة: سُبْحَانَ اللَّهِ، والله

لقد كانا ميتين ، ولكن الله تعالى أحياهما ثواباً لصبري»^١ .

الاختلافات والتباينات :

وأما المسألة الثانية التي وعدنا ببحثها فهي مسألة سبب الاختلافات والتباينات في عالم الوجود . ألم يكن حريراً أن يُخلَق جميع البشر على صورة واحدة وشكل واحد ؛ كلهم أصحاء ، كلهم أحياء وخالدون ، جميعهم مرقهون وحوائجهم مُستجابة ، جميعهم سُعداء ومبتهجون ، كلهم أتقياء ومؤمنون ، جميعهم أطهار وطيبون ، الكلّ نشط متحرّك نحو كمال الربّ الموجود الأزليّ الأبدّيّ الرحيم الودود العطوف وجماله ؟!

وبعبارة أخرى : فنحن مُسلّمون بأنّ الله هو الخالق ، ونُسلّم كذلك بأنّ هذا الخلق قائم على أساس من المنفعة والمصلحة ؛ ولكن ألم يكن من الأفضل أن يكون الخلق أفضل من هذا وأرقى منه ؟! خلقاً لا وجود للشور والنقائص فيه والتي هي عدميات - كما يقول الحكماء - بل عالم تكتنفه الخيرات المحضة والمباهج الصّرفة والتجليات الجماليّة دون تسلّط أو ضيم ، دون لمحة أو بارقة للكبرياء ؛ الكلّ فرحٌ وسعيد ، ومسرور ومُبتهج ، دون أثر للألم أو المعاناة أو المصائب أو الكوارث أو النفاق أو الكذب أو الزور أو الحسد أو الأضغان ، الكلّ جميعاً يعيشون حياة سعيدة ويحيون فعليّة تامّة ؟!

أي : ألم يكن من الأفضل بدءاً أن يخلق الله الجنّة بالخصوصيّات والميّزات التي بَشَّرَ بها الأنبياء العِظام ومنهم خاتم الأنبياء سيّدنا محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وعلى أولاده الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم

١- «بحار الأنوار» في طبعة الكمبانيّ: ج ١٨ ، ص ٢٢٧ ، وفي طبعة الإسلاميّة: ج ٨٢ ،

أجمعين والذي بيّن ذلك بالتفصيل ، وكذلك القرآن الكريم باعتباره أعظم معجزة إلهية وهادياً أقوم الأمم إلى الصراط المستقيم^١ الذي شرح ذلك ووصفه بالإطناب والإجمال في مواقع عدّة ؛ فيُسكِنَ فيها بني آدم؟! ألم يَكُنْ ذلك أفضل وأجدر ، وأبعد عن المشاكل واللفّ والدوران ، وأنأى عن آلاف المصائب والبلايا!؟

للجواب على ذلك نقول فقط : إنَّ اختلاف الأشياء الخارجيّة وجميع أفراد البشر يعتمد على ذاتها هي ، وهو ضروري للنظام الأحسن طبقاً لقانون العليّة والمعلوليّة .

هذا باختصار هو جوابنا الذي يشمل البراهين الحكميّة والآيات الإلهيّة والشواهد الدوّقيّة والشهوديّة والعرفانيّة . وأمّا إذا ابتغيت جواباً أطول وشرحاً أشمل ، فيكفينا الإستشهاد بالآيات العرفانيّة التالية من غزليّة شيخ العرفاء وسند الواصلين الخواجه محمّد حافظ الشيرازي زاد الله في علوّه ورُتبته التي يقول فيها :

صوفى ار باده به اندازه خورد نوشش باد

ور نه اندیشه اين كار فراموشش باد

آنکه یک جرعه می از دست تواند دادن

دست با شاهد مقصود در آغوشش باد^٢

١- إشارة إلى الآية ٩ ، من السورة ١٧ : الإسراء : **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** .

٢- يقول : **«إِنَّ السالك إلى الله إذا شرب من خمرة العشق بقدرٍ فهنئاً له ؛ وأمّا إذا تجاوز حدّ الشراب واخترق حدوده فسينسى فكرة السير والسلوك في طريق المعرفة .**
وإنّ من يستطيع شرب جرعة أقلّ من خمرة (الحبّ) فإنّه سيضع في النهاية ذراعه على عاتق محبوبه ويتمتع بوصاله» .

پیر ما گفـت خطا بر قلم صُنع نرفت
 آفرین بر نظر پاک خطا پوشش باد
 شاه ترکان سخن مدّعیان می شنود
 شرمی از مَظلمهٔ خون سیاوشش باد
 گرچه از کبر سخن با من درویش نگفت
 جان فدای شکرین پستهٔ خاموشش باد
 چشمم از آینه دارانِ خط و خالش گشت
 لبم از بوسه ربایانِ بر و دوشش باد
 نرگسِ مستِ نوازش کنِ مردم دارش
 خون عاشق به قدح گر بخورد نوشش باد
 به غلامی تو مشهور جهان شد حافظ
 حلقهٔ بندگی زلف تو در گوشش باد^۱

۱- یقول: «لقد قال شيخنا (العارف) (لمن اعتقد هناك أخطاء كثيرة موجودة في خلقة العالم) لم يصدر هناك أي خطأ في عالم الخلق؛ فبورك من نظر نزيه ساتر للعيوب. إن ملك تركستان (وهو أفراسياب) كان يُصغي إلى المدّعين؛ فأباح قتل (سياوش) فعليه أن يخجل من طلب ثأره. وبالرغم من أنه (أي الحبيب) لم يتحدّث معي لعظم شأنه؛ لكنّ روحي فداء لشغره المعسول وإن أغلقه ولم ينس بينت شفة. ولأنّ جمال الحبيب بادٍ أمامي على الدوام، فكأنّ ناظرِي مرآة له ولخاله (المنقوش على وجهه)؛ وعلى هذا أتمنى أن تحظيا شفتاي كذلك بقُبلة من صدره وكتفه. إذا شرب المعشوق دم العاشق في كأس فهنيئاً له ذلك. لقد اشتهر (حافظ) بعُبوديته لك (أيها الحبيب)؛ ولتندم أفرات العُبودية في أذنه إلى الأبد».

«ديوان الخواجة شمس الدين محمد حافظ الشيرازي» ص ٧٥ و٧٦، الغزلية ⇨

وأما ما يتعلّق بالبراهين الحكّميّة فنقول : اعلم أنّ كلّ مشهود في العالم إنّما هو تباين وليس تمييز .

والتمييز هو أن نُعطي ضعف الطعام لأحد نفرين مُستحقّين لنفس المقدار من الطعام دون الآخر . وليس التمييز أن نُعطي ضعف الطعام لأحدهما المستحقّ والجائع أكثر من نظيره المُستحقّ لكنّه ليس جائعاً كصاحبه ؛ بل يُدعى ذلك تبايناً وهو أمر صحيح ومقبول . وكذا الحال مع المُعلّم الذي يقوم بتفصيل الدرس لطالب قليل الذكاء حتّى يتمكّن من فهم الدرس واستيعابه بشكل أفضل في حين يصرف وقتاً أقلّ من ذلك مع طالب آخر أذكى ، فهذا هو ما يُسمّى تبايناً لا تمييزاً وهو أمر صحيح ومقبول كما ذكرنا . فلو كان نفس المُعلّم يقوم بتدريس المادّة لكلا الطالبين بمستوى واحد لكان ذلك عدم تباين وهو أمر غير صحيح وغير مقبول .

وهكذا ، فقد اتّضح لنا هذا الأمر ؛ ثانياً نقول : تبيّن ممّا تقدّم أنّ النقائص والشُرور هي أمور عدميّة ، فموت زيد مثلاً أمر عدميّ ويعود مرجعه إلى حياته في هذا المقطع الزمنيّ المعلوم . فحياته إذن محدودة بهذا الحدّ من الزمن ، وأما استمراريّته التي لا وجود لها فهي أمر عدميّ وهو شرٌّ ونقص . ومعنى عليّة الأمر العدميّ للشُرور التي هي اعدام هو أنّ علّة وجودها لم تستمرّ إلّا إلى هذا الحدّ وبذلك لم تستطع أن تمنحه الحياة أكثر من ذلك .

فإن عمّر زيد خمسين سنة ثمّ مات ، فذلك يعني أنّ علّة وجود حياة زيد امتلكت العلّة حتّى الخمسين من عمره ، ومن الآن فصاعداً لن يكون هناك وجوداً لعلّة حياته ، إذاً فهو ليس موجوداً .

وتؤول جميع الأمور العدمية إلى محدودية الأمور الوجودية . وعلى هذا يكون عُمر زيد الذي دام خمسين سنة قد قُيد في سجل العلة والمعلول الثابت لعالم الخلق ونظامه البديع والأمثل والذي هو مُسبَّب من لدن مُسبَّب الأسباب ، وهذا الأمر لا يقبل التغيير وهو عين الخير والرحمة .

وهكذا قُدِّر لزيد أن يوهب عُمرًا مقداره خمسون سنة وذلك في سجل علل أمور العالم . وتُعتبر حياته التي دامت خمسين عاماً أمراً وجودياً وهي عين الخير والرحمة ، وأما عدم حياته بعد هذا المقطع الزمني والذي نعتب عنه بالفقدان والشر والضرر فهو أمر عديمي . فهو لا شيء لعدم تحقق علة وجوده في الخارج ، وما كان من حياته التي دامت خمسين سنة والتي هي أمر وجودي هي عين الخير والرحمة والصلاح والحكمة . فماذا ينتظر زيد أكثر من ذلك ؟ وما الذي يريده من نظام الخلق ؟

وهنا لو قال (زيد) : لِمَ لم يبلغ عمري الستين ؟ لِمَ لم تُضَف عليه عشر سنوات أخرى ؟

نقول جواباً عليه : أولاً لو كانت قد أُضيفت عشر سنوات أخرى على عُمرِكَ وأصبح ستين لاعترضت بنفس هذا الكلام عند احتضارك وقُلْتَ : هَلَا بَلَغْتُ السبعين . لم لا تُضاف على عُمري عشر سنوات أخرى ، وهكذا دواليك ، فحتى لو عمّر زيد ألف سنة لتمتّى عند حضور الموت والفقدان أن يكون عمره ألف سنة وعشراً . وهكذا صعوداً حتى نشهد زيدا وقد وصل عمره الملايين والمليارات ؛ ومع ذلك فهو لا يرغب في الموت ، لأنّ الموت يكون حينها أمراً عديمياً كذلك وشرّاً ونقصاً وفقداناً وقطع حياة ومعيشة وتكمن مصداقية ذلك في «حُكْمُ الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد» .

والخلاصة أنّ زيدا يطلب الحياة الأبدية والخلود .

كان هذا مثلاً عن الحياة . أمّا ما يخصّ جميع نقائص زيد ومحدودياته فإنّ الأمر على هذا المنوال كذلك . فلو فرضنا أنّ زيداً حائز على عشر درجات من درجات العلم فسنراه يشكو من عدم حصوله على درجات أعلى من العلم . ويقول في نفسه : لِمَ لم أحصل على مائة أو ألف درجة من العلم ؛ وهلمّ جرّاً .

ولو امتلك زيد مثلاً مائة درجة من القوّة والقدرة بحيث يستطيع بها رفع ثقل مقداره مائة كيلو غرام ، فسنراه يتذمّر من عدم قدرته على رفع مائة وعشرين كيلو غرام أو خمسمائة كيلو غرام ... وهكذا دواليك ، ولن نشهد زيداً في أية مرحلة قانعاً بما عنده من دون أن يتذمّر أو يطلب الزيادة .

وعلى هذا لا يمكن إيقاف زيد عند حدّه ، فتارة نراه يطلب الحياة الأبدية ، وتارة أخرى يلهث وراء العلم والقوّة السرمديّان ، وأخرى لا ينفكّ يطلب شؤوناً وامتيازات غير محدودة ؛ وكلّ ذلك في هذه الدنيا المقيّدة والمحدّدة بآلاف الحدود ومختلف القيود وأنواع النواقص . فهل مطالب زيد هذه وأمنيّاته ممكنة الحصول أو التحقق حسب ذهنيّتنا ، أم أنّ طلبه هذا من الله هو مُغالاة وإلحاح وهراء وشكّاة ؟!

كان هذا هو الجواب الأوّل بهذا الخصوص .

وأما جوابنا الثاني لزيد فهو : أنت تقول : لِمَ لم أكن هو دون أنا ؟ لِمَ لم أكن سلطاناً ؟ لِمَ لم أكن الشيخ الطوسيّ ؟ لِمَ لو أكن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام ؟

وهنا نقف عند كلامك الأوّل ، ويكفيّننا ذلك إلى يوم القيامة وهو

حسبنا . نقول : ألم تقلّ : «أنا» ؟! فما معنى «أنا» ؟!

إنّها تعني زيداً الذي يدعى أبوه بـ«حسن» ، وأمّه «فاطمة» ، والذي وُلِدَ (أي زيد) في مدينة مشهد المقدّسة ، على مقربة من الحرم الرضويّ

الشريف . ساعة طلوع الفجر ، من يوم الأربعاء ، من شهر ذي الحجة ، عام ١٣٩٠ هـ ، حيث كان الفصل مثلاً ربيعاً وكان الطقس جميلاً ومعتدلاً ، وكانت مؤلِّدتك السيِّدة فلانة المحترمة ؛ وكان جدُّك هو الذي سمَّاك زيداً وقد شارك ذوو قرباك ومعارفك في مراسم نحر عقيقتك ، مضافاً إلى آلاف الخصائص والمميزات الأخرى التي تميِّز بها .

ولو تجاوزنا أصل وجودك ، فهناك الكثير من العوارض والمميزات الزمانيَّة والمكانيَّة ، والفعل والانفعال والكيف والكَمِّ والعلة والمعلول وغيرها والتي تضافت مجتمعة وتدخلت في وجودك وتشخصاتك ، وقامت بمجموعها بإنشائك وجعلت منك فرداً يُدعى زيداً .

والآن تقول : لِمَ لَمْ أكن الشيخ الطوسي ؟ لِمَ لَمْ أكن العلامة الحلِّي ؟ لِمَ لَمْ أكن السيِّد بحر العلوم ؟ فالشيخ الطوسي مثلاً اسمه محمَّد وأبوه يُدعى حسن وولادته كانت في خراسان وقد عاش قبل ألف عام ، وتيارات معلوماته وانفعالاته وخواصه وآلاف بل بملايين الأمور والفوارق التي تختلف اختلافاً كبيراً مع ما لديك أنت منها^١ .

١- قال العلامة الشيخ آغا بزرگ الطهراني قدس سره في «طبقات أعلام الشيعة»، في المُجلِّد الموسوم بـ«النابس في القرن الخامس»، ص ١٦١ و١٦٢ ، تحت اسم : محمَّد بن الحسن بن علي بن الحسن أبو جعفر الطوسي - شيخ الطائفة:

«وُلِدَ في خراسان في شهر رمضان من سنة ٣٨٥ هـ ، أي لأربع سنين مضين على وفاة الصدوق (توفي ٣٨١ هـ) وفي السنة التي تُوفِّي فيها هارون بن موسى التلعكبري . سافر إلى العراق سنة ٤٠٨ هـ (وهو في الثالثة والعشرين من العمر) ، وتلمذ خمس سنين على يد الشيخ المفيد (توفي ٤١٣ هـ) وثلاثاً على يد الغضائري (توفي ٤١١ هـ) . وكان تلميذاً كذلك لابن حاشر البرَّاز وابن أبي جيد وابن الصلت ، وكلهم توفَّوا بعد سنة ٤٠٨ هـ ، وقال بعضهم إنَّ النجاشي (٣٧٢ - ٤٥٠ هـ) كان من بين أساتذته أيضاً .

... عاصر السيِّد المرتضى (توفي ٤٣٦ هـ) ٢٨ سنة إلاَّ أنَّه لم يدرك السيِّد الرضيّ ⇨

﴿ توفي ٤٠٦ هـ. عيّنه الخليفة العباسي القائم بأمر الله أستاذاً لعلم الكلام في بغداد، فاجتمع حوله الطلاب والعلماء حتى بلغ عدد العلماء الذين درسوا عنده الـ «٣٠٠»... وظلّ محتفظاً بمنصبه هذا حتى سقوط بغداد بيد السلاجقة الأتراك.

دخل طغرل بك بغداد سنة ٤٤٧ هـ وأحرق «خزانة الكتب التي وقفها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة، ولم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها «معجم البلدان» لياقوت الحموي، مادة بين السورين. وكانت مدة حكم طغرل بك من سنة ٤٢٩ إلى ٤٥٥ هـ. ف وقعت فتنة بين الشيعة والسنة عام ٤٤٨ هـ وفي ذلك يقول ابن الجوزي: وفر أبو جعفر الطوسي وأغاروا على داره (في الكاظمية). وقال في حوادث سنة ٤٤٩ هـ في شهر صفر من هذه السنة هدموا دار أبو جعفر الطوسي المتكلم الشيعي في الكرخ مع سقفه وساووه بالتراب، وأما الكتب والدفاتر التي وُجِدَت فيها والمنبر الذي كان يجلس عليه أثناء تدريسه وثلاثة أعلام بيضاء كانوا يحملونها إلى كربلا أثناء العزاء الحسيني وغلاية للشاي، جاؤوا بكل ذلك خارجاً وأحرقوها في مكان في ناحية الكرخ. فهاجر الشيخ على أثر ذلك إلى النجف الأشرف وأقام دعائم وأركان الحوزة فيها. وقال بعضهم: بل كانت الحوزة في النجف موجودة قبله...

... ظلّ الشيخ مدة اثنتي عشر سنة في النجف حتى تُوفي ليلة الاثنين ٢٢ محرّم سنة ٤٦٠ هـ، فتصدى لغسله ودفنه تلامذته وهم: الحسن بن المهديّ والسليقيّ والحسن بن عبد الواحد العيّن زربي وأبو الحسن اللؤلؤي، ودُفِنَ في داره هناك. فتحولت داره إلى مسجد وهو اليوم من أشهر المساجد الموجودة في النجف الأشرف، ويقع عند الباب الشمالي لصحن الأمير عليه السلام والمعروف كذلك بـ «باب الطوسي».

نعم، لم يكن مرادنا أو هدفنا من إيراد هذه النبذة عن حياة شيخ الطائفة إلا لكي نطلع على الزوايا المختلفة والحالات المتباينة وجري الأمور لهذا الرجل العظيم والفقير المتكلم وحامي مذهب الشيعة، ونقول لزيد، الذي يكرّر دوماً هذه العبارة: لَمْ أكن الشيخ الطوسي: إنّ سبب عدم كونك الشيخ الطوسي هو عدم تعيين كل تلك الحوادث لك منذ ولادة الشيخ حتى وفاته. وإنيّة زيد هي السبب الوحيد في كونه «هو هو» وليس أحداً غير «هو هو»، وهذه الـ «إنيّة» هي التي تُبطل كل ادّعاءاته وطلباته.

وتجدد الإشارة إلى ذكر نقطة مهمّة وردت في عبارة المرحوم العلامة الطهرانيّ ﴿

إنّ عبارة «لِمَ لم أكن هو» تُبطل نفسها بنفسها؛ فكلمة أنا تعني أنا، وهو تعني هو. إنّ الآثار والخواصّ والميّزات المتعلّقة بـ «أنا» مؤثّرة في وجود زيد لدرجة أنّنا لو استبدلنا شعرة واحدة من جسمه بشعرة أُخرى فإنّ وجود زيد سينعدم أصلاً ولن يكون زيداً البتة. كما لو فرضنا مثلاً: أنّ حسن الذي هو والد زيد يكون عمّه حسين، حيث سنكون قد ارتكبنا خطأً كبيراً وضللنا السبيل، وهكذا الأمر في تنظيم وترتيب سلسلة العلل والمعلولات العجيبة والمحيرة والمنظمة الدقيقة لدرجة أنّنا لو قمنا باستبدال شعرة من جسمه ووضعها بالقرب من شفتيه معتبرين ذلك أمراً غير مهمّ في عالم الخلق ومعدوم الوجود والخلقة، فالحقيقة أنّنا بذلك نتعد عن الواقع ونأى عن عالم الخلقة وأسرار الخليقة وسلسلة المراتب والعلل.

❦ والتي نقلناها عن كتابه «النابس» وهي: أخذ ما وُجد من دفاتره وكرسيّ كان يجلس عليه للكلام، وأخرج إلى الكرخ، وأضيف إليه ثلاثة سناجيق بيض فأحرق الجميع. وجاء في أصل عبارات ابن الجوزي في «المنتظم في تاريخ الأمم والملوك» ج ١٦، ص ١٦، في حوادث سنة ٤٤٩هـ (طبعة سنة ١٤١٢ هجرية قمرية)، ما يلي: وأخذ ما وُجد من دفاتره وكرسيّ كان يجلس عليه للكلام وأخرج ذلك إلى الكرخ وأضيف إليه ثلاثة مَجَانِقَ بيض كان الزوّار من أهل الكرخ قديماً يَحْمِلُونَهَا مَعَهُمْ إِذَا قَصَدُوا زِيَارَةَ الْكُوفَةِ فَأَحْرَقَ الْجَمِيعُ. وهنا يجب القول إنّ عبارة «مناجيق بيض» الواردة في المجلّد المطبوع لكتاب ابن الجوزي قد وردت كذلك في نُسخ أُخرى من كُتب التّاريخ وهو لا يتعدّى كونه تصحيفاً أو تحريفاً.

والصحيح هو ما ورد في عبارات العلامة الطهراني «ثلاثة سناجيق بيض».

جاء في «أقرب الموارد» السُّنْجِقُ: اللِّوَاءُ وَالِدَائِرَةُ تَحْتَ لِوَاءٍ وَاحِدٍ، فَارِسِيَّةٌ، ج:

سناجق.

وعلى هذا فكلمة «سناجق» هي الأصحّ والمقصود بها أعلام وألوية بيضاء كانت موجودة في دار الشيخ وكانت تُحْمَلُ من قِبَلِ الزوّار الشيعة في الكرخ عند زيارتهم الكوفة وقبر أمير المؤمنين عليه السلام وسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في مواكب العزاء.

والآن افترضوا أننا أكملنا كل ما يعتبره زيد نقصاً فيه وجعلنا منه إنساناً كامل الوجود والعلم والحياة والقدر في إطار الإنسانيّة فإنّ زيدياً وبالرغم من كلّ ذلك سيقول: لِمَ لم تتوقّف فيّ صفات وخصوصيّات الحيوانات والجمادات والنباتات الموجودة على الأرض؟

لِمَ لم يكن جسمي بحجم جسم الفيل؟ لِمَ لا أملك قرنين متشابكين كقرني الغزال؟ لِمَ لم تصبح قامتي مثل شجرة الصنوبر؟ لِمَ لا أنير كالبدر في ليلة تمامه أو مثل كوكب الزهرة؟

وذلك لقول الحكماء: **الذاتي لا يُعلَّل**؛ أي أنّه لا يجب البحث عن علّة وجود الأمور التي هي آثار وخصوصيّات لازمة لذات الشيء ولا يجب الاستقصاء عنها بأيّ نحوٍ كان!

وأما سبب طرد الإنسان من الجنّة وأنّ عليه تحمّل المشاق والمعاناة للعودة إليها ثانية فهو أنّ الجنّة صنفان: جنّة القابليّة وجنّة الفعلية. فالجنّة الأولى التي كان آدم وبنيه فيها كانت جنّة مرحلة النزول من العوالم الملكوتيّة النوراتية المجرّدة المحضّة والتي كانت واصلة إلى عالم الصورة والمادّة الأوّليّة والتي يُعبّر عنها كذلك بـ «عالم الذرّ». وأمّا الجنّة التي تُقصد بعد عالم الدنيا فهي جنّة بمعنى الكلمة، صاحبة الفعلية والبروز والظهور والتفصيل والانشراح.

فأما إطلاق تسمية الجنّة على الأولى فيعود إلى أنّ التكليف فيها لا يوازي التكليف في عالم الطبيعة، وهي لا تملك أيّة حركة أو نهضة؛ وهي طهارة وتنزيه وحسب، لكنّ تلك الطهارة تخصّ مرحلة القابليّة فقط. وتوجد في (عالم) الدنيا كلّ مسائل التكليف والأمر والنهي والطاعة والمعصية والجهد مع النفس الأتّارة بالسوء والتحرّك نحو المبدأ الأعلى؛ وبالنتيجة تتحوّل جميع القابليّات في الجنّة الثانية، والتي هي مرحلة العروج

والصعود ، إلى فعلية ، حيث البروز والظهور الخالصين والشرح والتفصيل اللامتناهيين ، فأين هذا من ذلك ؟

ميان ماه من با ماه گردون تفاوت از زمين تا آسمان است^١
دانه فلغل سياه و خال مهرويان سياه

هر دو جان سوزند اما اين كجا و آن كجا؟^٢

لقد كان خروج آدم من الجنة سبباً لكماله لا لنقصه . فلو لم يخرج منها لثبت في دار الاستعداد ومنزل القابلية مراوحاً في مكانه دون أي تقدم . لكنه في نزوله إلى عالم الطبيعة وتفصيل التكليف يقطع جميع مراحل مراتب استعداداته البشرية وقوته الإنسانية ، درجة درجة ، باختياره وإرادته ، أملاً للوصول بها إلى أعلى درجات الكمال والفعلية . وهكذا يخطو قُدماً للدخول إلى الجنة الثانية والتي تلي هذه الحياة الدنيا ، ويتمكن منها إلى الأبد .

إنّ مثل الجنة التي تسبق الدنيا كمثل الجنين ، فمع كونه إنسان إلا أنه ذو قابلية محضة ؛ حيث لا ضوضاء ولا ضجيج ، لا حراك فيه ولا عشق ولا حب ، لا مقصود فيه ولا مراد ؛ وهكذا يتحتم عليه الخروج من الجنة والنزول إلى الدنيا ، وإلا فسيؤول إلى الفساد ، بعد أن يفقد كل مراتب الاستعدادات التي يمتلكها .

إنّ الجنين وهو يشهد حرّيته وقدرته على الاختيار في عالم الطبيعة وسط التيارات المختلفة والقوى الملكوتية والإبليسية المضادة لها ، وفي

١- يقول : «إنّ البعد بين قمرى وقمر السماء ؛ كالبعد بين السماء والأرض» .

٢- يقول : «إنّ الفلغل الأسود يشبه لون الخال الموجود على وجنة الحبيب ؛ وكلاهما

حَرِّيف ، لكن أين هذا من ذلك» .

خَضَمَ الدَّعْوَةَ إِلَى الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، فَيَسِيرُ بِقَدَمٍ ثَابِتَةٍ وَإِرَادَةٍ رَاسِخَةٍ مَتِينَةٍ فِي مَجَاهَدَتِهِ لِلنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ؛ فَإِذَا بِهِ يَرَى نَفْسَهُ فِي عَالَمٍ تَسْوَدُهُ الْعِظْمَةُ وَتَهَيِّمُنْ عَلَيْهِ الْأُبْهَةُ وَالْجَمَالَ وَالْجَلَالَ ؛ عَالَمٍ تَكْتَنِفُهُ الْآثَارُ الَّتِي تَتَمَثَّلُ فِي بَرُوزِ الْاسْتِعْدَادَاتِ وَظُهُورِهَا مِنْ حُورِ الْعَيْنِ وَقُصُورِ وَجَنَّاتِ وَخُلْدِ وَرِضْوَانِ ، وَبِالتَّالِيِ الْإِنْمِحَاءِ وَالْإِنْصِهَارِ فِي الذَّاتِ الْمَقْدَسَةِ لِلرَّبِّ الْحَيِّ الْقَدِيرِ ، ثُمَّ وَالتَّشَكُّلِ بِشَكْلِ الْفَعْلِيَّةِ النَّاتِمَةِ فِي جَمِيعِ مَرَاكِلِ الْوُجُودِ . وَلَا سَبِيلَ لَوْصُولِ الْإِنْسَانِ إِلَى تِلْكَ الْجَنَّةِ إِلَّا بِالْعُبُورِ مِنْ فَوْقِ جَسُورِ الشَّهْوَةِ وَالْأَنَانِيَّةِ وَاجْتِيَازِهَا بِجِدَارَةٍ ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا بِالنُّزُولِ مِنَ الْجَنَّةِ الْأُولَى وَالسَّيْرِ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ وَتَصَارُعِ الْقُوَى الشَّيْطَانِيَّةِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ مَعَ الْقُوَى الْمَلَكُوتِيَّةِ الرَّحْمَانِيَّةِ . وَمَحَالٌ هَذَا دُونَ ذَلِكَ !

وَمِثْلُ الْجَنَّةِ الْأُولَى كَذَلِكَ كَمِثْلِ حَبَّةٍ وَمِثْلُ الْجَنَّةِ الثَّانِيَّةِ كَمِثْلِ شَجَرَةٍ بَالِغَةٍ وَكَامِلَةِ النَّمْوِ . وَمَعَ أَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ مَعَ مَا تَحْوِيهِ مِنْ جَذَعٍ وَجَذُورٍ وَأَغْصَانٍ وَأَوْرَاقٍ وَثَمَارٍ وَحُبُوبٍ تِلْكَ الْأَثْمَارُ الَّتِي تُمَثِّلُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا شَجَرَةً مُسْتَقَلَّةً قَائِمَةً بِذَاتِهَا وَلَهَا جَمِيعُ خُصُوصِيَّاتِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَآثَارِهَا وَخُوصَائِهَا ، إِلَّا أَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ نَفْسُ تِلْكَ الْحَبَّةِ وَالتِّي تَحَوَّلَتْ إِلَى هَذَا الشَّكْلِ وَتَبَدَّلَتْ بِهَذِهِ الصُّورَةِ . لَكِنْ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ بُونَ شَاسِعٍ وَفَرَقٍ كَبِيرٍ . إِنَّ تِلْكَ الْحَبَّةَ الصَّغِيرَةَ وَالتِّي تَبْدُو فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ تَافَهُةً وَحَقِيرَةً وَلَا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ خُرُوجِ شَجَرَةٍ شَامِخَةٍ قَوِيَّةٍ خَضْرَاءَ ، تِلْكَ الْحَبَّةُ هِيَ شَجَرَةُ الصَّنُوبَرِ . وَلَا يُمْكِنُ الْمَقَايِسَةَ كَذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْآثَارِ وَالْمَنْفَعَةِ الْوُجُودِيَّةِ بَيْنَ تِلْكَ الْحَبَّةِ وَتِلْكَ الشَّجَرَةِ . وَلَوْ أَنَّنا لَمْ نَلْحِظْ تِلْكَ الْحَبَّةَ أَوْ لَمْ نَقُمْ بِزَرْعِهَا بِأَيْدِينَا وَنَشْهَدُ بِأَنْفُسِنَا خُرُوجَ وَتَبْرَعِمْ تِلْكَ الْحَبَّةَ ثُمَّ صَيَّرُورَتَهَا شَجَرَةً قَوِيَّةً عَالِيَةً وَمِثْمَرَةً ، كَشَجَرَةِ التُّوتِ مِثْلًا وَالتِّي تُعْطِي أَكْلَهَا عَشْرَاتِ السَّنِينِ وَتُسْعِدُ الْكَثِيرِينَ وَتُبْهَجُهُمْ ، لَوْلَا كَلَّ ذَلِكَ لَكَانَ مِنَ الْمَسْتَحِيلِ عَلَيْنَا أَنْ

نُصَدِّقُ أَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِنَّمَا هِيَ تِلْكَ الْحَبَّةُ الصَّغِيرَةُ الدَّقِيقَةُ .
 بل انظر إلى الإنسان نفسه الذي نشأ عن نطفة وهي ذرّة دقيقة جدّاً
 لا تُرى بالعين المجرّدة ، كيف تمرّ بأدوار في الرحم وتطوي مراحل عدّة
 حتّى تتشرّف بقوله تعالى عن الإنسان فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ^١ ،
 فيخرج إنساناً سويّاً إلى هذا العالم ، إنساناً عاقلاً نافعاً عالماً . وعلى هذه
 الشاكلة تكون مراحل تكامل الإنسان وخروجه من هذه الدنيا إلى دار
 التجرّد والنور والإطلاق .

إنّ هذا الإنسان الملكوتيّ والجبروتيّ واللاهوتيّ هو نفسه الذي كان
 إنساناً ناسوتياً في البدء ، لا غيره ؛ لكنّه وبسبب من الارتقاء والتكامل
 اللذين حصلوا له ، وبسبب كذلك من حُسن اختياره وقوّة إرادته ، ومن أجل
 اجتيازه لمدارج الكمال ومعارجه ، وتخلّيه عن الأنانيّة الرمزيّة الجوفاء ،
 لأجل كلّ ذلك تمكّن من الوصول إلى مرتبة العبوديّة المحضة والتي تُوازي
 الربوبيّة المحضة لربّه .

وعلى هذا ، فإنّ خروج آدم من الجنّة الأولى والذي سبق نزوله إلى
 هذه الدنيا كان في مصلحته لا في ضرره ، بل إنّ جميع ذلك كان في مصلحته
 ومنفعته . إنّها المنافع الجمّة واللامتناهية ، وكلّما ارتقى سلّم الرقيّ صعوداً
 كانت النتيجة منفعة لا متناهية ؛ فتسوقه المنافع اللامتناهية تلك نحو الجنّة
 الثانية ، جنّة فعليّته وبروز أعماله وظهورها وتميُّز ملكاته وعقائده
 وحقائقه .

فتعال وانظر ما قد حصل !

فخلال اجتياز القوس النزوليّ يمرّ الإنسان طواله عبر مراحل

١- ذيل الآية ١٤ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

الاستعداد والقابلية التي تكمن فيه ويقوم بادّخار ذلك كلّهُ ؛ لكنّه في اجتيازه لطريق القوس الصعودي وهي رجعتة من نقطة الحضيض هذه باتّجاه المبدأ أو الأصل الأوّل وربّ حيّ عليم أزليّ أبديّ ، يمرّ بالفعلية والظهور اللتين يشهدهما في وجوده عياناً .

وعلى أساس من هذا البرهان المُقتبس من مجموع كتب صدر المتألّهين الشيرازيّ ، فخرنا وفخر الإسلام والمسلمين والبشريّة جمعاء إلى يوم القيامة ، نرى مدى ما يمتلكه الإنسان من عوامل الرقيّ وأسباب الكمال ! ونلاحظ كذلك عمق هُوّة الجهل والظلمة اللتين يغوص فيهما من ابتعد عن فلسفته وحكمته ولا يحاول قضاء أعزّ شيء عنده وهو عمره في فهمهملعلم ، ومصداق ذلك الآية الشريفة :

- نظم الخواجة شمس الدين حافظ الشيرازيّ قدّس سرّه الأبيات التالية والتي تضمّت أسرار عالم الخلقه جميعاً:

در ازل پرتو حسنت ز تجلی دم زد

عشق پیدا شد و آتش به همه عالم زد

جلوه‌ای کرد رخت دید ملک عشق نداشت

عین آتش شد از این غیرت و بر آدم زد

عقل می‌خواست کزان شعله چراغ افروزد

برق غیرت بدرخشید و جهان بر هم زد

مدعی خواست که آید به تماشاگه راز

دست غیب آمد و بر سینّه نامحرم زد

دیگران قرعه قسمت همه بر عیش زدند

دل غم‌دیده ما بود که هم بر غم زد

جان علوی هوس چاه زنخدان تو داشت

دست در حلقه آن زلف خم اندر خم زد ⇨

أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ١.

وأما المؤمنون المتوغلون في العلوم الإلهية والسابرون الحكمة المتعالية فهم: **وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ٢.**
 كان ذلك موجزاً للبحث الوارد في البرهان حول هذه المسألة .
 وأما الآيات القرآنية فكلاهما تدلّ على لزوم التباين بين أفراد البشر ،
 وأنّ بحثها يقتضي الإطناب ، إلا أننا نكتفي بالإشارة إلى بعض الآيات
 لتكون حسبنا في هذا المجال :

١- **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهِ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ٣.**

حافظ أنروز طرب نامة عشق تو نوشت

كه قلم بر سر اسباب دل خرم زد
 «ديوان حافظ» ص ١٠٣ و ١٠٤ طبعة محمد القزويني و الدكتور قاسم غني .
 يقول : «لقد تجلّى نور حسنك منذ الأزل ، فظهر الحبّ وأشعلت نيرانه كلّ العالم .
 وتجلّى جمالك ورأه إبليس ، فاحترق بسبب الغيرة والحسد (لأنّ الحبّ لم يكن في
 فطرته ليعبدك كالعاشقين) فاتخذ قلب آدم مأوى له ، وسعى في ضلاله .
 وأراد العقل أن يستنير من تلك الشعلة ، فأومض برق الغيرة ، وقلب نظام العالم .
 وأراد العقل الوصولي منافسة الحبّ والدخول في أسرار الغيب ، فجاءت يد الحقّ
 ودفعتّه بعيداً .

لقد اقترع الآخرون على العيش ، في حين قلوبنا ساهمت على غمّ (الحبّ) .
 لقد أرادت الروح العلويّ وصالك ، فتمسك مضطرباً بجذائل شعرك .
 يا حافظ ! لقد كتبت في كتاب فرحك منذ ذلك اليوم ازدياد عشقك وهيامك ، ووضع
 نهاية لراحة قلبك واستقراره ، وسرّ بعذابك ومعاناتك» .

١- ذيل الآية ٤٤ ، من السورة ٤١ : فصلّت .

٢- الآيتان ١٠ و ١١ ، من السورة ٥٦ : الواقعة .

٣- الآية ٢١ ، من السورة ١٥ : الحجر .

- ٢- إنا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ.^١
- ٣- وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ
مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ.^٢
- ٤- مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا.^٣
- ٥- تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا *
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ
فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ وَتَقْدِيرًا.^٤
- ٦- سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ
فَهَدَى.^٥

وبالجملة ، فمن المناسب هنا أن نختم بحثنا بذكر كلام لعالم جليل ومتكلم نبيل ، حكيم الفلسفة ربيب الشيعة ، أحد تلامذة الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، ألا وهو هشام بن الحكم ، والذي يُفند فيه مذهب الثنوية ، وذلك لكي نُبطل نحن مذهب الدهرية والمادية والشيوعية والثنوية ، والمعتقدين بأصالة الوجود والماهية معاً من أمثال الشيخ أحمد الأحسائي حيث يمكن اعتباره (أي كلام هشام بن الحكم) أفضل البراهين وأجود الأدلة :

يقول الدكتور أحمد أمين المصري خلال بحثه في أحوال وآراء

١- الآيتان ٤٩ و ٥٠ ، من السورة ٥٤ : القمر .

٢- الآية ٢٧ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٣- الآية ٣٨ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب .

٤- الآيتان ١ و ٢ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٥- آيات ١ إلى ٣ ، من السورة ٨٧ : الأعلى .

هشام بن الحكم :
 «وَجَاءَهُ رَجُلٌ مُلْحِدٌ فَقَالَ لَهُ : أَنَا أَقُولُ بِالِاثْنَيْنِ ، وَقَدْ عَرَفْتُ
 إِنصَافَكَ . فَلَسْتُ أَخَافُ مُشَاغِبَتَكَ !

فَقَامَ هِشَامٌ وَهُوَ مَشْغُولٌ بِثَوْبٍ يَنْشُرُهُ وَقَالَ : حَفِظَكَ اللَّهُ !
 هَلْ يَقْدِرُ أَحَدُهُمَا عَلَى أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا لَا يَسْتَعِينُ بِصَاحِبِهِ عَلَيْهِ ؟
 قَالَ : نَعَمْ !

قَالَ هِشَامٌ : فَمَا تَرْجُو مِنْ اثْنَيْنِ ؟ ! وَاحِدٌ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ أَصَحُّ لَكَ !
 فَقَالَ الرَّجُلُ : لَمْ يُكَلِّمْنِي بِهَذَا أَحَدٌ قَبْلَكَ !^١

هذا هو برهان هشام القويم في حالة استطاعة أحد الاثنین خلق شيء دون الحاجة إلى معونة صاحبه ؛ فلو كان جواب الرجل هو عدم استطاعة أحد الاثنین بفعل ذلك إلا بمعونة الآخر ، لكان جواب هشام على ذلك ما يلي : إذن فمجموع الأصلين القديمين معاً وقدرتهما على خلق الشيء كلُّ بمعونة أحدهما في الواقع أصل واحد ولا بدّ لذلك الأصل أن يكون الله الأزليّ والقديم !

١- «ضحى الإسلام» ج ٣ ، ص ٢٦٩ .

الْبَحْثَانِ الْجَارِي وَالثَّلَاثُونَ وَالثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ

الْقَائِلُونَ بِوَجُودِ اثْرِ لغيرِ اللَّهِ تَعَالَى مُبْتَلُونَ بِالشَّرْكِ الْخَفِيِّ

وَنفسِ الآيةِ المباركة

اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ مِنَ الْآنَ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

قَالَ اللَّهُ الْحَكِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ :

اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ^١.

(الآية ٦٢ ، من السورة ٣٩ : الزمر)

ووردت الآيات الشريفة التالية بعد الآية المذكورة :

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ * قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ
أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

١- في «أقرب الموارد» : «الوكيل ، فعيلٌ بمعنى مفعولٍ لأنه موكولٌ إليه ، وقد يكونُ للجمع والأُنثى ، وقد يكونُ بمعنى فاعلٍ إذا كانَ بمعنى الحافظ . ووُصِفَ به اللهُ تَعَالَى ؛ ومنه حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وقيل هو هُنَا بمعنى الكافي الرازق . و: الجريء ، ج: وُكلاء».

قال آية الله الحكيم المتأله الصمداني والعارف الباحث والفقير المملأ
محمد محسن الفيض الكاشاني قدس الله تربته :

«كَلِمَةٌ بِهَا يَتَّبِينُ مَعْنَى الْوُجُودِ وَأَنَّهُ عَيْنُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ .

لا شك أن كل ما هو غير موجود محتاج إلى الوجود في إيجاده
وتواجده ، والوجود موجود بنفسه لا بوجود غيره ، وكل ما سوى الحق
محتاج .

إذن فالحق هو عين الوجود وهو موجود بنفسه ، وكل الأشياء به
موجودة . كالنور الذي يُنير بنفسه لا بنور غيره ؛ ونور كل شيء يكون به .
وعلى هذا فكل الأشياء محتاجة إلى الحق والحق غني عن كل الأشياء ؛
وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ .^١

گویم سخن نغز که مغز سخن است

هستی است که هم هستی و هم هست کن است^٢

وهنا يتجلى سرّ معيّة الحقّ مع الأشياء ؛ فليس من شيء بدون
الوجود . ويتجلى كذلك أن الوجود واجب الوجود وقائم بذاته ومتعين بها ؛
فلو كان ممكناً أو قائماً بالغير أو متعين به لكان محتاجاً إلى الغير . وكل
شيء كائناً ما كان غير الوجود محتاج إلى الوجود . ولذا فأسبقية الشيء على
النفس أصبحت لازمة ، وعلى هذا فكل شيء عدا الوجود قائم بالوجود ،
وهو (أي الوجود) غير قائم بشيء .

إذن فالوجود الذي هو عين الحق ، هو دليل على الحق كما قال

١- قسم من الآية الأخيرة ، من السورة ٤٧ : محمد .

٢- يقول : «سأقول كلاماً جميلاً وهو لبّ الكلام وجوهره ؛ وهو أن معنى الوجود هو

أن يكون موجوداً وموجوداً» .

أمير المؤمنين: (يَا مَنْ) دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ.^١

چون دهان دلبران در هست و نیست

خود به بود خود گواهی میدهد^٢

وأصبح معلوماً ممّا ذكرنا أنّ الوجود بسيط من جميع الوجوه ، إذ لو كان مركباً لكان محتاجاً إلى الأجزاء ، ولكان كلّ جزء محتاجاً إليه . فـ «أسبقية الشيء على النفس أصبحت لازمة» . وصار معلوماً كذلك أنّ الوجود ليس هذا المعنى المصدرى الذهني الذي يُعبّر عنه بـ الكون والحصول والتحقّق ، لأنّ هذا هو أمر اعتباري لا وجود له إلا في الذهن وهو مُعتبرٌ بالاعتبار ، في حين أنّ الوجود كما قلنا مُحقق الحقائق والذوات وكلّ الأشياء محتاجة إليه . وهذا المعنى الذهني هو وجه من وجوهه وعنوان من عناوينه .

ولأنّ الوجود متعيّن بذاته هو ، فلا يمكن له أن يمثّل أفراداً متعدّدين بالمفهوم العامّ ؛ لا متناع التعدّد والانقسام على حقيقة الشيء إلا بامرٍ خارجي من تلك الحقيقة والتي تستوجب تعيّن أفراده ؛ وتمييز بعضها عن البعض الآخر . ولذلك قيل :

صِرْفُ الْوُجُودِ الَّذِي لَا أتمَّ مِنْهُ ، كُلَّمَا فَرَضْتَهُ ثَانِيًا فَإِذَا نَظَرْتَ فَهُوَ هُوَ ؛ «شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».^٣

هم توئی ای قدیم فرد اله وحدت خویش را دلیل و گواه^٤

١- فقرة من دعاء الصباح.

٢- يقول: «إنّ نغر الحبيب اللائح في الوجود والعدم دليل وشاهد على وجوده».

٣- صدر الآية ١٨ ، من السورة ٣: آل عمران .

٤- يقول: «إنك أنت أيها الإله القديم الفرد دليل وشاهد على وحدتك».

شَهِدَ اللَّهُ بِشَنُو وَ تَوَبَّغُو
وَ حَدَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ^١
وكذلك قيل :

كَلِمَةٌ بِهَا يُجْمَعُ بَيْنَ ظُهُورِهِ سُبْحَانَهُ وَ خَفَائِهِ .

إنَّ وجوده أظهر من وجود سائر الأشياء ؛ لأنَّ وجوده ظاهر به
ووجود سائر الأشياء به ظاهرة . كما قال : اللَّهُ نُورٌ أَلْسَمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^٢ .

لأنَّ كلمة نور تُطلق على الشيء الظاهر بنفسه والمُظهِر لسائر الأشياء .

همه عالم به نور اوست پیدا کجا او گردد از عالم هویدا

زهی نادان که او خورشید تابان به نور شمع جوید در بیابان^٣

إنَّ الأشياء بغياب الوجود عدم محض ، والوجود هو مبدأ إدراك

الكل ، من جانب المُدْرِكِ والمُدْرَكِ على حدّ سواء . فوجود المدرك هو أول

ما تدرك من كلِّ ما تُريد إدراكه ، وإن كنتَ غافلاً عن إدراك هذا الإدراك ، فقد

خفي من فرط الظهور . فلا يمكن إدراك المُبْصِرِ دون واسطة نور آخر

كالشعاع ، ولأنَّ الشعاع يبدو غير مرئياً من فرط ظهوره في تلك الحالة ،

بحيث تقوم طائفة بإنكاره . ويجب قياس هذا على النور الذي كان واسطة

لإدراك الشعاع .

نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ^٤ .

١- يقول : «اسمع عبارة شَهِدَ اللَّهُ ، ثم رَدِّدْ وحده لا إله إلا هو» .

«كلماتٌ مكنونة من علوم أهل الحكمة والمعرفة» في منشورات الفراهاني : ص ١٢

و ١٣ ؛ وفي طبعة المظفرّي : ص ١٦ و ١٧ .

٢- صدر الآية ٣٥ ، من السورة ٢٤ : النور .

٣- يقول : «إنَّ العالم كله إنما هو ظاهر بنوره ؛ فلا شيء غيره يدلُّ عليه ويجلّيه .

فمرحى بالجاهل الذي يبحث عن الشمس الساطعة في الصحراء مستعيناً بضوء شمعة» .

٤- جزء من الآية ٣٥ ، من السورة ٢٤ : النور .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لَا تَتَعَجَّبْ مِنْ اخْتِفَاءِ شَيْءٍ بِسَبَبِ ظُهُورِهِ ، فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تُسْتَبَانُ بِأَضْدَادِهَا ؛ وَمَا عَمَّ وُجُودُهُ حَتَّى لَا ضِدَّ لَهُ ، عَسَرَ إِدْرَاكُهُ . فَلَوْ اخْتَلَفَ الْأَشْيَاءُ فَدَلَّ بَعْضُهَا عَلَى اللَّهِ دُونَ بَعْضٍ ، أُدْرِكَتْ التَّفَرُّقَةُ عَلَى قُرْبٍ ؛ وَلَمَّا اشْتَرَكْتَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ أَشْكَلَ الْأَمْرُ !

وَمِثَالُهُ نُورُ الشَّمْسِ الْمُشْرِقُ عَلَى الْأَرْضِ . فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ عَرَضٌ مِنَ الْأَعْرَاضِ يَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ وَيَزُولُ عِنْدَ غَيْبَةِ الشَّمْسِ . فَلَوْ كَانَتْ الشَّمْسُ دَائِمَةً الْإِشْرَاقَ لَا غُرُوبَ لَهَا لَكُنَّا نَنْظُرُ أَنْ لَا هَيْئَةَ فِي الْأَجْسَامِ إِلَّا الْوَانُهَا ؛ وَهِيَ السَّوَادُ وَالْبَيَاضُ .

فَأَمَّا الضَّوُّ فَلَا نُدْرِكُهُ وَحَدَّهُ ، لَكِنْ لَمَّا غَابَتِ الشَّمْسُ وَأُظْلِمَتِ الْمَوَاضِعُ أُدْرِكَتْ تَفَرُّقُهُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ . فَعَلِمْنَا أَنَّ الْأَجْسَامَ قَدْ اسْتَضَاءَتْ بِضَوْءٍ ، وَاتَّصَفَتْ بِصِفَةٍ فَارَقَتْهَا عِنْدَ الْغُرُوبِ ؛ فَعَرَفْنَا وُجُودَ النُّورِ بَعْدَمِهِ . وَمَا كُنَّا نَطَّلِعُ عَلَيْهِ لَوْلَا عَدَمُهُ إِلَّا بِعُسْرٍ شَدِيدٍ ، وَذَلِكَ لِمُشَاهَدَتِنَا الْأَجْسَامَ مُتَشَابِهَةً غَيْرَ مُخْتَلِفَةٍ فِي الظَّلَامِ وَالنُّورِ .

هَذَا مَعَ أَنَّ النُّورَ أَظْهَرَ الْمَحْسُوسَاتِ ، إِذْ بِهِ يُدْرِكُ سَائِرُ الْمَحْسُوسَاتِ . فَمَا هُوَ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ وَهُوَ مُظْهِرٌ لْغَيْرِهِ ، أَنْظَرَ كَيْفَ تُصَوَّرَ اسْتِبْهَامُ أَمْرِهِ بِسَبَبِ ظُهُورِهِ لَوْلَا طَرَيَانُ ضِدِّهِ . فَإِذْ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ هُوَ أَظْهَرُ الْأُمُورِ وَبِهِ ظَهَرَتِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا . وَلَوْ كَانَ لَهُ عَدَمٌ أَوْ غَيْبَةٌ أَوْ تَغْيِيرٌ لَأَنْهَدِمَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَبَطَلَ الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ وَلَأُدْرِكَتْ التَّفَرُّقَةُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ !

وَلَوْ كَانَ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ مَوْجُودًا بِهِ وَبَعْضُهَا مَوْجُودًا بِغَيْرِهِ لَأُدْرِكَتْ التَّفَرُّقَةُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ فِي الدَّلَالَةِ ، وَلَكِنْ دَلَالَتُهُ عَامَّةٌ فِي الْأَشْيَاءِ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ وَوُجُودُهُ دَائِمٌ فِي الْأَحْوَالِ يَسْتَحِيلُ خِلَافُهُ ؛ فَلَا جَرَمَ أَوْرَثَ شِدَّةً

الظُّهُورُ خَفَاءً.

روحي است بی نشان و ما غرقه در نشانش
 جانی است بی مکان و سر تا قدم مکانش
 خواهی که بیابی یک لحظه‌ای مجویش
 خواهی که تا بدانی یک لحظه‌ای مدانش^۱

* * *

خَفِيٌّ لِإِفْرَاطِ الظُّهُورِ تَعَرَّضْتُ لِإِدْرَاكِهِ أَبْصَارُ قَوْمٍ أَخَافِشُ
 وَحَظُّ العَيُونِ الزُّرْقِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ لِشِدَّتِهِ حَظُّ العَيُونِ العَوَامِشِ

* * *

ای تو مخفی در ظهور خویشتن وی رُخت پنهان به نور خویشتن^۲
 لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَكْمِهِ لَا يَعْرِفُ القَمْرَا
 لَكِنْ بَطْنَتْ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِبًا وَكَيْفَ يُعْرِفُ مَنْ بِالْعُرْفِ اسْتَتْرَا
 حجاب روی تو هم روی تست در همه حال

نهانی از همه عالم ز بسکه پیدائی^۳
 قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا ؛ وَبِهَا
 امْتَنَعَ مِنْهَا . وَقَالَ : ظَاهِرٌ فِي غَيْبٍ ؛ وَغَائِبٌ فِي ظُهُورٍ .

۱- يقول : «إنه روح ليست لها علائم تدلّ عليها في حين أننا غارقون في علائمه ، وهو نفس ليس لها مكان معيّن في حين أنّ كلّ شيء مكانها .
 فلو رمت البحث عنه فكفّ بحثك للحظة ؛ ولو شئت معرفته فكفّ عن التفكير فيه للحظة» .

۲- يقول : «يا من هو مخفيّ في ظهوره ويا من طلعتة محجوبة بنوره» .

۳- يقول : «إنّ وجهك هو حجابك في كلّ الأحوال وأنت مخفيّ عن العالم كلّه لشدة ظهورك» .

وَقَالَ: لَا يَجِئُهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ؛ وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ.
قَرَّبَ فَنَأَى، وَعَلَا فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَّنَ، وَبَطَّنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنَّ. أَيْ
ظَهَرَ وَغَلَبَ وَلَمْ يُغَلَّبَ.

وَرَوَى الشَّيْخُ الصَّدُوقُ فِي «مَعَانِي الْأَخْبَارِ» بِإِسْنَادِهِ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: التَّوْحِيدُ ظَاهِرُهُ فِي بَاطِنِهِ؛ وَبَاطِنُهُ
فِي ظَاهِرِهِ. ظَاهِرُهُ مَوْصُوفٌ لَا يُرَى؛ وَبَاطِنُهُ مَوْجُودٌ لَا يَخْفَى.
يُطَلَّبُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَلَمْ يَخُلْ مِنْهُ مَكَانٌ طَرْفَةَ عَيْنٍ. حَاضِرٌ غَيْرٌ
مَحْدُودٍ؛ وَغَائِبٌ غَيْرٌ مَفْقُودٍ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا ظَهَرَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَظَاهِرِ إِلَّا وَقَدْ احْتَجَبَ بِهِ؛ وَمَا
اِحْتَجَبَ بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ ظَهَرَ فِيهِ.

وَقَالَ آخَرٌ: لَمْ يَحْجِبْهُ أَحَدٌ؛ لِأَنَّ الْحِجَابَ مَحْدُودٌ وَهُوَ لَاحِذٌ لَهُ^١.
لقد ألف آية الله المحقق المدقق، والعالم الكل، والشاعر الباحث
المنطيق، والفقيه القدير والحكيم ذو العزة والإكرام، من نوادر دهره
ونوابغ عصره جامعاً جميع العلوم المختلفة والمعارف المتباينة - وقد كنتُ

١- «الكلمات المكنونة» ص ٨ إلى ١١؛ وفي طبعة المظفرّي: ص ١٣ إلى ١٥؛
واستشهد المرحوم الفيض بعد إيراد هذه السطور بأبيات للعارف الصمداني الشيخ محمود
الشبستري أعلى الله مقامه:

جهان جمله فروغ نور حق دان حق اندر وی ز پیدائی است پنهان
يقول: «واعلم أنّ العالم بأسره إنّما هو شعاع نور الحقّ تعالى وهو تعالى محتجبٌ
بظهوره».

إلى أن قال:

تو پنداری جهان خود هست دائم به ذات خویشتن پیوسته قائم
يقول: «هل تظنّ أنّ العالم قائم ودائم بذاته؟».

أنا الحقير أتشرف بطلعته مدّة سنة أو اثنتين وذلك في مستهلّ رحلتي إلى النجف الأشرف لكنّي لم أخطّ بالاستفادة من فيض وجوده^١ - الشيخ

١- كان وصولي أنا الحقير إلى النجف الأشرف في الثامن عشر من شهر صفر المظفر سنة ١٣٧٠هـ وكانت وفاة ذلك المرحوم في ١٨ ذي القعدة سنة ١٣٧٣هـ وقد جاء التفصيل في شرح أحوال هذا العالم الجليل والفقير والنبيل في «أعلام الشيعة» للعلامة الحاجّ الشيخ آقا بزرك الطهرانيّ قدّس سرّه في الفصل الموسوم بـ«نقباء البشر في القرن الرابع عشر» في الجزء الأوّل منه، ص ٦١٢ إلى ٦١٩:

«وُلد في النجف الأشرف سنة ١٢٩٤ هـ وبدأ دراسته وبحثه وتأليفه وتصنيفه بفكر صائب وعزم راسخ. وقد كتب شرحاً على «العروة الوثقى» في حياة أستاذه. وقد بلغت مؤلفاته الثمانين، ومن جملة تلك المؤلفات كتاب «الدين والإسلام» أو «الدعوة الإسلاميّة إلى مذهب الإماميّة» في الحكمة والعقائد وقد طُبِع الجزء الأوّل منه في بغداد سنة ١٣٢٩ هـ، وقد همّ بطبع الجزء الثاني منه لكن حِيلَ دون ذلك بأمر من والي بغداد ناظم باشا وبتحريك من المفتي الشيخ سعيد الزهاويّ، فقرّر طبعه خارج العراق. وحجّ المرحوم بيت الله الحرام فكتب يوميات رحلته بشكل رائع في كتاب أسماه «نُزْهَة السَّمَر ونَهْزَة السَّفَر» وعند رجوعه إلى الشام قام بطبع جزئيّ كتاب «الدين والإسلام» في صيدا.

وألف كتاب «المطالعات والمراجعات» أو «النقود والردود» على أثر مباحثاته ومناقشاته التي أجراها مع فيلسوف الفريكة «أمين الريحانيّ» (١٨٧٦ - ١٩٤٠ م) وقد كتب في الجزء الأوّل منه ردّاً على اللغويّ المعروف «الأب انستاس الكرملّي» (١٨٦٦ - ١٩٤٧ م) صاحب مجلّة «لغة العرب» منتقداً إيّاه نقداً لاذعاً وقاسياً بحيث لو أطلع على ذلك شخص منصف غير منحاز لتبيّنت له أهميّة علماء الشيعة وخصوصاً كاشف الغطاء. وأدعو كلّ مبتدئ في العلوم، بل كلّ شابّ مسلم بشدّة وإلحاح إلى مطالعة ذلك الكتاب. وكتب في الجزء الثاني من الكتاب المذكور ردّاً حاسماً على جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤ م) لتأليفه كتاب «تاريخ آداب اللغة العربيّة».

ومن جملة مؤلفاته الأخرى كتاب «الآيات البيّنات» و«أصل الشيعة وأصولها» و«الفردوس الأعلى» و«الأرض والتربة الحسينيّة» و«العقبات العنبريّة» و«تحرير المجلّة» وهي من أهمّ مؤلفاته. وأما آخر كتاب قام بتأليفه كان «المُثل العُلّيا في الإسلام لا في بحمدون» - انتهى موجز ما انتخبناه من بحث المرحوم العلامة الطهرانيّ قدّس سرّه.

محمد الحسين آل كاشف الغطاء أعلى الله تعالى مقامه كتاباً بعنوان «الفردوس الأعلى» حيث قام جناب صديقنا المحترم المرحوم آية الله الشهيد السيد محمد علي القاضي الطباطبائي رضوان الله عليه بالتعليق عليه وقد طُبِعَ الكتاب المذكور مراراً . وقد بُحِثت مسائل مختلفة في الكتاب المذكور ومنها أربع مسائل مهمة في الحكمة وهي :

١- الْوَاحِدُ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا الْوَاحِدُ .

٢- مَعْنَى الْعُقُولِ الْعَشْرَةِ .

٣- وَحْدَةُ الْوُجُودِ وَالْمَوْجُودِ .

٤- الْمَعَادُ الْجِسْمَانِيَّ .

والحق أنه كتاب قيم وجذاب ؛ وبحوثه في ذروة الكمال والإتقان والاستحكام . لأنّ الحقيير لم يعثر على بحثٍ في مسألة التوحيد الحق والصّرف الإلهي أفضل وأوجز وأجمل وأقوى برهاناً وأحلى عبارة وأشوق تعبيراً من البحث الثالث وهو «وحدة الوجود والوجود» ، فلا أقلّ من أن أنقل نصّ تلك العبارات هنا لمزيد من المعرفة وفتح باب المطالعة العسيرة على البعض إلى عاشقي عرفان الربّ السبحان والهائمين في الحكمة والبرهان للربّ الرحمن ؛ عليهم يستفيدوا منها فتنكشف لهم مسألة التوحيد بهذا المنطق المتين والبرهان الراسخ الأمين للفقيه العالم والمتضلع بعلوم أهل البيت ؛ فلن تبقى بعد ذلك بحول الله وقوته آية شبهة أو شكّ .
يقول سماحته :

« وأنا أقول : إنّ كتاب «جنّة المأوى» هو واحد من أنفس مؤلفاته الأخرى وقد تمّ طبعه بعد التعليق عليه من قبل صديقنا القديم المحترم المرحوم الشهيد الحاجّ السيّد محمد علي القاضي قدّس سرّه الذي كان قد أخذ على عاتقه كذلك التعليق على كتاب «الفردوس الأعلى» .

وحدة الوجود أو وحدة الوجود :

هذه القضية من أمّهات أو مهمّات قضايا الفلسفة الإلهية وهي تتصل اتصالاً وثيقاً بعلم الحكمة العالية والإلهي بالمعنى الأعم الذي يُبحث فيه عن الأمور العامّة، كالوجود والوجود وكالواجب والممكن، والعلة والمعلول والوحدة والكثرة، وأمثالها ممّا لا يتعلّق بموضوع خاص، ولا حقيقة معيّنة من الأنواع لا ذهنياً ولا خارجاً، وللتمهيد والمقدمة نقول :

إنّ من المسائل الخلافية بين حكماء الإسلام وفلاسفة المسلمين مسألة أصالة الوجود أو الماهية، بمعنى أنّ المتحقّق في العين والخارج هل هو الوجود والماهية أمر اعتباري يُنتزع من الوجود المحدود المقيد المتعيّن بالتعيّن الذي يميّزه عن غيره بالجنس والنوع وغيرهما من الاعتبار، أو أنّ المتحقّق في ظرف العين والخارج ونفس الأمر والواقع هو الماهية والوجود مفهوم اعتباري خارج عنها مُنتزع منها محمول عليها من خوارج المحمول لا المحمولات بالضميمة .

فماهية النار مثلاً إذا تحقّقت في الخارج وترتبت عليها آثارها الخاصة من الإضاءة، والإحراق والحرارة صحّ انتزاع الوجود منها وحمله عليها، فيقال: النار موجودة وإلا فهي معدومة .

وهذا القول، أعني أصالة الماهية وأنّ الوجود في جميع الموجودات حتّى الواجب اعتبار محض، على الظاهر كان المشهور عند الحكماء إلى أوائل القرن الحادي عشر وعليه تبنتني شبهة الحكيم ابن كمّونة^١ التي

١- قال المُعلّق (القاضي الطباطبائي) في حاشية الكتاب ما يلي :

عزّ الدولة سعد بن منصور بن سعد بن الحسن بن هبة الله بن كمّونة البغداديّ الشهير بـ«ابن كمّونة». له مؤلّفات بخطّه في الخزانة الغروية في النجف الأشرف. جدّه الأعلى «

أشكل بها على التوحيد زاعماً أنه :

«ما المانع من أن يكون في ظرف التحقق ونفس الأمر والواقع هويتان مجهولتا الكُنه والحقيقة ؛ بسيطان متبائنتان بتمام ذاتيهما ويتنزع وجوب الوجود من كلّ منهما ويحمل على كلّ واحدة منهما من قبيل خارج المحمول لا المحمول بالضميمة ، لأنّ ذات كلّ منهما بسيطة لا تركيب فيها ، إذ التركيب يلازم الإمكان وقد فرضنا وجوب كلّ منهما» .

وقد أعضلت هذه الشبهة في عصره على أساطين الحكمة واستمرّ إعضالها عدّة قرون حتى صار يُعبّر عنها كما في أوّل الجزء الأوّل من «الأسفار» افتخار الشياطين .

وسمعنا من أساتذتنا في الحكمة أنّ المحقّق الخونساري^١ صاحب «مشارق الشموس» الذي كان يُلقّب بالعقل الحادي عشر ، قال : «لو ظهر الحجّة عجّل الله فرجه لما طلبتُ معجزة منه إلاّ الجواب عن شبهة ابن كمّونة» . ولكن في القرن الحادي عشر الذي نبغت فيه أعظم الحكماء كالسيدّ الداماد^٢ وتلميذه ملاّ صدرا^٣ ، وتلميذه

⇨ هبة الدين بن كمّونة الإسرائيليّ ، كان من فلاسفة اليهود في عصر الشيخ الرئيس ابن سينا . له «شرح الإشارات» أهداه لشمس الدين الجوينيّ صاحب «ديوان الممالك» .

١- الحسين بن محمّد الخونساريّ المحقّق ، علامة زمانه في العلوم . له مؤلّفات نافعة ، وُلد سنة ١٠١٦ هـ ، وتوفّي سنة ١٠٩٨ هـ . (التعليقة) .

٢- مولانا محمّد باقر الحسينيّ الشهير بالداماد ، سيّد الحكماء ومن أعظم رؤساء الدين ، له مقام شامخ في العلوم ومرتبة سامية في الفقه والرياسة والسياسة . له مؤلّفات نفيسة ، توفّي سنة ١٠٤١ هـ . (التعليقة) .

٣- محمّد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازيّ الشهير بملاّ صدرا وصدر المتألّهين ، أكبر فيلسوف عارف متشرّع ، أعلم حكماء الإسلام وأفضلهم ، وهو إمام من تأخر عنه ، واقتفى أثره كلّ من نشأ بعده من حكماء الإمامية . توفّي سنة ١٠٥٠ هـ . (التعليقة) .

الفيض^١ واللاهجيّ (صاحب «الشوارق» الملقّب بالفيّاض)،^٢ انعكس الأمر وأقيمت البراهين الساطعة على «أصالة الوجود»، و أنّ الماهيّات جميعاً اعتبارات صرفة ينتزعها الذهن من حدود الوجود، أمّا الوجود غير المحدود، كوجود الواجب جلّ شأنه فلا ماهيّة له، بل (ماهيّة إيّته).

وقد ذكر الحكيم السبزواريّ رحمه الله^٣ في منظومته البراهين القاطعة على أصالة الوجود مع أنّه من أوجز كتب الحكمة، فما ظنك «بالأسفار» وهي أربع مجلّدات بالقطع الكبير، ويكفيك منها برهان واحد وهو اختلاف نحوي الوجود، حيث نرى بالضرورة والوجدان أنّ النار مثلاً بوجودها الذهنيّ لا يترتب عليها شيء من الآثار من إحراق وغيره بخلاف وجودها الخارجيّ، ولو كانت هي المتأصلة في كلا الوجودين لترتبت آثارها ذهنياً وخارجياً، وإليه أشار في المنظومة بقوله:

وَأِنَّهُ مَنبُجٌ كُلُّ شَرْفٍ وَالْفَرْقُ بَيْنَ نَحْوِيّ الْكَوْنِ يَفِي

وحيث أسفرت الأبحاث الحكميّة عن هذا الحقيقة الجليّة من أصالة الوجود الخارجيّ غير المحدود الذي نعبر عنه بواجب الوجود جلّت عظمته، يستحيل أن يفرض له ثاني لا ثاني له، فإنّ كلّ حقيقة بسيطة لا تركيب فيها يستحيل أن تتشّي وتتكرّر لا ذهنياً ولا خارجاً ولا وهماً

١- محمّد بن المرتضى الشهير بملاً محسن الكاشانيّ، الفقيه العارف المحقّق الحكيم المتألّه، صاحب التصانيف الشهيرة. توفّي سنة ١٠٩١هـ. (التعليقة).

٢- المولى عبد الرزاق اللاهيجيّ، العالم الحكيم المحقّق المدقّق صاحب التصانيف الجيدة. توفّي سنة ١٠٥١هـ. (التعليقة).

٣- المولى هادي بن مهدي السبزواريّ، من أكابر حكماء الإماميّة، الفيلسوف الفقيه العارف، صاحب التصانيف الجليلة، وُلد سنة ١٢١٢هـ وتوفّي سنة ١٢٨٩هـ. (التعليقة).

ولا فرضاً، وقد أحسن المثنوي^١ بالإشارة إلى هذه النظرية القطعية، حيث يقول: عن أستاذه شمس التبريزي^٢:

شمس در خارج اگر چه هست فرد

میتوان هم مثل او تصویر کرد

شمس تبریزی که نور مطلق است

آفتاب است و ز انوار حق است

شمس تبریزی که خارج از اثير

نبودش در ذهن و در خارج نظير^٣

وبعد أن أتضح بطلان أصالة الماهية، وأشرق نور الوجود بأصالته، اختلف القائلون بأصالة الوجود بين قائل بأن الوجودات بأجمعها واجبها وممكنها الذهني منها، والخارجي المتبائنة في تشخصها وتعيينها قطعاً، هل إطلاق الوجود عليها من باب المشترك اللفظي، وهو إطلاق اللفظ على المعاني المتكثرة والمفاهيم المتبائنة التي لا تندرج تحت حقيقة واحدة، ولا يجمعها قدر مشترك كالعين التي تستعمل في الباصرة وفي النابعة

١- المولى جلال الدين محمد المولوي البلخي الرومي، من أشهر مشايخ العرفاء وقادتهم الأكبر، صاحب ديوان «المثنوي» الفارسي المشهور. وُلد سنة ٦٠٤ هـ، وتوفي سنة ٦٧٢ هـ. (التعليقة).

٢- شمس الدين محمد بن ملك داد التبريزي، من مشاهير العرفاء والصوفية ومشايعهم الأكبر. توفي سنة ٦٤٥ هـ. (التعليقة).

٣- يقول: «إن الشمس وإن كانت في الظاهر واحدة، لكن يمكن أن يتصور مثلها. لكن شمس التبريزي الذي هو النور المطلق هو الشمس وهو من أنوار الحق. وشمس التبريزي الذي هو خارج الأثير لا مثيل له في ذهن وليس له في الخارج نظير».

والذهب إلى آخر ما لها من المعاني المتباينة ، على عكس المترادف الذي هو عبارة عن ألفاظ كثيرة لمعنى واحد ، والمشارك الذي يعني وجود معاني كثيرة تحت لفظ واحد .

وقد نسب هذا القول إلى المشائين أو لأكثرهم .

أو أنه من المشارك المعنويّ ، فوجود النار والماء في باب المفاهيم ، ووجود زيد وعمر في باب المصاديق شيء واحد وحقيقة فاردة ، وإنما التباين والتعدد في الماهيات المنتزعة من حدود الوجود وتعينات القيود ، فحقيقة الوجود من حيث هو واحدة بكلّ معاني الوحدة ، وما به الامتياز هو عين ما به الاشتراك . فتدبر هذه الجملة جيداً كي تصل إلى معناها جيداً .

وحيث إنّ القول الأول يستلزم محاذير قطعياً الفساد ؛ وَمَا يَسْتَلْزِمُ الْفَسَادَ فَاسِدٌ قَطْعاً . ومن بعض محاذيره لزوم العزلة بين وجود الواجب ووجود الممكن وعدم السنخية بين العلة والمعلول المنتهى إلى بطلان التوحيد من أصله وأساسه . وإلى هذا أشار سيّد الموحّدين وإمام العرفاء الشّامخين أمير المؤمنين سلام الله عليه ، حيث يقول :

تَوْحِيدُهُ تَمْيِيزُهُ عَنْ خَلْقِهِ ؛ وَحُكْمُ التَّمْيِيزِ بَيِّنَةٌ صِفَةٍ لَا بَيِّنَةٌ عَزَلَةٍ .
ولله هذه الحكمة الشامخة والكلمة الباذخة ما أجلها وأجمعها لقواعد التوحيد والتجريد والتنزيه ودحض التشبيه ، والأصحّ الذي لا غبار عليه أنّ حقيقة الوجود من حيث هي واحدة لا تعدّد فيها ولا تكرار ، بل كلّ حقيقة من الحقائق وماهية من الماهيات أيضاً بالنظر إلى ذاتها مجردة عن كلّ ما سواها يستحيل تعدّدها وتكرّرها ، ومن قواعد الحكمة المتفق عليها أنّ :
حَقِيقَةُ الشَّيْءِ لَا تَتَشَبَّهُ وَلَا تَتَكَرَّرُ ، وَالْمَاهِيَّاتُ إِنَّمَا تَتَكَثَّرُ وَتَتَكَرَّرُ بِالْوُجُودِ ؛
كَمَا أَنَّ الْوُجُودَ إِنَّمَا يَتَكَثَّرُ بِالْمَاهِيَّاتِ وَالْحُدُودِ . يعني أنّ ماهية الإنسان وحقيقته النوعية إنّما تكثرت بالأفراد العينية والمصاديق الخارجية ،

والتعین اِنّما جاء من الوجود وبه تکررت الماهیة وتکثرت ، ولولا الوجود لما كانت الماهیة من حیث هی إلا هی لا تعدّد ولا تکثر ، وکما أنّ الماهیة بالوجود تکررت وتکثرت فکذلک الوجود اِنّما تکرر وتکثر بالحدود والتعینات التي انتزعت منها الماهیات ، فالقضیة مطّردة منعکسة تکثر الوجود بالماهیة ، وتکثرت الماهیة بالوجود^۱ .

۱- إنّ أرقی غزلیة قالها الخواجه حافظ شمس الدین الشیرازی قدّس الله سرّه فی کیفیة وعلّة تکثر الوجود بالماهیة وتکثر الماهیة بالوجود ، وسبب ربط القديم بالحادث ، علی ما یظهر هی الغزلیة التالية:

پیش ازینت بیش ازین غمخواری عشّاق بود

مهر ورزی تو با ما شُهره آفاق بود

یاد باد آن صحبت شبها که در زلف توام

بحث سیر عشق و ذکر حلقه عشّاق بود

حسن مَهرویان مجلس گرچه دل میبرد و دین

عشق ما در لطف طبع و خوبی اخلاق بود

از دم صبح ازل تا آخر شام ابد

دوستی و مهر بر یک عهد و یک میثاق بود

سایه معشوق اگر افتاد بر عاشق چه شد

ما به او محتاج بودیم او به ما مشتاق بود

پیش ازین کاین سقف سبز و طاق مینا برکشند

منظر چشم مرا ابروی جانان طاق بود

رشته تسبیح اگر بگسست معذورم بدار

دستم اندر ساعد ساقی سیمین ساق بود

بر در شاهم گدائی نکته‌ای در کار کرد

گفت بر هر خوان که بنشستم خدا رزاق بود

در شب قدرار صبحی کرده‌ام عییم مکن

⇨ سرخوش آمد یار و جامی بر کنار طاق بود

ثم إنَّ الوجود نوعان : ذهنيّ وخارجيّ ، أمّا الذهنيّ فهو اعتبار صرف ومفهوم محض كسائر المفاهيم الذهنيّة المنتزعة من المصاديق ، يحمل عليها بالحمل الشائع الصناعيّ من المحمولات بالضميمة لا خوارج المحمول ، فقولك زيد موجود كقولك : زيد كاتب وهو كلّيّ واحد منطبق

﴿ شعر حافظ در زمان آدم اندر باغ خُلد

دFTER نسرين و گل را زينت اوراق بود

يقول : « كانت سابقتك قبل هذا فوق تصوّر العشاق ، وذاع صيت محبّتنا في الآفاق . ولا يُنسى حديث الليالي والكلام المعسول ، حيث كنّا نجلس وتبادل أسرار العشق ونذكر العشاق .

قبل أن يُفرش في الكون بساط السماء وتُقام هذه القبة الزرقاء اللون كنتُ اتغزل بالنظر إلى حاجبيّ المعشوق .

كان هناك منذ صبح الأزل وسيظلّ حتّى ليل الأبد عهد وميثاق واحد وميتين ثابت يحكم المحبّة والمودّة .

ماذا لو ظلّ المعشوق العاشق بظلّه ، فنحن العشاق في حاجة إلى محبّة ووداد المعشوق ، وهو كذلك في حاجة إلى محبّتنا ومودّتنا .

على الرغم من أنّ جمال المحتفلين الأخاذ يسلب العقل والدين ولكنّ أخلاقهم وصفاتهم المعنويّة هما مدار حديثنا .

ذكر أحد الفقهاء طرفة على باب أحد الملوك حيث قال : إنني وكلّما حضرتُ مائدة أمنتُ أنّ الله هو الرزاق الكريم .

إذا انفرط عقد سُبحتي ولم أستطع جمع خرزها فاعفُ عنيّ وسامحني لأنّني كنتُ مشغولاً مع الساقى ذي الساقين الفضّيين ولاهياً معه .

وإن شربتُ الخمر أو احتسيْتُ الصهباء ليلة القدر فلا تُؤاخذني لأنّ حبيبيّ الشوان قد جاء يزورني وكان إبريق الخمر مُتصبباً على الرّف فلم أتمالك نفسي عن الشرب .

حقاً أنّ قصائد (حافظ) كانت زينة جنّة الخلد وزُخرفها وباقه زهر جميلة وزاهية زمن آدم .»

(«ديوان حافظ» ص ١١٠ و ١١١ ، القصيدة الغزليّة رقم ٢٥٠ ، طبعة پژمان .

على أفراده التي لا تحصى ومن «المعقولات الثانويّة» باصطلاح الحكيم .
 أمّا الوجود العينيّ الخارجيّ الذي يحكى عنه ذلك المفهوم وينتزع
 منه فهو بأنواعه الأربعة : ١ - الذاتيّ وهو بشرط لا والمطلق وهو لا بشرط
 والمقيّد وهو بشرط شيء . ويندرج فيه .
 ٢ - الرابطة وهو مفاد كان الناقصة .
 ٣ - الرابطيّ وهو ما يكون وجوده في نفسه عين وجوده لغيره
 كالأعراض .

٤ - الربط وهو ما يكون وجوده لنفسه في نفسه ولكن بغيره
 كالجواهر فإنّها موجودة لنفسها وفي نفسها لكن بغيرها أي بعلتها .
 أمّا واجب الوجود فوجوده : فِي نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ^١
 وهو أي الوجود أيضاً بذاته وبجميع هذه الأنواع وحدانيّ ذو مراتب
 متفاوتة بالقوّة والضعف والأوليّة والأوليّة ، أعلى مراتبه وأولها و أولاهها
 الوجود الواجب الجامع لكّمالات جميع ما دونه من مراتب الوجود بنحو
 البساطة والوحدة الجامعة لجميع الكثرات وكلّ الكثرات نشأت منها

١- لقد تحدّثنا في كتاب «توحيد عمليّ وعينيّ در مكاتيب حكّميّ وعرفانيّ»
 (=التوحيد العلميّ والعينيّ في الرسائل الحكّميّة والعرفانيّة) عن أقسام الوجود الخارجيّ مع
 بيان واضح وتقسيم بيّن (ص ٢٩١ و ٢٩٢) وأضفنا إليه الشكل التالي الذي يمثّل تقسيماته
 (أي الوجود):

الوجود:

- ١ - في غَيْرِهِ والذي هو عبارة عن الوجود الرابطة كالنسبة .
- ٢ - في نَفْسِهِ والذي هو عبارة عن الوجود النفسيّ والمحموليّ :
- ١ - لِغَيْرِهِ والذي يُدعى الرابطة والناعت والذي هو العرض .
- ٢ - لِنَفْسِهِ : ١ - بِغَيْرِهِ وهو وجود الجوهر .
- ٢ - بِنَفْسِهِ وهو واجب الوجود .

ورجعت إليها .

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .^١

وإليه الإشارة بقولهم : بَسِيطُ الْحَقِيقَةِ كُلُّ الْأَشْيَاءِ وَلَيْسَ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ .

والتوحيد الكامل (رَدُّ الْكَثْرَةِ إِلَى الْوَحْدَةِ ، وَالْوَحْدَةَ إِلَى الْكَثْرَةِ) . وهذا الوجود الخارجي من أعلى مراتبه الوجودية إلى أخس مراتبه الإمكانيّة وهي «الهيولى» التي لها أضعف حظّ من الوجود وهي القوّة القابلة لكلّ صورة ، ولعلّها هي المشار إليها في دعاء السمات : وَأَنْزَجَر لَهَا الْعُمُقُ الْأَكْبَرُ كُلَّهُ واجبه وممكنه ومادّيه ومجرّده حقيقة واحدة وإن اختلف في القوّة والضعف والوجوب والإمكان والعلّية والمعلوليّة .

ولكن كلّ هذا الاختلاف العظيم لا يخرجّه عن كونه حقيقة واحدة ولا يصيّرّه حقائق متباينة ، وإن كان بالنظر إلى حدوده ومراتبه متعدّداً ومتكثّراً ولكن حقيقته من حيث هي واحدة لا تعدّد فيها ولا تكثّر .

ألا ترى أنّ الماء من حيث أنواعه وأصنافه ما أكثره وأوسعّه ، فماء السماء وماء البحر وماء النهر وماء البئر وهكذا ولكن مهما تكثرت الأنواع وتعدّدت المصاديق فحقيقة الماء وطبيعته في الجميع واحدة .

وهكذا سائر الماهيّات والطبائع ، إذاً فوحدة الوجود بهذا المعنى تكاد أن تكون من الضروريّات التي لا تستقيم حقيقة التوحيد إلّا بها ولا تنتظم مراتب العلة والمعلول والحقّ والخلق إلّا بها .

فالوجود واحد مرتبط بعبه ببعض من أعلى مراتبه من واجب

١- الآية ١٥٦ ، من السورة ٢ : البقرة : الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

الوجود نازلاً على أدناها وأضعفها وهو الهيولى التي لا حظ لها من الوجود سوى القوة والاستعداد ثم منها صاعداً إلى المبدأ الأعلى والعلّة الأولى منه المبدأ وإليه المعاد .

ثم إن أول صادر منه وأقرب موجود إليه هو العقل الكلّي والصادر الأول أول ما خلق الله العقل - إلى آخر الحديث . وهو العقل الكلّي الخارجي العيني لا الكلّي الذهني المفهومي . وهو ظلّ الله وفيضه الأقدس ، نعم وظلّ الله الممدود من سماء الجبروت عالم السكون والمطلق ومركز الثبات ، إلى عالم الملك والملكوت والناسوت موطن التغيّر والحركات .

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ١

وهذا هو «وجه الله الكريم» الذي لا يفنى ولن يفنى أبداً وهو اسمُ الله العظيم الأعظم ، ونوره المشرق على هياكل الممكنات الذي يطلق عليه عند الحكماء بالنفس الرّحمانّي وعند العرفاء بالحقّ المخلوق به ، وفي الشرع رحمته التي وسعت كلّ شيءٍ والحقيقة المحمديّة والصادر الأول (أول ما خلق الله توري).

وهو الجامع لكلّ العوالم : عالم الجبروت والملكوت والملك والناسوت ، وجميع العقول المفارقة والمجرّدة والماديّة الكلّيّة والجزئيّة عرضيّة وطوليّة ، والنفوس كذلك كلّيّة وجزئيّة والأرواح والأجسام والمثل العليا ، وأرباب الأنواع التي يُعبّر عنها في الشرع بالملائكة والروح الأعظم الذي هو سيّد الملائكة وربّ نوعها .

كل هذه العوالم صدرت من ذلك الوجود المطلق والمبدأ الأعلى الذي

١- الآية ٤٥ ، من السورة ٢٥ : الفرقان : أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا .

هو فوق ما لا يتناهى بما لا يتناهى قوة وشدة وعدة ومدة .
أوجد عزّ شأنه ذلك الصادر الأوّل الجامع لجميع الكائنات
والوجودات الممكنات ، أوجده بمحض المشيئة ، وصرف الإرادة في أزل
الآزال إلى أبد الآباد .

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالْبَصْرِ ١ .

والتشبيه من ضيق نطاق الألفاظ ، وإلا فالحقيقة أدق وأرق من ذلك .
وهو المثل الأعلى الحاكي بنوع من الحكاية عن تلك الذات المقدسة
المحتجبة بسرادق العظمة والجبروت وغيب الغيوب . يَا مَنْ لَا يَعْلَمُ مَا هُوَ
إِلَّا هُوَ .

وذلك العقل الكليّ أو الصادر الأوّل - ما شئت فعبر - أو الحقيقة
المحمّدية متّصلة بمبدأها غير منفصلة عنه .
لَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَخَلْقُكَ ؛ بَدُوْهَا مِنْكَ وَعَوْدُهَا
إِلَيْكَ .

أَنَا أَصْغَرُ مِنْ رَبِّي بِسِتِّيْنِ ٢ .

والكلّ وجود واحد ممتدّ بلا مدّة ولا مادّة ، من صبح الأزل إلى عشية
الأبد بلا حدّ ولا عدّ ، ولا بداية ولا نهاية .

ومن المجاز البعيد ، وضيق خناق الألفاظ قولنا :

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ٣ .

١- الآية ٥٠ ، من السورة ٥٤ : القمر .

٢- وقد ذكرها السيّد حيدر الأمليّ في مقدّمات كتاب «نصّ النصوص» ص ١٠ :
بالشكل التالي : كقولهم : أَنَا أَقَلُّ مِنْ رَبِّي بِسِتِّيْنِ ، وقولهم : لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَبِّي فَرْقٌ إِلَّا أَنِّي
تَقَدَّمْتُ بِالْعُبُودِيَّةِ .

٣- صدر الآية ٣ ، من السورة ٥٧ الحديد .

وجوده قبل القبل في أزل الأزال ، وبقاؤه بعد البعد من غير انتقال
ولا زوال .

همه عالم صدای نغمه اوست که شنید اینچنین صدای دراز^١
مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً^٢.
وذلك النفس الرحمانِي والعقل الكَلْبِي ، والصادر الأوّل - هو كتاب الله
التكوينيّ - الذي لا نفاذ لكلماته .

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ
كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا^٣.
ولو أردنا التوسع في هذه الغوامض والأسرار وكشف الرموز عن هذه
الكنوز ملأنا القماطير بالأساطير ولم نأت إلا بقليل من كثير . (مثنوي هفتاد
من كاغذ شود).^٤

ولكن ما ذكرناه مع إيجازه لعلّه كافٍ للمتدبّر في إثبات المعنى
الصحيح «لوحة الوجود» وأنه مترقّع الأفق عن الإنكار والجحود ، بل هو
من الضروريات الأوّلية ، وقد عرفنا الضروريّ في بعض مؤلفاتنا بأنّه ما
يستلزم نفس تصوّره حصول التصديق به ولا يحتاج إلى دليل وبرهان ، مثل
الواحد نصف الاثنين .

فوحدة الوجود بالمعنى الذي ذكرناه لا ريب فيها ولا إشكال .
إنّما الإشكال والإعضال في وحدة الوجود فإنّ المعقول في بادئ

١- يقول : «إِنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ نَغْمَةٌ مِنْ نَغْمَاتِهِ ، فَمَنْ ذَا سَمِعَ نَغْمَةَ أَطْوَلَ مِنْ تِلْكَ؟» .

٢- صدر الآية ٢٨ ، من السورة ٣١ : لقمان .

٣- الآية ١٠٩ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٤- يقول : «قد يكون وزن «ديوان المثنوي» سبعين متراً من الورق» .

النظر وحدة الوجود ، وتعدّد الموجود المتحصّل من الحدود والقيود والتعيّنات ، ولكنّ الذي طُفح وطفى في كلمات العرفاء الشامخين ومشايخ الصوفيّة السالكين والواصلين هو وحدة الوجود ووحدة الموجود أيضاً .

وكانت هذه الكلمة العصماء يلوح بها أكابر العرفاء والأساطين في القرون الأولى كالجُنَيْد^١ والشُّبَلِيّ^٢ وبأيزيد البسطاميّ^٣ ومَعْرُوف الكَرْخِيّ^٤ وأمثالهم حتّى وصلت إلى الحَلَّاج وأقرانه إلى أن نبغ في القرون الوسطى مُحَبِّي الدِّينِ بُنُ عَرَبِيّ وتلميذاه القونويّ^٥ والقنصريّ^٦ فجعلوها فناً من الفنون والمؤلّفات الضخام كالفتوحات المكيّة وغيرها ، والمتون المختصرة كالفصوص والنصوص التي شرحها ونقّحها صدر الدين القونويّ .

وانتشرت وعند عرفاء القرون الوسطى من العرب كابن الفارض

-
- ١- سعيد بن محمّد بن جُنَيْد القواريريّ ، الزاهد المشهور ، سلطان الطائفة الصوفيّة ، توفّي سنة ٢٩٧ هـ - (التعليقة).
 - ٢- أبو بكر دُلْف بن جَحْدَر الشبليّ الخراسانيّ البغداديّ ، من كبار مشايخ الصوفيّة ، نقل: أنّه كان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر ، توفّي سنة ٣٣٤ هـ - (التعليقة).
 - ٣- أبو يزيد البسطاميّ طَيْفُور بن عيسى الصوفيّ الزاهد المشهور ، توفّي سنة ٢٦١ هـ - (التعليقة).
 - ٤- معروف بن فيروز الكرخيّ أبو محفوظ ، أحد أعلام الزهّاد والعرفاء ، كان من موالى الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ، توفّي ببغداد سنة ٢٠٠ هـ - (التعليقة).
 - ٥- أبو المعالي صدر الدين محمّد بن إسحاق الشافعيّ القونويّ ، صاحب التصانيف ، توفّي سنة ٦٧٣ هـ - (التعليقة).
 - ٦- داود بن محمود الروميّ الساويّ ، نزيل مصر ، صاحب «شرح فصوص الحكيم القيصريّ» ، توفّي سنة ٧٥١ هـ - (التعليقة).

وابن عفيف التلمساني^١ وغيرهما ، ومن الفرس كثير لا يحصى عددهم كالعطار^٢ والهاتف^٣ والجمي^٤ وأضرابهم .

وأحسن من أبدع فيها نظماً العارف التبريزي الشبستري في كتابه المعروف «كلشن راز» وخلاصة هذه النظرية أن تلك الطائفة لما أرادوا أن يبالغوا ويبلغوا أقصى مراتب التوحيد الذي ما عليه من مزيد ، وأن لا يجعلوا للحق شريكاً لا في الربوبية كما هو المعروف عند أرباب الأديان ، بل نفوا الشريك له حتى في الوجود فقالوا : لا مَوْجُودَ سِوَى الْحَقِّ .

وهذه الكائنات من المجردات والماديات من أرضين وسماوات وما فيها من الأفلاك والإنسان والحيوان والنبات ، بل العوالم بأجمعها كلها تطورات وظهوراته * وَلَيْسَ فِي الدَّارِ غَيْرُهُ دِيَارٌ * .
وكل ما نراه أو نحس به أو نتعقله لا وجود له ، وإنما الوجود والموجود هو الحق جل شأنه ، ونحن عدم وليس وجودنا إلا وجوده .

١- شمس الدين محمد بن سليمان بن علي المعروف بـ«ابن العفيف التلمساني» و«الشاب الظريف». شاعر مترقق مقبول الشعر ، وُلِدَ سنة ٦٦١ هـ ، وتوفي سنة ٦٨٨ هـ. (التعليقة).

٢- فريد الدين محمد بن إبراهيم النيشابوري المعروف بـ«الشيخ العطار» صاحب الأشعار والمصنفات في التوحيد والمعارف ، توفي سنة ٦٢٧ هـ. (التعليقة).

٣- الهاتف هو السيد أحمد الإصفهاني ، الشاعر المشهور ، توفي سنة ١١٩٨ هـ. والهاتفني هو المولى عبد الله ابن أخت الجمي ، توفي سنة ٩٢٧ هـ. (التعليقة).

٤- المولى عبد الرحمن الجمي الدشتي الصوفي النحوي المنتهي نسبه إلى محمد ابن الحسن الشيباني ، وهو صاحب «شرح الكافية» في النحو ، توفي سنة ٩٨٩ هـ ، وقد يطلق الجمي على أبي نصر أحمد بن محمد البجلي المعروف (زنده بيل) ، أحد مشايخ الصوفية ، توفي حدود سنة ٥٣٦ هـ. (التعليقة).

ما عدم هائيم و هستيها نما تو وجود مطلق و هستي ما^۱

* * *

که همه اوست و نيست جز او وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ^۲
 وقد تفنّن هؤلاء العرفاء في تقريب هذه النظرية إلى الأذهان ،
 وسبحوا سبحاً طويلاً في بحر هذا الخيال ، وضربوا له الأمثال (فصوره)
 تارة بالبحر وهذه العوالم والكائنات كأموج البحر فإنّها ليست غير البحر
 وتطوّراته ؛ وليست الأمواج شيئاً سوى البحر ، فإذا تحركّ ظهرت ، وإذا
 سكن عدمت واندرحت ، وهو معنى الفناء المشار إليه بقوله تعالى .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ.^۳

يفنى وجه الممكن ويبقى وجه الواجب .

چه ممکن گرد امکان بر فشانند بجز واجب دگر چیزی نماند^۴
 نعم الأمواج تطوّرات البحر ، لا شيء موجود غير وجود البحر .

چه دریای است وحدت لیک پر خون

کز او خیزد هزاران موج مجنون

هزاران موج خیزد هر دم از وی

نگردد قطره‌ای هرگز کم از وی^۵

۱- يقول: «نحن عدم والوجود مظاهر؛ أنت الوجود المطلق ووجودنا».

۲- يقول: «فالكَل هو وليس هناك أحد غيره؛ وحده لا إله إلا هو».

۳- الآيتان ۲۶ و ۲۷، من السورة ۵۵: الرحمن .

۴- يقول: «فلما تناثر إمكان الممكن لم يبق هناك شيء غير الواجب».

۵- يقول: «أي بحر عظيم هي الوحدة لكن هذا البحر ملآن دماً ومنه تنبعث آلاف الأمواج الهائجة».

أيها الناس! مع أنّ آلاف الأمواج تنبعث من ذلك اليمّ ولكن لم تنقص منه قطرة».

قالوا :

الْوَجْهُ وَاحِدٌ وَالْمَرَايَا مُتَعَدِّدَةٌ.

وَمَا الْوَجْهُ إِلَّا وَاحِدٌ غَيْرُ أَنَّهُ إِذَا أَنْتَ عَدَدْتَ الْمَرَايَا تَعَدَّدَا

وكذلك العدد ليس إلا تكرار الواحد إلى ما لا نهاية له :

وجود اندر كمال خویش ساری است

تعیینها امور اعتباری است

امور اعتباری نیست موجود

عدد بسیار و یک چیز است معدود

چه واحد گشته در اعداد ساری^١

ومن هذا القبيل التمثيل بِالشُّعْلَةِ الْجَوَّالَةِ التي ترسم دائرة نارية من

سرعة حركتها وليست هي إلا تلك الشعلة الصغيرة :

همه از وَهْم تو این صورتِ غیر

چه نقطه دائره است از سرعت سیر^٢

والوجود واحد والموجود واحد له ظهورات وتطورات ، يتراءى أنها

كثرات ، وليس إلا الذات ومظاهر الأسماء والصفات وشؤون الجمال

والجلال والقهر واللطف .

وقد رفع الكثير منهم حجب الأستار عن هذه الأسرار حتى أنّ

١- يقول : «إنّ الوجود قائم من خلال كماله ؛ وليست التعيّنات إلا أموراً اعتبارية .

والأمور الاعتبارية (في نفس الأمر) ليست موجودة ؛ كتعدد الأعداد في حين أنّ

المعدود واحد ليس إلا .

لأنّ الواحد أضحي سارياً في الأعداد» .

٢- يقول : «الكلّ في وهم وظنّ حول ماهيتك وصورتك؛ (فالحالة هذه تشبه) نقطة

(مرسومة على ورقة) تدور بسرعة حتى تصبح كأنّها دائرة» .

محيي الدين بن عربي^١ عبّر عن كلّ هذا بتغيير كلمة في البيت المشهور^٢:
 وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ
 تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

١- أبو عبد الله محمد بن عليّ الحاتمي الطائفي الأندلسي المكيّ الشاميّ صاحب كتاب «الفتوحات المكيّة» المعروف بين العرفاء بالشيخ الأكبر، توفي سنة ٦٣٨ - (التعليقة).
 ٢- هذا البيت الذي نسبه سماحة شيخنا الإمام متّعنا الله تعالى بطول بقائه إلى الشهرة إنّما هو لأبي العتاهية الشاعر المعروف، وهو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزيّ بالولاء العينيّ، المولود ١٣٠ هـ والمتوفّي ٢١٠ أو ٢١١ أو ٢١٣ هـ، والمدفون حيال قطرة الزبّاتين في الجانب الغربيّ ببغداد. ويعدّ من مقدّمي المولّدين وفي طبقة بشار وأبي نؤاس وأمثالهما، نشأ في الكوفة وسكن بغداد. وعن الصوليّ أنّه كان يتشيع بمذهب الزيدية التبريّة. وروى أنّه جلس في دكان ورّاق فأخذ كتاباً فكتب على ظهره على البديهة (من المتقارب):

أَلَا إِنَّا كُلُّنَا بَائِدٌ	وَأَيُّ بَنِي آدَمَ خَالِدٌ
وَبَدُوهُمْ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ	وَكُلٌّ إِلَى رَبِّهِ عَائِدٌ
فَيَا عَجَباً كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهِ	هُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ	وَفِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ	تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

وفي نسخة: عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ.

ولما انصرف اجتاز أبو نؤاس - الشاعر الشيعيّ الشهير - بالموضع فرأى الأبيات فقال: لمن هذا. فقليل له: لأبي العتاهية. فقال: لوددتها لي بجميع شعري.
 وروى صاحب «الأغاني» أنّ أبا العتاهية كان يُرمى بالزندقة فجاء يوماً إلى الخليل بن أسد النوجشانيّ فقال: زعم الناس أنّي زنديق! والله ما ديني إلاّ التوحيد. فقال له الخليل: فقل شيئاً نتحدّث به عنك. فقال الأبيات السابقة.
 أقول: غير خفيّ على الباحث المنقّب أنّ الرمي بالزندقة والكفر أو الغلوّ وما أشبه ذلك ناشئ في الأغلب من الحسد والحقد ومن افتراءات الخصوم والمغرضين والمخالفين في المذهب والعقيدة ولا سيّما في حقّ الشاعر الشيعيّ أو العالم الدينيّ أو العارف المتألّه... إلى آخره. (التعليقة).

فقال «محيي الدين» :

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَيَّ أَنَّهُ عَيْنُهُ

ثم تحامل وتقمح إلى ما هو أكثر صراحة وأعظم ، حيث قال :

سُبْحَانَ مَنْ حَجَبَ نَاسُوتَهُ نُورٌ سَنَا لَاهُوتِهِ الثَّاقِبِ

ثُمَّ بَدَأَ فِي خَلْقِهِ بَارِزًا بِصُورَةِ الْآكِلِ وَالشَّارِبِ

ومشى على هذه السبيل الصعبة كثير من شعراء العرب وعرفائهم في القرون الوسطى ، وقد رفع لواءهم ابن الفارض^١ في أكثر شعره ، لا سيما تائيته الصغرى وكذا الكبرى التي يقول فيها :

هُوَ الْوَاحِدُ الْفَرْدُ الْكَثِيرُ بِنَفْسِهِ وَلَيْسَ سِوَاهُ إِنْ نَظَرْتَ بِدِقَّةٍ

بَدَأَ ظَاهِرًا لِلْكَلِّ فِي الْكُلِّ بَيْنَنَا نُشَاهِدُهُ بِالْعَيْنِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ

فكلّ مشاهد محسوس من الذرة الصغيرة إلى الجبل الشامخ ، ومن العرش إلى الثرى هي أطواره وأنواره ومظاهره وتجلياته .

وهو الوجود الحق المطلق ولا شيء غيره ، فإذا قلت لهم : فالأصنام والأوثان ؟ يقول لك العارف الشبستري :

مسلمان گر بدانستی كه بت چيست

بدانستی كه دين در بت پرستی است^٢

وإذا قلت : فالقاذورات ؟ قالوا : نور الشمس إذا وقع على النجاسة هو ذلك النور الطاهر ولا تؤثر عليه النجاسة شيئاً .

١- شرف الدين أبو القاسم عمر بن عليّ الحمويّ المصريّ ، العارف المشهور صاحب القصيدة الثائية المعروفة ، توفي سنة (٦٣٢) هـ بالقاهرة- (التعليقة).

٢- يقول : «أيها المسلم إذا أردت أن تعرف ماهية الصنم ؛ فاعلم أنّما الدين يتلخّص في عبادة الصنم».

نور خورشيد ار بيفتد بر حَدَث

نور همان نور است نَپذيرد خَبَث^١
وما اكتفوا بهذه التمثيلات والتقريبات حتى أخضعوا هذه النظرية
المتمردة على العقول لسلطان البرهان الساطع والدليل القاطع .

وبيان وكيفية البرهان على وحدة الوجود بتنقيح وتوضيح متنا ، بعد
ذِكر مقدّمتين وجيزتين :

المقدّمة الأولى : أنّ الوجود والعدم نقيضان ، والنقيضان لا يجتمعان
ولا يقبل أحدهما الآخر بالضرورة ، فالوجود لا يقبل العدم والعدم لا يقبل
الوجود ، يعني أنّ الوجود يستحيل أن يكون معدوماً والمعدوم يستحيل
أن يكون موجوداً ، وإلاّ لزم أن يقبل الشيء ضدّه ونقيضه وهو محال
بالبدهة .

المقدّمة الثانية : أنّ قلب الحقائق مستحيل ، فحقيقة الإنسان يستحيل
أن تكون حجراً ، وحقيقة الحجر تستحيل أن تكون إنساناً ، وهذا لمن
تدبّره من أوضح الواضحات ، فالعدم يستحيل أن يكون وجوداً ، والوجود
يستحيل أن يكون عدماً .

وبعد وضوح هاتين المقدّمتين نقول : لو كان لهذه الكائنات
المحسوسة وجود بنفسها لاستحال عليها العدم ، لأنّ الوجود لا يقبل العدم
وهو منافر له وضدّه له بطبيعته ، مع أنّنا نراها بالعيان توجد وتعدم وتظهر
وتفنى فلا محيص من الالتزام بأنّها غير موجودة .

وليس الموجود إلاّ وجود واجب الوجود الأزليّ الحقّ الذي يستحيل

١- يقول : «إذا سقط نور الشمس على الحدّث (أي النجس) ، فإنّ النور يبقى كما هو

لا تشويه النجاسة».

عليه العدم بطبيعة ذاته المقدّسة وكلّ ما نراه من هذه الكائنات التي نحسبها بالوهم موجودة هي أطواره ومظاهره يفيضها ويقبضها ، يبقئها ويفنيها ويأخذها ويعطيها ، وهو المانع والمعطي والقابض والباسط ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .^١

وكلّ الأشياء تجلّياته وظهوراته وإشراقاته وأنواره ، وكلّ الكائنات والممكنات مضافة إليه بالإضافة الإشراقية لا المقولية ، أطرافها اثنان لا ثلاثة وسواء .

قلنا : بأنّ هذا البرهان صخرة صمّاء لا تمسّه أظافر الخدشة أو أنّ للمناقشة فيه مجال ، فهو برهان منطقيّ على أصول الحكمة والمنطق ، هذا عدا ما يدعونه من الشهود والمكاشفة والعيان الذي هو أسمى من الدليل والبرهان ، إذ يقولون إنّ الدليل عكّازة الأعمى :

پای استدلالیان چوبین بود

پای چوبین سخت بی تمکین بود^٢

* * *

زهى احمق كه او خورشيد تابان

به نور شمع جوید در بیابان^٣

١- الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص . وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

٢- يقول : «لقد كانت أقدام الاستدلاليين من الخشب ؛ والأقدام الخشبية لا يمكنها أن تقاوم كثيراً» .

٣- يقول : «مرحى بمن يبحث عن الشمس الساطعة في الصحراء مستعيناً بضوء شمعة» .

در آن جائی که نور حقّ دلیل است

چه جای گفتگوی جبرئیل است^۱

* * *

سُبْحَانَكَ أَيُّكُونُ لِعَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ
المُظْهِرَ لَكَ؟!

مَتَى غَبَّتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ؟! وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى
تَحْتَاجَ إِلَى مَا يُوصِلُنَا إِلَيْكَ؟! عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ وَلَا تَزَالُ عَلَيْهَا رَقِيبًا!^۲
ومع هذا كله فإن علماء الظاهر وأمناء الشرع يقولون إنَّ سالك هذا
الطريق كافر زنديق وهذه الطريقة - أعني وحدة الوجود والموجود -
عندهم زندقة وإلحاد ، تضادّ عامّة الشرائع والأديان مهما قام عليها الدليل
والبرهان ، إذ حينئذٍ اين الربّ والمربوب . أين الخالق والمخلوق ، وما
معنى الشرائع والتكاليف ، وما هو الثواب والعقاب ، وما الجنّة والنار ، ومن
المؤمن والكافر ، والشقيّ والسعيد ، إلى آخر ما هنالك من المحاذير
واللوازم الفاسدة .

۱- يقول : «إنَّ المكان الذي يتجلّى فيه نور الحقّ وضَاءً ساطعاً فما الحاجة إلى
وحي من جبرئيل».

۲- هذه الكلمات النيرة بتغيير يسير من عبارات دعاء عرفة لسيد الشهداء سلام الله
عليه نقله السيد رضي الدين بن طاووس قدّس سرّه في كتابه «الإقبال». القاضي الطباطبائي .
وقد بحث الحقيير حول هذا الدعاء بحثاً مفصلاً في الجزء الأول من «معرفة الله»،
واتضح أنّ هذا الدعاء من أدعية ابن عطاء الإسكندريّ المتوفى سنة ۷۰۹ . وحاصل الكلام أنّ
هذا الدعاء دعاء جيّد ذو مضمون عالٍ جميل ، وقراءته في كلّ وقت تقتضيه الحال من الأمور
المفيدة التي يجب اغتنامها . أمّا إسناده إلى سيد الشهداء عليه السلام فغير جائز . والحمد لله
أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

ولعلَّ هذا هو مدرك ما ذكره السيّد الأستاذ قدّس سرّه «في العروة الوثقى» ما نصّه^١:

«الْقَائِلُونَ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ ، إِذَا التَّزَمُوا بِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فَالْأَقْوَى عَدَمُ نَجَاسَتِهِمْ» .

وإذا أحطت خبراً بما ذكرنا تعرف ما في هذا وأمثاله من كلمات الفقهاء رضوان الله عليهم .

وأني لا أرى من العدل والإنصاف ، ولا من الورع والسداد ، المبادرة إلى تكفير من يُريد المبالغة في التوحيد وعدم جعل الشريك لله تعالى في كلّ كمال .

الْكَمَالُ وَالْوُجُودُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

ومع ذلك فهم يؤمنون بالشرائع ، والنبوات ، والحساب ، والعقاب ، والثواب ، والتكاليف ، بأجمعها على ظواهرها .

فالحقيقة لا تصحّ عندهم ولا تنفع بدون الطريقة ، والطريقة لا تجدي بدون الشريعة ، والشريعة هي الأساس وبها يتوصّل ملازم العبادة إلى أقصى منازل السعادة .

وعندهم في هذه المسائل مراحل ومنازل وتحقيقات أنيقة وتطبيقات رشيقة ومعارض يرتقي السالك بها إلى أسمى المناهج ومؤلفات مختصرة ومطوّلة فوق حدّ الإحصاء نظماً ونثراً وأذكاراً ، سرّاً وجهراً ، ورياضات ومجاهدات لتهديب النفس وتصفيتها كي تستعد للحقوق بالملا الأعلى والمبدأ الأوّل .

وهناك من البهجة والمسرة والجمال والجلال ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ

١- في فصل النجاسات وأنّ منها الكافر بأقسامه مسألة: ٢ .

سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ^١

وها هنا أسرار عميقة ومباحث دقيقة لا تحيط بها العبارة ولا تدركها الإشارة فلنتركها لأهلها ، ونسأله تعالى أن يفيض علينا من فضله بفضلها .
نعم ، لا ريب أن كل طائفة اندس فيها من ليس من أهلها من الدخلاء وأهل الأهواء حتى يكاد أن يغلبوا على أربابها الأصحاء فلا ينبغي ضرب الجميع بسهم واحد وأخذهم أو نبذهم على سواء .
كما أن بعض المتطرّفين المتوغّلين في الغرام والهيام والشوق إلى ذلك المقام الأسمى قد توقّدت شعلة المعرفة في قلوبهم فلم يستطيعوا ضبط عقولهم وألسنتهم فصدرت منهم شطحات لا تليق بمقام العبودية ، مثل قول بعضهم :

أَنَا الْحَقُّ وَمَا فِي جُبَّتِي إِلَّا الْحَقُّ .

وأعظم منها في الجرأة والغلط والشطط قول بعضهم : سُبْحَانِي مَا أَعْظَمَ شَأْنِي^٢ . وهذه الكلمات قد حملها الثابتون منهم على أنها صدرت من

١- حديث قدسي : أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

وجاء في كتاب «كلمة الله» ص ١٣٤ ، الرقم ١٤٠ ، بعد ذكر هذا الحديث تتمّة على النحو التالي : فَلَهُ مَا أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِ ، اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أَخْفَيْ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ .

وذكر في ص ٥٣٤ سنيين لهذا : «التفسير الصغير» للفضل بن الحسن الطبرسي . قال في الحديث... ب: «أسرار الصلاة» للشهيد الثاني علي بن أحمد بن محمد...

٢ - عبارة : أَنَا الْحَقُّ ، للحلاج .

وعبارة : سُبْحَانِي مَا أَعْظَمَ شَأْنِي ، لبايزيد البسطامي .

وعبارة : لَيْسَ فِي جُبَّتِي إِلَّا الْحَقُّ ، لبعض من بلغ مقام الشهود حسب نقل الفرغاني في «مشارك الدراري» . وقد أوردنا بعض المطالب باختصار حول أسناد هذه الكلمات في

البعض حالة المحو لا حالة الصحو ، وفي مقام الفناء في الذات ، لا في مقام الاستقلال والثبات ، ولو صدرت في غير هذه الحال لكانت كفراً .

على أن المنقول عن الحلاج^١ قد قال للذين اجتمعوا على قتله :
(اقتُلُونِي ! فَإِنَّ دَمِي لَكُمْ مُبَاحٌ ! لِأَنِّي قَدْ تَجَاوَزْتُ الْحُدُودَ ؛ وَمَنْ تَجَاوَزَ الْحُدُودَ (أُقِيمَتَ عَلَيْهِ الْحُدُودُ) .

ولكن العارف الشبستري^٢ التمس العذر لهذه الشطحات وحملها على أحسن وجه ، حيث قال :

أنا الحق كشف أن اسرار مطلق بجز حق كيست تا گوید أنا الحق
 روا باشد أنا الحق از درختی چرا نبود روا از نیک بختی؟^٣
 يقول من ذا يستطيع غير الحق أن يقول أنا الحق؟! وإذا صح وحسن
 من الشجرة أن تقول أنا الله ، فلماذا لا يحسن ذلك من العارف الحسن
 الحظ؟!

وحقاً أقول : إنَّ من أجال فكره و أمعن النظر في جملة من آيات

⇨ الجزء الأول من «معرفة الله».

١- أبو معتب الحسين بن منصور الحلاج الصوفي الشهير ، قتل في سنة ٣٠٩ هـ ببغداد، اختلف الناس حتى الصوفية في حقه - (التعليقة).

٢- سعد الدين محمود بن أمين الدين التبريزي الشبستري ، من أكابر العرفاء والحكماء صاحب كتاب «گلشن راز» الذي ناهز شروحه عن أحد عشر شرحاً ، توفي سنة ٧٢٠ هـ ولم يتجاوز عمره عن ٣٣ سنة ، وقد عدّ في «كشف الظنون» بعض مؤلفاته من كتب الشيعة وكذا شيخنا البحّثة المحقق في «الذريعة» انظر ، ج ٤ ، ص ١٥٨ ؛ وج ٧ ص ٤٢ ، طبعة طهران - (التعليقة).

٣- يقول : «مقولة أنا الحق هي كشف تلك الأسرار المطلقة ؛ ومن ذا الذي له أن يقول أنا الحق غير الحق .

إذا جاز لشجرة أن تقول أنا الحق ؛ فكيف لا يجوز ذلك من محظوظ».

القرآن العزيز وكلمات النبي والأئمة المعصومين سلام الله عليهم وأدعيتهم وأورادهم سيجد في الكثير منها الإشارة إلى تلك النظرية العبقريّة .
وقد شاعت كلمة رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وهي قوله : **أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ قَوْلُ لَبِيدٍ** ^١

*** أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ *^٢**

وقد تضمّنت هذه الكلمة في طياتها كل ما قاله العرفاء الشامخون من أنّ الأشياء أعدام ، إذ ليس الباطل إلاّ العدم وليس الحقّ إلاّ الوجود ، فالأشياء كلّها باطلة وأعدام وليس الحيّ والموجود إلاّ واجب الوجود .
وهذا كل ما يقوله ويعتقده أولئك القوم أفاض الله سبحانه هذه الكلمة على لسان ذلك الشاعر العربيّ الذي عاش أكثر عمره في الجاهليّة وأدرك في أخريات حياته شرف الإسلام فأسلم .

وقد صدّق تلك الجوهرة الثمينة الصادق الأمين ومثلها كلمة ولده صادق أهل البيت سلام الله عليه : **العُبُودِيَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهَهَا الرُّبُوبِيَّةُ** ^٣ .

١- لبيد بن ربيعة العامريّ الأنصاريّ من الشعراء المخضرمين ، يقال إنّه مات في زمن معاوية وهو ابن مائة وسبع وخمسين سنة ولم يقل شعراً في الإسلام إلاّ بيتاً واحداً وهو قوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي حَتَّى كَسَانِي مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالًا
وقال له عمر أنشدني من شعرك فقرأ سورة البقرة وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علّمني الله سورة البقرة . «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ، ص ٥٠ ، ط ١ ، مصر سنة ١٣٢٢هـ-
(التعليقة).

٢- وعجزه : *** وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَهَ زَائِلٌ *^٢** وبعد هذا البيت:
سَوَى جَنَّةِ الْفَزْدُوسِ إِنْ نَعِيمَهَا يَدُومُ وَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ نَازِلٌ
(التعليقة).

٣- الباب ١٠٠ من كتاب «مصباح الشريعة» ، والعبارة أسفله من نسخة سماحة

بل لو أمعنت النظر في جملة من مفردات القرآن المجيد تجدها وافية بذلك الغرض واضحة جليّة مثل قوله تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ** ٢.

فإنّ المشتقّ حقيقة فيمن تلبّس بالمبدأ حالاً، فكلّ شيء فان فعلاً وهالك حالاً، لا أنّه سوف يهلك ويفنى .

ومهما أحاول أن أوضح الحقيقة أجدها عني أبعد من الشمس بيد أنّها أجلى منها .

وأنتى لهذا اليراع القصير والعقل الصغير أن يجراً فيتناول جرعة من ذلك البحر الغزير .

يَا مَنْ بَعْدَ فِي دُنُوهِ ؛ وَدَنَا فِي عُلُوِّهِ .
رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ! سُبْحَانَكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ وَفَوْقَ مَا يَقُولُ الْقَائِلُونَ .
وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۗ ٣ .

وكتب المرحوم آية الله الحاج السيّد محسن الطباطبائي الحكيم في

﴿ حجة الإسلام والمسلمين فخر العلماء الأعلام الحاج الشيخ حسن المصطفوي دام بقاؤه ﴾ (ص ٦٦):

قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْعُبُودِيَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهَهَا الرُّبُوبِيَّةُ ؛ فَمَا فَقَدَ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَجِدَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ ، وَمَا خَفِيَ عَنِ الرُّبُوبِيَّةِ أُصِيبَ فِي الْعُبُودِيَّةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : «سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» .
أَيُّ مَوْجُودٍ فِي غَيْبَتِكَ وَفِي حَضْرَتِكَ .

١- الآية ٢٦ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٢- الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٣- كتاب «الفردوس الأعلى» تعليق الشهيد آية الله القاضي ص ١٩٨ إلى ٢٢١ ،

رحمه الله ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة الفيروزآبادي .

تعليقه على فتوى المرحوم السيّد محمّد كاظم اليزديّ قدّس سرّه هذه قائلاً :
«أمّا القائلون بوحدة الوجود من الصوفيّة فقد ذكرهم جماعة ، ومنهم
السبزواريّ في تعليقه على «الأسفار» قال :

والقائل بالتوحيد إمّا أن يقول بـ «بكرة الوجود والوجود» معاً ، مع
التكلم بكلمة التوحيد لساناً ، واعتقاداً بها إجمالاً ، وأكثر الناس في هذا
المقام .

وأمّا أن يقول بـ «وحدة الوجود والوجود» جميعاً ، وهو مذهب
بعض الصوفيّة .

وأمّا أن يقول بـ «وحدة الوجود وكثرة الوجود» ، وهو المنسوب
إلى أذواق المتألهين ، وعكسه باطل .

وأمّا أن يقول بـ «وحدة الوجود والوجود في عين كرتيهما» ، وهو
مذهب المصنّف (الملا صدرا الشيرازيّ) . والعرفاء الشامخين .

والأوّل : توحيد عامّيّ ؛ والثالث : توحيد خاصّيّ . والثاني : توحيد
خاصّ الخاصّ ، والرابع : توحيد أخصّ الخواصّ» .

وهنا قال المرحوم المعلق : «حسن الظنّ بهؤلاء القائلين بالتوحيد
الخاصّ والحمل على الصّحة المأمور به شرعاً يوجبان حمل هذه الأقوال
على خلاف ظاهرها وإلا فكيف يصحّ على هذه الأقوال وجود الخالق
والمخلوق ، والأمر والمأمور والراحم والمرحوم ؟ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .^١

وهنا يجب التذكير ببعض النقاط :

النقطة الأولى :

١- «مستمك العروة الوثقى» ج ١ ، ص ٣٢٩ ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧٦ هـ .

إنّ كلام السبزواريّ قدّس سرّه في اعتباره قول «وحدة الوجود ووحدة الموجود في عين كثرتهما» أفضل الأقوال الأربعة وأحسنها ، وأنّ هذا التوحيد مختصّ بمن سمّاهم بأخصّ الخواصّ ؛ يُثير هنا سؤالاً وهو : هل الكثرة التي ذكرها هنا هي اعتباريّة أم حقيقيّة ؟

فإنّ أجب : أنّها اعتباريّة ، فهذا يعني القول الثاني ، وهو توحيد بعض الصوفيّة الذي سمّاه بتوحيد الخاصّ . وجميع الصوفيّة ، موضع إشارته ، يحاولون جهد إمكانهم إثبات الكثرة الاعتباريّة هذه ، لا إنكار أصل الكثرة ، وإن كان ذلك بنحو الاعتبار . فهل بإمكانكم الإشارة إلى فرد من آية فرقة كان ينفي حتى الكثرة الاعتباريّة للوجود والموجود ؟ ولو قال أحد ما بهذا الطردوه من زمرة العقلاء ولم يُحسب لقوله أيّ حساب .

وإذا أجب : أنّها كثرة حقيقيّة ، كما هي كذلك بالفعل وكما صرّح بذلك هو نفسه ، وكما هو واضح وجليّ من خلال المراسلات بين العلمين الآيتين : المرحوم آية الحقّ وسند التوحيد والعرفان الحاجّ السيّد أحمد الطهرانيّ الكربلائيّ والمحقّق المدقّق والحكيم الفيلسوف المرحوم الحاجّ الشيخ محمّد حسين الكمبانيّ الإصفهانيّ قدّس الله أسرارهما ، بل إنّ جلّ نزاعهما كان حول هذه المسألة ، حيث يصرّ آية الله الكمبانيّ على إثبات الوحدة والكثرة الحقيقيّتين ، في حين يحاول آية الله الكربلائيّ تفنيد ذلك وذرّ رماد ادّعاءاته في رياح الفناء ويوضّح قائلاً إنّّه مع وجود الوحدة الحقّة الحقيقيّة والوجود بالصرافة ، فلا معنى أصلاً للتعدّد الحقيقيّ ، ولا وجود للكثرة الحقيقيّة إلّا في غيابت جهنّم وزوايا نار الشرك ، لا في جنة التوحيد والمعرفة حيث لا وجود للكثرة فيها ؛ وعلى هذا فسيظهر أمامنا نفس الإشكال في الحال ، وهو : أنّ الوحدة الواقعيّة لا يمكن لها أن تجتمع مع الكثرة الواقعيّة . إنّ الوحدة والكثرة نقيضتان متضادّتان . بعبارة أخرى أنّ

مفهوم الوحدة عكس مفهوم الكثرة وهما نقيضان متضادان ؛ وعليه ، كيف يتسنى لنا الإقرار بكون الكثرة حقيقيةً في نفس الوقت الذي فرضنا فيه الوحدة على أنها حقيقية ؟

وعلى أساس من ذلك ، نرى أنه يتوجب علينا وضع قول ذوق المتألّهين بأن : وحدة الوجود وكثرة الوجود أمر حقيقيّ ، وقول صدر المتألّهين بأن : وحدة الوجود والوجود في عين كترتهما كلاهما حقيقيّان ، جانباً ، وبعد رفضنا القسم الأوّل نشهد أنفسنا مضطّرين إلى قبول ما نقله بعض الصوفية واتّخذوه توحيداً خاصّاً وهو : أنّ وحدة الوجود ووحدة الوجود الحقيقية تكونان بمعية كثرة الوجود وكثرة الوجود الاعتبارية ؛ واعتباره أعلى أقسام التوحيد والمعيار البارز في ذلك .

النقطة الثانية :

إنّ وجود الخالق والمخلوق ، والآمر والمأمور ، والراحم والمرحوم في هذه الصورة واضح وجليّ جدّاً ، ولا مجال لإنكار ذلك أو التشكيك فيه على الإطلاق .

وأدلّ مثال على ذلك هو الإنسان بقواه الباطنية والظاهرية . فالنفس الناطقة لأيّ فرد من أفراد البشر لها حسّ مشترك وقوّة مفكّرة وخوف وحافضة ، وتمتلك كذلك حاسة البصر والسمع والشمّ . وهذه القوى بمجموعها تمثّل عين النفس الناطقة وهما كيان واحد ، من جهة الوحدة ؛ إلّا أنّهما ، وباعتبار التعيّنات والظهورات ، ظهرتا وتعيّنتا على هذه الشاكلة . والحقّ كلّ الحقّ أنّنا لا نملك إلّا أن نعترف بوحدتنا ووحدانيتنا ؛ وفي نفس الوقت فإنّ التعدّد والتعيّن وتكاثر القوى أمر لا يقبل التنفيذ أو الإنكار .

إنّ النفس الوجدانية عندنا تأمر القوى الباطنية وبالتالي القوى

الظاهرية ، وهكذا ، وعن طريق ذلك تصدر عنا ما ندعوها بالأفعال والتي تكتسب طابع الكثرات وتسمى بها ؛ لكن ، مع ذلك تبقى وحدتنا في هذه الأفعال والقوى محتفظة بمنزلتها ومكانتها . وعلى هذا فإنّ قوانا الباطنية هي نحن لكن بصورة تلك الظهورات ؛ وقوانا الظاهرية كذلك كالنظر والسمع هي نحن لكن بصورة هذه الظهورات .

إنّ التعدّد في قوانا والتي توجب العزلة مغلوط . إنّها الوحدة التي تتجلّى وتظهر في مظاهرها وتجلياتها ؛ وهكذا الأمر بالنسبة إليه سبحانه : فهو نفسه لا غيره يظهر في هذه الآيات والمرايا والمظاهر والتجليات . إنّ التعدّد الذي يؤدي إلى العزلة مغلوط وغير صحيح ؛ إنّها الوحدة في ثوب الكثرة ؛ الوحدة الحقيقية في الكثرة الاعتبارية .

فالحقّ سبحانه وتعالى ، هو الخالق في المرتبة العليا ، وهو المخلوق في المرتبة الدنيا . والأمر في المقام الأعلى ، والمأمور في المقام الأدنى . وهو الراحم في الأفق المبين والمرحوم في نشأة أسفل السافلين . وما أروع وأبدع وأبهى ما قاله عارفنا الواصل :

آنِ خدای دان همه مقبول وناقبول

مِنْ رَحْمَةٍ بَدَأَ وَإِلَى رَحْمَةٍ يَوُودُ

از رحمت آمدند و به رحمت روند خلق

اینست سرّ عشق که حیران کند عقول

خَلْقَانِ هَمَّهُ بِهِ فَطَرْتَ تَوْحِيدَ زَادَهُانِد

این شرک عارضی بود و عارضی یزول^١

١- يقول : «أقبل الله كما هو ؛ فهو الذي بدأ (الخلق) من رحمة وإلى رحمة يرجعه .

لقد بدأ الخلق من رحمة وإلى رحمة يؤول ؛ وهذا هو سرّ العشق الذي حير العقول .

گوید خرد که سرّ حقیقت نهفته دار
 با عشق پرده در چه کند عقل بوالفضول
 یک نقطه دان حکایت ما کان و ما یکون
 این نقطه گه صعود نماید گهی نزول
 جز من کمر به عهد امانت نبست کس
 گر خوانیم ظلوم ، و گر خوانیم جهول^۱

النقطة الثالثة :

لقد كانت هذه المسألة ، ومنذ أمد بعيد ، تشكلّ للحقير صعوبة كبيرة وهي أنه لماذا لا يقوم بعض فقهاؤنا بإصدار حكم بتكفير المجسّمة والمعطلّة والمنزّهة والمجبرّة والمفوّضة واعتبارهم نجس لقولهم ما يقولون مع قبولهم أصل التوحيد واعتقادهم به ؛ في حين يُطرقون على رؤوس من يقولون بوحدة الوجود فوراً ، لا تأخذهم في المباشرة في ذلك والإسراع فيه لومة لائم ؟
 ما الداعي في إضافتهم قسماً يدعى «الوحدة الوجوديّة» إلى ما هو

﴿ وإنّ الخلق جميعاً وُلدوا على فطرة التوحيد ؛ وأما الشرك فهو عارض ، والعارض يزول ﴾ .

۱- يقول : «يقول العاقل إنّ سرّ الحقيقة محجوب ؛ وماذا يستطيع فعله الفضول مع العشق المحجوب ؟

واعلم أنّ كلّ ما كان وما يكون هي عبارة عن نقطة واحدة ؛ وهذه النقطة قد ترتفع أحياناً وقد تهبط .

لم يَصُنّ العهد غيري من الناس ؛ سواء سمّيتموني ظلوماً أو جهولاً .
 كتاب «العدل الإلهي» ص ٢٦٠ ، الطبعة الأولى ؛ وقيل : ربّما كان ذلك للمرحوم الآقا محمّد رضا القمّشّي .

موجود من أنواع نَجَس العَيْن كالبول والغائط وغيرهما؟ فلاي شيء أُضيف هذا القسم «نجس العين» إلى النجاسات ومنذ متى عُمل به؟ وهكذا، وبعد الدراسات والمشاهدات وبعد التي واللتيا، انتهى الأمر إلى هذه النقطة، وهي أنه وبسبب دقة هذا النوع من التوحيد وصعوبة فهمه وإدراكه والذي هو توحيد المخلصين والمقربين للحق جل شأنه من جهة، وبسبب الصعوبة والمشاق التي تعترض سالك هذا السبيل في سيره إلى الله ووصوله إلى تلك الحال، وهو بالطبع ما يتعارض مع مزاج المُتتَرِّفين من جهة أخرى، فقد أراحَ القشريون والظاهريون، ذوو المستوى الفكري والعلمي المُتدني والضحل، أنفسهم بإشهارهم سلاح الكفر والخروج على الإسلام على هؤلاء، لعدم انسجام هذه المسألة مع أفكارهم وآرائهم، وحتى لا يضطروا إلى تقليد هذا الرجل الحكيم الواصل والانقياد له، فقد قاموا بهدم أساس هذا البناء وتقويض أركانه، واعتبروهم زنادقة وملحدين وذلك باتهامهم بالنجاسة والتي هي انعكاس للزندقة والإلحاد.

نعم، فمن الواضح أن التكفير والتفسيق هما سلاح الحمقى، وهو ما برهنت عليه التجارب.

وهؤلاء، بشعار التكفير هذا الذي رفعوه، قد دقوا إسفيناً في أساس الإسلام، وإلا أفليس الإسلام هو شريعة التوحيد؟ والتوحيد هو الوحدة نفسها، والتوحيد على وزن تفعيل وهو فعل متعد، والوحدة ثلاثي مجرد وهو فعل لازم.

فالتوحيد الذي يعني به الإسلام هو وحدة الكثرات وحصر الفعل والقوة والعلم والحياة والقدرة والوجود والذات في الحق سبحانه وتعالى. والوحدة هي أن تصير هذه الأفعال والأسماء والذوات وحدة واحدة فيه جلت قدرته.

وفي هذه الحالة فـ «وحدة الوجود» تعني نتيجة التوحيد ومحصلته ، وثمره هذه الشجرة المثمرة . فما التناقض الموجود بين التوحيد والوحدة ؟ فالتوحيد الذي ينادي به الإسلام يتلاءم تماماً معها (أي الوحدة) ، بل هي بعينه . فـ «وحدة الوجود» هي الشراب الحلو والسائق لـ «توحيد الحق» في مراحل الكثرات .

لكن العجب في أنّ هؤلاء الجائرين لم يكونوا قادرين ولم يقدرُوا على اتّهام أولئك بـ «التوحيد في الوجود» ، وذلك لأنّ هذا الكلام كان من الممكن أن يصبح أداةً في أيدي كلّ من الأعداء والأصدقاء على السواء ! فما الإشكال في الإنسان الذي دخل الإسلام وحصل على نتائجه الغائية التي تتلخّص في التوحيد في الذات والصفة فيصبح قائلاً بـ «التوحيد في الوجود» ! استبدلوا لفظة «التوحيد» بـ «الوحدة» ؛ وبدأ العامة من الناس الذين هم كالأنعام غافلين عن أيّ علم بضرب رؤوس الموحّدين بهراوة الوحدة الوجوديّة . و صبغوهم بصبغة نجس العين تحت شعار الكافر الملحد الزنديق الفاسق حتّى يمنعوا الناس عنهم .

إنّ مخالفة المعتقدين بوحدة الوجود هي تعبير آخر لمخالفة أهل التوحيد ؛ أي الموحّدين .

إنّ مشركي العرب وخاصّة قريش الذين كانوا يناجزون الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله إنّما كانوا يقومون بذلك على أساس التوحيد ووحدايّة المبدأ والمعاد وجميع الأمور الأخرى المشتركة بينهما .

كانوا يقولون : إنّ هذا الرجل زنديق وملحد ، إنّّه ساحر ، إنّّه يدعو إلى التوحيد ؛ وهذا خروج على ديننا وعقيدتنا وسنة آبائنا . إنّّه رجل نجس والعياذ بالله ! أو كانوا ينادون بقتله بجريرة هذا الجرم أو ذاك ، أو إخراجهم من مدينتهم وديارهم ، أو تقويض داره على رأسه ، أو عزله وإقامة الحصار

عليه !

وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سَحِرٌ كَذٰبٌ *
أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وَّحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ *^١ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ
أَمْشُوا وَأَصْبُرُوا عَلٰى ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِى
الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هٰذَا إِلَّا اٰخْتِلَاقٌ * أَعْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى
شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِى بَلْ لَمَّا يَدُوْقُوا عَذَابٌ .^٢

إن هذه الآيات ونظيراتها التي وردت في القرآن ، تدلّ كلها على أنّ إشكال المشركين والكافرين على النبيّ والإسلام والقرآن كان في مسألة التوحيد وحسب .

وعلى هذا أفليس إشكال الدارسين والعلماء الذين يهاجمون القائنين بوحدة الوجود ويتهمونهم ويؤنّبونهم ويأخذون عليهم في ذلك يشبه بل هو عين الإشكال الذي نادى به المشركون والكافرون ضدّ الموحدّين؟! فذاك إشكال على توحيد الوجود وهذا إشكال على وحدة الوجود .

ذاك برميّه بالزندقة والخروج عن الدين ؛ وهذا كذلك بالرمي بالزندقة والخروج عن الدين .

ذاك تحت لواء انحراف الناس عن العقيدة ؛ وهذا كذلك تحت لواء فقدان العقيدة الساذجة للسواد الأعظم من الناس .

وطبعاً ، من الضروريّ دائماً التكتّم على الأسرار ، ولا يجب البوح

١- جاء في «أقرب الموارد» : «العجاب بالضمّ : ما جاوز حدّ العجب . أمرٌ عَجَبٌ وعُجَابٌ وعُجَابٌ ، بتخفيف الجيم وتشدّيدها للمبالغة : أي يُتَعَجَّبُ منه . وَعَجَبٌ عُجَابٌ : مُبَالِغَةٌ».

٢- الآيات ٤ إلى ٨ ، من السورة ٣٨ : ص .

بالمسائل العرفانية الراقية والسامية لأيّ كان ، وأتّه يُستحبّ دائماً ، بل واجب مأمور به ، التحدّث إلى الناس بمستوى عقولهم وقابليّاتهم ؛ ولكنّ كلامنا هذا موجه إلى الخواصّ وليس العوامّ ، إلى العلماء لا الجهلاء ، إلى أهل الفهم والتجربة والأدب والمطالعة لا إلى الرجل العامّي المجرّد من أيّ من هذه المسائل .

فنحن نقول : إذا تقرّر أن تكون عقيدتنا توحيداً باللسان وذلك بعد مضي ألف وأربعمائة عام على شريعة التوحيد المحمّديّة ، وأن نغفل عن أسرار ودرجات التوحيد الفكريّ والعقليّ والقلبيّ الراقية والقناعة باليقين الكلّيّ ، وأن نشنّ حملة شعواء على أهل الوحدة ، وهم الموحدون الحقيقيّون والمسلمون الخُلصّ ؛ فإذن ما الفرق بيننا وبين مشركي قريش الذين شهّروا سيوفهم بوجه النبيّ وأمير المؤمنين عليهما السلام وجميع الموحدّين ، أي القائلين بالوحدة الإلهيّة ، في معارك بدر وأُحد والأحزاب وحينين ؟!

أما كان علينا ، على الأقلّ ، ونحن الذين ننادي بالمرجعيّة وولاية الفقيه ، أي تحمّل مسؤوليّة الحفاظ على أرواح وأموال وأعراض المسلمين ونعتمد بولائهم الفكريّ والقلبيّ لنا ، أن نقول كلمتنا في مسألة التوحيد ؟ حتّى لا تتسبّب هذه الفتاوى ، لا سمح الله ، في هتك الأنفس والأموال والأعراض . ليس لنا أن نجعل من أنفسنا حماةً وحرّاساً ؛ ولكن على الأقلّ علينا أن لا نكون كالعدوّ الذي يُشهر سلاحه لصالح الخصم المُشرك ، وضدّ الفرد المسلم الموحدّ .

«لَا أَمَلَ لَنَا فِي خَيْرِكَ ، فَكُفَّ أَدَاكَ عَنَّا» .

النقطة الرابعة :

والآن وبعد أن اتّضحت صحّة مقولة الخالق والمخلوق ، والآمر

والمأمور ، والراحم والمرحوم ، وقد أثبتتُ صحتها ورُقِيَّها آراء رُوَّاد الفلسفة والعرفان الإسلاميين من أمثال محيي الدين بن عربي وتلامذته ومنهم القونوي والقيصري ، والعالم الفقيه النبيل والعارف بلا بديل الغائب عن الأنظار والأفكار منذ حوالي سبعة قرون ألا وهو : السيد حيدر الأملي وكذلك الفقيه والحكيم الخبير البصير والعالم المتبحر المتأله : الملا صدرالدين الشيرازي ، وغيرهم الذين يدين لهم الإسلام والمسلمون والمؤمنون وشيعة أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات وأكمل تحيات المصلين بدينٍ عظيم ، والذين استطاعوا بكتبهم البرهانية والشهودية أن ينفخوا الروح في الإسلام من جديد بعد أن اصفرَّ عوده من جرّاء ظهور أفكار الحشويين والظاهرين والأخباريين الخاوين من العقل والدراية ، وأن يسقوا شجرة التوحيد ثانية وأن يُعيدوا إلى الأذهان حُطَب «نهج البلاغة» ؛ بعد أن اتضح كلّ ذلك نقول :

إنّ العبارة التي كتبها آية الله الحكيم قدس سرّه في نهاية تعليقه وفتواه هي :

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

وهذه العبارة تتضمن نقطتين : الأولى :

تحوي هذا المعنى وهو أنّ طلب هذه الأمور يكون من الله . الثانية : أنّ ما يريدون بيانه : هو أنّ الآية تشير إلى ثنائية الأمر والمأمور والراحم والمرحوم ؛ لأنّه قد عبّر عن إتيّة وتوفيق إزاء الله ، وكذلك عن توكل وإنابة أمامه (أي الله) .

نعم ، فإنّ الأمر بهذه الصورة ، ولكن ، هل هذه الأمور (أي الإتيّة والتوفيق والتوكل) التي يُعبّر عنها هي حقيقة أم اعتبارية ؟!

إذا كان الجواب حقيقة فهذا غير صحيح ؛ لأنّه ليس هناك أي

استقلال لآية ذرة من الذرات في مقابل ذات وصفة الحق تعالى ، سواء أكان استقلالاً في الوجود أم في الصفة .

وإما إذا كانت اعتبارية ، فلا يوجد أي تناقض مع ما يقوله الصوفية ، بل هو عين كلامهم . وما جاء في القرآن الكريم على لسان النبي شُعيب على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام يُشير إلى نفس هذا المعنى :

قَالَ يَقَوْمَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَبْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .^١

نه هر كه چهره برافروخت دلبری داند

نه هر كه آينه سازد سکندری داند

نه هر كه طرف كله كج نهاد و تند نشست

كلاه داری و آیین سروری داند

تو بندگی چو گدایان به شرط مزد مکن

که دوست خود روش بنده پروری داند

غلام همت آن رند عافیت سوزم

که در گداصفتی کیمیاگری داند^٢

١- الآية ٨٨ ، من السورة ١١ : هود .

٢- يقول : «ليس باستطاعة كل جميل الصورة سلب قلب العاشق ؛ وليس كل من يصنع المرايا مثل الإسكندر سيكون مثله في فتوحاته .

وليس كل من أمال قبّعته على جانب رأسه وجلس بتكبر ؛ يجيد فنّ الحكم والسلطان . لا تكن مثل الفقراء والعمال الذين لا يؤدّون عملاً ولا يطيعون أمراً ما لم يأخذوا أجرتهم ؛ لأنّ محبوبك يعلم جيداً كيف يُعامل خدمه ويشفق عليهم .

إنّ الخادم العفيف والتقيّ الذي يُحرق عافيته وسلامته في نار الحبّ باستطاعته أن ⇨

وفا و عهد نكو باشد ار بياموزى
و گرنه هر كه تو بينى ستمگرى داند
بباختم دل ديوانه و ندانستم
كه آدمى بچه‌اى شيوه پرى داند
هزار نكته باريك تر ز مو اينجاست
نه هر كه سر بتراشد قلندرى داند
مدار نقطه بينش ز حال تست مرا
كه قدر گوهر يكدانه جوهرى داند
به قد و چهره هر آن كس كه شاه خوبان شد
جهان بگيرد اگر دادگستري داند
ز شعر دلکش حافظ كسى بود آگاه
كه لطف طبع و سخن گفتنِ درى داند^١

« يحول باكسیر معرفته الوجود الناقص إلى تیر أو الاستغناء عن كل شيء في حين أنه يریح تحت نیر الفقر والعوز».

١- يقول: «فلو تعلمت ذلك واتخذته سلوكاً لك لكان ذلك من الوفاء والإخلاص؛ وإلا فإنك ستعتبر كل من تراه ظالماً وطاغياً».

لقد خسرت قلبي في مقامرة في الحب؛ ولم أتصور أن أحداً من البشر يعرف طريق سلب القلوب كما تفعل الملائكة.

إنها هنا تكمن ألف لطيفة ولطيفة هي أدق من الشعرة؛ وليس كل من حلق رأسه صار يعرف سيرة وسلوك الدراويش.

إن مجال رؤيتي هي دائرة خالك؛ لأن الخبير بالجواهر وحده القادر على تمييز الجوهرة الثمينة.

إن باستطاعة الملك تسخير القلوب شريطة أن يتعامل مع العشاق بالعدل والإحسان. لن يفهم شعر (حافظ) ويستوعبه إلا من كان ذا طبع رقيق وكلام عذب».

«ديوان حافظ الشيرازي» ص ١٢٠، طبعة محمد القزويني والدكتور قاسم غني.

الْبَحْثَانِ الثَّالِثُ وَالثَّلَاثُونَ وَالرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ

الْحَشَوِيَّةُ وَالشَّيْخِيَّةُ وَالْقِسْرِيَّةُ لِأَخْلَاقِ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

وَتَفْسِيرِ الْآيَةِ الْبَارِكَةِ

فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ مِنَ الْآنَ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

قَالَ اللَّهُ الْحَكِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ :

فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ .

(الآية ١١٦ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون)

وتأتي الآيتان التاليتان بعد الآية المذكورة :

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ
إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ .

خسروا گوی فلک در خم چوگان تو باد

ساحت کون و مکان عرصه میدان تو باد

زلف خاتون ظفر ، شیفته پرچم تست

دیده فتح ابد عاشق جولان تو باد^١

١- يقول : «أيها الملك ! إنَّ الفلك المستدير مُسَخَّر بيدك وهو تحت أمرك ؛ وإنَّ عالم

الوجود كله أمامك وتحت سيطرتك .

وإنَّ ضفائر ملكة النصر تعشق بيرقك الخفّاق ؛ وعيون النصر والفتح مُغرمة بكراتك ⇨

همه آفاق گرفت و همه اطراف گشاد
صیت خُلق تو که پیوسته نگهبان تو باد
ای که انشای عطارد صفت شوکت تست
عقل کل چاکر طغراکش دیوان تو باد
طیْرهُ جلوهُ طوبی قد چون سرو تو شد
غیرت خلد برین ساحت بستان تو باد
نه به تنها حیوانات و نباتات و جماد
هرچه در عالم امر است به فرمان تو باد
حافظ خسته به اخلاص ثنا خوان تو شد
لطف عام تو شفا بخش ثنا خوان تو باد^۱
إنَّه لَأَمْرٌ جَلالٌ ، ومعضلة یکتنفها الغموض أن یكون وجود الله
الرحمن الرحیم والحیّ العلیم والقدير موضع اختلاف وتباين في الأفكار
والعقائد بین الأمم والشعوب إلى حدّ یمكن القول إنَّه لیس هناك مسألة أو
معضلة اختلّف فیها إلى هذا الحدّ كما هو الحال مع هذه المسألة التي هي من

⇨ في الميدان».

۱- يقول: «يا من كان سيّد الأفلاك (عطارد) وصفاً لجلالك وبهائك؛ ويا من وُضع
عقل الكلّ وهو (مجمع العقلاء وأولي الألباب) صاحب ديوان أختامه.
ويا من طغى علوه وسموّ منزلته على جلال شجرة طوبى وبهائها؛ ويا من بعثت ساحة
بستانك الواسعة الحسد في نفس جنة الخلد.
إنّ كلّ شيء في عالم الأمر بما في ذلك الحيوانات والنباتات والجمادات تأتمر بأمرك
وسلطانك.
لقد أصبح حافظ المنهك مادحك المخلص؛ فليدم لطفك الشامل شفءاً لمادحك
هذا».

«ديوان «حافظ الشيرازي» ص ٧٤، الغزلية رقم ١٦٤، طبعة حسين پژمان بختيارى.

أكثر المسائل بديهية ووضوحاً ، بل إنَّ بدهاها ووضوح جميع المسائل تنبع من بركات بدهاها ووضوح هذه المسألة ، وقد وصل الحال ببعض الأمم العريقة إلى إنكار أصل وجوده تعالى .

وقد أشار حكيمنا القدوسي وعارفنا القديسي المرحوم الحاج الملا هادي السبزواري أعلى الله رتبته في كتابه «منظومة الحكمة» إلى أن سبب ذلك هو شدة ظهوره تعالى :

يَا وَاهِبَ الْعَقْلِ لَكَ الْمَحَامِدُ	إِلَى جَنَابِكَ انْتَهَى الْمَقَاصِدُ
يَا مَنْ هُوَ اخْتَفَى لِفَرْطِ نُورِهِ	الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ فِي ظُهُورِهِ
بُنُورٍ وَجْهِهِ اسْتَنَارَ كُلُّ شَيْءٍ	وَعِنْدَ نُورٍ وَجْهِهِ سِوَاهُ فِيءٍ

وعلى هذا فلما كان الله العلي الأعلى هو الوجود المحض وكان ظاهراً بنفسه ، ولما كانت بقية الموجودات في الوجود ووجودها ظاهرة بوجوده ؛ فإنَّ شدة هذا الظهور وفرط هذا النور تير وساطع لدرجة أنه تسبب في اختفاء ذواتها . وقد أنكر جماعة وجود الله من الأساس وقالوا : ليس هناك في العالم إله حي مدرك عليم قادر كبير متعال ؛ فالطبيعة محضة وصرفة . والطبيعة والمادة هما غير الحياة والعلم والقدرة . وهؤلاء هم الماديون والطبيعيون .

وإذا تجاوزنا هؤلاء ، فإنه حتى القائلين بوجود الله والمؤمنين به والذين يُقال لهم الإلهيون قد اختلفوا في ماهيته ووصفه ؛ وفي صفاته وأفعاله ، وفي علاقة الموجودات به ، وكيفية إمكاننا ووجوبه .

وقال بعضهم : ليس هناك أي تشابه أو تلائم بين الله وأي من الموجودات بأي وجه من الوجوه . وليست هناك أية رابطة وجودية ، بل أساساً لا يوجد أي تشابه . فأين الموجود المخلوق من الله الخالق ؟ إنَّ ذات الله المقدسة منزّهة عن كل ما يخطر ببال الإنسان من

تصوّرات وأفكار ونسبتها إليه . وذاته أظهر من آية صفة حتّى من صفة الوجود نفسها . بل إنّ نوع وحقيقة وجود الله يختلف عن ذلك الذي تملكه المخلوقات والموجودات الأخرى ، ويختلف في مفهومه أيضاً . وقد تقدّست وتنزّهت ذاته عن كلّ ما يتراءى للعيان ، وصفاته وأسمائه وأفعاله عن كلّ ما يتصوّر . ولذا فلا يمكننا إقامة آية علاقة مع الله ، لأننا موجودات ممكنة الوجود ومخلوقات ضعيفة وفقيرة ، والعجز والجهل متأصلان فينا ، أمّا هو ، فواجب الوجود والخالق القويّ الغنيّ وهو القادر المتمكّن والعالم والخبير ، بكلّ ما لهذه الكلمات من معانٍ . وتُدعى هذه الجماعة بأهل التنزيه (المُنزّهة) . أي يريدون أن ينزّهوا الله ويقدّسوه ويظّهروه إلى أبعد الحدود . وهم يبالغون في تنزيه الله وتقديسه إلى الحدّ الذي يقطعون آية رابطة للموجودات به ويُعلنون صراحةً : بأن ليس هناك سبيل لمعرفة الله ؛ لا إلى أفعال الله ولا إلى أسمائه أو صفاته أو ذاته .

فلا سبيل لنا إلى ذلك المقام الأعلى والذروة الأسنى ، حتّى أننا لا يمكننا إطلاق كلمة الوجود على الله انطلاقاً من وجهة نظر العقل ، فهؤلاء يشكّلون فرقة خاصّة بهم ، ومن المتأخّرين من ينتمي إلى هذه الفرقة أيضاً . ومن القائلين بهذا النوع من التنزيه بعض الأفراد الذين يعتبرون أنفسهم من كبار العلماء ومن الطراز الأوّل ، في حين أنّه (أي التنزيه المذكور) كان عقيدتهم المعلنة . ومن جملة هؤلاء ، الشيخ أحمد الأحسائيّ ، حيث إنّ عباراته التي كتبها في شرحه للزيارة الجامعة الكبيرة (شرح الزيارة) توضّح بجلاء انتمائه لهذه العقيدة .

جاء في بداية رسالة «لقاء الله» للمرحوم آية الله الحاجّ الميرزا جواد آقا الملكيّ التبريزيّ قدّس الله تربته ، وتحديدأ في المقطع الذي يقول

فيه : «وخلاصة القول فإنّ المذاق الأوّل هو مذاق طائفة من متكلمي العلماء الأعلام . فهؤلاء قد استدّلوا بظاهر بعض الأخبار ، وقاموا بتأويل الآيات والأخبار والأدعية الواردة التي تخالف أهواءهم» . وهنا يكتب المرحوم الحاشية التالية بخطّ يده :

«ويعتبر هذا المذاق عن صريح كلمات الشيخ أحمد الأحسائي وتابعيه . ولكنهم يُؤلّون أخبار اللقاء والمعرفة على نحو آخر كما سيأتي ذكره ، ويفسّرون جميع الأسماء والصفات على أساس أنّها من أسماء وصفات مرتبة المخلوق الأوّل . بل إنهم لا يعتبرون الذات القدسيّة منشأ انتزاع الصفات ، ويقولون بالتنزيه الصّرف - منه عُفي عنه» .

وقال البعض الآخر : إنّ هناك تشابهاً بين الله وبين الموجودات من جميع الوجوه ؛ سواء أكان في ذاته أم في صفاته أم في أفعاله . إنّ لله رابطاً مع مخلوقاته وللمخلوقات رابطٌ يربطها بالله . ومعنى الرابط هو الوحدة والملائمة والمشابهة بين ذات العلة وذات المعلول ، وصفات العلة وصفات المعلول ، وأفعال العلة وأفعال المعلول .

إنّ عالم المُلْك والملكوت برمته هو مخلوق من قبل الله . وعليه فيجب أن يكون تشابه بين الله سبحانه وتعالى وبين هذه المخلوقات من جميع النواحي . ويقال لهذه الجماعة أهل التشبيه (المُشَبَّهة) .

أي أنّهم يقارنون بين الله والموجودات في الذات والصفات . ولا نعلم أحداً من الشيعة على هذا المذهب ، ولكنّه كانت هناك جماعة من العامة ، وما تزال ، تنتمي إلى أهل التشبيه .

هذه أيضاً عقيدة خاطئة ، لأنّ الله خالق الموجودات لا يمكن أن يتشابه معها من جميع النواحي . فأيّ دليل يوصلنا إلى أنّه يجب أن يكون هناك تشابه من جميع الجهات في علّة الخلق وعالم الوجود ؟

وذهبت هذه الجماعة إلى حدّ القول بجسميّة الله . لأنّ الموجودات المملكيّة هي أجسام . وبالطبع فإنّ هذه النظريّة والعقيدة باطلة .

إذن فالْمُنزّهَةُ وَالْمُشَبّهَةُ كلاهما على باطل . صحيح أنّنا ننزّه الله ؛ لكننا ننزّهه من صفات النقص التي توجب الإمكان والحدوث ؛ ومن العيب والنقصان ، من العجز والفقر والضعف . فنقول : إنّ الله ليس بعاجز ولا ميّت ولا نائم ولا جاهل . فكلّ هذا صحيح . أمّا أن ننزّه الله إلى درجة أنّنا ننزع عنه مفهوم الوجود بحيث لا تُطلق عليه كلمة موجود أصلاً أو كلمة حيّ أو قادر ومقتدر ، أو عالم وخبير ؛ فهذا خطأ .

يقول هؤلاء : لا سبيل لنا إلى معرفة الله : لا إجمالاً ولا تفصيلاً ، لا مفهوماً ولا مصداقاً ، لا إلى ذاته ولا إلى صفته واسمه أو فعله .

فمن شدّة التنزيه قد عميت إحدى أعينهم ، فهم ينظرون إلى الله بعين واحدة ؛ أي كالأعور . فعينهم المُبصرة هي أنّهم ينزّهون الله عن جميع صفات النقص والتقييد والتحديد ، أمّا عينهم العوراء فهم لا يرون أنّ لله تأثيراً ووجوداً وقدرة وقوّة إفاضة في جميع عوالم الوجود والخليقة ؛ فهم يُسقطون عنه كلّ الصفات العليا والأسماء الحُسنى .

فهم يحصرونه (أي الله) في زاوية معيّنة من السماء ؛ إله مُنزّه وظاهر ليس له أيّة علاقة بعالم الوجود والإيجاد . والمشبهة من ناحيتها تقول : إنّ خصائص الله هي نفس خصائص الموجودات .

ولكنّ قول الحقّ هو أن لا التنزيه الصّرف صحيح ولا التشبيه الصّرف .

فالذات المقدّسة منزّهة وطارهرة إلى ما شئت ، من القبائح والشنائع التي هي من لوازم الإمكان وتوجب تقييد الحقّ . أمّا إذا قلنا : إنّ مفاهيم العلم ، القدرة ، والحياة في الأسماء والصفات تكون بشكل بحيث

لا نستطيع إطلاقها عليه وننزّهه كذلك عن دلالة هذه المعاني الراقية والمفاهيم السامية عليه ، ومن هذا المنطلق نقيم بينونة وعزلة بين صفات وأسماء الحقّ وبين مخلوقاته ؛ فهذا أيضاً خطأ .

إنّ صفات الله العالوية وأسماءه الحُسنى قد ملأت عالم الوجود كلّهُ ؛ فكُلّ هذا الضجيج الذي يزخر به عالم المُلْك والملكوت ، وعالم المادّة وما وراء المادّة ، كلّ ذلك ينطق بصفاته وأسمائه .

فجبرائيل هو اسم الله ، وكذلك الأنبياء هم أسماء الله ، وكذا الملائكة والبشر وكلّ الموجودات الأخرى من الحيوانات مثل : الطيور ، البهائم ، الزواحف ، الأحياء المائية وكلّ الجمادات هي أسماء الله . لكنّ هذا الاسم هو على نوعين :

اسم كليّ ، وهو الذي تمتلكه الموجودات الملكوتية والنورية ، واسم جزئيّ وهو ما للموجودات المُلْكِيّة والمادّية والظلمانيّة . فكلّ هؤلاء أسماؤه وصفاته وقد برزت في هذه المجالات والمظاهر .

فعالم الوجود برمته هو الحقّ وشؤونه المتمثلة في ظهوره في شبكات الإمكان ، ولا شيء غير ذلك أبداً .

عكس روى تو چو در آينه جام افتاد

صوفى از خنده مى در طمع خام افتاد

حسن روى تو به يك جلوه كه در آينه كرد

اين همه نقش در آئينه اوهام افتاد^١

١- يقول : «لما تجلّت صورتك في الكأس الزجاجية ، فقد طمع الصوفيّ -من ضحكة الخمرة- في الشراب .

وتجلّى جمال وجهك وحُسنه في مرآة الوجود وكوّن ذلك التجلّي كلّ هذا التغيير ⇨

این همه عکس می و نقش و نگاری که نمود
 یک فروغ رخ ساقی است که در جام افتاد
 غیرت عشق زبان همه خاصان ببرید
 کز کجا سرّ غمش در دهن عام افتاد
 آن شد ای خواجه که در صومعه بازم بینی
 کار ما بال ساقی و لب جام افتاد
 من ز مسجد به خرابات نه خود افتادم
 اینم از عهد ازل حاصل فرجام افتاد
 چه کند کز پی دوران نرود چون پرگار
 هر که در دایره گردش ایام افتاد
 هر دمش با من دلسوخته لطفی دگرست
 این گدا بین که چه شایسته انعام افتاد^۱

﴿ والاختلاف في الخيال والظن ﴾.

۱- يقول: «ما الصور الجميلة التي انعكست في مرآة قلوب العارفين إلا إشعاعه من جمال الساقی الأزلي والمنعكس في كأس الوجود.
 مع أنّ غیرة وحمیة العشق قد منعت المقرّبین والخواصّ من التحدّث؛ لا أدري كيف عَلِمَ الجميع هذا السرّ.
 لقد مضت تلك الأيام التي كنت تراني فيها قابلاً في صومعتي أيها الخواجة! فقد صارت شفتا الساقی والكأس شغلي الشاغل.
 إنني ما تركتُ الزهد والتقوى وتوجّهتُ إلى الخمارة والسُّكر برغبتي وملء إرادتي؛ بل إنّ تقدير الخالق لي كان هكذا منذ اليوم الأوّل.
 إنّ كلّ واحد (من البشر) قد ابتلي بصروف الدهر؛ فإن لم يكن ملعبة الأقدار فماذا عساه أن يكون غير ذلك.
 إنّ كلّ نفس (من أنفاس الحبيب) بمثابة لطف ومنة عليّ أنا العاشق الولهان؛ فيالي ﴿

زير شمشير غمش رقص كنان بايد رفت
 كآنكه شد كشته او نيك سرانجام افتاد
 در خم زلف تو آويخت دل از چاه زرخ
 آه كز چاه برون آمد و در دام افتاد
 صوفيان جمله حريفند و نظر باز ولي
 زين ميان حافظ دلسوخته بد نام افتاد^١
 إذا قلنا بأن اسم الله سبحانه وتعالى وصفته هما أساساً خارج هذا
 العالم ، وإنه قد أوجد عالماً بينه وبين اسم الله وصفته وفعله حجاب ؛ ففي
 هذه الحالة لا يكون هناك أي رابط يربط هذا العالم مع الله ، وكذلك الله
 لن يربطه بهذا العالم أي رابط ؛ وعندها لن يكون هذا العالم مخلوق الله
 ومعلوله .

وهكذا إذا قلنا بأن ليس لذاته المقدسة أي اسم أو صفته ، لا إجمالاً
 ولا تفصيلاً ، لا مصداقاً ولا مفهوماً ، وإن جميع أسمائه وصفاته خارجة عنه
 ومنفصلة ؛ فكيف يمكن لهذا الإله المجرد والمُفرغ من المحتوى العديم

⇨ من مسكين حظي بكل تلك النعم».

١- يقول : «على العاشقين أن يسلموا رقابهم لسيف العشق بفرح ووجد ؛ لأن عاقبة كل
 مقتول وشهيد في سبيل المحبوب ستكون محمودة .
 لقد تعلق القلب بضميرتك لينجو من جبّ نحرک ؛ ويا للأسف فقد نجا من الجبّ ولكنّه
 سقط في الفخّ .

إنّ لابسِي المسوح كلّهم محترفين في شرب الخمر وعاشقين ؛ لكنّ حافظ وحده من
 بين هؤلاء الذي انكشف عشقه وبان أمره».

«ديوان شمس الدين محمد حافظ الشيرازي» أعلى الله مقامه ، ص ٧٩ و ٨٠ ، الغزلية
 رقم ١٧٧ ، طبعة پژمان .

الحياة والعلم والقدرة أن يكون مبدأ عالم الخلق ومبدعه؟! وبناءً على هذا، تكون كل أنواع التنزيه الصّرف للحقّ تعالى بلا برهان عقليّ وشهود وجدانيّ ودليل شرعيّ .

يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار بالنسبة للاسم أحد للحقّ تعالى ، وحدانيته وتجرّده من جميع النسب والإضافات ، ولكنّ الأمر يكون على العكس في اسم واحد ، يجب النظر إلى ذاته المقدّسة باعتبارها حاوية على جميع الأسماء والصفات الكلّية منها والجزئية . فوحدانيته المتمثلة في الاسم (أحد) ، هو تجرّده من جميع شوائب التكثر حتى في المفاهيم التي تنطبق عليه ؛ وأمّا وحدانيته المتمثلة في الاسم (واحد) ، فهي استجماع لجميع الشؤون والآثار والخصائص التي تحتوي عليها واندراجها جميعها بما في ذلك عالما المُلْك والملكوت مجتمعين تحت اسم الواحد .

فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ .

إنّ الأحديّة للحقّ تعالى تعني بساطته الصّرفة ومحوضته المحضّة وتجرّده الخالص من أيّ مفهوم أو أيّ شيء تريد نسبته إليه ؛ فهو طاهر ومنزه من كلّ هذه الأشياء .

أمّا واحديّة الحقّ تعالى فتعني اعتبار ذاته باعتبار أسمائه وصفاته ، وكذلك اعتبار نشأة الكثرة وعوالمها النابعة من أسمائه وصفاته الكلّية واللابسة بها لباس الوجود . فكلّ جزء من هيكل عالم الوجود بما في ذلك العالم الظاهر والباطن وعالم المادّة والتجرّد ونشأة الطبيعة والمثال والعقل ، أي جميع أجزاء الدنيا وعالم البرزخ والقيامة كلّها تندرج تحت اسم الواحد للحقّ تعالى .

وعلى هذا فباعتبار واحديّة الحقّ تعالى ، أي كونه لطيفاً وخبيراً وبصيراً وسميعاً وهكذا إلى آخر أسمائه وصفاته ، فإنّه قد ملأ جميع ذرّات

عالم الوجود .

فبصره بصر جميع الموجودات ، وسمعه سمعها ، وعلمه وحياته ، وهكذا حتى نصل إلى آخر ذرة تُرى فإن الله يكون معها وبمعيتها . هذا هو معنى واحديته تبارك وتقدس .

فَإِنْ قُلْتَ بِالتَّشْبِيهِ كُنْتَ مُحَدِّدًا وَإِنْ قُلْتَ بِالتَّنْزِيهِ كُنْتَ مُقَيِّدًا
وَإِنْ قُلْتَ بِالْأَمْرَيْنِ كُنْتَ مُسَدِّدًا وَكُنْتَ إِمَامًا فِي الْمَعَارِفِ سَيِّدًا^١

وقد وردت أدلة كثيرة في الآيات القرآنية والأخبار الواردة عن مصادر الوحي تدلّ كلّها على بطلان التنزيه الصّرف بمعنى تنزيهه عن أسمائه وصفاته كذلك ، وهي آيات وأخبار لا تعدّ ولا تحصى . ونفس الأمر يُقال في مسألة التشبيه الصّرف بالموجودات والمخلوقات .

١- ذكر المرحوم الحاجّ الحكيم السبزواريّ قدّس الله نفسه هذين البيتين في بحثه النفس الناطقة في تعليقه . وجدير بالذكر أنّ أبياتاً أخرى ذكرها السبزواريّ في «منظومة الحكمة» في باب (عُرِّزَ فِي النَفْسِ النَّاطِقَةِ) وهي :

النَّفْسُ فِي الْحُدُوثِ جِسْمَانِيَّةٌ	وَفِي الْبَقَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةٌ
فَأَعْوَرَ جَسْمَهَا شَبَّهَهَا	كَأَمَا يَجِدُّهَا الَّذِي نَزَّهَهَا
لَمْ تَتَجَافِ الْجِسْمَ إِذْ تَرَوَّحَتْ	وَلَمْ تَتَجَافِ الرُّوحَ إِذْ تَجَسَّدَتْ
فَكُلُّ حَدٍّ مَعَ حَدٍّ هُوَ هُوَ	وَإِنْ بِوَجْهِ صَحِّعٍ عَنْهُ سَلْبُهُ

وقال المرحوم الحاجّ بعد ذكر خطأ الذين شبّهوه تعالى بأجسام طبيعيّة أُخرى :
كَمَنْ اجْتَرَأَ بِنَحْوِ ذَلِكَ فِي الْمَبْدَأِ مِنَ الْمُشَبَّهِةِ . ثمّ قال في تعليقه على هذه العبارة :
كالطباعيّة الذين لم يطر طائر وهمهم عن حضيض القوى والطبائع إلى أوج المفارقات النفسيّة والعقليّة فكيف إلى أوج التجرد عن الماهيّة وذروة اللاهوت . والعارف يقول :
فَإِنْ قُلْتَ بِالتَّشْبِيهِ كُنْتَ مُحَدِّدًا وَإِنْ قُلْتَ بِالتَّنْزِيهِ كُنْتَ مُقَيِّدًا
وَإِنْ قُلْتَ بِالْأَمْرَيْنِ كُنْتَ مُسَدِّدًا وَكُنْتَ إِمَامًا فِي الْمَعَارِفِ سَيِّدًا
(«شرح منظومة الحكمة» ص ٣٠٤ ، طبعة منشورات دار العلم .)

وبناءً على هذا فإن هاتين المدرستين المعروفتين باطلتان^١.
وهناك مدرسة أخرى تقول بالحلول يقول أصحابها إن ذات الله حالة
في كل الموجودات ، سواء حلّ الله في موجود آخر بعد موت الموجود
الأوّل ، أم أنه يحلّ ابتداءً في موجودٍ ما . وهذه العقيدة باطلة كذلك ، لأنّ
ذاته المقدّسة ليست محدودة حتّى يستوعبه ظرف ذلك الوجود ، ولأنّ
الموجودات جميعاً هي مظاهر لله ؛ وهي ليست غيره حتّى يصدق عليها
عنوان الظرف والمظروف ، أو الحالّ والمحلّ . وقد استنكر جميع الفلاسفة
وكبار العلماء هذا الكلام واعتبروا بطلان هذه الدعوة من المسلّمات .
ولكنّ النصارى كذلك تقول بهذا القول وتعتقد أنّ الله حالٌّ في
الأقانيم الثلاثة : الأب والابن والروح القدس .

وهم يقولون بأنّ الأب هو الذات والابن هو العلم والروح القدس
(جبرائيل) هو الحياة ، ويقولون كذلك : إنّ لنا ثلاثة آلهة وإنّ الله حالٌّ في
كلّ واحد من هذه الآلهة .

والحقّ أنّ فلاسفة النصارى في العالم وقفوا أمام هذه المشكلة خجلى
ومطأطي الرؤوس ، معترفين بأنّ هذا الشيء محال من وجهة النظر العقلية ،
إلاّ أنّه يجب التسليم بها لأنّها وردت في الأناجيل .
وهناك مدرسة أخرى تسمّى بمدرسة الاتّحاد . ويقول أصحاب هذه
المدرسة : إنّ الله يتحد مع الموجودات ، بالرغم من حالة الثنائية الموجودة .

١- يقول الخواجة نصير الدين الطوسي في خطبة كتاب «أوصاف الأشراف»:

«لا يمكن تصوّر أيّ عبارة ترد في نعته أو أيّ بيانٍ يقوله اللسان في وصفه إن كان ثبوتياً
أو غير ثبوتياً وخالف من شائبة التشبيه أو التعطيل . وفي هذا الخصوص قال سيّد الأصفياء
وقدوة الأولياء وخاتم الأنبياء محمّد المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم : لَا أَحْصِي ثَنَاءً
عَلَيْكَ ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ ، وَأَنْتَ فَوْقَ مَا يَقُولُ الْقَائِلُونَ !

فجبرائيل يصير واحداً مع الله ، والأنبياء في بعض الأحيان يصيرون واحداً مع الله وهذا مغلوط أيضاً . لأنّ تصوير الاتحاد يستلزم تصوير إثبات الثنائية والثنائية في أن يكون ذلكما الشيطان واحداً مع بعضهما . وليس لدينا في عالم الوجود شيطان ، فكّل ما موجود هو ذات الله وأسمائه وصفاته التي هي واحدة ، وجميع المخلوقات ، من تطوّرات وشؤونات وظهورات ومجالي ، هي أسمائه وصفاته المقدّسة . ولا يمكن تصوّر اتحاد الثنائية . وعلى هذا ، فمذهب الاتحاد هو باطل أيضاً كسابقه .

وإذا تجاوزنا ذلك سنصل إلى مذهب الأشاعرة والمعتزلة .

المعتزلة هم أصحاب واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري . ولهؤلاء عقائد خاصّة في كثير من المسائل . فالمعتزلة تقول : إنّ طريق لقاء الله مسدود تماماً بوجه غير الله . أي أنّه ليس بإمكان أيّ موجود أن يلقى الله بأيّ شكل من الأشكال ، سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة ، وسواء أكان بعين البصر أم البصيرة أم كان ذلك ظاهراً أم باطناً .

ويقولون كذلك بتأويل جميع الآيات والروايات التي تشير إلى لقاء الله ، وذلك بسلسلة من المعارف تكون مناسبة مع الله . مثل لقاء أسماء الله ونعمه وصفاته ورضوانه وما شابه ذلك .

ومن جملة عقائد المعتزلة قولهم : إنّ الله خالق الخير وإنّ الإنسان خالق الشرور والسيئات ، بمعنى أنّ الشرّ مصدره الإنسان والخير مصدره الله . وإنّ في العالم مبدئين خالقين : أحدهما الله وهو خالق الخيرات ، والآخر هو الإنسان خالق الشرور .

ومن عقائد المعتزلة الأخرى : أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا خلق الإنسان جعله مستقلاً وحرّاً في أفعاله بكلّ معنى الكلمة . مثله كمثل الساعة التي تُملأ من قبل الإنسان ثمّ تقوم بالعمل كذلك لوحدتها فتُدير عجلاتها

المستنة وعقاربها وتدفع جرسها على الدق في وقت مُعَيَّن . وكذا الحال مع الإنسان الذي خُلِقَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ، فهو يُؤَدِّي أفعاله باختياره وحرّيته التامة . إنَّ الإنسان هو الفاعل لأفعاله لا غير . ليس لله سبحانه أيّ دَخَلٍ في أفعال الإنسان بأيّ شكل من الأشكال .

وهذه مدرسة ومذهب الآخرين ، إذ ليس أحد من الشيعة معتزليّ ؛ وما يتوهم به البعض بإدراج الشيعة في قائمة المُعتزلة أو اعتبار المُعتزلة شعبة منهم ، هو خطأ محض .

فالمُعتزلة هم من أهل السنّة ، مثّلهم كمثل الأشعرية ، وكلاهما يقفان في الصّفّ المخالف للشيعة .

وبالجملة ، فإنّ مذهب الاعتزال غير صحيح كذلك .

أولاً : إنّ لقاء الله سبحانه مفتوح على مصراعَيْهِ للجميع ، وهناك آياتٌ وروايات لا تُعدّ ولا تُحصى تدلّ كلّها على أنّ طريق لقاء الله ممكن لكلّ البشر . فالإنسان قادر على التقاء الله وزيارته والتشرف بمقابلته ؛ كلّ ما في الأمر أنّه لا يمكنه رؤيته بحاسة بصره ، لأنّه تعالى ليس بجسم . وعلى هذا فأفراد البشر قادرون على رؤية الله سبحانه والتشرف بلقائه بعين الفؤاد والحقيقة والبصيرة والإيمان الباطن ؛ وهم القادرون على ذلك كما ذكرنا نتيجة تزكية النفس الأمانة بالسوء ؛ وبعد اجتيازهم للمراحل الأربع المذكورة والمدوّنة في كتب الأخلاق المعروفة وهي : التحلية ؛ التخلية ؛ التحلية ؛ الفناء ، لن يقتصر الأمر على لقائهم الله تعالى وحسب ، بل سيستقرون في رحاب حرمة الآمن والمأمون ، ولن يُحرّموا طرفة عين من شرف الحضور واللقاء والزيارة والفناء والاندكاك في ذاته المقدّسة أبداً .

وليس هناك سند أمتن ومستند أوثق على ما ندّعي من الروايات المتواترة بهذا الخصوص ، وأدعية سيّد الموحّدين أمير المؤمنين ، ومناجاة

الإمام زين العابدين ، والأخبار الواردة عن صادق آل البيت ، والإمام أبي الحسن الرضا عليهم آلاف التحية والسلام وغاية الصلوات والإكرام .
ثانياً ، إن ما ذكروه من أن الله سبحانه خالق الخير والإنسان هو خالق الشرّ مغلوط هو الآخر ، لقبح تصوير مبدأين في عالم الخلق ، ولا اختلاف في هذا القبح سواء أعتقد الإنسان بمبدأين هما «أهورامزدا» و«أهريمن» وبالتالي الاعتقاد بمبدأين في عالم الوجود ، أم بالقول إن الله هو خالق الخيرات والحسنات وإن الإنسان هو خالق الشرور والسيئات ؛ فكلا القولين يُشيران إلى وجود مبدأين . إن الطريق الأمثل والأوحد لحلّ مسألة ومعضلة الشرور هو ما فصلناه في بحثنا لهذا الموضوع إلى الآن ، وما أجبنا فيه من بين الطرق الثلاثة التي كان أحدها مسألة عدميّة الشرور .

ثالثاً ، قولهم إن الله خلق الإنسان وإن الإنسان هو الموجد لأفعاله ، خطأً كذلك . ما كان الإنسان ولن يكون خالق أفعاله مطلقاً ، قد يكون له دخل في تعيين عنوان الفعل أو وضع حدود معيّنة له ، إلا أن أصل الإيجاد في الفعل بيد الله سبحانه . ولو كان الإنسان فاعلاً مستقلاً (لِفعله) وقادراً على أداء ذلك الفعل فهذا سيعني التفويض وهو أن الله خلق الإنسان ثم فوّض أو وكلّ أمرَ فعله إليه . وعلى هذا لن تكون لحياة الله وعلمه وقدرته وحكمته وبصيرته وبالتالي ذاته سبحانه أيّ دخل في أفعال الإنسان التي يقوم بأدائها . فماذا يعني ذلك ؟

إنّ هذا الكلام يشير إلى انعزاليّة الله وعزلته وحبسه حاشاه في زاوية من زوايا الكون .

لا شك أنّ هذا الكلام مخالف لمذهب التوحيد الذي يقول : ليست أية ذرّة من ذرّات عالم الوجود ، في أية لحظة من اللحظات تكون وفي أيّ مكان من الأمكنة تعيش ، منفصلة وبعيدة عن الله ؛ لا في أصل خلقتها

ولا في بقاء واستدامة وجودها ؛ لا في الذات ولا في الاسم والصفة ولا في الفعل . إنّ أيّ فعل يصدر عن أيّ من الموجودات يكون تحت سيطرة الحقّ تعالى وتقدّس ، وهيمنته ومعيته الوجوديّة والاسميّة في نفس تلك اللحظة التي يصدر فيها ذلك الفعل . إنّ علم ذلك الموجود وقدرته وحياته ، كلّ ذلك مُنْذَرٌ في علم الله وقدرته وحياته . ولن يكون بإمكاننا إيجاد أيّ مكان لأية ذرّة ، لا في جميع عوالم الوجود ولا في المُلْك والملكوت ولا في السماء أو الأرض ولا في السماوات السبع والأرضين السبع مستثنى من هذه القاعدة الكليّة أو خارجاً عنها .

إنّ هذا الكلام مخالف ، كما قلنا ، لمذهب التوحيد وتلك الراهية التي رُفِرت بِيدِ سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام واهتزّت بيمينه ، وهو ما استند عليه دين سائر الأنبياء خصوصاً الرسول الأعظم محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله ورسالتهم وعقيدتهم وبُني عليه أساسها ، حيث أكّدوا أن لا موجود غير الذات المقدّسة للواحد الأحد والقاهر الصمد مؤثّر في عالم الوجود والخِلقة بأيّ شكل من الأشكال .

وبناءً على هذا فإنّ مذهب المعتزلة باطل كذلك .

إنّ مثّل هذه الفرقة كمثل الأعمى الذي يُغلق عَيْنَيْهِ ويقول مع نفسه : إنّنا ندور حول الأرض ؛ وقد وهبنا الله القدرة والفعل الاختياريّين ؛ فعلينا أن نعمل ولا شأن لنا مع الله . لنا أمرنا ولله أمره ! لاحظوا ذلك وتأملوا جيّداً !

ولا تعتقدوا أنّ هذه المذاهب التي نبحت شؤونها ونطالع تعاليمها هي مذاهب مُنْقَرِضة وبائدة ، أو هي مذاهب انفرط عقدها ، كما يقال ، وصار أمرها فُرْطاً ؛ إنّها مذاهب لا تزال تعمل بنشاط ولها مَنْ يؤمن بها وسار على طبق منهجها .

إنَّ جُلَّ المساعي التي يبذلها حكماء الإسلام وفلاسفته الكبار تنصبت في مجال استئصال هذه العقائد وقطع شريانها الحيويّ ، وهي مساع حميدة يُشكِّرون عليها . إلا أننا نرى أنّ السواد الأعظم من الناس وخصوصاً الحشويّة من العلماء ومن الذين لا يفقهون معقولات الأمور والقائلين : إنّ الرجوع إلى العقل في جميع الأمور مغلوّط ، وإنّ على الناس التمسك بظواهر الأخبار وآثار التعلُّد ؛ ساقطون في هذه الحفرة المهلّكة وغارقون في حلها حتى قَمّة رأسهم . وهم يقودون الناس نحو هذه العقيدة بصورة عمليّة قائلين : إنّ هذه هي عقيدة العوامّ ولسنا مُكَلَّفون بما هو فوق ذلك .

وقال بعض علماء الحديث والرواية ، لا أهل الحكمة والدراية : إنّنا نمتلك القدرة ونحوز العلم ، وتصدر عنّا أعمال تقع جميعها على عاتقنا ومسؤوليتنا ، دون دخل للحقّ تعالى وتقدّس في ذلك ؛ ونحن إذ نقوم بهذه الأعمال لا سبيل لنا للقاء الله ؛ إنّ هذا الاعتقاد هو ما يؤمن به المعتزلة ، وإن ادّعى هؤلاء بأنّهم شيعة اثنا عشرية ، فهم يوالون عقائد المعتزلة ويؤمنون بها طبعاً وعملاً ، وقد أُشربوا في قلوبهم تلك العقيدة .

لذلك يتوجّب علينا مهاجرة هذه العقيدة عمليّاً وأن لا نكتفي في فعل ذلك شفهيّاً ! إنّ الواجب يُحتمّ علينا الانضمام تحت لواء التوحيد بالعمل لا باللفظ واللسان وحسب ، والسير على هدي خُطب مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلين ، وأقوال الإمام الصادق وكلمات الإمام الرضا عليهما السلام والبحوث التوحيدية التي كانت له في مجلس المأمون وكانت بحقّ موضع فخر واعتزاز !

علينا أن نتخذ المنهج الذي انتهجه فخر الفلاسفة المتقدّمين والمتأخّرين الملاً صدر الشيرازيّ قدوةً في الحوزة العلميّة وصفوف التدريس حتى يتسنّى لنا تقوية الآصرة الموجودة بين الشرع من جهة

والعقل والشهود من جهة أخرى ، وبالتالي الخطو نحو مرتبة الكمال بمصاحبة القوى العالية الثلاث وهي العلم والوجدان والتعبُد ؛ وإلا فإن ركبنا - يا عزيزي - سيظل متأخراً عن الركبان الأخرى إلى يوم الحشر ؛ وإني لأخشى مما هو أكبر من ذلك وأعظم مصيبة ؛ وهو أن يبقى ركبنا هذا متأخراً حتى بعد الحشر !

علينا أن نخطو في طريق الأدعية والسلوك والمنهاج والخطب والكلمات التي خطى فيها السابقون في الدين والأئمة المعصومون ، ونلاحظ كيفية معاملتهم مع المذاهب الباطلة المختلفة وقدرتهم على محوها وإزالتها فعملوا جاهدين مخلصين على إخراج الأمة من جميع مراتب الشرك ، وسلّموا أنفسهم بيدي الله تعالى وتوكلوا عليه ، ولم يكلوا أنفسهم أو يستمدوا قوتهم من غير الله سبحانه ؛ فلنكن نحن كما كان أولئك !

يقول الأشاعرة : إنّ الله سبحانه وتعالى قد خلق العالم حرّاً يفعل ما يشاء . فالله أولاً في ذاته مقهور في عمله ، فهو غير مُخَيَّر (لا اختيار له) . وما الاختيار الذي وهبه هو إلى الإنسان إلا صورة لا واقعية لها . فجميع أفراد البشر مجبورون ومضطرون في أداء أفعالهم وأعمالهم . وعلى هذا فالجبر عنصر أساس في أعمال البشر ، والله كذلك مجبور في عمله ؛ سواء ما يتعلق بهذا الخلق أم عمله في ما يتعلق بعالم الخلق .

ويقول الأشاعرة إنّ جميع الأعمال التي يؤدّيها الإنسان على أنّها نابعة من اختياره ، من صلاة وصوم وحجّ وعمرة وجهاد وكسب في جانب الطاعات ، وكذلك من زنا ومعاورة الخمر والقمار والسرقة والاعتداء على النواميس والقوانين والقتل والإغارة وسائر الجنایات وأعمال الخيانة التي تسمّى بالمعاصي ؛ كلّ تلك الأعمال تستند إلى الله ولم يكن الإنسان يوماً حرّاً أو مختاراً في فعل أيّ من تلك الأعمال . إنّ الفعل حقّ وإنّ البشر مجبر

على أدائه والإتيان به وإن بدا له أثناء ارتكابه ذلك الفعل أنه حُرٌّ ومُخَيَّرٌ إلا أن هذا الاختيار أو تلك الحرّية ليست إلا ظنّ وخيال . ذلك أن كلّ شيء هو تحت قوّته القاهرة وسيطرته وهيمنته ويجب أن تتحوّل إلى حركة سواء أَرْضِيَّ أم لم يَرْضَ .

ومن ناحية أُخرى فإنّ الله نفسه غير مُخَيَّرٍ في بعض الأفعال التي قد تصدر عنه . وهذه الأفعال هي عبارة عن ترشّحات ذاته وهو أمرٌ مُلَازِمٌ لوجوده .

ولهذا يجب القول : إنّ الله مجبور ومضطرٌّ في خلق السماوات والأرض وما بينهما وعالم الملك والملكوت - سواء أكان ذلك في بدء الخليقة أم في بقائها واستدامتها - ؛ وكذلك جميع الخلائق من ملائكة وجنّ وإنس وحيوانات وسائر الموجودات التي لم نتمكّن من تصوّرها لحدّ الآن ؛ كلّ أولئك مجبورون مضطّرون في أعمالهم وتصرفاتهم ، مثلهم في ذلك كمثل عقرب الساعة الذي يتحرّك ويدور دون اختيار منه في ذلك ، أو كمثل حجر الطاحونة التي تعمل الرياح أو الماء على تحريكها ودورانها ، أو كسائر الآلات التي تعمل تلقائياً في المعامل والمصانع وتؤدي الغرض المرسوم لها والمبرمجة على أدائه .

هذه هي إحدى أهمّ النواحي التي يعتقد بها الأشاعرة وهو ما يميّزهم عن الإمامية .

وأما الناحية الأخرى في عقيدتهم فهي مسألة العدل . فهم يعتقدون أنّ الله والعياذ بالله ليس عادلاً ! ولا يمكن للعدل أن يكون صفة من صفاته . فهم يقولون : إنّ عدالته تتناقض مع صفته الأخرى التي تتمثل في كونه فَعَالٌ لِمَا يَشَاءُ وَحَاكِمٌ لِمَا يُرِيدُ ، ومع الآية الكريمة : لَا يُسْأَلُ عَمَّا

يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ^١.

ويقول الأشاعرة كذلك: إنَّ الله ذاتٌ، وإنَّ جميع الموجودات مرتبطة بذاته، وهو كذلك قائم بذاته. ولا أحد يقف في وجه ما يريد فعله أو القيام به أو منعه من ذلك؛ ومن هنا لا يصحّ إضفاء صفة العدل عليه. إنَّ كلَّ ما يفعله هو صحيح وإن بدا لنا ظلماً.

ويجوز ارتكاب القبائح والشُرور من قِبَلِ الله، لأنَّ ذلك صادر عنه ولا إشكال أو بأس في ذلك.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ آية الله العلامة الحسن بن يوسف المطهر الحليّ قدّس الله نفسه قد عالج بحثاً وافية وكافية في مقالات واعتقادات الأشاعرة في كتابه الموسوم بـ «نهج الحق وكشف الصدق»^٢ لإبطال عقائد سخيّة كهذه بهمة عالية. وقد قُمنّا بنقل بعض النصوص من الكتاب المذكور في سلسلة دروس «معرفة الإمام»^٣، وندعو القراء الكرام إلى مراجعة كتاب «معرفة الإمام» وعلى الأخصّ الكتاب القيم لسماحة العلامة ومطالعة ذلك.

وأخيراً نقدّم المثال البديهيّ التالي بصورة موجزة لإنهاء هذه المسألة:

إنَّ هناك فرقاً بين إنكار الاختيار ووجوده، وعدم فعل القبيح والشرِّ على أساس المصلحة وقاعدة وأصل الحكمة.

١- الآية ٢٣، من السورة ٢١: الأنبياء وتسبقها الآية الشريفة القائلة:

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ.

٢- طبعة مؤسسة دار الهجرة إيران - قم، سنة ١٤٠٧ هـ.

٣- سلسلة العلوم والمعارف الإسلامية، القسم (٢)، «معرفة الإمام» ج ١٦ و ١٧،

الدرس ٢٤١ إلى ٢٥٥.

والآن تصوّروا أننا جميعاً جالسون في مجلس بهيِّ رائع تسيطر علينا سِمة الأدب والدمائة فهل تعتقدون أنّ أيّاً منّا قادر في تلك الحال على القيام وخلع ملابسه جميعاً حتّى الملابس الداخليّة ، ثمّ والدوران حول الحضور وهو يُطلق بعض الصفّارات ، ثمّ يختمها بالخروج مسرعاً من بين ذلك الجمع إلى الخارج؟! هل يستطيع أيّ واحد منّا القيام بهذا العمل أم لا؟!

طبيعيّ أنّ ذلك ممكن الحصول! إلّا أنّنا لا نجد أحداً يفعل ذلك أو كان قد فعله من قبّل أو حتّى التفكير للقيام به . وليس ذلك من باب أنّه لا يملك الحرّيّة أو الاختيار لفعله أو القدرة على ذلك ، أو أنّ عمله مقتصر على الجلوس جانباً في ذلك المجلس وعدم أدائه لذلك الفعل ؛ فهو ليس مجبراً على الجلوس وتفادي القيام واللفّ والدوران حول الجالسين والركض وما إلى ذلك ، إلّا أنّنا نرى ذلك محالاً عليه فعله ، لأنّه عاقل وحكيم ، وأفعاله لا تمتّ إلى العبث أو اللغو أو الباطل . فلو قتلوه وقطّعوه إرباً إرباً ما كان يقوم بعملٍ كهذا وما كان لهذا العمل أن يصدر عنه .

فهناك بونٌ شاسع بين عدم الاختيار وفقدان القدرة على الإتيان بعمل ما ، وبين عدم الإتيان بذلك العمل على أساس المصلحة والتعقل . ونرى أنّ الحكيم العاقل لا يؤدي كثيراً من الأفعال ولا يقوم بها في حين أنّه قادر على فعلها وله الحرّيّة الكاملة في أدائها ، وذلك لأنّ قوّة العقل أو حسّ العاطفة والوجدان يحولان دون قيامه بها ، لكنّا لا نراه يفعلها .

إنّ الله لا يقوم بكثير من الأفعال ، كالظلم والجور والاعتداء ، ونقض العهد أو خُلف الموعد ، وهو حاشا له لا يكذب ، ولا يأمر الناس بالفحشاء أو المنكر . كلّ ذلك ليس لأنّه والعياذ بالله مسلوب الإرادة أو محدود الاختيار ، بل لأنّه حكيم عليم قادر غنيّ حقٌّ غير حاقِد ولا ضاغن .

والله قادر على أن يُدخِل جميع ملائكته في السماء وكلّ أنبيائه على

الأرض وجملة أوليائه إلى جهنم دُفَعَة ، فله الحرّية والاختيار على فعل ذلك بالكامل ، فلا قدرته محدودة ولا اختياره مسلوب ؛ لكنّه لا يفعل ذلك ، بناءً على إرادته وبمقتضى اختياره ؛ لأنّ وجوده واسع وكبير ، لا تحدّه الحدود ولا تنتهي إلى باب مسدود ؛ ولذا نراه لا يُخَلِّف وعده لأنّه لا يحتاج إلى مثل هذا التصرف .

أضف إلى ذلك أنّ عمله هذا سيكون بمثابة ظلم للمؤمنين مقابل عوده التي قطعها لهم ، والله سبحانه لا يظلم ولا يجور ، ولهذا فهو يُدخِل مَنْ يُريد إلى الجنّة باختياره وإرادته ، لا أن يكون مُجبراً على إدخال أهل الجنّة إلى الجنّة وأهل النار إلى النار . إنّ الجبر والاضطرار لا معنى لهما في مقام الواسع العليم ذاك .

فلنتجاوز هذا ونسأل ، مَنْ الذي قال إنّ اختيارنا شيء موهوم ؟ إنّ لنا لاختياراً ، وهو اختيارٌ حقيقيّ كحقيقة سائر الأمور الأصيلّة غير الموهومة ، والتي هي في عداد بقية عالم الوجود .

إنّ إنكار الاختيار فينا ونفيه هو بمنزلة إنكار الأمور الضرورية والحتمية ، ويجب نسبة اللاعقلانية إلى الأشاعرة ومذهبهم لأنّهم يصرون على عدم واقعية هذا الأمر . ويجب إسقاط أيّ مذهب أو مدرسة لاهوتية تنفي الشهود والوجدان ، أو التفكير والتعقل ، أو العلم والواقع من حيز الاعتبار . فذلك المذهب أو تلك المدرسة باطل مدحوض .

لقد جَبَلَ الله سبحانه وتعالى جَلّ شأنه وجودَ الإنسان وصاغه على أساس أصول معيّنة بحيث تعتمد كلّ علومه الحقّة الحقيقيّة على تلك الأصول . فلو أنكرنا العقل واعتبرنا الرجوع إليه أو إلى المسائل العقلية باطلاً ، ونفينا امتناع اجتماع الضّدين أو النقيضين ، ودَحَضنا الوجود ؛ فلن يبقى في أيدينا شيء مهمّ يُعتمد عليه ؛ لاعلماً ولا مدرسةً لاهوتية

ولا مذهباً ولا دراسة ... ! لن يبقى في أيدينا أيّ شيء إطلاقاً ! وحينئذٍ ستعلّق علومنا ملابسها (كما يقال) على شُجْب البطلان ! وذلك لأنّ أساس جميع العلوم كائن على استخدام العقل والقوى العاقلة باعتبارها آلات للاستفادة من تلك العلوم .

فلو أنكرنا الوجود والاختيار والعقل في عالم الوجود هذا ، وأنكرنا كذلك كلّ البديهيّات والضروريّات الأوّليّة ، فإنّ جميع العلوم ، سواء أكانت علوماً تطبيقيّة أم طبيعيّة أم فلسفيّة ، وحتى علوم التفسير والحديث والتأريخ والفلك والنجوم ... ، وما إلى ذلك ، والتي لا تقوم إلاّ على أساس البديهيّات واليقينيّات والأوّليّات والحدسيّات والمشاهدات ، كلّها ستكون باطلة لا محالة . وعلى هذا لن يستقيم هناك عمود أو تثبت دعامة ، ولن يتأسس في عالم العلوم علمٌ يُذكر . لن يُقبل قول من أيّ أحد كان ، ولن يدوم أيّ علم أو تعلّم على الإطلاق .

إنّ نفي الاختيار عنّا وعن المبدأ تعالى معناه إضفاء صفة الجبر على الموجودات والممكنات وعلى المبدأ الواجب على السواء . لذا فإنّ هذا باطل أيضاً .

لا جرّم أنّ الأشاعرة وكلّ الجبريين في العالم لم يعرفوا الله ؛ فهم قابعون في زاوية مظلمة من زوايا بيوتهم يحاولون إصدار هُويّتين ، واحدة لهم وأخرى لله سبحانه ؛ يا لها من هُويّة يصدرها عميان ! هم عمي فظنّوا الله والعياذ بالله مغلولاً وأعمى وسجين وبأس مثلهم ، فشرعوا في إصدار هُويّة بائسة له كبؤسهم . وهُويّة كهذه لا تُقبل حتّى في أتعس دائرة للأحوال المدنيّة !

إنّ هُويّة الحقّ تعالى جلّ شأنه هي سورة قلّ هو الله أحدّ .

نعم ، لقد بيّن الله سبحانه هُويّته وسجلّه الكامل على لسان نبيّه في

القرآن الكريم وبالصورة التالية :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * (أي المقصود المصمود؛ أو الذي لا جوف له) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.^١
 إن معنى الصمدية يُبين بوضوح أنّ الله سبحانه له الاختيار التام وأنه ليس مجبوراً أو مضطراً .

وقال شيخنا الأقدم والمفسر الأعظم أكبر علماء الإمامية في القرن السادس الهجريّ أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسيّ والمُلقّب بـ«أمين الإسلام» في تعليقه على هذه السورة ما يلي :

«(هذه السورة) مكّية . وقيل : مدنية . وسُميت سورة التوحيد ، لأنّه ليس فيها إلاّ التوحيد ، وكلمة التوحيد تُسمّى : الإخلاص . وقيل إنّما سُميت بذلك ، لأنّ مَنْ تمسّك بما فيه اعتقاداً وإقراراً ، كان مؤمناً مخلصاً . وقيل : لأنّ مَنْ قرأها على سبيل التعظيم أخلصه الله من النار ، أي أنجاه منها . وتسمّى أيضاً : سورة الصمد . وتسمّى أيضاً : بفاتحتها . وتسمّى أيضاً : نِسْبَةُ الرَّبِّ . وروي في الحديث : لِكُلِّ شَيْءٍ نِسْبَةٌ ، وَنِسْبَةُ الرَّبِّ سُورَةُ الْإِخْلَاصِ .

وفي الحديث أيضاً أنّه كان يقول لسورتي : قُلْ يَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، «المُقَشَّقِشَتَانِ» .

سُميتا بذلك لأنهما يُبرئان من الشرك والنفاق .

يُقَالُ : تَقَشَّقَشَ الْمَرِيضُ مِنْ عِلَّتِهِ ، إِذَا أَفَاقَ وَبَرِيَ . وَقَشَّقَشَهُ : أَبْرَأَهُ

١- تمام السورة ١١٢ : الإخلاص .

كَمَا يُفَشِّشُ الْهِنَاءُ الْجَرَبَ ٢.

وقال البيضاوي في تفسير هذه السورة :

«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ الضمير للشأن، كقولك هُوَ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ، وارتفاعه بالابتداء وخبره الجملة، ولا حاجة إلى العائدة لأنها هي هُوَ أو لما سُئِلَ عنه، أي الذي سألتموني عنه هو الله .

إذ روي أن قريشاً قالوا: يَا مُحَمَّدُ! صِفْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ! فَنَزَلَتْ.

وأحدٌ بدل أو خبر ثانٍ يدلّ على مجامع صفات الكمال، كما دلّ الله على جميع صفات الكمال، إذ الواحد الحقيقي ما يكون منزّه الذات عن أنحاء التركيب والتعدّد ٣.

وقال سماحة أستاذنا الأكرم العلامة الطباطبائي قدّس الله سرّه في فصل «بيان» من هذه السورة :

السورة تصفه تعالى بأحدية الذات ورجوع ما سواه إليه في جميع حوائجه الوجودية من دون أن يُشاركه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا أفعاله، وهو التوحيد القرآني الذي يختصّ به القرآن الكريم ويبنى عليه جميع المعارف الإسلامية .

١- جاء في «أقرب الموارد» الهِنَاءُ بالكسر: القَطْرَانُ . و:- عَذْقُ الدَّخْلَةِ، لغةٌ في الإهان. و«يَضَعُ الْهِنَاءَ مَوْضِعَ النَّقْبِ» مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يَضَعُ الشَّيْءَ فِي مَوْضِعِهِ وَيُطَبِّقُ مِفْصَلَ الصَّوَابِ فِي حُجَّتِهِ.

وجاء أيضاً: القَطْرَانُ بالفتح والكسر، والقَطْرَانُ بفتح القاف وكسر الطاء: سَيَّالٌ دُهْنِيٌّ يُؤْخَذُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَبْهَلِ وَالْأَرْزِ وَنَحْوِهِمَا.

٢- «مجمع البيان» ج ٥، ص ٥٦٠، طبعة صيدا، مطبعة العرفان.

٣- «تفسير البيضاوي» ص ٦٢٤، طبعة مطبعة بولاق، سنة ١٢٨٥هـ.

وقد تكاثرت الأخبار في فضل السورة حتى ورد من طرق الفريقين أنها تعدل ثلث القرآن كما سيجيء إن شاء الله .
والسورة تحتمل المكيّة والمدنيّة ، والظاهر من بعض ما ورد في سبب نزولها أنها مكّيّة .

قوله تعالى : **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ، هُوَ ضمير الشأن والقصة يُفيد الاهتمام بمضمون الجملة التالية له ،^١ والحق أنّ لفظ الجلالة عَلِمَ بالغلبة له تعالى بالعربيّة ، كما أنّ له في غيرها من اللغات اسماً خاصاً به ، وقد تقدّم بعض الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة .

وأحدٌ وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أنّ الأحد إنّما يُطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهنياً ، ولذلك لا يقبل العدّ ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإنّ كلّ واحد له ثانياً وثالثاً إمّا خارجاً وإمّا ذهنياً بتوهم أو بفرض العقل فيصير بانضمامه كثيراً ، وأمّا الأحد فكلّ ما فرض له ثانياً هو هو لم يزد عليه شيء .

واعتبر ذلك في قولك : **مَا جَاءَنِي مِنَ الْقَوْمِ أَحَدٌ** . فإنّك تنفي به مجيء اثنين منهم وأكثر كما تنفي مجيء واحد منهم ، بخلاف ما لو قلت : **مَا جَاءَنِي وَاحِدٌ مِنْهُمْ** . فإنّك إنّما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد ولا يُنافيه

١- وقال في تفسير «بيان السعادة» ص ٣٢٧ ، الطبعة الرحليّة الحجريّة ، فيما يخصّ كلمة «أحد» :

«هو ضمير الشأن أو ضمير يُشار به إلى مقام الغيب ، لأنّ لذلك المقام تعييناً في الأذهان أو ادعاء التعيّن . أو أنّ «هو» عَلِمَ واسم لمقام الغيب . وعلى أساس هذين الاحتمالين الأخيرين يكون لفظ الجلالة إمّا بدلاً أو عطف بيان لذلك أو خبراً أو مبتدأ ثانياً فتكون كلمة «أحد» خبره والجملة خبر «هو» . ويعود عدم ذكر الضمير العائد إلى أنّ المبتدأ مُتكرّر في المعنى . وكلمة «أحد» إمّا أن تكون خبراً أو خبراً بعد خبر» .

مجيء اثنين منهم أو أكثر ، وإفادة هذا المعنى لا يُستعمل في الإيجاب مطلقاً إلا فيه تعالى ، ومن لطيف البيان في هذا الباب قول عليّ عليه أفضل السلام في بعض خطبه في توحيده تعالى : **كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرُهُ قَلِيلٌ** .
وقد أوردنا طرفاً من كلامه في التوحيد في ذيل البحث عن توحيد القرآن في الجزء السادس من الكتاب .

قول تعالى **اللَّهُ الصَّمَدُ** الأصل في معنى الصمد القصد أو القصد مع الاعتماد ، يُقال : **صَمَدُهُ يَصْمُدُهُ صَمْدًا** من باب نصر أي **قَصَدَهُ** أو **قَصَدَهُ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِ** . وقد فسروا الصمد - وهو صفة - بمعاني متعدّدة مرجع أكثرها إلى أنه السيد المصمود إليه أي المقصود في الحوائج .
وإذا أُطلق في الآية ولم يُقيد فهو المقصود في الحوائج على الإطلاق .
وإذا كان الله تعالى هو الموجد لكلّ ذي وجود ممّا سواه يحتاج إليه فيقصده كلّ ما صدق عليه أنه شيء غيره ، في ذاته وصفاته وآثاره قال تعالى : **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ** . (سورة الأعراف ، الآية ٥٤) .
وقال وأُطلق : **وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ** . (سورة النجم ، الآية ٤٢) .
فهو الصمد في كلّ حاجة في الوجود لا يقصد شيئاً إلا هو الذي ينتهي إليه قصده وينجح به طلبته ويقضي به حاجته^١ .

١- وقال في تفسير «بيان السعادة» ص ٣٢٨ ، ضمن بيان الروايات الواردة في معنى كلمة الصمد:

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه ورد جماعة من فلسطين على الإمام محمد الباقر عليه السلام وسألوه عن مسائل فأجابهم الإمام ثمّ سألوا عن كلمة «صمد» فأجابهم الإمام بجواب مُفصّل وطويل ، ثمّ قال في آخر كلامه:
لَوْ وَجَدْتُ لِعِلْمِي الَّذِي آتَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَمَلَةً لَنَشَرْتُ التَّوْحِيدَ وَالْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالِدِينَ وَالشَّرَائِعَ مِنَ الصَّمَدِ! وَكَيْفَ لِي بِذَلِكَ وَلَمْ يَجِدْ جَدِّي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ⇨

ومن هنا يظهر وجه دخول اللام في الصَّمَد وأنه لإفادة الحصر فهو تعالى وحده الصمد على الإطلاق .

وهذا بخلاف «أحد» في قوله **اللَّهُ أَحَدٌ** ، فإنَّ أحدًا بما يُفيده من معنى الوحدة الخاصة لا يُطلق في الإثبات على غيره تعالى ، فلا حاجة فيه إلى عهد أو حصر .

وأما إظهار اسم الجلالة ثانياً حيث قيل **اللَّهُ الصَّمَدُ** ولم يقل **هُوَ الصَّمَدُ** ولم يقل **اللَّهُ أَحَدٌ صَمَدٌ** ، فالظاهر أنَّ ذلك للإشارة إلى كون كلِّ من الجملتين وحدها كافية في تعريفه تعالى ، حيث إنَّ المقام مقام تعريفه تعالى بصفة تختصُّ به ، فقيل : **اللَّهُ أَحَدٌ** ، **اللَّهُ الصَّمَدُ** إشارة إلى أنَّ المعرفة به حاصلة سواء قيل كذا أم قيل كذا .

والآيتان مع ذلك تصفانه تعالى بصفة الذات وصفة الفعل جميعاً ، فقوله : **اللَّهُ أَحَدٌ** يصفه بالأحدية التي هي عين الذات ، وقوله **اللَّهُ الصَّمَدُ** يصفه بانتهاء كلِّ شيء إليه وهو من صفات الفعل .

وقيل : الصمد بمعنى المصمت الذي ليس بأجوف فلا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يلد ولا يُولد ، وعلى هذا يكون قوله **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** تفسيراً للصمد .

قوله تعالى : **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ؛ الآيتان الشريفتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيئاً بتجزّيه في نفسه فينفصل عنه شيء

﴿ حَمَلَةٌ لِعَلْمِهِ ، حَتَّى كَانَ يَتَنَفَّسُ الصُّعْدَاءَ وَيَقُولُ عَلَى الْمُنْبَرِ : سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَقْفِدُونِي ، فَإِنَّ بَيْنَ الْجَوَانِحِ مِنِّي عِلْمًا جَمًّا ! هَاهُ هَاهُ ! أَلَا لَا أَحَدٌ مَن يَحْمِلُهُ ! أَلَا وَإِنِّي عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ؛ «فَلَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَنسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَنسِ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ» .

سنخه بأيّ معنى أريد من الانفصال والاشتقاق ، كما يقول به النصارى في المسيح عليه السلام إنه ابنُ الله ، وكما يقول الوثنيّة في بعض آلهتهم إنهم أبناءُ الله سبحانه .

وتنفيان عنه أن يكون متولّداً من شيء آخر ومشتقاً منه بأيّ معنى أريد من الاشتقاق كما يقول الوثنيّة ، ففي آلهتهم من هو إله أبو إله ، ومن هي إلهة أم إله ، ومن هو إله ابن إله .

وتنفيان أن يكون له كفؤ يعدله في ذاته أو في فعله^١ وهو الإيجاد والتدبير .

ولم يقل أحد من الملتين وغيرهم بالكفؤ الذاتي ، بأن يقول بتعدّد واجب الوجود عزّ اسمه ، وأمّا الكفؤ في فعله - وهو التدبير - فقد قيل به كآلهة الوثنيّة من البشر كفرعون ونمرود من المدّعين للألوهيّة ، وملاك الكفاءة عندهم استقلال من يرون ألوهيته في تدبير من فوّض إليه تدبيره ، كما أنّه تعالى مستقلّ في تدبير من يدبّره وهم الأرباب والآلهة ، وهو ربّ الأرباب وإله الآلهة .

وفي معنى كفؤ هذا النوع من الآلهة ما يفرض من استقلال الفعل في شيء من الممكنات ، فإنه كفاءة مرجعها استغناؤه عنه تعالى وهو محتاج من كلّ جهة والآية تنفيها .

وهذا الصفات الثلاث المنفيّة (الولادة ، التولّد ، امتلاك الكفؤ) وإن أمكن تفرّغ نفيها على صفة أحديته تعالى بوجه لكنّ الأسبق إلى الذهن تفرّعها على صفة صمديته .

١- لن نذكر الصفة لأنّها إمّا صفة الذات فهي عين الذات وإمّا صفة الفعل مُتترعة عن الفعل ، منه .

وأما كونه لم يلد ، فإن الولادة التي هي نوع من التجزي والتبعض بأبي معنى فسرت لا تألو من تركيب فيمن يلد ، وحاجة المركب إلى أجزائه ضرورية ، والله سبحانه صمد ينتهي إليه كل محتاج في حاجته ولا حاجة له .

وأما كونه لم يولد ، فإن تولد شيء من شيء لا يتم إلا مع حاجة المتولد إلى ما ولد منه في وجوده وهو سبحانه صمد لا حاجة له .
وأما أنه لا كفؤ له ، فلأن الكفؤ سواء فرض كفؤاً له في ذاته أم في فعله لا تتحقق كفاءته إلا مع استقلاله واستغنائه عنه تعالى فيما فيه الكفاءة ، والله سبحانه صمد على الإطلاق يحتاج إليه كل من سواه من كل جهة مفروضة .

فقد تبين أن ما في الآيتين من النفي على صمديته تعالى ، وما يتفرع عليه إلى إثبات توحيده تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله بمعنى أنه واحد لا يناظره شيء ولا يشبهه ، فذاته تعالى «بذاته لذاته» من غير استناد إلى غيره واحتياج إلى من سواه ، وكذا صفاته وأفعاله ، وذوات من سواه وصفاتهم وأفعالهم بإفاضة منه على ما يليق بساحة كبريائه وعظمته .
فمحصل السورة وصفه تعالى بأنه أحدٌ واحدٌ .

ومما قيل في الآية أن المراد بالكفؤ الزوجة ، فإن زوجة الرجل كفؤه ، فيكون في معنى قوله : تَعَلَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً ،^١ وهو كما ترى .

ثم قال سماحة الأستاذ قدس سره في بحثه الروائي في تفسير هذه السورة ما يلي :

١- الآية ٣ ، من السورة ٧٢ : الْجَنِّ : وَأَنَّهُ تَعَلَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا .

في «الكافي» بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن اليهود سألو رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: انسب لنا ربك! فلبث ثلاثاً لا يجيبهم، ثم نزلت قل هو الله أحد إلى آخرها.

أقول: وفي «الاحتجاج». عن العسكري أن السائل عبد الله بن سوريا اليهودي، وفي بعض روايات أهل السنة أن السائل عبد الله بن سلام سأله صلى الله عليه وآله ذلك بمكة، ثم آمن وكنم إيمانه، وفي بعضها أن أناساً من اليهود سألوه ذلك، وفي غير واحد من رواياتهم أن مشركي مكة سألوه ذلك، وكيف كان فالمراد بالنسبة النعت والوصف.

وفي «المعاني» لإسناده عن الأصمغ بن نباتة عن علي عليه السلام في حديث:

نِسْبَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قُلُّهُ هُوَ اللَّهُ.

وفي «العلل» بإسناده عن الصادق عليه السلام في حديث المعراج: إن الله قال له - أي للنبي صلى الله عليه وآله -: اقرأ قل هو الله أحد كما أنزلت، فإنها نسبتني ونعتي!

ثم قال العلامة: أقول: وروى أيضاً بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام ما في معناه.

... وفي «التوحيد» عن أمير المؤمنين عليه السلام: رأيت الخضر عليه السلام في المنام قبل بدر بليلة، فقلت له: علمني شيئاً أنصر به على الأعداء! فقال: قل: يا هو يا من لا هو إلا هو!

فلما أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لي: يا علي! علمت الاسم الأعظم! فكان على لساني يوم بدر.

١- «الميزان في تفسير القرآن» ج ٢٠، ص ٥٤٣ إلى ٥٤٨، تفسير سورة الإخلاص.

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَرَأَ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ». فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ : يَا هُوَ يَا مَنْ لَا هُوَ إِلَّا هُوَ ، اغْفِرْ لِي وَانصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ !
وفي «نهج البلاغة» : الْأَحَدُ لَا بَتَأْوِيلَ عَدَدٍ !
... وفي «أصول الكافي» بإسناده عن داود بن القاسم الجعفري قال :

قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام : ما الصَّمَدُ ؟

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : السَّيِّدُ الْمَصْمُودُ إِلَيْهِ فِي الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ .

أقول : وفي تفسير الصَّمَدِ معانٍ أخر مروية عنهم عليه السلام :

فَعَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الصَّمَدُ السَّيِّدُ الْمُطَاعُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ أَمْرٌ وَنَاهٍ . وَعَنْ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ . وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا يَنَامُ . وَالصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ . وَعَنْ السَّجَّادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الصَّمَدُ الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ . وَالصَّمَدُ الَّذِي أَبَدَعَ الْأَشْيَاءَ فَخَلَقَهَا أَضْدَادًا وَأَشْكَالًا وَأَزْوَاجًا . وَتَفَرَّدَ بِالْوَحْدَةِ بِلَا ضِدٍّ وَلَا شَكْلِ وَلَا مِثْلٍ وَلَا نِدٍّ .

والأصل في معنى الصَّمَدِ هو الذي روينا عن أبي جعفر الثاني عليه السلام لما في مادته لغة في معنى القصد ، فالمعاني المختلفة المقولة عنهم عليهم السلام من التفسير يلزم المعنى ، فإن المعاني المذكورة لوازم كونه تعالى مقصوداً يرجع إليه كل شيء في كل حاجة ، فإليه ينتهي الكل من دون أن تتحقق فيه حاجة .

وفي «التوحيد» عن وهب بن وهب القرشي ، عن الصادق ، عن آبائه عليهم السلام أنّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن عليّ عليهما السلام يسألونه عن «الصمد» فكتب إليهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَلَا تَخَوْضُوا فِي الْقُرْآنِ وَلَا تُجَادِلُوا فِيهِ وَلَا تَتَكَلَّمُوا فِيهِ

بَغَيْرِ عِلْمٍ ! فَقَدْ سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ . وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَسَّرَ الصَّمَدَ فَقَالَ : اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ : لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

وفيه بإسناده إلى ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال : وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ فَيُورَثْ وَلَمْ يُولَدْ فَيُشَارَكَ .

وفيه في خطبة أخرى لعلِّي عليه السلام : الَّذِي لَمْ يُولَدْ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكًا ، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونِ مَوْرُوثًا هَالِكًا .

وفيه في خطبة له عليه السلام : تَعَالَى أَنْ يَكُونَ لَهُ كُفُوٌ فَيُشَبَّهَ بِهِ .

أقول : وفي المعاني المتقدمة روايات أخرى ^١ .

وأنشده العالم الوحيد في عالم التشيع بجمعه لجميع العلوم ^٢ المرحوم الملا محمد محسن الفيض الكاشاني غزلية جميلة ورائعة واضعاً جملة لا إله إلا الله قافية لها . ولأتها احتوت جميع المعاني التفسيرية لـ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ برموز عرفانية خاصة بأصحاب الأئمة المليئة بالمشاعر وأرباب العلم والعرفان ، فما أجمل أن تأتي على ذكرها هنا بهذه المناسبة :

سكينة دل و جان لا إله إلا الله نتيجة دو جهان لا إله إلا الله

زبان حال و مقام همه جهان گوید به آشكار و نهان لا إله إلا الله ^٣

١- «الميزان في تفسير القرآن» ج ٢٠ ، ص ٥٤٣ إلى ٥٤٨ ، تفسير سورة الإخلاص .

٢- هذا الكلام لسماحة العلامة وقد نقله الحقير في كتاب «الشمس الساطعة» .

٣- يقول : «كلمة (لا إله إلا الله) تُسكّن القلب والروح ؛ كلمة (لا إله إلا الله) نتيجة ومآل

العالمين (الدنيا والآخرة) .

إنّ لسان حال ومقام كلّ العالم يقول (لا إله إلا الله) سرّاً وعلانيةً .

به گوش جان رسدم این سخن به هر لحظه
 ز جزو جزو جهان لا إله إلا الله
 ز شوق دوست به بانگ بلند میگوید
 همه زمین و زمان لا إله إلا الله
 تو گوش باش که تا بشنوی ز هر ذره
 چو آفتاب عیان لا إله إلا الله
 همین نه مؤمن توحید میکند بشنو
 ز سومنات مغان لا إله إلا الله
 نوشته‌اند به گرد عذار مغیجگان
 به خط سبز عیان لا إله إلا الله
 جمال و زیب بتان ، غمزه‌های معشوقان
 به رمز کرد بیان لا إله إلا الله
 به گلستان گذری کن به برگ گل بنگر
 ز رنگ و بوی بخوان لا إله إلا الله^۱

۱- يقول : «تسمع روجي نداء (لا إله إلا الله) في كل لحظة من من جميع العالم. إن المكان والزمان جميعاً يصرخان (لا إله إلا الله) من شدة شوقهما إلى الحبيب. انصت و اسمع كلمة (لا إله إلا الله) من كل ذرة (بصورت جهوري) و واضح كالشمس الساطعة.

اعلم أن ليس وحده المؤمن ينادي بالتوحيد ؛ فاستمع إلى كلمة (لا إله إلا الله) سومنات الزردشتية (وهو معبد في الهند كان فيه صنم معلق بين السماء والأرض).
 إن كلمة لا إله إلا الله مكتوبة على شوارب غلمان المعبد.
 إن جمال الأصنام وزينتها وغمزات المعشوقين ؛ كلها (نطقت) مُبَيَّنَةً بالرموز كلمة (لا إله إلا الله).

مُرَّ على حديقة الأزهار وتأمل أوراق الزهور ؛ وقرأ من خلال عطرها ولونها ⇨

به باغ بنگر و آثار را تماشا کن
 شنو ز سرو روان لا إله إلا الله
 گذر به کوه بکن یا برو به دریا بار
 شنو ز گوهر و کان لا إله إلا الله
 به بُر و بحر گذر کن به خشک و تر بنگر
 شنو ز این و ز آن لا إله إلا الله
 به گوش و هوش تو آید به هر طرف که روی
 اگر چنین و چنان لا إله إلا الله
 بکن تو پنبه غفلت ز گوش و پس بشنو
 ز نطق خرد و کلان لا إله إلا الله
 به فکر «وَحَدِّتِ هُو» رو به ناله بم و زیر
 بر آرزو ته جان لا إله إلا الله
 همین نه ورد زبان کن ، ز جان و دل میگوی
 به ناله و به فغان لا إله إلا الله^۱

☞ کلمة (لا إله إلا الله) .

۱- يقول : «انظر إلى البستان وتفرج على الآثار ؛ واسمع من شجرة السرو العالية كلمة (لا إله إلا الله) .

مُرَّ على الجبل أو اذهب إلى ساحل البحر ؛ واسمع من الجواهر والمعادن الثمينة كلمة (لا إله إلا الله) .

مُرَّ على البرّ والبحر وتاملّ اليابس والرطب ؛ واسمع من الجميع ؛ كلمة (لا إله إلا الله) .
 ستسمع بأذنيك وعقلك أينما اتجهت ؛ كلمة (لا إله إلا الله) .

أخرج من أذنيك قطنة الغفلة ثم اسمع ؛ كلمة (لا إله إلا الله) من لسان العاقل والكبير .
 اصعد وانزل وفكر (بوحدة هو) ؛ واطلق من أعماقك صرخة (لا إله إلا الله) .

لكن كلمة لا إله إلا صادرة من قلبك وروحك لا بلسانك فقط ؛ قلها بحرارة وشوق» .

سرود اهل معاصى است نغمه دف و چنگ
 سرود مستقيان لا إله إلا الله
 سحر ز هاتف غييم ندا بگوش آمد
 كنه أيها الثقلان لا إله إلا الله
 میان صوفی و پیر مغان سخن میرفت
 چه گفت پیر مغان؟ لا إله إلا الله
 ز پیر میكده كردم سؤالی از توحيد
 به باده گفت بدان لا إله إلا الله
 به گفتن دل و جان فیض اقتصار مكن
 بگو به نطق و زبان لا إله إلا الله^١

وهكذا ، وبعد أن تعرّفنا ولله الحمد والمِنَّة ، على هويّة الحقّ تعالى شأنه العزيز وذلك باقتباس بعض الدراية والعلم ولو بإيجاز من سورة التوحيد ، نرى لزاماً هنا إيراد بحث مقتضب في كفيّة معرفته تعالى عن طريق العقل والتفكير ، أو عن طريق الشهود والوجدان حتّى يتمّ وضع

١- يقول : «إنّ نشيد أهل المعاصي (يتمثّل) بنغمات الدفّ والقيثار ؛ ونشيد المتّقين كلمة (لا إله إلا الله).

جاءني نداءً من هاتف الغيب في السّحر ؛ أن يا أيّها الثقلان ! : (لا إله إلا الله).
 كان الصوفيّ والشيخ الكبير يتبادلان الحديث : فماذا قال الشيخ الكبير ؟ (لا إله إلا الله).

سألْتُ شيخ الحانّة عن التوحيد ؛ فقال مُحدّثاً الخمره ؛ اعلمني أنّه (لا إله إلا الله).
 لا يكن كلامك ، يا فيض ، مقتصراً على حديث القلب والروح ؛ بل قل بلسانك وفمك :
 (لا إله إلا الله)».

«كليات أشعار مولانا الفيض الكاشاني» مع مقدّمة ومقابلة لمحمد بيمن ، ص ٣٧٢.

المعالم لكلّ من الطريقتين وتعيين مسار كلّ منهما ومقدار ومجال تطبيق كلّ من هذين المنهجين على حدة :

السبيل إلى معرفة الله عن طريق البرهان والعقل والفلسفة :

يعتقد البعض أنّ على الإنسان السير قُدماً في سبيل التفكير والتفكير إذا ما أراد التعرف على الحق المتعال ومعرفته . فعليه أن يفكر في الموجودات ، وينظّم مبادئ معيّنة على أساس من البرهان حتّى يتمكن من إيجاد الله . ويُدعى هذا المذهب بمذهب الإدراك فالإنسان يصل إلى النتيجة من خلال جمع المقدمات الضرورية المعلومة وتجميعها إلى بعضها البعض الآخر . ولا ريب أنّ تلك النتيجة الحاصلة هي معرفة الله والتعرف عليه عن طريق التفكير والملاحظة والتعقّل .

فنقول مثلاً : إنّ هذا العالم مُتغيّر ، ولأنّه متغيّر فهو حادث ؛ لأنّ أيّ موجود لا يمكن له أن يكون قديماً إذا لم تكن ذرّاته ثابتة . وعلى هذا الأساس فإنّ هذا العالم - الذي هو أحد الأعضاء الكبار في عائلة هذه القضية الكليّة - حادثٌ لا محالة .

ولا جرم أنّ الحادث محتاج إلى مُحدث ؛ والمُتغيّر المُتحرك في حاجة إلى مُغيّر مُحرّك ؛ إذن فيجب وجود موجود قديم أزليّ يكون بمثابة المُغيّر المُحرّك حتّى يتمّ لهذه الموجودات المتغيرة والمتحرّكة والحادثة والممكنة الارتباط والاتّصال به .

كما هو الحال في مواجهة سيّدنا إبراهيم عليه السلام لقومه :

قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ أَتَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ
عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ *

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا
وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَأَجْعَلْنِي
مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^١

إن الاحتجاج الذي واجه إبراهيم به قومه كان احتجاجاً مشفوعاً
بالدليل والبرهان حيث قال أولاً: إن الآلهة التي تعبدون لا يستحقون صفة
الألوهية، لأنهم لا يسمعون نداءكم ولا يستجيبون لكم، وهم آلهة
لا تنفعكم ولا تضرّكم .

وعلى هذا فإنّ عبادة آلهة كهذه ليست غير نافعة، بل ومُضرة كذلك،
فهي عدوّ للإنسان إذ تحاول منعه من السير في طريقه إلى الله تعالى .
وثانياً، إنّ الإله الذي ليس عدوّ لي هو الله ربّ العالمين؛ لأنّه مَنْ
عَلَيَّ وما يزال يمنّ بأنواع وألوان الخدمات والمحبة والرحمة والآلاء
والمِنن؛ فهو الذي خلقني، وهو الذي أراني سبيل الكمال وهداني إليه،
وطعامي وشرابي بيده هو، وشفائي من الأمراض والعلل لا يكون إلاّ منه،
وموتي وإحيائي وبعثي ثانية كلّها تتمّ بقدرته . وهو مآلي وموئلي الذي يؤمّن
لي غفران خطاياي وآثامي .

وثالثاً، فهو يسمع أدعيتي التي أدعوه بها ومن ثمّ يستجيب لي،
ومنه أطلب الحكم لا من غيره، وأرغب في أن يلحقني بالصالحين
ويحشرني معهم . وهو أملي الذي يمنحني لسان الصدق ويهب لي كلمة
الحق في معشر الأطهار والمُقرّبين والمُخلصين من الآخرين . وهو المرجوّ
في إسكاني جنّة الخلد وتوريثي النعيم كأجر وثواب لي على ما عملته في

١- الآيات ٧٥ إلى ٨٩، من السورة ٢٦: الشعراء .

دنياي .

ورابعاً ، أسأله أن يغفر لعمّي الذي ضلّ طريق الحقّ ، فهو الذي يملك مقاليد المغفرة والعفو مع كلّ ما أحصيته من نِعَم .

إنّ حديث إبراهيم عليه السلام هذا ينطوي بمجموعه على كلّ صغيرة وكبيرة في قضايا البرهان والتي يعتقد بها و يؤمن بمبادئها ويحاول دعوة قومه إليها وإقناعهم إلى الاعتقاد بها والإيمان بالله تعالى .

ونحن نقول : إنّ آية ذرّة من ذرّات العالم مهما صغرت لا يمكنها أن توجد لوحدها على أساس حساب الاحتمالات . هل يمكننا أن نحتمل ولو بنسبة واحد في المليون أنّ هذا المصحف الذي نضعه أمامنا ونتلو من آياته كلّ يوم ما تيسر قد وُجِدَ وحدث لوحده وب نفسه بهذه الصورة وتلك الكيفيّة ؟

ولو استثنينا الأصل ورقه الذي هو إمّا أن يكون مصنوعاً من الخشب أو القطن أو ألياف أخرى ، أو من بذور نبات القطن أو بذور الشجر أو من نسج لعاب دودة القزّ وغيرها التي أصبحت بعد ذلك على شكل خيوط قطنيّة أو خشب جذع الشجر أو حرير من شرنقة دودة القزّ وأمثالها ؛ ثمّ تُحوّل إلى عجينة وتُرسل إلى المعامل التي تُصنّعها بدورها إلى ورق يُقطع بعدها ويُحضّر للطبع ؛ كلّ ذلك يحصل بصورة دقيقة جداً وتتدخل فيه مخلوقات وعوامل لا تعدّ ولا تحصى ، ولا يُحتمل الخطأ أو الاشتباه في آية مرحلة من تلك المراحل ، فما بالك مع ما لا يحصي عدده من الخلائق المُبدعة إلّا علام الغيوب ؟

ولو اجتزنا ذلك بما فيه من عمليّة طبع وتنضيد حروف والإيمان بأنّ احتمال الصدفة والحظّ فيها إنّما هو جنون محض وكلام أهوج ، ونظرنا تحديداً إلى عمليّة التجليد وتنظيم الصفحات بعضها فوق بعض ، من أول

صفحة فيه إلى آخرها والتي قد تبلغ مثلاً ستمائة صفحة ، فهل من المنطقي أن نحتل أن هذا المصحف وبعد خروجه من المطبعة وخزنه في مكان معين ، تحوّل فيه فجأة شكل الصفحة الأولى من الحالة العمودية وهي ما كانت عليه بعد خروج المصحف من المطبعة إلى شكل أفقي وبصورة صحيحة غير مغلوبة ثم استقرت في الجهة اليمنى له ؟ وهكذا الحال أيضاً مع الصفحة الثانية التي جاءت واستقرت إلى جانب الأولى . ثم انقضت فترة ما وهبت ريح دفعت الصفحة الثالثة وأقامتها بجانب الصفحة الثانية بالصدفة .

ثم هبت رياح أخرى بالتناوب وأدت إلى ترتيب صفحات عدّة من المصحف وتنظيمها بصورة صحيحة . ثم انتظمت صفحات أخرى من المصحف نتيجة زلزال وقع وأدى إلى ذلك ، وهكذا وقعت عدّة عوامل طبيعية على هذا المنوال وحدثت عدّة أمور إلى جانبها حتى انتظم المصحف مصحفاً كاملاً مرتّب الصفحات بشكلٍ دقيق .

وأخيراً حدث أن استقرّ جلده عليه بنفس الأسلوب الذي أدى إلى حدوث كلّ تلك الوقائع ، ثم سقط مَخِيطٌ وقليل من الخيط من بين الثغور في سقف المخزن ، وشرعنا بخياطة الجلد وضمّمه إلى صفحات المصحف الأخرى حتى غدا قرآناً كالذي نشهده ونطالع فيه .

لسنا الآن في صدد بيان بُعد حوادث الصدفة كهذه بحساب الاحتمالات ، وإلا لرأيتم أن أيتاً من الاحتمالات المفروضة لا يملك نسبة واحد في المليون أو حتى في المليار لحدوثها أبداً ، بل ولا حتى نسبة واحد من واحد وأمامه مليار صفر !

نعم ، كانت هذه واحدة من طُرُق الاستدلال والبرهان على عدم حدوث الصدفة للكائنات ، وهو ما يمكن الوصول من خلاله إلى وجود العلة بواسطة

المعلول ، وإلى المجهولات بواسطة المقدمات المعلومة .
يُدعى مثل هذا البرهان بـ **برهان الإنّ** .

ففي عملية الاستدلال على واجب الوجود ولوازم آثاره يجب أن يكون هذا البرهان قوياً إلى حدّ يمكن الوصول من خلاله إلى جميع صفات الحقّ تعالى وأسمائه وأفعاله ، وتبيان كيفية إحاطتها وسيطرتها وعدم تناهيتها .

إنّ طريق الاستدلال هذا صحيح ويمكنه إيصالنا إلى نتيجة اللهم إلا إذا كانت إحدى مقدماته مغلوطة أو غير دقيقة ، ففي تلك الحالة ستكون نتيجة البرهان خاطئة ، وذلك لأنّ نتيجة التابع ستكون من نوع «أخس المقدمتين» ، وكون إحدى مقدماته صحيحة لا يعني كونه صحيحاً ، بمعنى أنّه لو كانت مقدّمة من المقدمات مغلوطة فإنّ نتيجة البرهان ستكون مغلوطة كذلك .

والبرهان عبارة عن تنظيم المقدمات والحصول على نتيجة ما منها .
تماماً كما في الرياضيات والهندسة ، وقولنا : $2 \times 2 = 4$. وتُدعى هذه القاعدة بقاعدة اللاتغيّر واللاتبدّل .

ولو تساوى مثلثان في ضلعين وزواية بينهما ، أو في زاويتين وضلع ، أو تساوت فيهما الأضلاع الثلاثة ، فإنّ المثلثين يكونان متساويين . هل من أحد قادر على إنكار ذلك ! ولو فرضنا أنّ أحدهم أنكر ذلك فسيقال له :
هاك قلم وورق ! جرّب ذلك بنفسك !

وقوام الرياضيات الأعداد ، وقد مرّت هذه الأعداد بسلسلة من المراحل ليس بالإمكان نكرانها ؛ وذلك لأنّ النتائج التي تلتها هي إدامة للنتائج التي سبقتها وهي قائمة على أساسها . تُشبه سلسلة من الحلقات يتّصل بعضها ببعض .

ونفس الشيء يُقال عن العلوم الفلسفية؛ فهم يقومون بوضع مقدمة ما ثم يلحقونها بأخرى ثم يستتجون من ذلك ما يريدون. وهم مضافاً إلى ذلك يُعيّنون لنا المقدمة الصحيحة ويُميّزونها عن الخاطئة.

والآن، فلو قمنا بوضع مقدّمة غير صحيحة لأية مسألة وحصلنا على نتيجة باطلة، فذلك ليس ذنب العلم، بل ذنبنا نحن. وهذا العلم هو المانع لنا من ذلك.

وبناء على ما قيل، أصبح واضحاً أنّ الإنسان لو اتكأ على الفلسفة والحكمة واعتمد عليهما في الإلهيات، فإنه سيُدرك تماماً وجود الله وحده وحسب في عالم الوجود. الله البصير والسميع والعليم والحيّ والقادر؛ ولا نهاية أو حد لبصره وسمعه وعلمه وحياته وقدرته. وذاته كذلك لا متناهية؛ فهو محيط بجميع الموجودات وهو الخالق لهذا العالم الذي يتصل به وتربط بينهما آصرة قوية. وهو مع العالم، فلا تخفى عن بصره ذرة منه أبداً. كلّ ذلك يُثبت لنا:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.^١
وأيضاً:

وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.^٢

ولقد قام كبار اللاهوتيين بالاستدلال وإثبات ذات غاية الغايات ومبدأ المبادئ بطريق الفلسفة والبراهين الحكيمية القائمة على أسس ودعائم منطقيّة. والحقّ أنّهم بذلوا جهوداً جبّارة في هذا المجال وعانوا

١- الآية ٥، من السورة ٣: آل عمران.

٢- ذيل الآية ٦١، من السورة ١٠: يونس.

الكثير من أجله ، وسهروا وارتاضوا وذاقوا المرّ طوال سني حياتهم .
لقد مضى علماء كبار قاموا بمحاربة الملحدين والجاحدين والمادّيين
والطبيعيين والشكّاكين والسوفسطائيين في كلّ زمان ومكان حتّى تمكّنوا
من إثبات التوحيد الحقّ بالبراهين الفلسفية إلى العالم أجمع ؛ وإلا لكان
الشرك وعبادة الأصنام عمّا الدنيا كلّها .
إنّ أفلاطون وأرسطو وبُقراط وسقراط وغيرهم كانوا من كبار العلماء
المتألهين . وابن سينا والفارابي^١ .

١- ورد في كتاب «روضات الجنّات» ج ٧ ، ص ٣٢٤ إلى ٣٢٦ ، طبعة دار المعرفة ،
ضمن ترجمة لمحمد بن طرخان أبي نصر الفارابيّ كلام عن المحدث النيسابوريّ في تكفير
المُترجم ، ثمّ ورد كلام للقاضي نور الله الشوشتريّ في عظمة مقامه وجلاله . ولمّا كان كلا
الكلامين جديراً بالمطالعة لذا ارتأينا نقل نصّهما هنا للفائدة:
«ثمّ إنّ في كتاب «المنية» للمحدث النيسابوريّ نقل كلام يناسب درج هذا المقام عن
الرسالة الفارسية التي كتبها مولانا محمد طاهر القميّ في بطلان طريقة الفلاسفة والطبيعيّة
 وخروجهم عن المراسم الدينيّة والشرائع الإسلاميّة ، وكذلك البسطاميّة والحلاجيّة من
الصوفيّة الكشفيّة والكراميّة وهو في ذلك الكتاب بهذه الكيفية من السؤال والجواب:
بيّنوا لنا زمان وسبب ظهور وشيوع المذاهب الفاسدة والباطلة للفلاسفة بين أهل
الإسلام . بيّنوا تُوجروا!

الجواب : هو المُعين والمُوفّق . اعلم رحمك الله أنّه لم يكن للفلسفة وجود بين أهل
الإسلام قبل عهد المأمون بن الرشيد . وذكّر في كتاب «رشف النصائح» أنّه وقع كتاب من
كتب الفلاسفة بيّد أبو مرّة الكنديّ في الشام فأتى به إلى عبد الله بن مسعود الصحابيّ . فدعى
ابن مسعود بطست وماء ثمّ وضع فيه ذلك الكتاب حتّى زال مداده وانمحي .
ولم تظهر آثار لكتبهم حتّى زمان المأمون الذي رأى أرسطو في منامه وأخذ من كلامه
الكثير . فبعث برسول إلى بلاد الإفرنج وطلب من ملكهم بعض كتب الفلاسفة . فجاء بتلك
الكتب إلى بلاد الإسلام وطلب من المترجمين نقل تلك الكتب إلى لغة الضاد . ولمّا كانت
دراسة تلك الكتب ومطالعتها تُقرّب دارسيها إلى الخليفة قام أهل السنّة بدراستها ⇨

«والبحت فيها بتعمق وصبر أملاً في نيل رضى الخليفة والحصول على جوائزه المغرية وقضوا في ذلك أوقاتاً طويلة، وبالأخص أهل السنة من سكان ما وراء النهر الذين كان شعارهم البؤس.

وقد بالغ اثنان منهم -وأعني الفارابي وابن سينا- في نشر كفر الفلاسفة وترويج مذهبهم وبذلوا جلّ جهدهم في ذلك؛ ويُسمّى أهل السنة الفارابي بـ«المُعَلِّم الثاني» وابن سينا بـ«الشيخ الرئيس». ولا يخفى على أهل البصيرة أنّ السبب في خبط دماغ هؤلاء وسقم عقولهم وفساد أفكارهم يعود إلى أقوال الفلاسفة السخيفة والضعيفة والباطلة والمتفلسفة.

وقال مولانا النفيسي أحد أعظم الأطباء وأفضلهم في كتاب «شرح الأسباب» إنّ الفارابي كان مُصاباً بمرض السوداء (المَلَنخوليا) ونقل أنّ كثيراً من الفلاسفة كأفلاطون وأمثاله كانوا مصابين كذلك بهذا المرض. وكان ابن سينا كما يروي المؤرخون معروفاً بمعاقرة الخمر، وروى أصحاب الفارابي وأتباعه أنه كان يُحسن العزف وقيل إنّه كان يضرب على العود بحيث يجعل الحضور يغطون في نوم عميق في حين كان يظّل هو مستيقظاً. وهذا جدّ طريف أن يروي أصحابه عنه هذا الفسق ويحسبونه من كمالاته -إلى آخر ما نُقل عنه في تسوية هذا المرام بتحرير الطارفة من الكلام.

وقال صاحب «مجالس المؤمنين» بعد إيراد سمته بعنوان الحكيم الرباني والمُعَلِّم الثاني: محمّد بن طرخان الفارابي قدس سرّه هو مُعَلِّم مقالات أهل اليونان، ومُتمّم كمالات نوع الإنسان، الطائر الشاهق الطيران في عالم النفوس والعقول، السائر في منازل العروج ومراحل الوصول، فيأض المعارف والعلوم، مسلم فارس والروم، مُزَيّن صحائف الليل والنهار، مُباين حقائق السبعة والأربعة، مُنكر آثار التكلف والتصلّف، مُظهر أنوار الإشراق والتصوّف. كان أوّل حكيم من فلاسفة الإسلام جلس على كرسيّ الترجمان، ناقلاً علم الحكمة من اللغة اليونانية إلى العربية حتّى لُقِبَ بـ«المُعَلِّم الثاني». قال صاحب كتاب «تاريخ الحكماء» إنّ أباه كان صاحب خيل وخدم وحشم. وهو فارسيّ الأصل -إلى أن قال:

ولا يخفى أنّ علماء أهل السنة والجماعة بما فيهم حجّة الإسلام الغزاليّ (قبل اعتناقه مذهب الإمامية الحقّ) كَفَرُوا الفارابيّ. وظاهر هذا التكفير هو وجودهم لكلام له في كتبه التي كانت أغلبها ترجمة لكتب حكماء اليونان ينمّ عن القول بِقَدَمِ العالَم وإنكار المعاد «

والخواجة نصير الدين الطوسي والحكيم الملا صدرا الشيرازي بذلوا جهوداً جبّارة وتحملوا مشاقاً ومصائب جمّة .

ألم يأمر «سيراكوس» في عهد الحاكم الدنيء والوضيع المسمّى «ديونيسوس» ببيع أفلاطون الحكيم في سوق النخاسة؟ حتى قام أحد أصدقائه بدفع فدية عنه واشتراه ووهب حرّيته ثانية. ثمّ صمّم ابنه وخليفته «ديونيسوس الصغير» بعده على إنزال أنواع البلايا على رأس أفلاطون والتنكيل به حتى يكون عبرة لمن بعده، واستطاع الفيلسوف النجاة من تلك المصيبة مرّة أخرى. حتى صمّم أخيراً على قتله فنجى هذه المرّة كذلك بأعجوبة بمساعدة أحد تلاميذه الأوفياء المخلصين.^١

ألم يُكفروا ابن سينا، فأنشد هذه الرباعيّة:

كفر چو منی گزاف و آسان نبود

محکمتر از ایمان من ایمان نبود

در دهر چو من یکی و آنها کافر

پس در همه دهر یک مسلمان نبود^٢

﴿ الجسمانيّ وأمثال ذلك. والحقّ أنّهم لم يعوا ما قصده في تلك التصانيف، فظنّوا أنّه قال ذلك الكلام عن اعتقاد منه به مع أنّ رسالة «الفصوص» المنسوب إليه يُظهر خلاف ذلك.

ثمّ إنّ رحمة الله استدّل على تشييع الرجل بصلاة السلطان المبرور المذكور على جنازته في بضعة من الفضلاء الأجلّة، وقال: إنّهُ لم يُرد بذلك إلّا إيقاعها على طريقة الشيعة الإماميّة، وما كان يمكنه بهذا الوجه إلّا في مقام الخلوّة؛ والظاهر أنّه كان بمقتضى وصيّة لهم بذلك. والله أعلم بسرائر الأمور- انتهى كلام صاحب المجالس».

١- «الإمام عليّ، صوت العدالة الإنسانيّة» لجورج جرداق، ص ١٧ و ١٨، فصل (عليّ وحقوق الإنسان).

٢- يقول: «إنّ كفر مثلي ليس سهلاً ولا جزافاً، فليس من أحد له إيمان ثابت كإيماني.

لم يلد الدهر مثلي أبداً، فإن كنت كافراً فإنّ أحداً في الدهر لم يكن مسلماً».

ألم يُقَلُّ أستاذ البشر والعقل الحادي عشر الخواجة نصير الدين الطوسي :

نظام بي نظام ار كافرم خواند چراغ كذب را نبود فروغی
مسلمان خوانمش زیرا كه نبود مكافات دروغی جز دروغی^١
ألم يُكفِّروا المَلّا صدرا، المُنجي الأوحد للدين والعلم والحقيقة
من دوامة الهلاك والضلالة الوارد على الشريعة، وشَرِّدوه حتى آخر
عمره؟^٢

ألم يُكفِّروا العالم الأوحد والجامع البارِع والفقير العارف ذرة
زمانه وعصره المَلّا محمّد محسن الفيض الكاشاني؟ ألم يُجبروا المَلّا
محمّد طاهر القميّ على المجيء سيراً وحافياً من قم إلى كاشان ليقرّ بالذنب
ويتوب ويعتذر، إلى أن وصل إلى باب داره وأنافه، فنادى: يَا مُحْسِنُ! قَدْ

«روضات الجنّات»، ج ٣، ص ١٧٩؛ طبعة دار المعرفة - بيروت؛ وقال: إن أكثر فقهاء
العامة في عصره قاموا بتكفيره.

١- يقول: «إذا دعاني «النظام» الذي لا نظام له ولا قانون واتّهموني بالكفر؛ فإنّ سراج
الكذب لا نور له ولا ضياء.

وأنا كذلك سأدعوه مسلماً مع أنّه ليس كذلك؛ فالكذب لا يُقابله إلا الكذب».

«ريحانة الأدب» ج ٢، ص ١٧٩، باب خ و ا.

٢- جاء في «روضات الجنّات» ج ٤، ص ١٢١ طبعة دار المعرفة، ضمن شرح
وترجمة أحوال المَلّا صدرا:

«ويوجد في غير واحد من مصنّفاته المذكورة كلمات لا تلائم ظواهر الشريعة، وكأنّها
مبنيّة على اصطلاحاته الخاصّة أو محمولة على ما لا يوجب الكفر وفساد اعتقاد له بوجه من
الوجه؛ وإنّ أوجب ذلك سوء ظنّ جماعة من الفقهاء الأعلام به وبكُتبه بل فتوى طائفة
بكفره. فمنهم من ذكر في وصف شرحه على «الأصول»: شروح «الكافي» كثيرة جلييلة قدرأ؛
وأول من شرحه بالكفر صدرا هذا».

أَتَاكَ الْمُسِيءُ؟!^١

ألم يَطْرُدْ مَرَجِعَ التقليد المطلق في زمانه آية الله العظمى السيّد أبو الحسن الإصفهانيّ العالم الفقيه والعارف الوارف والحكيم المُدرّس لـ «الأسفار» و«الشفاء» في النجف الأشرف ، أعني المرحوم السيّد حسن الإصفهانيّ إلى مَسَقَطٍ غريباً وحيداً مُضْطَهَداً ، وهو الذي كان أعلى طلاب وتلاميذ آية الحقّ وسند العرفان والولاية الإلهيّة الحقّة المرحوم الحاجّ ميرزا علي الآقاي قاضي درجة وأكثرهم حرصاً على الدين وآمنهم على الشريعة ، فحُرِمَتِ النجف - وإلى يومنا هذا - من علوم المعقول والدروس الرسميّة للمعارف والأخلاق والحكمة والفلسفة . وأحال النجف العامرة والغنيّة بالإحساس إلى ما هي عليه اليوم وسلّمها إلى زاوية الجذب والخراب والجمود وقصور المعقولات؟!

ألم يواجه الحكيم الأوحد والفقيه المفسّر والعالم بالحديث والخبر والدراية ، أستاذنا آية الحقّ المطلقة في عصره وربّما في العصور القادمة ، العلامة آية الله الحاجّ السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ أعلى الله مقامه

١- قال في «الروضات» ج ٦ ، ص ٨١ ضمن شرح وترجمة أحوال المآل محمّد محسن الفيض الكاشانيّ :

«ومن جملة مَنْ كان يُنكر عليه أيضاً كثيراً ، من علماء زمانه هو الفاضل المحدث المقدّس المولى محمّد طاهر القميّ ، وصاحب كتاب «حجّة الإسلام» وغيره . وإن قيل إنّه رجع في أواخر عمره من اعتقاد السوء في حقّه ، فخرج من قمّ المباركة إلى بلدة كاشان للاعتراف عنده بالخلاف والاعتذار لديه بحُسن الإنصاف ماشياً على قدميه تمام ما وقع من البلديّين من المسافة إلى أن وصل إلى باب داره وأنافه ، فنادى : يا محسنُ قد أتاك المُسيءُ ! فخرج إليه مولانا المحسن وجعل يتصافحان ويتعانقان ويستحلّ كلّ منهما من صاحبه . ثمّ رجع من فورهِ إلى بلده ، وقال : لم أرِدْ من هذه الحركة إلّا هضم النفس وتدارك الذنب وطلب رضوان الله العزيز الوهّاب» .

الشريف ، وهو ، باعتراف المخالف والمؤلف والصدیق والعدو ، صاحب الفكر العميق والعقل الواعي السديد ، والمدافع الوحيد للإسلام والتشيع والتوحيد ، ألم يُواجه ما واجهه من المشاكل وعاناه من الشدائد لمجرد الدعوة إلى الله والإعراض عن الزخارف المادية والشهوات الدنيوية التي غاص فيها عباد الدنيا والمُتملقين لها ، والخَطوَ بجد وثبات نحو تربية الطلاب وإفهام وتعليم العلوم الإنسانية الحقّة ؟ ألم يصل به الأمر إلى أن قال :

إنّ ما حصلنا عليه من ثَمَرٍ من هذه النهضة الدستورية والحريّة والميل إلى الغرب والعبث واللامبالاة التي جاءتنا من جانب الكفار ، هو نسخ قتل الدراويش والحريّة النسبية في الكلام العرفاني والتوحيدي . وإلّا لرأيتم اليوم كذلك قذف السالكين طريق الله بالتهمة وتعريضهم للقتل والإغارة وعمليات الإعدام^١ .

وبالجملة ، فقد عانى حكماء الإسلام كثيراً وتحملوا أكثر ، فقرّبوا بذلك الطريق وعَبَدُوا لنا السبل ، وأعطوا مذهب التوحيد سمته الخاصّة ووضعوا له الأسس التي ميّزته عن غيره .

كلّ ذلك صحيح وعلم ؛ وهو يختلف عن الفرضيّة التي يخترعها الإنسان في يوم واحد على أساس مقدّمة في القياس ، فيثبت بواسطتها أمراً ، ثمّ تتغيّر تلك الفرضيّة وتحلّ محلّها أخرى فتفسد النتيجة الأولى ؛ فهذه الأخيرة ذنب ومعصية وليست علماً ؛ لأنّ الفساد ناتج عن بطلان الفرضيّة ؛ وما ليس مرتبطاً بالفرضيّات بل محسوب على أنّه من داخل علم

١- «الروح المجرد» في ذكرى الموحّد العظيم والعارف الكبير الحاج السيّد هاشم

الموسوي الحدّاد .

الفلسفة ، سواء أكان قد جاء به أفلاطون أو أرسطوطاليس أو ابن سينا أو الفارابي أو بهمنيار أو ابن رُشد أو صدر الدين الشيرازي أو الخواجه الطوسي ، ثابت إلى يومنا هذا ؛ وهو لا يقبل الإبطال ولا ينصهر في بوتقة الإنكار . كان ذلك مذهباً من المذاهب ومنهجاً من المناهج .

مذهب العرفان والشهود أعلى من كل المذاهب :

إنّ هذا المذهب المبنيّ على أساس الرؤية القلبية والمشاهدة الوجدانية لا يقول بأنّ مذهب الحكمة و الفلسفة مذهبٌ باطل ، بل يقول بأنّ هذا موطن آخر ومُقام مختلف ، مقامٌ أعلى وأسمى حيث يمثّل فيه القلب العلوم ووارداته .

إنّ محلّ العلوم الحاصلة من الفلسفة والحكمة هو الذهن ، ومكانه الدماغ . وبإمكان الإنسان معرفة الله عن بُعد بواسطة هذا المذهب . فهو مثلاً يُريد الوصول إلى حقيقة الشمس وهو جالس على الأرض ، ويرى الأمواج الحاصلة فيها . نعم ، إنّه يرى لكنّه يفعل ذلك وهو في حالة الغفلة والبُعد ؛ وفي حالة الأثر والخصيصة لا في حالة الواقع والحقيقة .

إنّ مذهب الفلسفة هو مذهب المحاسبة والمعادلة ، أي الذهن الذي هو محلّ التفكير .

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .^١
إنّ البحث والدعوة بالحكمة معناه البحث على أساس من الحقائق والواقعيّات ؛ والمجادلة بالتي هي أحسن تعني ترتيب القياسات المنطقيّة الصحيحة واستخدام البرهان الفلسفيّ ، وطرح الاعتباريّات والمغالطات

١- الآية ١٢٥ ، من السورة ١٦ : النحل .

وطريقة الخطابة وما إلى ذلك. ولا جَرَم أن مذهب ومنهج الرسول صَلَّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وباقي الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هو مذهب برهاني عقلي قوي، وهو مضافاً إلى ذلك منهاج فلسفي عجيب و غريب. إنَّ مَنْ يُلقِي نظرة على تلك الطريقة ويتعرّف على ذلك النهج يستنتج في الحال أن بحوثهم ومجادلتهم مع مناوئهم وخصومهم كانت كلها تستند على أساس المقدمات الفلسفية؛ وكانوا يُفحمون المقابل باستخدام القوى العقلية والفكرية، فكان الخصم يُغلب لا محالة وهو كظيم.

وللإمام الصادق عليه السلام رئيس المذهب الجعفري ومؤسسه، تلاميذ كان يقوم بتدريبهم وتربيتهم على المجادلة والمناقشة على أساس المنطق واستخدام الصحيح من الصغرى والكبرى عند العمل بالقياس في مقابل الكفار والمعاندين والمادّيين وحتى المخالفين من العامة.

وهشام بن الحكم كان أحد العارفين بالمذاهب والفلسفة. لكننا نراه منقاداً وخاضعاً في مقابل الإمام الصادق ومطيعاً له، وكان الإمام عليه السلام بالمقابل يقوم بتعزيز وتشديد أسسه وتقوية مقدراته بنفس البرهان المنطقي ذلك.

وكذا كانت مباحثات ومناقشات الإمام الرضا عليه السلام مع العلماء غير المسلمين، ومع المسلمين العاميين المسلك على السواء، كلها تستند إلى البرهان والعقل؛ ولم يكن يقول لهم: إنَّ قلبك يؤمن بوجود الله، فلا حاجة إلى البحث في ذلك معك!

فلو قال لهم ذلك لأجابوه: إنَّ قلبك يؤمن بما ينفعك أنت؛ أمّا نحن

فلا ... !

هل سمع أحدكم أو قرأ أن نبياً أو إماماً أحال المشركين أو علماءهم إلى العلم الوجداني والشهودي قائلاً لهم: بما أنني أعلم أن الله موجود

وإنني نبيّه ورسوله ، فعليك أنت كذلك أن تؤمن بذلك وتقبله ... ! هذا يسمّى تحكيماً ؛ والتحكيم مردود ومرفوض في أيّ مذهب ومدرسة لاهوتية ، بل حتّى بين الشعوب المتوحّشة . في حين نرى أنّ أيّ أمر أو مسألة تكون مقبولة وصحيحة إذا كانت ناتجة عن البرهان والمنطق .

لقد كانت سلسلة الدروس التي كان يُلقِيها الإمام الصادق عليه السلام خلال فترة ثلاثين سنة من نشر العلوم ودرس وتعليم وتربية في مدينة رسول الله في بستانه الخاصّ تستند كلّها إلى البراهين المنطقية والأدلة العقلية والمسلمات ومسائل الحكمة التوحيدية ؛ ممّا حدا مثلاً بابن أبي العوجاء ، وهو أحد المؤمنين بالمذهب المادّي والطبيعيّ ، إلى القول : إنني لا أملك إلا أن أكون خاضعاً خاشعاً في دروس هذا الرجل ، ولا أستطيع التكلّم ببنّ شفة وأنا أستمعُ دروسه ، وأراني عاجزاً عن التقدّم (في حُجّتي ومجادلتي) خطوة واحدة . فلو كان للإنسان وجود لانهصر في هذا الرجل ؛ ولكان جميع من سواه في عداد الأنعام !

وبالطبع فإنّ وجود مثل هذا المذهب لازم وضروريّ ؛ والمطلوب من جميع علماء الإسلام التسلّح بهذا البرهان القويّ والمنطق الحقّ والحكمة الإلهية والفلسفة المتعالية وأن يبرعوا في استخدام كلّ ذلك ، حتّى يتسنى لهم الإجابة على شبهات الملحدين والضالّين والمادّيّين والسوفسطائيّين في عصرنا الحاضر ، ويثبتوا في مقابل الفرق الأخرى ويصمدوا في جوهها . لكنّ الأمر هنا يتعلّق بمسألة مهمّة ، وهي : هل يكون هذا المذهب أو المنهج كافٍ ووافٍ أم لا ؟! هل بإمكان الإنسان أن يؤنس قلبه ويُبهِج فؤاده بذكر الله وأنسه والتعرّف على أسمائه وصفاته ويتلمّسها عن قُرب ؟!

هل تعلّم الفلسفة وحدها يُطمئن القلوب ويهدّئها ؟! هل بإمكان العلوم العقلية والتفكيرية تهديّة النفس ومنحها الخضوع والخشوع

الوجدانيين أمام الحقّ والحقائيات والواقعيّات وعالم الخلق وصرح الأصالة البهّي ، دون الاستعانة بالفيوضات القلبية الربّانية ، أم لا ؟!

ولا شكّ في أنّ الإنسان ما كان ليؤدّي العبادة لله لولا كونه في مقام العبوديّة . إذن ، هل يكفي أن يكون الإنسان قد توصّل إلى إثبات وجود الله تعالى بالمذهب الفلسفيّ والبرهان ، وإن كان فاسقاً فاجراً يُعاقر الخمر ويتعاطى القمار والميسر ؟!

لقد كان كثير من العلماء الإنجليز موحدّين ، يعبدون الله تعالى ؛ فداروين كان ممّن يعبدون الله ومن المؤمنين بالمسيح على نبيّنا وآله وعليه السلام ؛ وفلاماريون العالم الفرنسيّ كذلك كان من أهل الكتاب ، وممّن ألف كتاباً أسماه «الله في الطبيعة»^١ ، حيث يقوم بإثبات وجود الله على أساس خمسة أدلّة من الأصول المُسلمة للعلوم الماديّة ؛ فهل يكون هذا النوع من النهج والاعتقاد وهذا النمط من الإثبات كافٍ أم لا ؟!

هل بإمكان المناهج المذكورة والطرق المُبيّنة أعلاه إظهار الله عبر المرحلة العينيّة أم لا ؟! هل باستطاعتها إبداء الحقّ تعالى شأنه كما هو مطلوب منها أن تبديه ، ثمّ بالتالي إيجاد علاقة بين الإنسان وحضرة جلاله ، أم هي عاجزة عن ذلك كلّهُ ؟!

ومهما يكن من أمر ، فإنّ المسألة هنا ، كما قلنا ، تتعلّق بالسؤال التالي : هل يكون هذا المذهب أو المنهج كافٍ ووافٍ أم لا ؟!

إنّ المذهب الذي سلّكه الأنبياء والأولياء والأئمّة عليهم السلام مذهب تفوق مرتبته هذه المرتبة وترقى عليها ، والأكثر انسجاماً واطمئناناً ؛ ألا وهو مذهب الشهود .

١- اسمه بالفرنسيّة «Dieu dans la nature» .

إنّ ذلك النمط من السير والتحرّك نحو معرفة الحقّ تعالى ينطق قائلاً :
 إنّ هناك حاسّةً أخرى أرقى من أذهاننا وأسمى من القوى المفكّرة لأيّ
 إنسان مُفكّر ؛ أنا شخصياً لا أعلم ما تُسمّونها ؛ ربّما الحاسّة السادسة أو غير
 ذلك ! ما أريد قوله ، هو أنّه توجد حاسّة أخرى في الإنسان هي الوجدان ،
 ويدعونه بالقلب والفؤاد أو الضمير . قولوا عنه ما شئتم ؛ على الإنسان أن
 يدرك الله بتلك الحاسّة .

توجد هذه الحاسّة في جميع أفراد البشر وهي حاسّة قويّة وفعّالة
 جدّاً ؛ لكنّ الابتلاء بالمادّيّات والجري وراء الآمال الخسيّة والدينيّة
 والبهيميّة والشيطانيّة ، والغوص في الخيالات والاهتمام بأوهام عالم
 الاعتبار والكثرات ، كلّ تلك أضحت حُجُباً غَطَّت تلك الحاسّة بالكامل ،
 وأدّت إلى إضعافها وخنقها .

وهنا يكمن السبب في عجز الإنسان عن الاستفادة من تلك الحاسّة ؛
 فلو سلك طريق العبوديّة الحقّة فإنّ وصوله به سيكون سهلاً يسيراً .
 إنّ أيّ نبيّ بُعثَ كان يقول : أيُّها الناس ! اتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وقد
 وردت هذه العبارة على لسان عدّة من الأنبياء في سورة الشعراء حيث كان
 كلّ واحد منهم يقول : فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

أي : افعّلوا كلّ ما أمركم به ، وانتهوا عن كلّ فعلٍ أنهاكم عنه ، حتّى
 يتولّىكم الله برحمته ويغفر لكم خطاياكم ! أقيموا الصلاة ! آتوا الزكاة !
 صوموا ! آمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ! اثبتوا في البأساء والضراء !
 حَبِّبُوا بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ ! جَاهِدُوا ! افْعَلُوا كَذَا وَكَذَا ! قوموا في ليالي الشتاء
 القارص وأدّوا النوافل ! صوموا صياماً مستحبّاً في أيّام الصيف القاطئ !
 هذا هو الطريق ! طريق الجهاد مع النفس ! طريق اكتساب مرضاة الله
 تعالى ومحاربة النفس البهيميّة السُعيّة الإبليسيّة ؛ حتّى يسترقّ حجاب

الوجدان شيئاً فشيئاً ، ذلك الحجاب الذي أدّى بتلك الحاسة إلى الانزواء والاختفاء . فإذا استرقّ الحجاب سيّضيء ما قد كان أودعه الله في القلب ، وسيشعّ النور الوضاء في القلب ومصباح الباطن .

وقد نرى أنّ القوى الذهنيّة لبعض الناس عاطلة عن العمل ، وأنّ دماغهم خرب قد تشابكت الأسلاك فيه مع بعضها ، فصار ينبغي أخذهم إلى طبيب نفسانيّ أو مصحّ الأمراض العقليّة . وكم من أناس يملكون الوجدان إلاّ أنّه مُعطّل عندهم تماماً . ففي قلوبهم مصباح لكنهم غَطّوه بستارٍ مُظلم . وهنا لا بدّ من إزالة ذلك الستار حتّى يشعّ النور الباطن . لا بدّ من التطلع نحو الأفق حتّى يكون بالإمكان رؤية شمس الأحديّة .

لقد وهب الله كلّ واحد من أفراد البشر مصباحاً مُضيئاً وسراجاً مُنيراً ؛ وقد جبّل سبحانه وتعالى طينتهم جميعاً بنور الباطن وحقيقة المعنى . إنكم خلفاء الله ! إنكم بشر ! إنّ ما أعطيتم من القابليات لم يُعط إلى مخلوق آخر ؛ ولقد منّ عليكم برابطة وعلاقة وآصرة تصلكم به لم يمنحها أيّ موجود سواكم .

ألم يكن إبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله ومحمّد حبيب الله عليهم الصلاة والسلام بشراً؟! لقد استفادوا من ذلك السراج وأزاحوا عنه كلّ الحُجب حتّى أضاء نورهم الباطن مُغشياً كلّ العالم بشعاعه .

وكان إبراهيم عليه السلام قد قال في صغره وحادثة سنّه :

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنَا وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *
وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ.^١

واعلم أن مُحاجَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ لِقَوْمِهِ وَمَجَادَلَتَهُمْ لَهُ
وَجَوَابَهُ الْمُنطَقِيَّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدْ حَدَّثَتْ بَعْدَ أَنْ أُلْزِمَهُمُ الْحُجَّةَ بِتَقْرِيْبِ قِيَاسِ
الْبُرْهَانِ وَتَعْيِينِ صَغْرَى الْفَلَسْفَةِ وَكِبْرَاهَا كَمَا تَدَلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ
لِلْآيَاتِ الْآلِفَةِ الذِّكْرِ :

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ
الْأَفْلِينَ * فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي
رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي
هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ.^٢

نَلَاخِظُ فِي الْآيَاتِ أَعْلَاهُ مَسْأَلَةَ إِثْبَاتِ رَبُوبِيَّةِ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ
وَالشَّمْسِ أَوَّلًا بِالْقِيَاسِ الصَّغْرِيِّ وَالْكَبْرِيِّ عَلَى النَّمَطِ التَّالِيِ : هَذَا
كَوْكَبٌ مُضِيءٌ هُوَ رَبٌّ ؛ وَنَتِيْجَةُ ذَلِكَ : هَذَا الْكَوْكَبُ الْمُضِيءُ هُوَ رَبِّي !
وهذا قمر منير ، وكلّ قمر منير هو ربٌّ ؛ وَنَتِيْجَةُ ذَلِكَ : هَذَا الْقَمَرُ
المنير هو رَبِّي !

وهذه شمس مشرقة لأتّها أكبر ، وكلّ شمس مشرقة كبيرة هي ربٌّ ؛
ونَتِيْجَةُ ذَلِكَ : هَذِهِ الشَّمْسُ الْمَشْرُقَةُ الْأَكْبَرُ هِيَ رَبِّي !

ولكن لكون أمر كبرى هذه المسائل إمّا أن يعود إلى نظرتة البدائيّة
أو من وجهة نظر قومه ؛ وهذا مرجعه استحقاق كوكب السماء ما للإضاءة

١- الآيات ٧٩ إلى ٨٣ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢- الآيات ٧٦ إلى ٧٨ ، من السورة ٦ : الأنعام .

والإشراق والتألق على الإطلاق وإن صاحب ذلك أفول وغروب ، وفي هذه الحال فهي لا تستحق صفة الربوبية ، لذا نراه يقوم بتصحيح ذلك ثانية ، حيث قال : إن رباً يأفل ويغرب لا يستحق الربوبية !

وعلى هذا الترتيب : فإن هذا الكوكب قد أفل ، وكل كوكب يأفل ويغرب لا يستحق الربوبية ؛ ونتيجة ذلك : أن هذا الكوكب الأفل لا يستحق الربوبية .

وهذا القمر المنير قد أفل ، وكل قمر منير آفل لا يستحق الربوبية ؛ ونتيجة ذلك : أن هذا القمر المنير الأفل لا يستحق الربوبية .

وهذه الشمس المشرقة الأكبر قد أفلت ، وكل شمس مشرقة أكبر تأفل لا تستحق الربوبية ؛ ونتيجة ذلك ؛ هذه الشمس المشرقة الأكبر الآفلة لا تستحق الربوبية .

ويتضح هنا أنه يُشير إلى بطلان كلية الكبرى في المحاجة الأولى في الاستدلال الثاني . أي أنه لما كان البرهان الأول مستنداً على أصل الكلية القابلة لربوبية الكواكب السماوية ، وهذه الكبرى ليست صحيحة بالطبع ، لذا رأينا غلط نتيجة البرهان ، لأننا استخدمنا فيه كبرى غير صحيحة .
وأشير في الاستدلال الثاني إلى أنه لا يجب على الرب الأفول ، فالنورانية ليست الشرط الوحيد في الربوبية ؛ بل يلزم دوام تلك النورانية واستمرارها . لذا فإن الإله الذي إما أن يكون شرقياً أو غربياً أو شمالياً أو جنوبياً لا تليق به الربوبية ؛ لأنه في هذه الحالة سيكون هو نفسه محتاجاً ومعوزاً ، وفقيراً وضعيفاً ومقهوراً وخانعاً .

على الرب أن يكون لم يزلتياً ولا يزالياً ، لا شرقياً ولا غربياً ، بلا زمان قبلي أو بعدي . وقد انطوى استدلاله الحق في القياس المنطقي البرهاني على كل تلك الكبريات .

ولهذا نراه قام بعد هذا الاستدلال مباشرة - كما طالعنا ذلك آنفاً - بمخاطبة قومه قائلاً :

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

أي أنني قمتُ باتخاذ ربِّ لي لا يملك أيُّ بُعد من أبعاد الزمان أو المكان ولا الكيف أو الكمّ ولا الحدّ أو العدّ ولا القيّد أو الحصر أو القياس . وهو خالق الجهات والأبعاد والنور والظلمة والشروق والأفول . وها أنا ذا أصدُّ بقلبي عن كلِّ أنواع الأهواء التي من شأنها تحديده وتقييده والتي تؤدّي إلى ضعفه وفتوره وانحلاله في حرم قدسه ، وأتوجه إلى هذا الربِّ المحيط والمجرد والنوراني المطلق وهو المُشعّ للنور !

إنّ النقطة المهمة والأساسية وذات الشأن العالي التي نجدها في الآية الشريفة هي : في البدء أحكم الله سبحانه قلب إبراهيم عليه السلام بنور اليقين الحاصل من مشاهدة ملكوت السموات والأرض ، ثم أرسله إلى قومه بمهمة خاصة وهي إظهار وإيفاء مسألة السير نحو سبيل التوحيد وعن طريق البرهان الفلسفي والقياس المنطقي ؛ ذلك أنّ نور اليقين الحاصل في القلب أقوى وأشدّ وأسمى بكثير من استخدام القوى التفكيرية والتفكير والتعقل الفلسفي الداخلة إلى الدماغ والذهن والفكر والخيال . ولم نشهد إبراهيم يُفز بمهمة مقارعة قومه بالاستدلال والمنطق إلا بعد أن تسلّح بالسلاح والحربة الإلهيتين الملكوتيتين السبحانيتين .

ويمكن استنباط ذلك من الآيات الشريفة التي سبقت الآيات الشريفة الأخيرة ، حيث قال :

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

المُوقِنِينَ ١.

ومحصّل الكلام أنّ على الإنسان أن يخطو بخطوات ثابتة وعزم راسخ وإرادة متينة في طريق المجاهدة واجتياز البهرجة والزخارف الدنيوية المغربية والخذاعة ، وينأى بنفسه عن جميع هذه التعينات والأهواء الشيطانية الماكرة والأناثية المضيعة لعمره ، وأن يستند إلى العمل ويترك القول . وكذلك أن يجتاز «لِمَ» و«بِمَ» و«لَعَلَّ» ، وهجر الدعاوى الباطلة والتجمعات التي تنعقد تحت اسم مجالس العرفان وذكر الحق ، وأن يصل بنفسه إلى حقيقة العرفان وواقعية اسم الحق تعالى . على الإنسان أن يخطو إلى الأمام خطوة فخطوة ؛ أن يحجّ ويصلّي ويؤدّي باقي أقسام العبادات بحذافيرها . أن يحيي الليالي ويقوم الفجر ، ويقضي حوائج الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وأن يهتم بالمصلحة العامة على حساب نفسه ، وأن لا يرمي بنفسه إلى التهلكة ويضّر نفسه مادياً ومعنوياً من أجل إيصال المنفعة والخير إلى الآخرين .

هذا هو مذهب الأنبياء ! وهذا هو سبيل وسلوك الأنبياء ! وهذا هو المنهج والطريق إلى لقاء الله ! هذا هو مذهب العرفان الذي ليس من شأنه إبطال مذهب البرهان ؛ وهو القائل : إنّ ذلك المذهب لا يكفي لبلوغ الإنسان الحياة الخالدة .

فذاك صحيح في محلّه ، وهذا صحيح ولازم في محلّه كذلك ، والإنسان بدون ذلك سيظلّ جائعاً وعطشاناً . إنّ النفحات الربّانية التي يجب أن تهبّ على القلب وتنعشه وترضيه هي الطعام الهنيء والشراب السائغ الذي يحتاج إليه القلب .

١- الآية ٧٥ ، من السورة ٦ : الأنعام .

إنّ مذهب الفلسفة والبرهان هو بمثابة رمح تقابل به العدو ؛ فما الذي تحمله لأجلك أنت؟! إذا أردت أن تهناً بطعامك وشرابك فعليك أن تحمل سيفاً لتتمكّن من الدفاع عن نفسك في مقابل العدو أو حيوان مفترس! وأما الرمح فهو لا يُسمن من جوع ولا يؤمن من خوف!

ولو أمسك امرؤ بيده سكيناً لما شبع ، وعليه أن يتناول الأطعمة المطبوخة والأشربة المأنوسة ليشبع ويرتوي ، وعليه في نفس الوقت أن يمتلك حرباً يستفيد منها عند الضرورة .

فلو اشتغل ألف سنة في مذهب البرهان واكتفى بمطالعة كتب الحكمة والفلسفة واقتنع بمجرد الاطلاع على أفكار الإلهيين في العالم فلن يصل إلى غايته المنشودة .

ولن يهدأ قلب الإنسان أو يطمئن فؤاده حتّى يتمّ له لقاء الله ؛ لأنّ الطمأنينة والسكينة تتلخّصان في ذكر الله وعدم الغفلة عنه ، ورؤية الجمال السرمديّ والنور الأحديّ بعين القلب .

أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .^١

وما أجمل وأروع ما أنشد آية الحقّ فقيدنا المرحوم الملا محمّد محسن الفيض الكاشانيّ تغمّده الله في بحبوحات رضوانه مبيّناً سبيل وطريق هذه المسألة المهمّة بأسلوب واضح وجليّ :

اِيسْتَادَنْ نَفْسِي نَزِدْ مَسِيحًا نَفْسِي

به ز صد سال نماز است به پايان بردن^٢

١- الآية ٢٨ ، من السورة ١٣ : الرعد : الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .

٢ - يقول : «إنّ الوقوف لحظة مع من كانت أنفاسه طاهرة كال المسيح ؛ أفضل من »

يك طواف سر كوی ولی حقّ كردن
 به ز صد حجّ قبول است به دیوان بردن
 تا توانی ز کسی بار گرانی برهان
 به ز صد ناقه حمر است به قربان بردن
 یک گرسنه به طعامی بنوازی روزی
 به ز صوم رمضان است به شعبان بردن
 یک جو از دوش مدین ، دین اگر برداری
 به ز صد خرمن طاعات به دیان بردن
 به ز آزادی صد بنده فرمان بردار
 حاجت مؤمن محتاج به احسان بردن
 دست افتاده بگیری ز زمین برخیزد
 به ز شب خیزی و شاباش ز یاران بردن^۱

﴿ إقامة الصلاة مائة سنة ﴾.

۱ - يقول : « وإنَّ الطواف لمرة واحدة في طريق وليِّ الحقِّ ؛ أفضل من مائة حجة مقبولة .

أزح عن كاهل الآخرين الوزر والعبء ما استطعت ؛ فذلك أفضل من تقديم مائة من النوق الحمر كقربان .

وأن تُطعمَ جائعاً في يوم ؛ لأفضل من صوم رمضان حتّى شعبان .
 وإذا استطعت إزاحة الثقل عن كاهل المدين ولو بقدر حبة شعير ؛ فهو أفضل من مائة إردب من الطاعات تقدّمها إلى (الله) الديان .

وإنّ قضاء حاجة المؤمن المحتاج إلى الإحسان ؛ لأفضل من تحرير رقبة مائة عبد مطيع مخلص .

وأخذك بيد الساقط على الأرض لتوقفه على قدميه ؛ أفضل من قيام الليل وأعلى من حصولك على الهدايا من أحبائك وخلّانك .

نَفْسِ خُودِ رَا شَكْنِي تَا كِه اَسِيرِ تُو شُود
 بِه ز اشكستن كَفَّار و اسيران بردن
 خواهی ار جان به سلامت ببری تن در ده
 طاعتش را ندهی تن ، نتوان جان بردن
 سر تسلیم بنه ، هر چه بگویند بشنو
 از خداوند اشارت ز تو فرمان بردن^۱
 وقال أيضاً :

بهوش باش که حرف نگفتمی نجهد
 نه هر سخن که به خاطر رسد توان گفتن
 یکی زبان و دو گوش است اهل معنی را
 اشارتی به یکی گفتن و دو بشنفتن^۲

۱ - يقول : « وَإِنَّ حَبْسَكَ لِنَفْسِكَ حَتَّى تَخْضَعَهَا لِأَمْرِكَ وَطَاعَتِكَ ؛ أَفْضَلُ مِنْ دَحْرِكَ لِلْعَدُوِّ أَوْ أَنْ يَكُونَ لَكَ أُسْرَى .

إذا ابتغيت أن تؤمّن على روحك فافدِ بدنك ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تُطِيعَ بدنك ، فَإِنَّكَ بِذَلِكَ ستخسر روحك .

سَلَمٌ وَاخْضَعْ لِلَّهِ وَاسْتَمِعْ لِمَا يَقُولُ : وَاتَّمِرْ بِأَمْرِهِ إِذَا أَسَارَ عَلَيْكَ .
 «الكنى والألقاب» ، للمرحوم المحدّث القمّيّ ، ج ٣ ، ص ٣٢ ؛ مطبعة العرفان - صيدا ،
 نقلاً عن «روضات الجنّات» .

٢- يقول : «إِحْذَرُ أَنْ تَنْطِقَ بِكَلَامٍ غَيْرِ مَنْطِقِي ؛ فَلَيْسَ كُلُّ حَدِيثٍ يَنْخَطِرُ عَلَى الْبَالِ يُمْكِنُ أَنْ يَقَالَ .

إنّ كلام أهل المعنى (وأولي الألباب) وقولهم ليس هناك إلا لساناً واحداً وأذنين ؛ يُشِيرُ إلى أنّ القول يكون بواحد والسمع إنّما يكون باثنين» .

سخن چه سود ندارد نگفتنش اولی است
که بهتر است ز بیداری عبث ، خفتن^۱

۱- يقول: «إنَّ عدم التحدّث بكلام فارغ ولا معنى له أولى؛ والنوم أفضل من اليقظة عبثاً ودون جدوى». «الكنى والألقاب» ج ٣، ص ٣٣.

الْبَحْثَانِ الْخَامِسَ وَالْثَلَاثُونَ وَالسَّادِسَ وَالْثَلَاثُونَ

انْحِرَافَاتُ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الْأَحْسَائِيِّ وَأَتْبَاعِهِ فِي التَّوْحِيدِ

وَتَفْسِيرِ آيَةِ الْبَارَكَةِ

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ سُوْلِيٌّ مِّنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ مِنَ الْآنَ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

قَالَ اللَّهُ الْحَكِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ :
وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا .

(الآية ١١١ ، من السورة ١٧ : الإسراء)

قال سماحة أستاذنا العلامة الطباطبائي تغمده الله في بحبوحات فيضه

في تفسير هذه الآية ما يلي :

«(هذه الآية) معطوف على قوله في الآية السابقة : قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ
ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكِ
وَلَا تُخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا .

ويرجع محصل الكلام إلى أن قل لهم إن ما تدعونها من الأسماء
وتزعمون أنها آلهة معبودون غيره إنما أسماؤه ، وهي مملوكة له لا تملك
أنفسها ولا شيئاً لأنفسها فدعاؤها دعاؤه فهو المعبود على كل حال .

ثم أحمده واثن عليه بما يتفرع على إطلاق ملكه فإنه لا يماثله شيء
في ذات ولا في صفة حتى يكون ولدأ له إن اشتق عنه في ذات أو صفة كما

تقوله الوثنيّة وأهل الكتاب من النصارى واليهود وقدماء المجوس في الملائكة أو الجنّ أو المسيح أو عزيز والأخبار ، أو يكون شريكاً إن شاركه في الملك من غير اشتقاق كما تقوله الوثنيّون والثنويّون وغيرهم من عبدة الشيطان أو يكون وليّاً له إن شاركه في الملك وفاق عليه فأصلح من ملكه بعض ما لم يقدر هو على إصلاحه .

وبوجه آخر لا يجانسه شيء حتى يكون ولدّاً إن كان دونه أو شريكاً له إن كان مساوياً له في مرتبة أو وليّاً له إن كان فائقاً عليه في الملك . والآية في الحقيقة ثناء عليه تعالى بما له من إطلاق الملك الذي يتفرّع عليه نفي الولد والشريك والوليّ ، ولذلك أمره صلى الله عليه وآله وسلم بالتحميد دون التسبيح مع أنّ المذكور فيها من نفي الولد والشريك والوليّ صفات سلبية والذي يناسبها التسبيح دون التحميد ، فافهم ذلك .

وختم سبحانه الآية بقوله : **وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا** وقد أطلق إطلاقاً بعد التوصيف والتنزيه فهو تكبير من كلّ وصف ، ولذا فسّر الله **أَكْبَرُ** بأنّه أكبر من أن يوصف على ما ورد عن الصادق عليه السلام ، ولو كان المعنى أنّه **أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** لم يخل من إشراك الأشياء به تعالى في معنى **الكِبَر** وهو أعزّ ساحة أن يشاركه شيء في أمر .

ومن لطيف الصنعة في السورة افتتاح أول آية منها بالتسبيح واختتام آخر آية منها بالتكبير مع افتتاحها بالتحميد^١ .
وورد في تفسير «بيان السعادة» ما يلي :

١- أي أنّ أول كلمة من السورة لفظ **سُبْحَانَ الَّذِي** ؛ وآخر كلمة فيها لفظ **وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا** واللفظ الأوّل من الآية الأخيرة لفظ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** .
(الميزان في تفسير القرآن» ج ١٣ ، ص ٢٤١ و ٢٤٢ .

بعد أمره بالتوسط في الأقوال والأفعال أمره بالتوسط في توصيفه تعالى بالجميع بين التشبيه قولاً واعتقاداً وشهوداً فأمره تعالى بالحمد ، أي ملاحظة ظهوره تعالى في كل شيء مع تنزيهه عن أصول النقائص ، وهي كون الثاني له سواء كانت تحت يده أو مقابلاً له أو مستعلياً عليه محتاجاً إليه وكان هو عاجزاً ، فإنّ الذلّ ينشأ من العجز عن دفع الضرّ أو جلب النفع ، ولما كان ذلك موهماً لتوصيفه ومعرفته أمره ثانياً بتكبيره عن التوصيف والمعرفة ، فقال : وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ، عن كلّ ما يوهم النقص أو التوصيف ، ولذلك ورد في جواب من قال : اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، عن الصادق عليه السلام : وَكَانَ ثَمَّةَ شَيْءٍ فَيَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهُ ؟! فِقِيلَ : وَمَا هُوَ ؟!

قَالَ : أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ .^١

ولمزيد من التوضيح والتبيين في هذه الآية الشريفة نقول باختصار : إنّ الألف واللام في الْحَمْدُ لِلَّهِ لإفادة تعريف الجنس الوارد في الذهن . أي أنّ جنس الحمد الذي يمكن تصوّره أو العلم به مختصّ بالله بصورة مطلقة والذي يلزم فيه التعميم بالنسبة لأيّ نوع من الحمد من أيّ حامد كان بالنسبة لأيّ محمود وله المُلْكُ المطلق والحقّ الكامل أيضاً . واللام المتّصلة بـ «الله» في قولنا «لله» هي لام الاختصاص . فكلّ نوع من أنواع الحمد هو من مختصّات الله سبحانه ، وكلّ حامد هو من مختصّاته أيضاً ، وكلّ محمود يكون كذلك من مختصّاته هو وحده .

فمثلاً ، لو أُعْجِبَتْ بوردة أو زهرة وقلت : ما أجملَ هذه الزهرة !
يا لعطرها الفوّاح وعبيرها الطيّب ! إنّ لها لقدرة في تعطير النّفس والروح !

١- تفسير «بيان السعادة» ج ٢ ، ص ٤٥٧ ، طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،

بيروت .

انظر إلى أوراقها المتعاقبة مع بعضها ! لاحظ الجمال والعجب معاً في ألوانها الساحرة الزاهية ! هل رأيت ساقها كيف تحرسها الأشواك التي أتجهت برؤوسها المُدبّبة إلى أسفل - لا إلى الأعلى - لتقاوم خطر هجوم الحشرات الصاعدة إليها ؟ انظر إلى أوراقها الناعمة العجيبة ذات اللون الأخضر المجهّزة بعروق دقيقة جداً خلقت لتُوصِل الماء والغذاء إلى أبعد نقطة في النبات ! والعجب كلّ العجب من المادّة الخضراء الموجودة في الأوراق التي تجلب مادّة الكلوروفيل بمساعدة أشعة الشمس .

والأعجب من ذلك تلك الحبة الدقيقة في الصّغر المُخبّأة في داخل فم الزهرة ، والتي تُخزّن في داخلها للمستقبل زهوراً أُخرى ، بل حداثاً من الزهور مادامت الأرض والشمس موجودتين ، وستُخرج للعالم مناظر عجيبة ساحرة ملوّها العظمة والسّحر والجمال .

إنّ ما نطقته به من مدح وتفوّهت به من إطراء على هذه الزهرة كان في الحقيقة مُوجّهاً إلى ذات الله نفسه ؛ فتلك الزهرة في الواقع مظهر من مظاهر عظمة الله وظهور من مظاهره . فأنت أطلقت اسم الزهرة على هذا المظهر لكنك أخفيت الله تحت حجاب هذا الاسم ! والآن أزل عنها ذلك الاسم وستجد أن لا شيء باقٍ غير الله !

أليست هذ الزهرة هي نفسها التي نشهد موتها في فصل الخريف (فصل تساقط الأوراق وذبولها) وتناثر أوراقها التي ستكون قد تحوّلت حينئذٍ إلى أوراق صفراء يابسة لا روح فيها ولا حياة ؟ ألسنت ترى أكواماً مكّومة وأكداساً مُكّدة من تلك الأوراق ساقطة على وجه الأرض هنا وهناك ، تتقاذفها رياح الخريف العاتية فتلقي بها في زوايا وأركان مختلفة إلى مسافات بعيدة ؟

فلو كان ذلك الجمال وتلك الرّقة والحسن والجاذبيّة نابعاً من الزهرة

نفسها لما فارقتُ كُلَّ ذلك بسرعة وسُلب منها ما سُلب بهذه العُجالة دون ضجيج أو جلبة .

إذن ، فتلك الصفات الجماليّة لم تكن نابغة من الوردة نفسها . ولم تكن تلك الصفات من ذاتيات الزهرة أو ميّزاتها الملازمة لماهيّتها وإتّيتها . إنّما كان ذلك عرضاً من العوارض ، جاء ورحل بهدوء . ارتوتُ وعَطِشْتُ ؛ أِينعتُ وذبلتُ ؛ وكانت نضرة فيبستُ وجفّت ؛ وكانت حيّة تُرزقُ وها هي الآن ميّته وهامدة ؛ وكانت قائمة شامخة وها هي ذا قد أصبحت مُعوجةً ومنحنية .

هذا بالنسبة إلى المحمود (أي الشيء الذي يكون موضع الحمد والمدح والإطراء) !

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الحامد (أي الذي يؤدّي الحمد والمدح والثناء) ! إنّ ما يقوم بمدحه البشر والملائكة والجنّ إنّما هو في الحقيقة الله تعالى ؛ وما تلك الأشياء التي يقوم أولئك بمدحها إلّا مجرد أسماء لا غير أخفّت حُجُب تعيّنُها الجمال المطلق للحقّ . ولا وجود في هذه الأثناء لغير الله إطلاقاً الذي يكون في موضع الحمد والمدح .

ونفس الشيء يقال عن الحمد (أي مصدر الفعل أو اسم المصدر) لأنّ هذا المعنى نفسه لا يمتلك أيّ أصالة في الخارج غير الله ، وهذا الفعل نفسه بعنوانه ومفهومه ليس إلّا تقييداً وتحديداً للحقّ تعالى . وهو عبارة عن اسم وعنوان يطلقان على فعله المطلق تعالى ، وهو كذلك عبارة عن آية ومرآة لإظهار فعله الإطلاقيّ العامّ الواحد المجرد النورانيّ البسيط واللامتناه .

وعلى هذا ، فلا وجود لغير الله يُمثل الحمد والحامد والمحمود . فالله وحده هو الموجود وحسب . فحمده هو نفسه ، والحامد كذلك هو نفسه ، وكذا المحمود أيضاً : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنِ التَّعَيِّنَاتِ وَالْإِنِّيَّاتِ وَالْمَاهِيَّاتِ

وَالْأَسَامِي ، بِأَيِّ وَجْهِ تُصَوَّرَ فِي الْمَقَامِ .

إنما كان كلامنا عن تلك الزهرة في عُصْنٍ من شَجِيرَةِ الزهور مثلاً لا أكثر ، وإلا فإن العنديل الذي يستقرّ على غصن شجرة الورد ويقوم بالتغريد بصوته الشجيّ وغناؤه العذب من الليل حتى الصباح الباكر مادحاً تلك الوردية ومُطرباً عليها بأعلى صوته ، ما هو إلا اسم كذلك لا غير ؛ والواقع أنه لا وجود لشيء في هذه المشاهد يدعى بالعنديل أو البُلْبُل أو الورد أو نداء الهجر أو ترنيمة الوصل أو الشُّعْر أو الموسيقى أو الأنغام أو الألحان إلا وجود الحقّ تعالى وتقدّس .

وكذا الأشخاص الذين يقومون بمدح وتمجيد هذا البُلْبُل أو ذاك العنديل ، من بشر أو ملائكة أو جنّ ، ويشهدون تلك المناظر الخلابة ، ما هم في الحقيقة إلا مجرد أسماء لا أكثر ألبست وجه الحقّ وجماله المطلق ، فأطلقوا عليها الأسماء والعناوين المختلفة ورسموا لذاته المقدّسة وصفته وفعله اسماً وحدّاً معيّنين .

إنّ البشر والجنّ والملائكة كلّ أولئك مجرد أسماء للحقّ وليست الحقّ نفسه . فلو رَفَعَتْ عنها أسماءها ما بقي لديك شيء سوى الحقّ ! هذا هو معنى عبارة **الْحَمْدُ لِلَّهِ** التي نذكرها مراراً في ليلنا ونهارنا في صلاتنا وصلواتنا ، في تلاوتنا للقرآن الكريم وغير ذلك . وقد لاحظتم أنّنا لم نورد أيّ موضوع أو بحث من الخارج ، سواء كان ذلك الموضوع أو البحث آية أو رواية أو شعراً أو قول عارف أو كلام مُتهجّد كشاهد على بحثنا هذا ! وما حصلنا على هذا المعنى اللطيف إلا من خلال المتن الإطلاقيّ للحمد واختصاصه بالله عزّ وجلّ .

وكذا الحال مع حصر الحمد في ذات الله تعالى ، والتسبيح والتكبير والتهليل الذي نقوم به ونؤدّيه ، وأيضاً حصر العلم والقدرة والحياة وسائر

الأسماء والصفات الخاصة بالحقّ تعالى وهو ما نقرأه في القرآن الكريم ونتلوه فيه من الآيات الشريفة المنزلة: هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ؛ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، هُوَ الْقَادِرُ، وأمثال ذلك من الآيات التي عمت جميع جوانب الكتاب السماويّ وغطت كلّ نواحيه. أستحلفكم الله، هل بالإمكان استخراج معنى أو استنباط مفهوم أو إدراك مفادٍ غير هذه اللفظة المباركة الْحَمْدُ لِلَّهِ من كلّ ما قاله ويقوله أهل المعرفة والمشتاقون والوالهون والعاشقون والواصلون لجمال ساحة الأحديّة وجلاله من الأولين والآخرين!؟

لكن، ما الفائدة!؟ وما هي النتيجة!؟ أليس من المؤسف أن نغالي في إنكارنا ونُبالغ في شركنا مع وجود الآية الشريفة التالية بين ظهرانينا في القرآن الكريم:

وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ^١.

ما معنى وجود الحقّ تعالى في الموجودات وما المراد من ذلك!؟ معناه أنك لو جمعت الوردة والسنبلة، والبلبل والبغاء، والطير والبطّ، والشجرة والشجيرة، والبرعم والعُشب، والماء والشلال، والغمام والريح والغيث، والسهل والصحراء المترامية الأطراف، والإنسان والأجيال البشرية، والشمس والنجم في السماء، والكواكب والمجرات... وما شئت في جمعه ورغبت في ضمّه من هنا وهناك ممّا حولك إلى آخر الدنيا، فما كلّ ذلك إلاّ الله وحسب، وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

هذه كلّها آيات وعلامات ومرايا وظيفتها إظهار ذاته المقدّسة تعالى

١- الآيتان ١٠٥ و١٠٦، من السورة ١٢: يوسف.

جلّ شأنه ، ولكن للأسف الشديد ، فهم ينظرون إلى تلك الأمثال وآلاف غيرها موجودة وماثلة أمام أعينهم نظرة مستقلة ، فهم ينتزعون عنها عنوان الحق وصفته ويعمون عن رؤية الله ، وهم لا يرون أمامهم إلا ورداً وخضرة وإنساناً وحيواناً وحسب .

لقد عزّزوا قدرة تلك الأسماء وفاعليّتها بتعمّد وشهوة وغضب وعنصر الوصوليّة والأنانيّة والتسلّط والتكبّر والزهو بحيث لم يُبقِ ذلك أيّ ذِكر لله فيه .

ولقد منحوا تلك الأسماء المجرّدة الجوفاء التي تستمدّ وجودها من الله تعالى استقلالية حتى أضحي وجود الله سبحانه محجوباً ومخفياً ؛ والحال أنّه لا يوجد وجود غير وجوده تعالى شأنه وحسب . إنّ هذه الأسماء وتلك الألقاب ما هي إلا ستائر حَجَبَتْ حقيقته المقدّسة . فأزح الستار وطالع وجه الله ، إنّّه هو حقيقة الزهرة والوردة ! هو حقيقة البلبل ! هو واقعيّة الإنسان والملائك ! هو أصل الجنّ وسائر الموجودات المخلوقة واعتبارها ! ولهذا ، فمادام ذلك الحجاب الداعي إلى الاستقلال موجوداً فإنّ الشرك به ما يزال قائماً أيضاً . وبالرغم من إسلام معظم الناس في العالم فإنّهم ، دون شكّ أو تردّد ودون مجاملة أو مبالغة ، جميعاً مشركون مادام ذلك الستار موجوداً على حاله !

ولا تقولوا ! رجاءً ، إنّما هذا شرك خفيّ وليس شركاً جليّاً ظاهراً ، وإنّ الإسلام جاء بدعوته وتبليغه وشريعته لإزالة الشرك الجليّ وتحريم عبادة الأصنام والأوثان ؛ وهو ذا قد أزال المعابد وبيوت الأصنام .

لأنّنا سنجيبكم هكذا : لقد جاء الإسلام لإزالة كلّ أثر من آثار الشرك وأقسامه لا لإزالة عبادة الأوثان الظاهريّة والباطنيّة وحسب . أنّ الآيات القرآنيّة وهذا المذهب وتلك الشريعة تنفي أيّ نوع من أنواع الشرك

وتطالب بالقضاء عليه ومحوه . كل ما في الأمر أنّ المؤمنين بالأوهام والمعتقدين بالخرافات والحريصين على استقلاليتهم عاجزون عن هضم مسألة الجهاد والقتال أو استيعابها ، ولذا نراهم قد اكتفوا بمقارنة الشرك الظاهر ومحاربتة . وإذا اكتفى الفرد بذلك النوع من الجهاد ، فهو لا شك سيحصل على منافع واجتماعيات الإسلام وظواهره ومظاهره ، لكنّه يقيناً سيفقد خلاقه من الجنّة الحقيقيّة ، ولا جرّم أنّه سيهدر نصيبه من مقام اللقاء والرضوان والتكامل في مراتب استعداده وقابليّته على طريق نقطة الإنسانيّة والفعليّة والواقعيّة .

ولذلك فإنّ الشرك الخفيّ مثله تماماً كمثّل الشرك الجليّ ؛ وهو مهمّ كأهميّة الأخير . ويجب على الإنسان ، لا سمح الله ، أن لا يعدّه صغيراً أو بسيطاً أو حقيراً ، وينظر إليه نظرة إغفال أو إهمال أو ازدراء ؛ فيقضي عمره والعياذ بالله وقد حبس الله داخل مظاهر ومجالي ، والحقّ أنّه قد حبس نفسه هو بعمله هذا ؛ فكلّ ستار حُجِبَ به بمثابة سجن له .

وأما تفسير الآية الشريفة **الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا** ومفادها فهو نفس تفسير ومفاد الآية الشريفة **لَمْ يَلِدْ** الواردة في سورة الإخلاص .

أي أنّ الله سبحانه لم يلد مولوداً أو ولداً ؛ ومعلوم أنّ كلمة «وَلَدًا» بناءً على جعل الألفاظ للمعاني العامّة ، تُطلق على تولّد الشيء من الشيء الممّتك لصفة الأصالة والواقعيّة تماماً كوالده ، ثمّ حصوله الاستقلال في وجوده بعد ذلك وانقطاع علاقته به ؛ سواءً تحقّق ذلك في الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد أو الجنّ أو سائر الموجودات الأخرى التي يمكن حصول ذلك فيها .

ولا يختصّ ذلك الأمر بالتوالد الخاصّ بالبطن خارجاً وإخراج المولود على النحو المتعارف عليه بين البشر الذي يتوالد أو الحيوان الذي

بييض ، لأتّها جميعاً من مختصّات المصاديق والأُمور ؛ ولا دخل لها مطلقاً في تحقّق المعنى العامّ لذلك . وعلى هذا ، فلو فرضنا أنّ موجوداً ملوكيّتياً كالملاك مثلاً أو موجوداً آخر يفوق في جنسه وخلقته كلّ الموجودات المجرّدة التي يعلمها الله تبارك وتعالى قام بمحض إرادته ومشيّته بإنتاج أو ولادة موجودات مستقلّة في وجودها أو صفتها أو أفعالها أو بدايتها أو نهايتها أو أصل تكوّنها أو إدامتها أو بقائها ؛ موجودات تمتلك جميعها وجوداً مستقلّاً بذاتها ، فإنّ هذا الإيجاد أو الإنتاج سيحمل معنى التوالد ومفهومه ، وستحمل عنوان التوالد من لدن ذلك المبدأ المجرّد النورانيّ .

والآية المباركة الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَالآية لَمْ يَلِدْ وباقى الآيات الواردة في حقّ عيسى ابن مريم على نبينا وآله وعليه السلام وحقّ بعض الملائكة المقرّبين (بزعم المشركين) والتي عمل القرآن الكريم على إبطالها ونفيها جميعاً ، تُشير كلّها إلى الحقيقة القائلة بأنّ تلك المخلوقات لا تملك وجوداً مستقلّاً ، وأنّ ذاتها وصفاتها وأفعالها هي مجرد مظاهر ومجالي للذات الإلهيّة المقدّسة .

وعلى هذا ، فإنّ جميع عوالم الإمكان التي تحمل أسماء مختلفة وشؤون متفاوتة هي ظهورات ذلك الظاهر ومجالي تجلّيات ذلك المجلى .

ولمّا كان ظهور الظاهر ومجلى الوجود ليس سوى أصل الوجود وذاته ، وأنّ الألقاب والأسماء العديدة لا تنجم عنها كثرات واقعيّة له ؛ فلا يمكن تصوّر وجود وكمال خارج هذا العالم ، ولا يمكن أن يكون كلّ هذا الوجود وليد الحقّ الأصيل وأصل الوجود . وعلى هذا فإنّ أصل الوجود لهذه العوالم الإمكانيّة الواسعة ليس سوى الوجود الأقدس لواجب الوجود ؛ فإذا أُزيل عنوان الإمكان والآية والظهور والتجلّي فلن تبقى هناك أصالة أو حقيقة أو وجود غير الحقّ تبارك اسمه وتعالى مجده . أي أنّ جميع العوالم

تمثّله هو ولا شيء غير الحقّ .
هذا هو معنى لَمْ يَلِدْ وَالَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا والذي يُثبت وحدة الوجود بصريح العبارة وبلغ البرهان .

وهذا هو معنى الأبيات التي أنشدها عارفنا الكبير الشيخ محمود الشبستريّ أعلى الله مقامه في جوابه على السؤال التالي :

چرا مخلوق را گویند واصل

سلوک و سیر او چون گشت حاصل؟!^١

حيث أجاب بالأبيات التالية :

وصال حقّ ز خَلَقِيَّتِ جدائی است

ز خود بیگانه گشتی آشنائی است

چو ممکن گرد امکان بر فشاند

بجز واجب دگر چیزی نماند

وجود هر دو عالم چون خیال است

که در وقت بقا عین زوال است

نه مخلوق است آن کو گشت واصل

نگوید این سخن را مرد کامل^٢

١- يقول : «لِمَ يُسَمُّونَ المخلوق (الشخص) واصلًا ؛ وكيف تيسّر له ذلك السير وهذا السلوك إلى الخالق؟» .

٢- يقول : «إنّ وصال الحقّ لا يتمّ إلاّ بهجر الخلقية ونبذها؛ وإنّ الإحساس بغربة الشخص عن نفسه إنّما هو ألفة (في الواقع وليس غربة).
فإذا تناثر الإمكان من الممكن ، لم يبق إلاّ الواجب .

إنّ وجود كلا العالمين ما هو إلاّ خيال (ووهم) ؛ وهو عين الزوال في حين البقاء .
إنّ مَنْ صار واصلًا (في سلوكه وطريقه) لم يَعدْ مخلوقًا (لأنّه أزال عنه تعينه ⇨

عدم کی راه یابد اندرین باب
 چه نسبت خاک را با ربّ الأرباب
 عدم چبود که با حقّ واصل آید
 وزو سیر و سلوکی حاصل آید
 تو معدوم و عدم پیوسته ساکن
 به واجب کی رسد معدوم ممکن
 اگر جانت شود زین معنی آگاه
 بگوئی در زمان استغفر الله
 ندارد هیچ جوهر بی عرض عین
 عرض چبود و لا یَبْقَى زَمَانِین^١
 حتّی یصل إلى الأبیات التالیة :
 نظر کن در حقیقت سوی امکان
 که او بی هستی آمد عین نقصان^٢

﴿ الشخصیّ ﴾؛ وَمَنْ یقول بهذا القول (أی أنّ الواصل قد یكون مخلوقاً) لیس بالرجل ذی العقل الكامل والراجح».

١- یقول: «وَأَنْتَ لِلْعَدَمِ أَنْ یَطْرُقَ أَوْ یَتَخَلَّلَ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ؛ وَمَا نِسْبَةُ التَّرَابِ إِلَى رَبِّ الأرباب؟

وما العدم حتّی یصل إلى الحقّ تعالی؛ أو أن یصل إليه من خلال السیر والسلوک؟ أنت معدوم، والعدم (بطبیعته) ساکن علی الدوام؛ فَأَنْتَ لِلْمَعْدُومِ الْمُمْكِنِ أَنْ یصل إلى الواجب تعالی؟

فلو استوعبت روحك هذا المعنی؛ فقل: استغفر الله، فی الحال.

لیس للجوهر عین فی غیاب العَرَض؛ لأنّ الجوهر وإن كانت بسیطة لا تكتسب ظهوراً فی العین حتّی تتلبس بالعوارض والتشخصات».

٢- یقول: «تأمل فی الحقیقة الإمكان؛ لأنّه عین النقصان فی غیاب الوجود».

وجود اندر کمال خویش ساری است
تَعَيَّنَهَا امور اعتباری است
امور اعتباری نیست موجود
عدد بسیار یک چیز است معدود
جهان را نیست هستی جز مجازی
سراسر کار او لهو است و بازی^١
وأما ما يتعلق بتفسير وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَمَفَادَهَا ،
يجب القول : لأنَّ وجوده أصيل وحائز على الوحدة بالصرافة ، على هذا
يكون فرض شريك له من المحال . وهذا حاصل برهان الصّديقين في
إثبات وحدة الوجود القائم ، وبهذا كذلك تُدْفَعُ شبهة ابن كَمَوْنَةَ .
إنَّ وجوده لم يزل ولا يزال ولا يتناهي بما لا يتناهي . وعلى هذا
يكون من المحال فرض وجود آخر في مقابله تحت أيّ تسمية أو رسم
كان ؛ سواءً أكان شريكاً ومعيناً له في الملكوت أو عالم الملك . إنَّ أيّ
وجود مستقلّ في مقابله معدوم وممّا لا يمكن ؛ وإنّ الوجودات غير
المستقلّة والتي هي آياته وأسمائه وعناوينه كلّها راجعة إليه ولا يمكن أن
تكون إلا هو^٢ .

١- يقول : «إنَّ الوجود قائمٌ (بواسطة الحبِّ الذاتيِّ للظهور والإظهار) من خلال كماله ؛
وليست التعيّنات إلاّ أموراً اعتباريّة .

والأمور الاعتباريّة (في نفس الأمر) ليست موجودة ؛ كتعدّد الأعداد في حين أنّ
المعدود (وهو العدد واحد) واحد ليس إلاّ .

وليس وجود العالم إلاّ شيئاً مجازياً ؛ وليس شغله الذي يشغله إلاّ لعب ولهو» .

«گلشن راز» بخطّ العماد الأردبيلي ، ص ٤٣ إلى ٤٥ .

٢- نقل المرحوم الحكيم الحاجّ السبزواري في «شرح الأسماء» أو «شرح دعاء»

إنَّ لعنوان شريكٍ في المُلْكِ إطلاق عامٍّ؛ ففرض أيِّ صاحب إرادة واختيار في مقابله يصدق عليه عنوان شريك في المُلْكِ والآية تبطل ذلك وتنفيه .

إنَّ فرض استقلاليَّة واختياريَّة وإيَّية ولو بقدر رأس الدبوس في إرادة وعمل واختيار ومشية الموجودات بدءاً من جبرائيل والروح الذي هو أعظم من جبرائيل ووصولاً إلى أصغر وأحقر موجود ذي شعور كالنملة أو الجرادة؛ سواء أكانت تلك استقلاليَّة واختياريَّة وإيَّية في أصل وجودها وأفعالها وآثارها؛ كلُّ ذلك يتنافى والإطلاق والعموم وعدم تناهي الوجود للحقِّ تبارك اسمه في الملك والحكم، والآية تنفي ذلك. إذن فجميع الاختيارات والإرادات مندكة في اختياره تعالى وإرادته، وهي ظلُّ من نوره وضياء شمس وجوده .

ذلك أنَّ فرض أيِّ إرادة أو اختيار أو استقلال لنملة ما تحدّد من إرادة الحقِّ تعالى واختياره. لنفترض أنَّ إرادة الحقِّ تعالى واختياره واسعتان لدرجة تمكّنه من الهيمنة والسيطرة على إرادة جميع العوالم من المجرّدات والمادّيّات واختيارها، وتغلّبت إرادته حتّى على إرادة الروح الأمين والملائكة المقربين وملأت جميع أركان العوالم النزوليَّة، لكنّها (أي تلك الإرادة) توقّفت عند نملة واحدة ضعيفة صعبة الرؤية، فمُنحتّها إرادة

«الجوشن الكبير» ص ٣٧٤ و ٣٧٥، طبعة منشورات جامعة طهران موضوعاً عن صدر المتألّهين قدّس سرّه في الجواب على شبهة ابن كمونة، بعد شرح وبيان، أنّه قال:
والحقُّ في الجواب أنّه إذا كان للشيءِ ثابٌّ في الوجود، لم يكن صِرفاً؛ والواجبُ تعالى لما كان بسيط الحقيقة وجب أن يكون جامعاً لجميع الخيرات والكمالات، وإلا كان مصداقاً لحصول شيءٍ وفقد شيءٍ؛ فيلزّم التركيب في ذاته من جهة وجوبيّة وأخرى إمكانيّة أو امتناعيّة، كما ذكره صدر المتألّهين قدّس سرّه في السّفَر الأوّل من «الأسفار».

واختياراً مستقلاً، أي بمعزل عن مشيئة الله وإرادته؛ فهنا يبطل بحثنا ويكبو كميّتنا.

لماذا؟! لوجود ذرة غير مرئية وتافهة عملت على تقييد سعة إرادة الله وتحديدها وهو ما يعني إطلاق مشيئة تلك الذرة وخلق اختيار لها. لأننا منحنا بالفرض إرادة مستقلة لهذه النملة الحغيرة ولم نجعلها مندكة في إرادة الله، ولهذا فإن تلك الإرادة والاختيار المفروضين اللامتناهيين يقفان عند حدّهما وذلك بوصولهما إلى حدود النملة، أي أنّ (هذا الموجود) المتناهي أصبح يمتلك استقلاليّة ذاتيّة كاملتين؛ وهذا خلف لافتراضنا في بداية الكلام أنّه لا مُتناهٍ، لكنكم صبغتموه في العمل بصبغة التناهي!

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا^١.

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ^٢.

وقال الشيخ العارف الشبستريّ في هذا الباب أيضاً الأبيات التالية:

كدامين اختيار اي مرد جاهل

كسى راكو بود بالذات باطل

چو بود تست يكسر جمله نابود

نگوئى كاختيارت از كجا بود^٣

١- الآية ٣٠، من السورة ٧٦: الإنسان.

٢- الآية ٢٩، من السورة ٨١: التكوير.

٣- يقول: «أي اختيار وأي انتخاب، أيها الرجل الجاهل؛ (هذا الاختيار الذي تتحدّث

عنه) لذلك الذي هو باطل بالذات وبنفسه؟

ألا تتأمّل أنّه (بما أنّ وجودك وعدمك هما أمر واحد، وأنّ وجودك ليس منك) فمن

أين إذأ لك الخيرة والاختيار؟».

كسی کو را وجود از خود نباشد
 به ذات خویش نیک و بد نباشد
 که را دیدی تو اندر جمله عالم
 که یک دم شادمانی یافت بی غم
 که را شد حاصل آخر جمله امید
 که مانند اندر کمالی تا به جاوید
 مراتب باقی و اهل مراتب
 به زیر امر حق ؛ و الله غالب^١
 مؤثر ، حق شناس اندر همه جای
 ز حدّ خویشتن بیرون منه پای
 ز حال خویشتن پرس این قدر چیست
 وز آنجا بازدان کاهل قدر کیست^٢

١- إشارة إلى الآية الشريفة ٢١ ، من السورة ١٢ : يوسف : **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** .

٢- يقول : «لَمَّا كَانَ الشَّخْصُ لَا يَمْلِكُ وَجُوداً مِنْ ذَاتِهِ وَنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّ حُسْنَهُ وَقَبْحَهُ لَيْسَا
 نَابِعِينَ مِنْ ذَاتِهِ .

هل رأيت في كلِّ العالم أحدًا ينعم بالفرح والسعادة دون أن يمسه الترح أو الكرب أو
 الغم؟

هل رأيت أحدًا حصل على مراده وأمانيه جميعاً ؛ وهل رأيت أحدًا يخلد إلى الأبد، في
 كمالٍ ما؟

فالرتبة والمقام باقيا ؛ لكنَّ مَنْ حصلوا على تلك المراتب أو المقامات ، كلهم تحت
 أمر الله وسلطانه .

والله غالب على المؤثر أن يعرف الحق في حين ومكان ؛ وإنَّ عليه أن لا يتجاوز حدَّ
 ذاته ونفسه .

هر آن كس را كه مذهب غير جبر است
 نسی فرمود كو مانند گبر است
 چنان كآن گبر ، يزدان و اهرمن گفت
 همين نادان احمق ما و من گفت
 به ما افعال را نسبت مجازی است

نسب چبود حقيقت لهو و بازی است^١

نعم ، وهنا تجدر الإشارة إلى موضوعين مهمّين :

الأول : أن مراد شيخنا العارف من «الجبر» المذكور في البيت التاسع أعلاه ، ليس الجبر الذي تؤمن به الأشاعرة والمصطلح عليه في كتب أهل الكلام ، بل وحدة الحق تعالى بشكل يسلب الاختيار الاستقلاليّ من الإنسان سواء أكان ذلك الاختيار على نحو التفويض أم على نحو الاكتساب . وهذا يشير إلى معنى الأمر بين الأمرين وهو اعتبار الاختيار اختياراً للحق تعالى ؛ أي الوحدة بين مفهوم ومصداق اختيار الإنسان وبين اختيار الحق ؛ ودلالة على معنى ومفاد الآية وما تشاءون إلا أن يشاء الله^٢.

⇨ ارجع إلى وجدانك وأسأل عن أحوالك وتعرّف عليها ونسبة الأفعال إلى فعلها؛ وهناك ستعلم من هم أهل القدر (أي القدرية)».

١- يقول : «لقد قال النبي صلى الله عليه وآله إن من كان مذهبه غير الجبر فهو كالمجوس .

لقد قال هذا الأحمق الجاهل قول المجوس الذين يؤمنون بـ(يزدان - إله الخير) و(أهريمن - إله الشر).

إن نسبة الأفعال إلينا ما هي إلا أمر مجازي ؛ لأن النسب جميعاً هي لعب ولهُو».

«گلشن راز» ص ٤٩ و ٥٠ .

٢- قال المرحوم الحاجّ السبزواريّ بهذا الخصوص في «شرح الأسماء» ص ٣٣٣

و ٣٣٤ طبعة جامعة طهران :

واستشهد على دعواه هذه بحديث للنبي أنه قال : **الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ** ١.

وحديث الرسول هذا يشير إلى بطلان كلام المعتزلة القائلين بالتفويض وكلام الأشاعرة المعتقدين باكتساب الإنسان للاختيار ، على حد سواء . ذلك أن المجوس تقول بمبدأين (يزدان) و(أهريمن) لأفعال الخير والشر ؛ وهؤلاء أيضاً يقولون بمبدأ الخيرات وهو الله ، ويقولون كذلك بالسيئات والقبايح الناشئة عن الاختيار الاستقلالي للإنسان .

وعلى هذا فإن كلا الفريقين يقولان بمبدأين أصليين (للخيرات والسيئات) ؛ وكل منهما يشابه الآخر ويمثله .

وليس معنى الأمر بين الأمرين أنه مُرَكَّبٌ مِنَ الْجَبْرِ وَالتَّفْوِيضِ بأن يكون فيه شوبٌ من هذا وشوبٌ من ذاك كالحرارة الفاترة ؛ بل الفعلُ بسيطٌ محضٌ ، بمعنى أنه تسخيرٌ محضٌ في عين كونه اختياراً محضاً ؛ واختيارٌ بحثٌ في عين كونه تسخيراً محضاً ، كما قيل :

از صفای می و لطافت جام در هم آمیخت رنگ جام و مُدام
همه جام است و نیست گوئی می یا مدام است و نیست گوئی جام
يقول : «من صفاء الخمرة ولطافة الكأس ، امتزج لون الكأس .
فهو الكأس ولا يقال خمرة ، أو الخمرة ولا يقال كأس» .
وفي أشعار العارف الجامي قُدس سرُّه السامي :

باده نهان و جام نهان آمده پدید در جام عکس باده و در باده رنگ جام
يقول : «إنما الخمرة المغطاة والكأس المختفي واقع مشهود ، فصورة الخمرة في
الكأس ولون الكأس في الخمرة» .

رَقَّ الزُّجَاجُ ...

١- «مفاتيح الإعجاز» في شرح «گلشن راز» ص ٤٣٠ ، طبعة منشورات المحمودي ؛ وكذلك «روح الأرواح في شرح أسماء المَلِكِ الفَتَّاح» تأليف شهاب الدين أبي القاسم أحمد ابن أبي المظفر السمعاني ، ص ١٦٣ .

وهنا التبس على نجل آية الله البهبهاني الوحيد ، الآقا محمّد علي الكرمانشاهي ، بظنه أنّ المراد من معنى كلمة الجبر هو هذا المعنى الذي ذكرناه ، ولهذا انتقد الشبستريّ ومحيي الدين لاستعمالهما هذه اللفظة .

نقل السيّد محمّد باقر الخوانساريّ كلاماً عن الآقا محمّد علي البهبهانيّ في كتابه «مقام الفضل» يردّ فيه على سؤالٍ طُرح عليه حول أدلّة القائلين بوحدة الوجود ، حتّى يصل إلى :

«ونقل محيي الدين مذهب الجبر كذلك إلى جميع العرفاء ؛ وقال الشبستريّ أيضاً في «گلشن راز» :

هر آن کس را که مذهب غير جبر است

نبی گفتا که او مانند گبر است^١

وهكذا علمنا أنّ نسبة الجبر سواء إلى الشبستريّ أم إلى محيي الدين ناشئة عن قصور في فهم المعاني الراقية والكلمات السامية بدقّة ، والاقتصار على ظاهر اللفظ .

الثاني : ونظير هذا الأمر ، الخطأ الذي وقع فيه ثقة المحدثين الحاج ميرزا حسين النوريّ في «المستدرک» وذلك بانتقاد استعمال كلمة «الاتحاد» التي وردت في كلام كبار العرفاء وهو أعلى مقام في طريق السير والسلوك قبل مقام «الوحدة» ومقام «الفناء في الله» ، ممّا حدا بالمرحوم النوريّ إلى الظنّ بأنّ المراد من ذلك هو الاتحاد الباطل ، أي اتّحاد الحقّ المتعال مع السالك إلى الله مع الاحتفاظ بالثنائية ، وهاجم بعض العرفاء المعروفين مثل

١- يقول : «لقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله إنّ من كان مذهبه غير الجبر فهو كالمجوس» .

«روضات الجنّات» ج ٢ ، بين ص ١٩٣ و ١٩٦ ، الطبعة الحجرية .

بايزيد البسطامي وشقيق البلخي ومعروف الكرخي أعلى الله تعالى درجاتهم لاستعمالهم هذه اللفظة ؛ بينما لم يؤخذ أبا الفتح الرازي أو علي بن طاووس أو الشهيد الثاني رضوان الله تعالى عليهم لأنهم لم يستخدموا في كلامهم لفظة الاتحاد ؛ مع أن مجموعة من أمثال هؤلاء العلماء كانوا يؤيدون أولئك العرفاء الكبار وكانوا يعتقدون بالاتحاد ويعملون كذلك بمقام الاتحاد .

وشاهدنا في هذا الموضوع هو عبارات وإنشاء الخواجة نصير الدين الطوسي في كتابه النفيس «أوصاف الأشراف» والذي اعتبر فيه «الاتحاد» صراحة مقاماً ومنزلة . ولغرض شرح وتبيين هذا الأمر نرى لزاماً في البدء نقل عبارات الخواجة أعلى الله مقامه ؛ ثم نقل بعدها عبارة المرحوم الحاج حتى يتبين الفرق بين هاتين النسبتين ، ونعلم أن أمثال بايزيد البسطامي صاحب المقام العالي وتلميذ الأئمة ، لم يجازف في استعمال هذه الكلمة ، وأن نسبة الغلط والكفر والارتداد إلى هؤلاء ناتج عن التسرع في الحكم على الآخرين :

يفتح الخواجة نصير الدين الموضوع بكلمة «الاتحاد» في الفصل الخامس من ذلك الكتاب وأتبعه بالعبارة التالية :

«قال الله تعالى سبحانه : لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .^١

«التوحيد» هو اعتقاد وحدانيته تعالى ، و«الاتحاد» الصيرورة شيئاً واحداً . فهناك وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ،^٢ وهنا لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ .

١- صدر الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٢- قسم من الآية ٣٩ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

وذلك لوجود شائبة التكلف في التوحيد وهو ما لا يوجد في الاتحاد .
إذن فمتى ما أصبح التوحيد مطلقاً وترسخ في الضمير ولم يأخذ الثنائية بنظر
الاعتبار بوجه أو بآخر ، فإنه سيصل مرتبة الاتحاد .

وليس الاتحاد ما يتوهمه بعض قصار النظر من أن المراد به هو اتحاد
الله تعالى مع العبد : **تَعَالَى اللَّهُ عَن ذَلِكْ عُلُوًّا كَبِيرًا**^١ .

بل معناه أن يرى الجميع دون تكلف ذلك الذي يقول : ما سواه منه ،
إذن فالجميع واحد ، أي لأنه أبصر بنور تجليه تعالى شأنه فهو لا يرى أحداً
سواه . فلا يكون هناك من راءٍ ولا مرئيٍّ ولا رؤية ويصبح الكل واحد ،
وتكون مصداقاً لدعاء المنصور الحلاج الذي أنشد قائلاً :

بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِّي يُنَازِعُنِي فَارْفَعْ بِفَضْلِكَ إِنِّي مِنَ الْبَيْنِ
فتزول إتيته ويُردد العبارة التالية ما استطاع : «أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ
أَهْوَى أَنَا» .

ونعلم أن من قال : **أَنَا الْحَقُّ ، وَسُبْحَانِي مَا أَعْظَمَ شَأْنِي** ، لم يكن في
مقام الادعاء بالألوهية ؛ بل هو بذلك قد نفى إتيته وأثبت إتيته الغير وهو
المطلوب^٢ .

وقال فيما قاله جناب المرحوم « كيوان السميعي » في مقدمته على
« شرح گلشن راز » :

« نعم ، قلنا أن للتصوف جانبين : الجانب الديني والجانب العلمي .

١- هذه العبارة مقبسة من الآية ٤٣ ، من السورة ١٧ : الإسراء : **وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ**

عُلُوًّا كَبِيرًا .

٢- «أوصاف الأشراف» ص ٦٦ و ٦٧ ، الباب الخامس ، الفصل الخامس ، بخط

النستعليق للعماد الكاتب .

وقلنا إن الجانب الديني فيه لم يتأثر بأي شيء سوى بالدين الإسلامي وأعمال وأقوال النبي وأئمة الدين . ولإتمام حديثنا نقول : منذ أن اغتصب بنو أمية الحكومة الإسلامية ومارسوا أنواع الظلم والقمع والقتل والتعذيب أو سجن أي شخص من أهل الزهد والتقوى يقوم بإشهار مخالفته ضدهم ، فقد اعتزل بعض الأفراد وانشغلوا بالعبادة الصرفة ، لكن هؤلاء العباد أو الزهاد لم يكتسبوا صفة التصوف أبداً .

حتى أخذ بنو العباس زمام أمور الحكومة الإسلامية وتجاوزوا الحد في الظلم والتعسف . ونتيجة للمظالم والاعتداءات التي مارسها بنو العباس فقد يئس كثير من الزهاد والعباد في ذلك الزمان من إمكانية إصلاح شؤون المسلمين ، حتى أضحى عصر بني العباس أسوأ بكثير من عصر بني أمية ، مما حدا بأولئك الزهاد والعباد بتفضيل الانزواء والتعبد بعد أن أستياسوا من الناس . ولما كان الأئمة على رأس هذه الفئة ، فقد اجتمع أولئك الزهاد والعباد حولهم كالفراش المتجمع حول السراج ، لمؤاساتهم وتطبيب خاطرهم . فلما طال الزمن على هذه الفئة وتناولت السنون التي قضوها في العباداة والعزلة فقد غلب عليهم الانشغال بالله والعوالم المعنوية ، ولم يرغبوا في شيء كما يرغبوا في المعارف والحقائق المتعلقة بمعرفة الله والنفوس وبدأوا ينهلون من تلك العيون ما أمكنهم .

ولم يبخل الأئمة أو يقصروا في إغنائهم وإفاضتهم من تلك العلوم ، حتى حاز ثلاثة منهم على صُحبة ثلاثة من الأئمة صحبة معنوية وصورية شديدة القرب ، أحدهم بايزيد البسطامي الذي مارس التقيّة خوفاً من بطش المبطشين وانتحل شخصية السقاء وتمكّن بذلك من مصاحبة الإمام جعفر الصادق عليه السلام سنوات طويلاً فتشرب من حقائق ذلك الإمام وارتوى

من معارف فيضه الشيء الكثير^١.

والثاني، شقيق البلخي الذي تاب من ذنوبه على يد الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام ولازمه.

والثالث: معروف الكرخي والذي تنكّر بهيئة بواب لدار الإمام الرضا عدّة سنوات تقيّةً وخوفاً من المناوئين^٢.

وبسبب اكتساب هؤلاء الثلاثة معارفهم وحقائقهم من الأئمة الثلاثة وتدريسهم ذلك لباقي الزهاد والعبّاد، فقد اصطبغوا بصبغة الزهد والعبادة والمعارف الخاصة والتي لم تكن موجودة في عصر بني أمية.

وواضح بشكل لا يقبل الشك أنّ المعارف والحقائق التي كان الأئمة حائزين عليها هي نفسها التي قام الرسول بتعليمها إلى عليّ بن أبي طالب

١- كتب العالم الجامع للكمالات الشيخ بهاء الدين العاملي المعروف بـ«الشيخ البهائي» في كتابه «الكشكول» طبعة مصر الدرج الأول، ص ٨٦، موضوعاً حول بايزيد البسطامي قال فيه:

«كان سقاً للإمام جعفر الصادق عليه السلام دون شك أو ريب. ذكر هذه القضية جماعة من المؤرخين، وأورد ذلك أيضاً الإمام فخر الدين الرازي في كثير من كتبه الكلامية، وذكره كذلك السيّد الجليل رضيّ الدين عليّ بن طاووس في كتاب «الطرائف»، وذكره أيضاً العلامة الحلبيّ في شرحه على «تجريد الاعتقاد» للخواجه الطوسي» إلى آخر كلامه في هذه المسألة.

أقول: نُقل في كتاب «الطبقات» للشعراني، ج ١، ص ٥ عن بايزيد البسطامي قوله إنّه كان يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم من علماء الرُسوم ميّتاً عن ميّت؛ وأخذنا علمنا من الحيّ الذي لا يموت!

٢- جاء في كتاب «طبقات الصوفيّة» تأليف أبي عبد الرحمن السلمي، ص ٨٥ أنّه قال: «أسلم معروف الكرخي على يد الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، وعمل حاجباً وبواباً للإمام بعد إسلامه. وازدحم الشيعة يوماً أمام باب دار الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام فكسير له عظم في صدره، فتوفّي على أثرها ودُفِنَ في بغداد بالعراق».

عليه السلام ومنه إلى أولاده ومن أولاده إلى مَنْ وجدوا فيه الاستعداد والقابلية لنيها. ولمّا لم يكن للأئمة المذكورين مُعلّماً غير آبائهم ، فقد كان منهلهم الوحيد والأصليّ هو الرسول وعليّ عليهما صلوات الله .
وأهمّ دليل لدينا يُثبت أنّ الأئمة الثلاثة لم يتوانوا في إغداق أعلى مراتب المعارف الدينيّة على الأشخاص الثلاثة المذكورين ، ويُشير إلى نوع تلك المعارف ومنبعها ، هو كتاب «مصباح الشريعة» الذي يحوي أحاديثاً في الحقائق والمعارف قالها الإمام جعفر الصادق ، ولمّا كان شقيق البلخيّ مُلزماً للإمام موسى بن جعفر عليهما السلام فقد أمر الإمام أحد أقربائه الذي كان من خواصّ أهل العلم والذي كان قد دَوّن تلك الأحاديث في الحقائق والمعارف (لِلإمام جعفر الصادق عليه السلام) في كتاب مستقلّ بتسليم ذلك الكتاب إلى شقيق البلخيّ ليُبيّنه البلخيّ بدوره إلى الخواصّ من أهل المعرفة والتصوّف .

وقد نال الكتاب المذكور الذي احتوى على أسرار التصوّف وحقائقه ثقة كبار علماء الشيعة ؛ واستند المرحوم الحاجّ ميرزا حسين النوريّ - وهو خاتم مُحدّثي الشيعة - كذلك على أحاديث الكتاب المذكور واعتبره واحداً من المصادر التي اعتمدها كتاب «مستدرك الوسائل» .

وذكر النجاشيّ في رجاله ما قوله إنّ الفُضيل بن عياض هو أحد مشاهير المتصوّفة في القرن الثاني للهجرة والذي قال عنه النجاشيّ إنّّه ثقة ، ووصفه الشيخ الطوسيّ في «الفهرست» بالزهد ، كان قد أُلّف كتاباً روى فيه عن الإمام الصادق^١ .

لكنّي أعتقد أنّ هذا الكتاب لم يعد موجوداً في الوقت الحاضر ؛ إلاّ

١- راجع «خاتمة المستدرك» ج ٣ ، ص ٣٣٣ .

أنّ كتاب «مصباح الشريعة» الذي يشمل مائة باب في الحقائق موجود في أيدينا اليوم ومطبوع كذلك . وللميرزا حسين النوريّ كلام في «خاتمة المستدرک» حول هذا الكتاب له علاقة بما نتحدّث عنه نرى من المناسب نقله هنا :

كتب المرحوم الحاجّ النوريّ يقول : «للصوفيّة مقصدان يُعبّر أحدهما مقدّمة للآخر .

المقصد الأوّل هو تهذيب النفس وتنقيتها من الشوائب والظلمات وتطهيرها من الرذائل والصفات السيّئة ، وصبغها بالأوصاف الجميلة والكمالات المعنويّة . ويحتاج هذا الأمر إلى معرفة النفس والقلب وتحديد الصفات الجيدة والخصال الحميدة والذميّة حتّى يتمكّن (المرء) من البدء بتطهير النفس والقلب وتزكيتهما وتنويرهما وتحليتهما . وهذا مقصد جدّ عظيم يشترك فيه أهل الشرع وكافة العلماء . وكيف لا يكونون شركاء في ذلك وقد وُضِعَت العبادات والشعائر الدينيّة لهذا الغرض ، وما كان إرسال الرسل أو إنزال الكتب إلّا لأجل ذلك ، وقد حتّ القرآن الكريم في كثير من الآيات على الاهتمام بأمر القلب وتهذيبه .

وللصوفيّة مؤلّفات نفيسة كثيرة في هذا المقصد ومفيدة جدّاً ، إلّا أنّنا نجد فيها كذلك كلاماً عن الرياضات المحرّمة والبدع والكذب .

وأما المقصد الثاني ، فهو عبارة عن ادّعاءات يستنبطونها كنتيجة لتهذيب النفس والرياضات ؛ ويتحدّثون فيها عن «الوصول» و«الاتحاد» و«الفناء» وأمور أخرى كثيرة . ولا يشترك معهم في هذا أهل الشرع والدين .

ولأنّ كبار العلماء يشاركونهم الرأي في المقصد الأوّل فقد صار أولئك الذين بالغوا في السير وراء ذلك المقصد موضع انتقاد المتّسمين

بقلة التبصّر والتمييز؛ ولهذا نسبوا كثيراً من العلماء الأجلاء من أمثال أبي الفتوح الرازي، وعلي بن طاووس، والشهيد الثاني وغيرهم إلى التصوّف، في حين لا توجد آية صلة بين المقصدتين المذكورين، إذ لا يستلزم تهذيب النفس وجوب الاعتقاد والإيمان بالوصول والاتّحاد والرياضات المحرّمة. (راجع كتاب «خاتمة مستدرک الوسائل» ج ٣، ص ٣٣٠).

مع ملاحظة كلام الحاج ميرزا حسين ودقته، لكنّ ما يلفت نظرنا هو أنّ المرحوم لم يكن لديه اطلاع كافٍ على عقائد الصوفيّة وذلك من خلال مطالعة ما ذكره بهذا الخصوص في المقصد الثاني أعلاه؛ لأننا نعلم أنّ هذه الطائفة لا تؤمن بالاتّحاد والحلول، وإذا كان هناك ذكر أو إشارة إلى الاتّحاد في كتبهم فذلك معناه ما ذكره الخواجه الطوسي في «أوصاف الأشراف». «وليس الاتّحاد ما يتوهّمه بعض قصار النظر من أنّ المراد به هو اتّحاد الله تعالى مع العبد: تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا،^١ بل معناه أن يرى الجميع دون تكلف».

وأما ما يخصّ الوصول، فإنّ ما ذكره الخواجه بعد العبارات أعلاه يدلّ بوضوح على عدم اكتمال المحدّث وتمامه، لأنّه قال: «وتكون مصداقاً لدعاء المنصور الحلاج الذي أنشد قائلاً:

بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِّي يُنَازِعُنِي فَارْفَعْ بِفَضْلِكَ إِنِّي مِنَ الْبَيْنِ^٢

١- كما قلنا فإنّ هذه العبارة مقتبسة من الآية ٤٣، من السورة ١٧: الإسراء.

٢- ورد في التعليقة: «هذا البيت هو أحد الأبيات الشعرية الصوفية التي نظمها

الحلاج، وباقي الأبيات هي:

أنا أنا أنت أم هذا إلهين	حاشاي حاشاي من إثبات اثنين
هويتي لك في لائيتي أبداً	كلّ على الكلّ تلبس بوجهين ⇨

فتزول إيتيه ويُردّد العبارة التالية ما استطاع: «أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا». ونعلم أنّ مَنْ قَالَ: أَنَا الْحَقُّ وَسُبْحَانِي مَا أَعْظَمَ شَأْنِي، لم يكن في مقام الادّعاء بالألوهية، بل هو بذلك قد نفى إيتيه وأثبت إيتية الغير وهو المطلوب».

وأما التريّض الذي تمارسه الصوفيّة الحقّة لتزكية النفس، فإنّ المرحوم نفسه قد ذكر أنّ أهل الشرع وكافة العلماء يفعلون ذلك أيضاً. ومن يطالع كتب التراجم التي تصوّر حالات العلماء الزاهدين الورعين، يلاحظ أنّ التريّض الذي كانوا يمارسونه هو من نفس نوع التريّض الذي كانت تؤدّيه جماعة الصوفيّة الحقّة.

والخلاصة، فإنّ المتصوّفة لا تختلف من حيث ممارساتها الدينيّة وطقوسها العقائديّة مع بقيّة المتشرّعين سوى أنّهم كانوا يمارسون الفرائض بشكل أفضل ويؤدّون المندوبات بكثافة، ويمكن القول: إنّ عصارة المعارف الدينيّة وخلاصة الحقائق الإسلاميّة لهذه الجماعة كذلك هي نفس الأشياء التي تمّ بيانها باختصار وأشير إليها في كتاب «مصباح الشريعة».

إلا أنّ الجانب العلميّ لأولئك كان له شكل مختلف، حيث استقى كبار المتصوّفة بعض علومهم من مصادر أخرى إلى جانب الدين الإسلاميّ الحنيف، والذي يعتبره المحققون مصدراً لا يمكن إنكاره أو التغاضي عنه

فقد تبيّن ذاتي حيث لا أيني
في ناظر القلب أو في ناظر العين
فارفع بلطفك إنسي من البين

فأين ذاتك عني حيث كنت أرى
ونور وجهك معقوداً بناصيتي
بيني وبينك إنسي يُنازعني

وأنا أقول متمثلاً:

كرفتم آنكه نگیری مرا به هیچ گناهی
همین گناه بس که با وجود تو هستم
يقول: «لقد أدركت أنك لا تؤاخذني بأية جريرة، إلا بجريرة أنني موجود بوجودك».

بأي شكل من الأشكال»^١.

يقول الحقير الفقير: يبدو لنا أن ما ذكره المحدث النوري رحمه الله عن عدم وجود ترابط بين مقصدي الصوفية هو غير صحيح، لأن الملازمة والترابط الكامل بين ذلك المرامين ليس فقط من ضروريات مسلك الصوفية وحسب، بل وكذلك من ضروريات أهل الشرع وأتباع السنة النبوية والعلوية، وهي كذلك تشكل بدهة مفاد الآيات القرآنية والكتب السماوية الأخرى.

إن للعبادة وتزكية النفس والتخلق بالأخلاق الحميدة وتجنب الصفات الرذيلة أثر فعال في عرف وعقيدة المتشرعين الكبار. والتي يُراد بها التقرب إلى الحق تعالى والتزلف إليه. فأني نوع من أنواع العبادة والعمل سيكون باطلاً وفساداً ما لم تكن الغاية من ذلك التقرب.

وليس المقصود بالتقرب إلى الحق تعالى التقرب الزماني أو المكاني أو الكيفي أو الكمي وغير ذلك. بل المقصود به رفع الحُجُب النفسانية حيث يُرفع بكل عمل حجاب، حتى تزول جميع الحُجُب في النهاية ولا يبقى بين العبد والحق أي حجاب. أي أنه لا يصل إلى مرحلة «لقاء الحق» وحسب، بل سيفوز بـ «الاتحاد» و«الوحدة» و«الوصول» ومقام «الفناء في الله» ومن ثم مقام «البقاء بالله».

أليست الآيات القرآنية: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**^٢، تدل صراحة على أن العمل الصالح

١- «شرح گلشن راز» للشيخ محمد اللاهيجي، مع مقدمة لكيوان السميعي، ص ٦٢

إلى ٦٦.

٢- ذيل الآية الأخيرة من السورة ١٨: الكهف.

يوصل الإنسان إلى لقاء ربّه إذا اقترن بنية الإخلاص؟!
 أليست الآية من كان يزجوا لقاء الله فإن أجل الله لآت^١ تدلّ دلالة واضحة على إمكانية التشرف باللقاء الإلهي بمجرد العزم في النية والعمل والقول .

فما فائدة ونتيجة تزكية النفس والتخلي والتجلي والتجلي بجميع المتاعب والمصاعب المتوقعة في هذا المقام إذا لم تكن بقصد التقرب إلى الحق تعالى ، أي بنية رفع الحجاب والتقرب إليه بدرجات متفاوتة ومراتب متباينة من «الوصول والاتحاد والوحدة والفناء والبقاء» سوى كونها مصداقاً لعمل حمار الطاحونة الذي يدور حول نفسه باستمرار؟!

فهل كان الله بحاجة إلى أعمال العباد حتى يكلفهم بتكاليف مجردة غير ذات معنى ، ثم يُرسلهم إلى مجرد نار أو مجرد جنة؟!
 إنّ هذا العمل شديد الشبه بعمل إله وهمي محتاج حاقداً ضاغناً جشعاً حسوداً بخيلاً؛ إنه ليس عمل الإله الحقيقي الواقعي ، الغني على الإطلاق ، الكريم الرحمن الرحيم .

إنّ كلّ ما فرضه الأنبياء من واجبات وأعمال على أممهم كان بهدف رفع حُجُبهم النفسانية ، فإذا رُفِعَ الحجاب كانت الجنة ، وكان الحق ، وكان اللقاء والوصول والفناء .

وإذا بقي الحجاب ، فهي الجحيم والشیطان والخسران والحرمان والطرْد والزمهير ولظى نزاعة للشوى والحسرة والندم . ألم نطالع قصة الأعمال الشاقة والعبادات الكثيرة لـ «بلعم بن باعوراء» في القرآن الكريم التي أبقتة في آخر المطاف فقيراً؟!

١- صدر الآية ٥ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

ولهذا نرى أنّ الفصل الذي أوجده بين هذين المقصدين غير صحيح وليس في محله . فالذين عملوا بالمقصد الأوّل وساروا على نهجه ثم وصلوا إلى المقصد الثاني كانوا هم الفائزون والمفلحين .
 وأمّا الذين عملوا بالمقصد الثاني دون أخذ علته الغائية بنظر الاعتبار ودون أيّما أمل في لقاء الحقّ أو رجاء في ذلك ، وكذلك دون رفع الحُجُب الظلمانيّة والنورانيّة ، فقد ظلّوا في أماكنهم يراوحوّن لم يخطوا خطوة واحدة إلى الأمام ، فمثلهم كالحمار في الوحل الذي يتّجه يمناً ويسرة بغير هدى ، فكان نصيبهم الحرمان إلى الأبد .

يجب أن نقول لجناب المرحوم النوريّ : إنّ التمسك بقصر النظر والنزوع إلى الحضيض ، ونسبة السجايا الصحيحة والواقعيّة كالوصول والاتّحاد والفناء إلى أولياء الله من أمثال بايزيد وشقيق ومَعروف وهم التلامذة الأخصّاء والمُتربّين في مدرسة أئمتنا الأطهار ، ثمّ تعليم ذلك كلّه بعلامة البطلان وختمه بختم البدعة واتّهامه في مقاصدهم ونواياهم السامية ، كلّ ذلك لا يُنهي العمل ولا يحلّ الأمر أو الادّعاء .

لقد كان الشيخ أبو الفتوح الرازيّ والشهيد الثاني والسيد ابن طاووس أيضاً يسيرون وراء مثل هذه المقاصد الراقية ، وكان الفناء والوحدة والوصول إلى حضرة ربّ العزّة مُنتهى آمالهم وغاية أمنيّاتهم .

إنّ قصّة العرفان والهيجان وسلوك السبيل الإلهيّ لا تنتهي عند هذا العدد من العلماء الأجلّاء والأخبار النبلاء في الإسلام . فجميع العلماء الحقيقيّون أمثال ابن فهد الحلّيّ ، والملاّ صدرا الشيرازيّ وتلميذيه الفاضلين الفيض الكاشانيّ والفيّاض اللاهيجانيّ ، والحكيم السبزواريّ ، والسيد مهدي بحر العلوم ، والشهيد الأوّل ، والمجلسيّ الأوّل ، والعالميّين النبيلين الأوحدين : الحاجّ الملاّ مهدي النراقيّ ونجله الحاجّ الملاّ أحمد

النراقي ، والأستاذ آية الحق وسند العرفان ووصي الشيخ الأنصاري السيد علي الشوشترى ، والآخوند الملا حسين قلي الهمداني وتلاميذه ذوي المجد والاعتبار : الآقا السيد أحمد الطهراني الكربلائي والحاج الشيخ محمد البهاري والحاج الميرزا آقا جواد الملكي التبريزي والسيد سعيد الحنوبى النجفي ، جميع هؤلاء وكثير غيرهم كانوا من هذه الزمرة .

جميعهم كان يقول بوحدة الوجود والوصول والفناء ، وقد أثنى جميعهم على بايزيد ومعروف وكل كلامهم وحدثهم ومرامهم نابع من مصدر واحد . فكيف يتسنى للبعض والحال كذلك تشويه سمعتهم وتلطيخ سجلهم بما لا يرضاه الله؟! كيف يمكن تجاهل هؤلاء الذين كان عملهم وعقيدتهم يعكسان عمل وعقيدة أئمة الشيعة العظام؟! كيف يمكن تغطية العقول والأذهان بنسبة ما هو خلاف الواقع إلى العرفاء الصادقين والحكماء المتقين من أمثال محيي الدين والملا صدرا الشيرازي؟! هل من سبيل إلى محو اسم السيد حيدر الآملي من سجل أتباع هذه المدرسة الجليلة القدر؟! إنه حقاً العالم الأوحى للشيعة وفخر العالم والبشريّة جمعاء إلى يوم الدين الذي قام بشرح كلام محيي الدين بن عربي .

فهل من المنطقي أن يقوم الأجانب بالبحث عن كتبه القيمة والنفيسة مثل «نصّ النصوص» و«نقد النقود» وتفسير «المحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم» وطبعها ونشرها ويضعوها في متناول أهل التحقيق في الداخل والخارج لدراستها ومطالعتها؛ في حين قد مضت سبعة قرون على تأليف تلك الكتب ونحن الشيعة محرومون من مطالعتها وإدراكها وفهمها والعمل بها!؟

وإنّه لأمر محير أن يغفل المحدث النوري عن ذكر اسم كتاب «أوصاف الأشراف» ومواضيعه ، في حين أنّ حرفته الأصليّة ومهنته

الأساسية الببليوغرافيا^١ والإمام بالنفيس من الكتب الخطية وتأليف السالفين !

فهذا الكتاب (أي «أوصاف الأشراف») المختصر والشامل والمفيد ، ومن مؤلفات معلّم البشر ، والعقل الحادي عشر ، فخر الفلاسفة والحكماء ، زخر الشيعة والعلماء ، ومدار العلم والدراية ، ومنار الفهم والرواية : الخواجة نصير الدين الطوسي رضوان الله تعالى عليه ، يحوي على ستة أبواب تدور حول مسألة السلوك إلى الله . التوكّل ، الرضا ، التسليم ، التوحيد ، الاتّحاد ، الوحدة . وبسبب عدم إمكانية تقسيم موضوع الفناء ، والذي يشكل موضوع الباب السادس ، فقد تمّ تخصيص الباب المذكور بأكمله لذلك الموضوع .

وقد جاء في الفصل الخامس من الباب الخامس ، في موضوع الاتّحاد المنتهي بالوصول ، على ذكر مسائل قيّمة وقد ذكرناها بالكامل . ويقول في الباب السادس من نفس الباب تحت عنوان «في الوحدة» ما يلي :

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .^٢

الوحدة هي أعلى من الاتّحاد ؛ وذلك لأنه تفوح من كلمة الاتّحاد - التي تعني الصيرورة شيئاً واحداً - رائحة الكثرة ، في حين تخلو كلمة الوحدة من ذلك . وهناك ينعدم السكون ، الحركة ، الفكر ، الذكر ، السير ، السلوك ، الطلب ، الطالب ، المطلوب ، النقضان والكمال حيث : إِذَا بَلَغَ الْكَلَامُ إِلَى اللَّهِ فَأَمْسِكُوا!

١- Bibliography ويعني فنّ وصف الكتب والمخطوطات أو التعريف بها. (م)

٢- ذيل الآية ١٦ ، من السورة ٤٠ : غافر .

ويقول في باب «في الفناء» ما يلي :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .^١

ولا يوجد في الوحدة ، سالك أو سلوك أو سير أو غاية أو طلب أو طالب أو مطلوب ؛ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .

وينعدم الإثبات والنفي لهذا القول ، والإثبات والنفي هما متقابلان .
والثنائية هي مبدأ الكثرة . وهناك ينعدم النفي والإثبات ؛ ونفي النفي وإثبات الإثبات . وينعدم نفي الإثبات وإثبات النفي .

ما سبق يُدعى بالفناء ، وبالفناء يتم المعاد للبشر . كما كان مبدأهم منه ؛ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .^٢

وتعريف الفناء على أنه حدّ مع الكثرة : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ .^٣

ولذا لن يكون هناك فناء بهذا المعنى . فكلّ ما يجري على اللسان وكل ما يتوهم وكلّ ما يتناهى إلى العقل ينعدم بالجملة ؛ إِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ .^٤

ومما نقلنا هنا تتضح عدّة مسائل :

أولاً : ما قاله المرحوم المحدث النوري هنا وهو :

«الثاني : مَا يَدْعُونَ مِنْ نَتِيجَةِ تَهْدِيبِ النَّفْسِ وَثَمَرَةِ الرِّيَاضَاتِ ؛ مِنْ الْمَعْرِفَةِ وَفَوْقَهَا مِنَ الْوُصُولِ وَالِاتِّحَادِ وَالْفَنَاءِ ، وَمَقَامَاتٍ لَمْ يَدْعِهَا نَبِيُّ مِنْ

١- قسم من الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٢- ذيل الآية ٢٩ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٣- الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٤- «أوصاف الأشراف» ص ٦٧ و ٦٨ . والآية هي قسم من الآية ١٢٣ ، من السورة ١١ :

الأنبياءِ وَوَصِيٍّ مِنَ الْأَوْصِيَاءِ فَكَيْفَ بِاتِّبَاعِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّقَى . مَعَ مَا فِيهَا مِمَّا لَا يَلِيقُ نِسْبَتَهُ إِلَى مُقَدَّسِ حَضْرَتِهِ جَلَّ وَعَلَا ، وَيَجِبُ تَنْزِيهُهُ عَنْهُ ؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُهُ الظَّالِمُونَ .»

هذا القول هو عارٍ عن السداد والصحة والاستقامة ، وقد بُني على أساس المغالطة والفسفسطة ؛ ليس على أساس العلم والبرهان .

ثانياً : كذلك القول التالي :

«وَأَمَّا الْمَقْصِدُ الثَّانِي ، فَحَاشَى أَهْلَ الشَّرْعِ وَالِدِّينَ فَضْلاً عَنِ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ أَنْ يَمِيلُوا إِلَيْهِ أَوْ يَأْمَلُونَهُ أَوْ يَتَفَوَّهُونَ بِهِ ؛ وَأَغْلَبَ مَا وَرَدَ فِي ذِمِّ الْجَمَاعَةِ نَاطِرٌ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَى .»

لا أساس له ؛ ولا تحقق ولا عينية له ، بل بهتان وافتراء في عالم الواقع ليس إلا .

ثالثاً : وما أورده أيضاً :

«وَأَلَّ أَمْرُهُمْ إِلَى أَنْ نَسَبُوا مِثْلَ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ تَرْجُمَانَ الْمُفَسِّرِينَ أَبُو الْفَتْوحِ الرَّازِيُّ ، وَصَاحِبَ الْكَرَامَاتِ عَلِيِّ بْنِ طَاوُوسٍ ، وَشَيْخَ الْفُقَهَاءِ الشَّهِيدِ الثَّانِي قَدَّسَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ ؛ إِلَى الْمَيْلِ إِلَى التَّصَوُّفِ كَمَا رَأَيْنَاهُ . وَهَذِهِ رَزِيَّةٌ جَلِيلَةٌ وَمُصِيبَةٌ عَظِيمَةٌ لَأَبَدٍ مِنَ الْإِسْتِرْجَاعِ عِنْدَهَا .»

كلام لا أساس له من الصحة وحُقق أن يرجع عن كلامه ذلك وادعائه الباطل ؛ وأن لا يلطخ الثوب الطاهر لأوتاد الدين والعلم ، وأوطاد الحكمة واليقين ، ومناثر الفضيلة والعرفان ، والقائلين بوحدة الباري رب العالمين .

رابعاً : وما أعقب هذه العبارات بـ :

«نَعَمْ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ تَأْدِبًا لَا إِيرَادًا : إِنَّ فِيهَا وَرَدَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ الْعِصْمَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ غِنَى وَمَنْدُوحَةٌ عَنِ الرَّجُوعِ إِلَى زُبُرِهِمْ وَمُلَفَّقَاتِهِمْ وَمَوَاعِظِهِمْ .»

كذلك كلام غير موزون . مَنْ غيركم ، أنتم الحشويّون الظاهريّون ، أخرج كلام الثقات أمثال بايزيد البسطاميّ وشقيق البلخيّ والشيخ المستجاب الدعوة من بين أهل بغداد معروف الكرخيّ من كونه من زُمرة تلاميذ آل بيت العصمة عليهم السلام وحشره في زُمرة المخالفين ، أنتم الذين سارعتم إلى الضرب بهراوة التكفير والتفسيق على رؤوسهم لمجرّد عدم توافق كلماتهم الراقية مع مزاجكم وغياب الانسجام بين مواضعهم العالية وبين ميولكم ، وحسبتموهم ضمن جماعة المخالفين وزُمرة المتمرّدين ورهط المعتدين وعصبة المنحرفين؟!

أفحسبتم أنكم تستطيعون حبسهم وعزلهم لأنكم تُمسكون بيديكم أقلاماً وعندكم القدرة على توجيه تلك الاتهامات إلى خواصّ الأئمة وأحبّ الناس إليهم وخصوصاً للإمام جعفر الصادق وولده الأكبر الإمام موسى بن جعفر وحفيده الجليل الإمام عليّ بن موسى عليهم الصلاة والسلام؟! أم ظننتم أنكم بكرّكم وفترّكم وقيامكم وقعودكم وصعودكم وهبوطكم قادرون على تحجيمهم وإرغامهم على الانزواء والاعتزال عن عامّة الناس؟! أحسبتم أن يتركوكم سديّ؟! أقسمُ بالله أنكم سترون هؤلاء الأفراد فرداً فرداً أثناء اجتيازكم للعقبات الصعبة والحواجز المهولة والمخيفة حين الموت ، وعالم القبر والحشر والنشر والعرض والسؤال والحساب ؛ حين المواقف العظيمة عند الله ربّ العالمين ؛ سترونهم يؤخذونكم قائلين : بأيّ ذنب ودليل نسبتم إلينا ما نسبتم جزافاً ، وقتلتم إزاءنا كلّ ما استطعتم في المحافل والمجالس والدروس وعلى منبر النبيّ وبين سطور الكتب الدينيّة والعقائديّة بلسان جميع أهل الأرض؟!

كيف نسيتم مضمون الآية وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ

وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا^١ وأودعتموها ثرى النسيان ، وظلتم تشدقون ببحث عدم حجّية الظنون المطلقة في كتاب الأصول؟! لماذا قمتم ببحث الألف واللام في أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ بإطناب وتفصيل مُملئين واستخرجتم من ذلك فوائد جمّة في العموم والإطلاق ، ووشحتم شروحها بالحواشي والتفريعات التي لا تحصى ، لكن لما وصل الأمر إلى بحث الألف واللام في السَّمْعِ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ غَضِيتُمُ البصر وتغاضيتُم عن ذلك ، وأهملتم التأكيد الوارد في كُلِّ أُولَئِكَ ولم تنتفعوا بحالة النكرة المذكورة في سياق النفي في كلمة عِلْمُ الانتفاع المطلوب والمتوخى منه؟! لقد شرعتم أولاً بوضع التلامذة الكبار للأئمة عليهم السلام جانباً وعزلهم بعد اتهامهم بالمخالفة ، ثم ألصقتم بعد ذلك تهمة التخلف عن ركب الأئمة على رجال من أمثال أبي الفتوح الرازي والسيد ابن طاووس والشهيد الثاني ، ظانين أنّهم من زمركم أنتم الحشويّون البعيدون عن العرفان الإلهي والمخالفين للقائلين بوحدة الحق تعالى ، لتضفوا على ذلك علومكم الظاهريّة والمجرّدة من المعرفة والسلوك الإلهي وتهذيب النفس والرياضة المشروعة رونقاً وبهاءً ، مع أنّ هؤلاء ، في الواقع ، ينتسبون إلى أولئك ؛ ثمّ نسبتهم تهمة الإلحاد والانحراف إلى العلماء العظام من أمثال الحكيم والفيلسوف المسلم موضع فخر البشرية الملائ صدرا الشيرازي أعلى الله درجته لا لشيء إلاّ لأنّه مدح ابن عربي ومجّده ؛ وأطلقتُم لقب «الملاّ المُسيء» على الملاّ محسن الفيض ، ولقب «مُमित الدين» على محيي الدين^٢ ؛ وانشغلتم بترتيب العبارات الرنانة لتُبدوا موالاتكم لمذهب

١- الآية ٣٦ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢- هذه هي صريح عبارات الشيخ أحمد الأحسائي .

آل بيت العصمة وتزويق الكلمات لتدعوا سيركم على نهج آل بيت الطهارة والتشيع الحقيقي . لكنكم في الحقيقة ابتعدتم بأعمالكم تلك وتصرفاتكم هذه عن روح التشيع وقصيتم عن حقيقة الولاية ؛ حتى آل بكم المطاف إلى تأليف كتاب «فصل الخطاب في تحريف كتاب ربّ الأرباب» الذي اعتبرتم فيه سلمان الفارسي أفضل مرتبة من أبي الفضل عليه صلوات الله الملك المتان وأعلى درجة منه وأخص زلفة لدى الله !

إنّي أسأل من سمح لكم بإصدار الحكم «تأدّباً لا إيراداً» على السيّد ابن طاووس وأمثاله والاعتراض عليه والانتقاص منه لتمنعوا بذلك العامة من مطالعة كتب عرفاء الإسلام العظام والواصلين ذوي المجد والإكرام الذين نهلوا العرفان من مصدره واستقوا مبدأ الوحدة من معينها وشالّوها - الوحي والإلهام والكشف - والحيلولة دون دراسة كتب الأعلام مثل الخواجة عبد الله الأنصاري و«الفصوص» و«النصوص» وتحرموهم بذلك من الانتفاع من هذه المصادر الحقّة والاستفاضة منها ؟!

الخامس :

وفيما يلي تعقيبهم على هذا الكلام كاستشهاد للاستدلال على عدم جواز الرجوع إلى كتب أهل العرفان ومن ذكر في كتبهم كلمات أو عبارات مثل الوصول والوحدة والبقاء والفناء والاتصال وما إلى ذلك :

«قَالَ تَلْمِيذُ الْمُفِيدِ أَبُو يَعْلَى الْجَعْفَرِيُّ فِي أَوَّلِ كِتَابِ «النَّزْهَةِ»^١ : إِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ كَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ : إِذَا سَمِعْتَ كَلِمَةَ حِكْمَةٍ فَأَعِزُّهَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (يَعْنِي نَفْسَهُ) فَإِنَّهُ أَحَقُّ بِهَا وَأَوْلَى مِنْ قَائِلِهَا! - انتهى .
وَلَوْلَا خَوْفُ الْإِطَالَةِ لَذَكَرْتُ شَطْرًا مِنْ هَذَا الْبَابِ . بَلْ قَدْ وَرَدَ النَّهْيُ

١- يعني كتاب «نزهة الناظر» .

عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِهِمْ .

فَرَوَى سِبْطُ الطَّبْرَسِيِّ فِي «مَشْكَاتِ الْأَنْوَارِ» عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
أَنَّهُ قَالَ لِجَابِرٍ : يَا جَابِرُ ! وَلَا تَسْتَعِنَ بِعَدُوِّ لَنَا حَاجَةً ، وَلَا تَسْتَطْعِمُهُ
وَلَا تَسْأَلُهُ شَرْبَةً !

أَمَا إِنَّهُ لَيَخْلُدُ فِي النَّارِ فَيَمُرُّ بِهِ الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ : يَا مُؤْمِنُ ! أَلَسْتُ
فَعَلْتُ بِكَ كَذَا وَكَذَا؟! فَيَسْتَحْيِي مِنْهُ فَيَسْتَنْقِذُهُ مِنَ النَّارِ .

الْحُجَّةُ : هَذَا حَالُ طَعَامِ الْأَجْسَادِ فَكَيْفَ بِقُوتِ الْأَرْوَاحِ؟!^١ .

إن جواب ذلك يكون على وجهين :

الوجه الأول : أن الرجوع إلى كتب الفلسفة والعرفان التي مرجعها
إلى أقوال البعض من أمثال بايزيد البسطامي والخواجة الأنصاري وأبي
سعيد أبو الخير ليس معناه كما ذكرنا الرجوع إلى كتب الأعداء والمخالفين ،
بل هو رجوع إلى كتب الأصحاب للانتفاع بها والاستفادة من معانيها العالية
ومضامينها السامية التي تنتهي إلى الأئمة المعصومين صلوات الله وسلامه
عليهم أجمعين ، أو إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، أو إلى
المكاشفات والمشاهدات العينية الغيبية التي نزلت من الربِّ الودود
وألهموا بها . فأين هذا من ذلك؟!

الوجه الثاني : لدينا الكثير من الروايات التي تأمرنا أن نبحث عن
العلم ونطلبه حثيثين ولو كان مُرادنا في الصين ،^٢ وأخذ الحكمة ولو كانت
في يد المخالف والمنافق وحتى الكافر . وعلى هذا لا يجب أن يصبح

١- خاتمة «مستدرك الوسائل» ج ٣ ، ص ٣٣٠ و ٣٣١ .

٢- «بحار الأنوار» للعلامة المجلسي رحمه الله ، ج ١ ، ص ٥٧ و ٥٨ ، طبعة الكمباني ؛
وكتاب «غوالي اللثالي» و«روضه الواعظين» .

خِلافِ الْمَخَالَفِ وَلَا نِفَاقِ الْمَنَافِقِ وَلَا كُفْرَ الْكَافِرِ مَانِعاً لَنَا مِنْ طَلْبِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ وَإِفْنَاءِ أَنْفُسِنَا فِي غِيَابَةِ الْجَهْلِ وَالْأُمِّيَّةِ .

ما أروع الحديث التالي الذي يأمرنا بطلب العلم في أحلك الظروف وأقسى الحالات : **اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِخَوْضِ اللَّجَجِ وَسَفْكِ الْمُهْجِ !**^١
وما أبلغ الحديث النبوي الشريف التالي الذي يصف فيه سعة نطاق التعليم عند المعلم الحريص والمجرب :

الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ؛ أَيَنَّمَا وَجَدَهَا فَهِيَ أَحَقُّ بِهَا .^٢
وجاء في «مستدرک نهج البلاغة» : **قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :**
الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ؛ وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بِغَيْرِهِ . (وَالْمَرْوِيُّ فِي

١- هذه العبارة مقبسة من رواية أوردها محمد بن يعقوب الكليني في «أصول الكافي» ج ١ ، ص ٣٥ ، رواية رقم ٥ ، باب ثواب العالم والمُتَعَلِّم ، بسنده إلى أبي حمزة الثمالي عن الإمام سيّد الساجدين عليّ بن الحسين عليهما السلام حيث قال :
لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي طَلْبِ الْعِلْمِ لَطَلَبُوهُ وَلَوْ بِسَفْكِ الْمُهْجِ وَخَوْضِ اللَّجَجِ . إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَانِيَالٍ : إِنَّ أُمَّتَكَ عِبِيدِي إِلَى الْجَاهِلِ الْمُسْتَخْفِ بِحَقِّ أَهْلِ الْعِلْمِ ، التَّارِكِ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ عِبِيدِي إِلَيَّ النَّعِيُّ الطَّالِبُ لِلثَّوَابِ الْجَزِيلِ ، اللَّازِمُ لِلْعُلَمَاءِ ، التَّابِعُ لِلْحُلَمَاءِ ، الْقَابِلُ عَنِ الْحُكَمَاءِ .

٢- روى العلامة المجلسي رضوان الله عليه في «بحار الأنوار» ج ٢ ، ص ٩٩ ، الطبعة الحروفية ، من «الأمالى» للشيخ الطوسي بسند متصل عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : **كَلِمَةُ الْحِكْمَةِ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ؛ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهِيَ أَحَقُّ بِهَا .**

وروى الراغب الإصفهاني في «المحاضرات» ج ١ ، ص ٥٠ ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : **الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ؛ أَيَنَّمَا وَجَدَهَا قَيْدَهَا .**

وقيل كذلك : **خُذِ الْحِكْمَةَ مِمَّنْ تَسْمَعُهَا مِنْهُ ؛ فَرُبَّ رَمِيَّةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ، وَحِكْمَةٍ مِنْ غَيْرِ حَكِيمٍ .** وأيضاً : **لَا يَمْنَعُكَ ضِعَةُ الْقَائِلِ عَنِ الْاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ ؛ فَرُبَّ فَمٍ كَرِيهٍ مَجَّ عِلْماً ذَكِيّاً ، وَتَبَّرَ صَافٍ فِي صَخْرٍ جَاسٍ .**

«النَّهَجُ» : الْحِكْمَةُ ضَالَّةٌ الْمُؤْمِنِ ؛ فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النَّفَاقِ !^١
 (وفي «تَحْفِ الْعُقُولِ» :) فَلْيَطْلُبْهَا وَلَوْ فِي أَيْدِي أَهْلِ الشَّرِّ !^٢
 وقال : الْحِكْمَةُ ضَالَّةٌ الْمُؤْمِنِ ؛ فَاطْلُبُوهَا وَلَوْ عِنْدَ الْمُشْرِكِ ، تَكُونُوا
 أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا !^٣

وقال عليه السلام أيضاً : خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ ! فَإِنَّ الْحِكْمَةَ فِي
 صَدْرِ الْمُنَافِقِ ، فَتَلْجَلِجُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي
 صَدْرِ الْمُؤْمِنِ !^٤

وروى العلامة المجلسي رضوان الله عليه من ضمن وصايا لقمان
 لولده يحثه فيها على تعلّم الحكمة ما يلي :

يَا بُنَيَّ ! تَعَلَّمِ الْحِكْمَةَ تَشَرَّفْ ؛ فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَدُلُّ عَلَى الدِّينِ ،
 وَتُشَرِّفُ الْعَبْدَ عَلَى الْحُرِّ ، وَتَرْفَعُ الْمِسْكِينَ عَلَى الْغَنِيِّ ، وَتُقَدِّمُ الصَّغِيرَ
 عَلَى الْكَبِيرِ ، وَتُجَلِّسُ الْمِسْكِينَ مَجَالِسَ الْمُلُوكِ ، وَتَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا ،
 وَالسَّيِّدَ سُودًا ، وَالْغَنِيَّ مَجْدًا !

وَكَيْفَ يَظُنُّ ابْنُ آدَمَ أَنْ يَنْهَيَا لَهُ أَمْرٌ دِينَهُ وَمَعِيشَتَهُ بِغَيْرِ حِكْمَةٍ ؛
 وَلَنْ يَهَيِّئَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِالْحِكْمَةِ .
 وَمَثَلُ الْحِكْمَةِ بِغَيْرِ طَاعَةٍ ، مَثَلُ الْجَسَدِ بِلَا نَفْسٍ ، أَوْ مَثَلُ الصَّعِيدِ
 بِلَا مَاءٍ .

وَلَا صَلَاحَ لِلْجَسَدِ بِغَيْرِ نَفْسٍ ، وَلَا لِلصَّعِيدِ بِغَيْرِ مَاءٍ ، وَلَا لِلْحِكْمَةِ

١- «نهج البلاغة» الحكمة ٨٠؛ وفي طبعة الشيخ محمد عبده - مصر: ج ٢، ص ١٥٤.

٢- «مستدرک نهج البلاغة» تأليف الشيخ هادي كاشف الغطاء، ص ١٥٨.

٣- «مستدرک نهج البلاغة» تأليف الشيخ هادي كاشف الغطاء، ص ١٧٨.

٤- «نهج البلاغة» الحكمة ٧٩؛ وفي طبعة مصر، شرح الشيخ محمد عبده: ج ٢،

بِغَيْرِ طَاعَةٍ ١.

قال المرحوم المحدث الحاج الشيخ عباس القمي رحمة الله عليه في كتابه النفيس والقيّم «سفينة البحار» بعد ذكر وصية لقمان أعلاه عن «بحار الأنوار» :

«وجاء في كتاب «نزهة الناظر» من مصتفات أبي يعلى الجعفري خليفة الشيخ المفيد :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : كَلِمَةٌ حِكْمَةٌ يَسْمَعُهَا الْمُؤْمِنُ فَيَعْمَلُ بِهَا خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ .

وروى في كتاب «منية المرید» عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال : قَامَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالَ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ! لَا تُحَدِّثُوا الْجَهَالَ بِالْحِكْمَةِ فَتَظْلِمُوهَا ؛ وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهُمْ !

فَأَقُولُ عَلَى طَبَقِ مَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِيَّاكَ وَأَنْ تَعْرِجَ مَعَ الْجَاهِلِ عَلَى بَثِّ الْحِكْمَةِ ، وَأَنْ تَذْكَرَ لَهُ شَيْئاً مِنَ الْحَقَائِقِ مَا لَمْ يَتَحَقَّقْ أَنْ لَهُ قَلْباً طَاهِراً لَا تَعَافُهُ الْحِكْمَةُ ؛ فَقَدْ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا تَعَلَّقُوا الْجَوَاهِرَ فِي أَعْنَاقِ الْخَنَازِيرِ !

وَلَقَدْ أَجَادَ مَنْ قَالَ : إِنَّ لِكُلِّ تَرْبَةٍ غَرْساً ، وَلِكُلِّ بِنَاءٍ أُسّاً . وَمَا كُلُّ رَأْسٍ يَسْتَحِقُّ التَّيَّجَانَ ، وَلَا كُلُّ طَبِيعَةٍ تَسْتَحِقُّ إِفَادَةَ الْبَيَانِ .

١- «بحار الأنوار» ذكره في موضعين ، الأول في : باب العلوم التي أمر الناس بتحصيلها وينفعهم ، وفيه تفسير الحكمة ، من طبعة الكمباني : ج ١ ، ص ٦٨ ؛ والطبعة الحروفية : ج ١ ، ص ٢١٩ و ٢٢٠ ، من «كنز الفوائد» للكراچكي . والثاني في كتاب الروضة ، باب نواذر المواعظ والحكم ، من طبعة الكمباني : ج ١٧ ، ص ٢٤٩ ؛ والطبعة الحروفية : ج ٧٨ ، ص ٤٥٨ من كتاب «أعلام الدين» .

وَقَالَ الْعَالِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ. فَإِنْ كَانَ
وَلَا بُدَّ فَاقْتَصِرْ مَعَهُ عَلَى مِقْدَارٍ يَبْلُغُهُ فَهْمُهُ وَيَسَعُهُ ذِهْنُهُ!
فَقَدْ قِيلَ: كَمَا أَنَّ لُبَّ الثُّمَارِ مُعَدُّ لِلْأَنَامِ فَالْتَّبَنُ مُتَّحٌ لِلْأَنْعَامِ، فَلُبُّ
الْحِكْمَةِ مُعَدُّ لِذَوِي الْأَلْبَابِ وَقُشُورُهَا مَجْعُولَةٌ لِلْأَغْنَامِ.

السادس: والآن وقد تبين لنا أن الإسلام والقرآن يدعوان إلى
الحكمة بغض النظر عن مَن تُوخَذُ ومن أين، لأن الحكمة علم يصنع
الإنسان ويُربِّي البشريّة على الواقع وحقائق الأمور، كما صرّحت بذلك
الآيات القرآنيّة على لسان لقمان الحكيم؛ فمن الأهميّة بمكان أن نعلم أن
قيمة هذا العلم وتعلّمه وصلاً حدّاً تمّ فيه تمجيد لقمان الحكيم والإطراء عليه
لأجل حمله هذا العلم الشريف، مع أنه قد عاش في القرن السابع قبل ميلاد
المسيح ابن مريم على نبينا وآله وعليه السلام. وكذلك الحال مع حكماء
اليونان وفلاسفتهم، حيث مُدِّحوا ويُمَدِّحون على مرّ السنون مع أن آخرهم
كان أرسطو الذي كان قد عاش في القرن السادس قبل ميلاد السيّد المسيح.
ولأنّهم (أي هؤلاء الفلاسفة) كانوا فلاسفة متألّهين وكان مذهبهم يقوم على
أساس توحيد الحقّ تعالى، نرى أنّهم كانوا يُذكرون بالفخر ويُتحدّث عنهم
بالاعتزاز من قبل صاحب العقل الكلّ والهادي إلى سبل النجاة خاتم النبيين
والرسل وأصحاب درجة عالية ومرتبة راقية من قبل أوصيائه.

كان لقمان الحكيم من أهل الشام ولم يكن نبياً، لكنّه بسبب قدرته
الروحيّة وتسلّطه في الحكمة واغترافه من ينبوع تعاليم النبيّ داود على نبينا
وآله وعليه السلام والذي كان من بني إسرائيل، بلغ منزلة مرموقة ومقاماً
عالياً بحيث سُمّيت سورة مباركة من القرآن الكريم باسمه.

وأورد القاضي بن صاعد الأندلسيّ في كتاب «طبقات الأمم» كلاماً

قال فيه:

«الفلاسفة» جمع فيلسوف وهي كلمة يونانية تعني «محب الحكمة». ويعتبر فلاسفة اليونان من أعظم البشر ومن الطبقة الممتازة لعلماء العالم، حيث كانوا ملميّن إماماً تاماً بمختلف الفنون في الحكمة والفلسفة والعلوم كالرياضيات والمنطق والعلوم الطبيعيّة والإلهيات وسياسة المدن والمنزل. وهناك خمسة فلاسفة هم من أعظم فلاسفة اليونان، وهم من الأقدم إلى الأحدث: بندقليس^١ ويليه فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأخيراً أرسطوطاليس ابن نيقوماخوس (نيقوماخوس).

١ - كان بندقليس (أمبيدُكلِس) معاصراً للنبيّ داود حسب ما يرويه علماء التاريخ، وقد تلقى الحكمة على يد لقمان، ثم رجع بعد ذلك إلى بلاد اليونان ...

وكان أمبيدُكلِس أوّل من جمع بين معاني صفات الله؛ وقال بأنّ جميع تلك الصفات ناشئة عن الذات الواحدة المسماة بـ «العلم» و«الجود» و«القدرة».

وقال كذلك بأنّ ذات البارئ عزّ وجلّ واحدة بالحقيقة وغير قابلة للكثرة والتمييز بأيّ شكل من الأشكال؛ وإنّ المعاني والصفات المختلفة هي من تجلّيات تلك الذات. وإنّ وحدانيّة وجود البارئ تختلف عن سائر الموجودات التي هي عرضة للكثرة إلى أجزاء أو معانٍ أو نظائر، وذات الله منزّهة عن كلّ ذلك.

وقد سار على هذا المذهب في الصفات الإلهيّة أبو الهذيل بن العلاف المصريّ.

٢ - أخذ فيثاغورس - الذي عاش بعد أمبيدُكلِس والذي سافر من

١- وهو نفسه المسمّى أمبيدُكلِس (Empedocles). (التعليقة).

الشام إلى مصر - الحكمة من أصحاب سليمان بن داود ، وكان قد تلقى الهندسة عن علماء مصر قبل ذلك . وبعد اكتسابه العلم رجع إلى اليونان وأدخل إليها الهندسة والعلوم الطبيعيّة والدينيّة لأوّل مرّة . وهو الذي اخترع بفتنته وذكائه علم الموسيقى وتأليف الألحان والأنغام ، وهو أوّل من أخضع الألحان للنّسب العدديّة . وكان فيثاغورس يدّعي أنّه استقى أفكاره من مشكاة النبوة .

وتنطوي نظريّة فيثاغورس ، في تركيب العالم وتكوينه والمبنيّة على خواصّ العدد ومراتبه ، على رموز غريبة . وتُشبهه عقيدة فيثاغورس حول المعاد الدينيّ عقيدة أمبيدّ كلس ، وملخصها هو :

إنّ هناك عالماً فوق عالم الطبيعة يُسمّى بالعالم الروحانيّ النورانيّ وهو مجبول من الجسمانيّات والمادّة ؛ وليس بمقدور العقل إدراك حُسن ذلك العالم ، وهو عالم تشّاق إليه النفوس الزكيّة باستمرار . ولا أحد يستحقّ الاتّصال بذلك العالم واغتنام جواهر الحكمة الإلهيّة التي يحتويها واللذائذ النفسانيّة كالأنغام الموسيقيّة التي تُطرب الأسماع إلاّ الإنسان الكامل الذي جتّب نفسه الصفات الذميمة والحيوانيّة وطهرها من العادات السيئة كالبلخ والعُجب والرياء والتكبر ، ولا قيمة للعناء الذي يتجشّمه الإنسان مقابل حصوله على ذلك النعيم .

ولفيثاغورس تأليف قيّمة في «علم الحساب» والموسيقى وسائر العلوم الأخرى .

٣ - سُقراط : وهو تلميذ فيثاغورس ؛ فضّل اللاهوت على الفلسفة والعلوم ، وابتعد عن الملذّات الدنيويّة وأعرض عن زخارفها ، وكان مخالفاً للعقائد الدينيّة التي كانت سائدة عند اليونانيّين آنذاك ومنها عبادة الأوثان ، وكان يحتجّ مع رؤسائهم وكبرائهم بالحجّة البالغة والبحث البناء . فكان ذلك

السبب في تأليب الناس وإرغام ملكهم على قتله .
فأمر الملك بحبس سقراط ثم أمر به فسُقي سُمّاً زؤاماً أنهى حياته ،
فارتاح من عذابهم ومن المجادلات التي كانت تقع بينه وبين ملك اليونان
في ذلك الوقت .

ولسقراط وصايا وحكم ونصائح كثيرة معروفة . كان مذهب سقراط
في موضوع الصفات الإلهية قريب من مذهب أمبيدُكلس وفيثاغورس ...
٤ - أفلاطون : أخذ الحكمة عن فيثاغورس كما فعل قبله سقراط ،
لكنه لم يشتهر بالحكمة في حياة سقراط .

وينحدر أفلاطون من عائلة اشتهرت بالعلم والنبيل والأصالة في
اليونان ، وكانت له اليد الطولى في جميع الفنون الفلسفية ، وألّف في هذا
الباب كتباً جمّة .

عُرف كثير من تلامذته باسم «المشائين» وذلك بسبب تعليمه إيّاهم
الحكمة وهو ماشياً . وأوكل التدريس في أواخر عمره إلى أعلم تلامذته ،
وفضّل اعتزال الناس وانشغل بعبادة الله . وأشهر مؤلفاته «فيدون» في
معرفة النفس ، و«السياسي» ، وكتاب «تيمه»^١ في تربية العوالم الربوبية
وعالم العقل وعالم النفس ، وكتاب «تيمه الطبيعي» في تركيب عالم
الطبيعة ، حيث ألّف الكتابين الأخيرين باسم تلميذه تيماسوس .

٥ - أرسطوطاليس بن نيقوماخوس الجهراشي^٢ الفيثاغوري .
وتعني كلمة (نيقوماخوس) قاهر الخصوم و(أرسطوطاليس) صاحب
الفضيلة التامة .

١- Le Timee .

٢- ريمّا كان جراسي واستراتيجيري موطناً أرسطو . (التعليقة).

قال أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ المسعوديّ أن: نيقوماخوس كان من أتباع فيثاغورس وله تأليف مشهورة في علم الحساب. وكان ابنه أرسطوطاليس تلميذاً لأفلاطون حيث لازمه ٢٠ سنة .

وكان أفلاطون يؤثر أرسطوطاليس على سائر تلامذته ، وكان يدعوّه بالعقل . وجدير بالذكر أن فلسفة اليونان خُتِمت بأرسطوطاليس ، ويُعتبر بذلك آخر الحكماء وكبير العلماء فيهم .

وكان أرسطوطاليس أوّل من استخراج صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقية وربّتها على ثلاث صور ، وجعلها معيار للعلوم النظرية ، ومن هنا جاءت تسميته بواضع علم المنطق .

وقد ألّف أرسطوطاليس كتباً مهمّة عديدة في جميع العلوم الفلسفية ، يتناول بعضها علماً واحداً من العلوم في حين يشتمل البعض الآخر على عدّة علوم يحتوي على وصايا وتمارين في مجالات مختلفة . وتربو كتبه على الـ ٧٠ كتاباً حيث كتبها لـ «اوفارس» ...^١ .

ومما يؤيّد أصالة كلامنا في هذا المجال ، وهو أنّ علم الفلسفة والحكمة يمتلكان أساساً وواقعية لا يمكن التغاضي عنها ، وأنّ على طلبة العلوم الدينية في الحوزات المقدسة التسلّح بها حتّى يمكنهم أولاً بناء شخصيتهم ، وثانياً نشر المعارف العلمية والإلهية في المجتمعات البشرية في العالم . أقول إنّ ما يؤيّد كلامنا هو كلام آية الله الحاجّ الشيخ حسين عليّ المنتظريّ الذي خاطب به آية الله البروجرديّ أعلى الله مقامه قائلاً: «إنّها الفلسفة العلمية التي تستند عليها الجامعات في العالم ويُحسب لها ألف

١- كتاب «طبقات الأمم» تأليف أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسيّ

المتوفّى سنة ٤٦٢هـ.

حساب ؛ وإنّ الفقه والأصول عندنا أمور اعتباريّة» .
وفيما يلي جانباً من اللقاء الذي أجرته مجلة «الحوزة» مع آية الله
المنتظريّ :

«من المشهور أنّ آية الله البروجرديّ كان مخالفاً للحكمة والفلسفة ،
وهو ما حدا به إلى منع دروس الفلسفة التي كان يلقيها العلامة الطباطبائيّ .
نرجو من سماحتكم توضيح هذه النقطة !» .
فأجاب آية الله المنتظريّ قائلاً :

« كان العلامة الطباطبائيّ يدرّس «الأسفار» وكنتُ أنا أدرّس
«المنظومة» . فجاءني يوماً المرحوم الحاجّ محمّد القدسيّ الإصفهانيّ وقال
لي : يقول السيّد البروجرديّ : قل للشيخ المنتظريّ أن يعطلّ درس
«المنظومة» ويأتي إليّ .

فذهبتُ إلى بيت آية الله البروجرديّ ، وقال لي الحاجّ محمّد حسين :
يقول السيّد «قل للشيخ المنتظريّ أن يأتيني بلائحة أسماء تلاميذ
العلامة الطباطبائيّ لأقطع عنهم روايتهم الشهرية» .

فتعجّبتُ من ذلك وقلتُ له : هذا أمر غير ممكن ! أيّ قرار هذا ؟
فقال الحاجّ محمّد حسين : أنا كذلك توصّلتُ إلى أنّ هذا القرار
خاطئ .

قلتُ : إذن دعنا نذهب إلى السيّد .
فذهبنا ، وخاطبتُ السيّد بصراحتي المعهودة قائلاً : سيّدنا ! ما هذا
القرار ؟ إنّها الفلسفة العلميّة التي تستند عليها الجامعات في العالم ويُحسب
لها ألف حساب ؛ وإنّ الفقه والأصول عندنا أمور اعتباريّة .

فقال السيّد : هذا صحيح ، وأنا نفسي درستُ الفلسفة ، لكن ما
العمل ؟! فإنّي أرى من جهة بعض الطلبة لا يستطيعون هضم هذا الكلام

جيداً ، ومن هنا أراهم ينساقون إلى الانحراف ، وقد رأيتُ أحدهم في إصفهان يحمل كتاب «الأسفار» تحت إبطه ويردد قائلاً: أنا الله ! أنا الله .
ومن جهة أخرى هناك اعتراضات تصل إليّ من بعض الإخوة يلحّون عليّ فيها باستمرار بوضع حدّ لهذه المسألة» .

قلتُ : إذن فهذا يعني أنكم لستم مخالفين للفلسفة ، بل سماحتكم تعترضون على نشر وترويج هذه العبارات الغوغائية !

قال : «نعم . لا بأس لو يصغوا إلى الدروس ويعوها جيداً» .

قلتُ : سأشرع بتدريس «الإشارات» . وسأحاول إقناع العلامة الطباطبائي بتدريس «الشفاء» .

فقال سماحته : «لا أظنّ أنّ العلامة سيوافق على ذلك ، فهو لن يقبل

بكلامي» .

قلتُ : ما هذا الكلام يا سيّد ! إنّه يكنّ لكم احتراماً زائداً . أنا شخصياً

سأبدأ بتدريس «الإشارات» .

فذهبتُ إلى بيت المرحوم العلامة الطباطبائي وكان مريضاً في ذلك

الوقت ، فأخبرته بالذي جرى بيني وبين سماحة البروجرديّ . فقال : لا ،

لن أعطّل درس «الأسفار» سأرحل مع تلاميذي عن قم إلى «كوشك

نصرت» .

قلتُ : ما هذا الكلام يا سيّد ! الطلبة بحاجة إلى الرواتب الشهرية ،

وكذلك هم بحاجة إلى تلقيّ دروس الفقه والأصول ، ابدأوا أنتم بتدريس

«الشفاء» واطرحوا آراءكم كلّما كان ذلك ميسوراً .

فقبل المرحوم العلامة بذلك . ولمّا أطلعتُ آية الله البروجرديّ على

ذلك سرّ كثيراً .

ما نريد قوله إنّ آية الله البروجرديّ درس الفلسفة ولم يكن مخالفاً

لها ، لكن الظروف في ذلك الوقت مضافاً إلى بعض المسائل الأخرى أرغمته على هذا التصرف»^١.

وأما ما يخص تفسير ومفاد: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَوَلِيٌّ مِّنَ الَّذِينَ كَكَبِيرًا» ، فقد فسرها المرحوم الحاج قُدس الله نفسه بما يلي: «أَيُّ لَمْ يَتَّخِذْ وَوَلِيًّا يُعَاوَنُهُ لِمَذَلَّةٍ فِيهِ تَعَالَى عَن ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا»^٢.

ولما كان وجود الحق تعالى مطلق ووحده وحدة بالصرافة ، فلا يمكن لأي شيء تحقق أي شيء خارج ذاته تعالى وإتيته حتى يكون وجوده كاملاً ومكماً به أو نزول حاجته .

وقال كذلك في تفسير: «يَا مَنْ هُوَ عَزِيزٌ بِإِلَازٍ ، يَا مَنْ هُوَ غَنِيٌّ بِإِلَازٍ ، يَا مَنْ هُوَ مَلِكٌ بِإِلَازٍ!»

لأن كل عزيز وكل غني وكل سلطان اكتسب هذه العزة وهذا الغنى وذلك الملك بالاستعارة وأودعت عنده كأمانة . فنواصيهم مُسَخَّرَةٌ بِيَدِ قُدْرَةِ الْحَقِّ تَعَالَى .

يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيَقْدِرُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَيُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ .

وهو الله القادر القاهر الذي لا قدرة ولا قهر تعلوان على قدرته وقهره ، وأن هذه الصفات وإن وجدت عند مالكيها فهي مشوبة بصفات

١- مجلة «الحوزة» العددان ٤٣ و٤٤ ، الصادران في (فروردين ، أُرديبهشت ، خرداد ، تير) ١٣٧٠ هـش ، بمناسبة الذكرى الثلاثين لرحيل آية الله العظمى البروجردي قُدس سرّه ، ص ٢٥٤ و٢٥٥ ، ضمن لقاء تحت عنوان «مبادئ وأساليب الاستنباط عند آية الله البروجردي» .

٢- «شرح الأسماء» ، ص ٦٠٩ ، طبعة جامعة طهران ، ضمن تفسير الفصل ٦٢ (سب) من ذلك الدعاء المبارك .

مقابلة لها كالدّل والفقير والعزل ، بل إنّ هذه الصفات هي عين صفاتهم المتقابلة .

وَهُوَ الْبَسِيطُ الصَّرْفُ وَالْوَاحِدُ الْمَحْضُ الثَّابِتُ لَهُ أَشْرَفُ طَرَفِي الْمُقَابِلَاتِ .^١

وقال أيضاً في تفسير العبارة : يَا مَنْ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ ، يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرًا !

ثبت بالعلوم الحقيقية أنّ الاتحاد بالجنس يُدعى «المجانسة» ، وبالنوع يُدعى «المماثلة» وبالكيفية «المشابهة» وبالكميّة «المساواة» وبالوضع «المطابقة» وبالإضافة «المناسبة» .

وليس للحقّ تعالى شريك في الوجود ، بل وليس له شريك في حقيقة الوجود كذلك ، لأنّه لا يمكن تصوّر وجود موجود في نفسه لِنَفْسِهِ بِنَفْسِهِ إِلَّا ذَاتَهُ .

وأما سبب عدم وجود شريك له في الجنس فذلك لأنّه لا جنس له ، ولا وجود لموجود يكون مثله أو نظيره ، لأنّه لا نوع له ، ولا شبيه له لأنّه لا يمتلك كميّة ، ولا وجود لموجود يساويه لأنّه لا يمتلك كميّة ، ولا وجود لوجود يطابقه ، لأنّه لا يمتلك وضعاً ، ولا وجود لوجود مناسب له لأنّه لا يمتلك إضافة مقوليّة .

وعلى هذا فإنّ جميع تلك الأقسام لا تقبل الشريك بل تنفيه ، لأنّ المشابه أو المساوي أو غيرهما هما (في الواقع) بمثابة شريك في الكميّة والكميّة ونحوهما .^٢

١- «شرح الأسماء» ص ٦٥٧ ، ضمن تفسير الفقرة ٧٤ (عد) من ذلك الدعاء المبارك .

٢- «شرح الأسماء» ص ٦٧٥ و ٦٧٦ ، ضمن تفسير الفقرة ٧٩ (عط) من الدعاء المبارك .

وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ، أَي عَظْمُهُ مَا اسْتَطَعْتَ وَكَلِمَتِي الْكِبَرِ وَالْعِظْمَةُ هَمَا
حَسَبَ اخْتِيَارِكَ وَاسْتِخْدَامِكَ !

وقال أيضاً في تفسير الفقرة : يَا مَنْ هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ :

«الكبير هنا تعني العظيم وهي من باب «كَبِرَ» بالضم ، أي عظيم ،
وليست من باب «كَبِرَ» بالكسر ، أي كبر في السنّ وشاخ . ووصف الكبير
في هذه الجملة محصور بالضمير «هُوَ» ، أي هو الموجود الكبير المتعال
وحسب ولا موجود كبير ومتعال غيره على الإطلاق ، لأنّ المُسْنَدَ المُعَرَّفَ
باللام يفيد الحصر في المسند إليه كما هو معروف في علم المعاني»^١ .
وعلى أساس هذا فالحصر موجود في معنى ومفهوم المسند في
المسند إليه في مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام مع الحق المتعال حيث
يقول :

مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ ! أَنْتَ الْعَزِيزُ وَأَنَا الدَّلِيلُ وَهَلْ يَرْحَمُ الدَّلِيلَ إِلَّا
الْعَزِيزُ؟^٢

ولقد هوى الشيخ أحمد الأحسائي ، وهو أساس وأصل الفرقتين
المعروفتين : الشيخية الكريمنخائية ، والبابية البهائية ، في شباك ومصيدة
التفويض البحث مع تنزيهه الصرف للحق تعالى .

فالشيخ أحمد الأحسائي يقول صراحة إنّ صفات الحق تعالى بما في
ذلك العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر وسائر الصفات الكمالية ، هي
حادثة ومخلوقة ، ولا علاقة لها إطلاقاً مع ذاته المقدسة . وإنّ حقيقة تلك
الصفات هي نفسها الأسماء الحسنى والتي تُمثّل في الأئمة الاثني عشر

١- «شرح الأسماء» ص ١٥١ ، ضمن تفسير الفقرة ٤ (د) من الدعاء المبارك .

٢- «البلد الأمين» للكفعمي ، ص ٣١٩ ، الطبعة الحجرية ، سنة ١٣٨٣ .

للشيعية وجميع عبادات الناس وأفعالهم ومقاصدهم وسائر المخلوقات والتي تعود إليها وتنتهي فيها . إنّ الله القديم لا علاقة له بأسمائه وصفاته ؛ فذاته بحتة وبسيطة ، في حين أنّ أسمائه وصفاته الكمالية هي من الممكنات والحادثات .

هذا ، ويستحيل عرفان الإنسان الله ؛ وغاية عبادة الخلائق في عبوديتهم تكمن في تلك الأسماء والصفات العينية والتي هي من الحوادث لكنها ليست قديمة . ولا وجود لقديم غير ذات الحق تعالى ؛ كلّ ذلك بواسطة قديمه وعدم تناهيه وتجرده ، وأنّه بمعزل عن جميع ما سواه بما في ذلك وأهمه صفاته الكمالية وأسمائه الجلالية ؛ وكذا انعزال الموجودات عنه كذلك .

وعلى هذا ، فإنّ أصل العالم هو غير الذات البحتة والبسيطة ، الجاقّة والخواوية من كلّ الصفات والأسماء - وبالنتيجة ، وعلى إثر ذلك ، فهو فاقد لكلّ ذلك ومُتّصف بالنقيض كالجهد والعجز والصم والعمى والفقدان والنقص - ولا يمكن تصوّر شيء غير هذا .

هذا هو كلام الشيخ بعينه والذي نراه ونشاهده في شرحه لعرشية الملائة صدر الحكيم ، وكذلك في شرحه زيارة الجامعة الكبيرة ، وفي كتاب «جوامع الكلم» أُلّف للإجابة على أسئلة كثير من الأشخاص ، وفي شرح «الرسالة العلمية» في الردّ على الملائة محمّد محسن الفيض الكاشاني بشكل واف ومفصّل .

وقد علّق صديقنا العالم والأخ الأقدم المرحوم آية الله الشهيد الحاج السيّد محمّد علي القاضي الطباطبائيّ أسكنه الله بجبوحه جناحه على كلام آية الله المحقق الشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء الذي ورد في كتاب «جنة المأوى» وذلك عند التطرّق إلى النفس الإلهية الملكوتية وذكره أنّ

أعلى درجاتها هي الروح القدس والمتصلة بالمبدأ الأعلى والتي هي عبارة عن أرواح الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، والتي هي أيضاً عبارة عن «العقل الأوّل الكلّي» و«أوّل ما خلق الله» ، وأنها هي نفسها «الحقيقة المحمّديّة» التي تظهر في تحمّل الرسالة العظيمة والزعامة الكبيرة ، والسيادة والرئاسة على جميع الخلائق ؛ حيث لا نرى في نقلها هنا بأساً . يقول المرحوم آية الله الشهيد الحاج السيّد محمّد عليّ القاضي الطباطبائي :

«وبمناسبة ذكر شيخنا للحقيقة المحمّديّة أثناء كلامه ، يتوجّب علينا بيان شيءٍ من هفوات بعض الذين صدرت عنهم آراء سخيفة :

فهو يقول : لا يجوز إطلاق أيّ اسم من أسماء الله تعالى وصفاته العليا عليه (على الله تعالى) ، لا على سبيل الحقيقة ولا على سبيل المجاز ؛ ولا يجوز وقوع اسم أو صفة على الله تعالى ؛ لأنّ جميع الأسماء والصفات وكلّ أنواع العبادة والأذكار والخطابات عبارة عن مجرد ألفاظ وهي مخلوقة وحادثّة . وعلى هذا لا يمكن أن تكون هناك علاقة أو رابطة بين الأمور الحادثّة وبين الواجب تعالى ؛ ولا يمكن أن يكون مرجع الحادث إلى واجب الوجود .

والسبب في ذلك كلّّه يعود إلى أنّ ارتباط الأمر الحادث بذات الله تعالى وإيجاد العلاقة والارتباط بين هذين الاثنين هو أمر غير معقول . وعلى هذا لن تكون هناك سبيل أخرى إلاّ بربط الحادث بحادث آخر مثله ، ولا يمكن أن يكون ذلك الحادث إلاّ فعل الله سبحانه .

فالحادث هو المعنى والمقصود من هذه الألفاظ من خلال أسمائه الحسنى والصفات العليا والتي نذكرها في كلامنا . وكلّ هذه الأسماء المشحونة بألفاظ الأسماء والصفات تدلّ دلالة واضحة على ذلك الحادث ، فيكون ذلك الحادث مدلولها .

ومدلول ذلك الحادث عبارة عن الحقيقة المحمّديّة ونورانيّة محمّد وآل محمّد صلّى الله عليهم أجمعين .

ويقول أيضاً : وَحَيْثُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْعَى بِذَاتِهِ لِعَدَمِ إِمْكَانِ ذَلِكَ ، تَعَيَّنَ أَنْ يُدْعَى بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى . فَانْحَصَرَتِ الْعِبَادَةُ الَّتِي هِيَ فِعْلُ مَا يَرْضَى وَالْعُبُودِيَّةُ الَّتِي هِيَ رِضَى مَا يُفْعَلُ ، فِيهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَبِهِمْ . لِأَنَّ التَّقْدِيسَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّخْضُوعَ وَالتَّخْشُوعَ وَالتَّرْكَوعَ وَالسُّجُودَ وَجَمِيعَ الطَّاعَاتِ وَأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ وَكَذَلِكَ الْعُبُودِيَّةُ ، كُلُّ ذَلِكَ أَسْمَاءٌ وَمَعَانِيهَا تِلْكَ الذَّوَاتُ الْمُقَدَّسَةُ وَالْحَقَائِقُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَخَلَقَ خَلْقَهُ لَهَا .

وَهِيَ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى وَأَمْثَالُهُ الْعُلْيَا وَنِعْمُهُ الَّتِي لَا تُحْصَى . وَهِيَ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا وَأَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يَدْعُوهُ بِهَا . قَالَ تَعَالَى : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا .^١

وهناك الكثير من هذه الكلمات السخيفة في كلامه ، وإنما كان ذلك جانباً من ما يريد ويقصده وهو ممّا يُوصِلُ إلى الهلاك الأكيد والفناء الحتمي . وأساس هذه العقيدة وأمثالها مأخوذ عن تعاليم الباطنيّة التي لا تمت إلى تعاليم الإسلام بصلة مطلقاً .

وأما أقبح ما موجود في هذه العقيدة الباطلة فهو نسبة الشرك والكفر والعياذ بالله إلى خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم وأوصيائه المعصومين عليهم السلام .

١- صدر الآية ١٨٠ ، من السورة ٧ : الأعراف . هذه العبارات موجودة في كتاب «شرح الزيارة الجامعة الكبيرة» للشيخ أحمد الأحسائي (طبعة الناصري الحجريّة ، تبريز ، خطّ محمّد علي بن ميرزا محمّد شفيع) ص ١٢٣ ، السطر الثالث إلى السادس .

إذ يلزم ذلك ، حسب هذا المذهب ، أن يخاطب الرسول الأكرم والأئمة المعصومين عليهم السلام أنفسهم المقدسة في صلواتهم وأدعيتهم وجميع عباداتهم ، وأن يقصد رسول الله مثلاً في كلامه عند صلواته التي يقول فيها : **إِيَّاكَ نَعْبُدُ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ إِيَّايَ أَعْبُدُ** .

وكذا الحال مع سائر أسماء الله وصفاته التي يتفوهون بها ويعبدونه بمقتضاها ، وهي عودتها إلى نفوسهم الشريفة . فيكون على هذا الأساس أنهم دأبوا على أمر الناس بعبادة نفوسهم المقدسة ودعوهم إلى ذلك والعياذ بالله .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ .^١

ولمّا لم يكن بإمكان صاحب هذه العقيدة الفاسدة إدراك كَيْفِيَّةِ رِبْطِ الْحَادِثِ بِالْقَدِيمِ جَيِّدًا وَعَجْزَهُ عَنِ اسْتِنْبَاطِ ذَلِكَ بِالتَّحْلِيلِ الْعِلْمِيِّ الصَّحِيحِ بِوِاسْطَةِ الْبَحْثِ وَالْبَرْهَانِ ، لَذَا نَرَاهُ قَدْ غَطَسَ فِي وَحْلِ تِلْكَ الطَّرِيقِ الصَّعْبَةِ وَابْتُلِيَ بِالْمَوَاضِعِ الْمُنْبُوذَةِ وَالْمَهْجُورَةِ فِي ظُلُمَاتٍ مَوْحِشَةٍ وَدِيَاجِيرٍ حَالِكَةٍ .

وأما معتقداته التي ذكرناها إجمالاً فهي من أسوأ الأباطيل وأقبح الضلالات ، وأخطاؤه وهفواته أكثر من أن تُعَدَّ . ولإبطال معتقداته وبيان فساد أفكاره وجوه كثيرة وسُبل عديدة لامجال لذكرها هنا . وقد أطنب آية الله المجتهد الكبير السيّد إسماعيل النوري الطبري رحمة الله عليه في

١- صدر الآية ٧٩ ، من السورة ٣ : آل عمران . والآيتان اللتان تليانها هما :

وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَّةَ وَالنَّيْسَ أَرْبَابًا أَيَاْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

كتابه « كفاية الموحدين » في الجزء الأول في كلامه حول هذا الموضوع وأوفى حقه من التحقيق .

وأما ما ورد عن الأئمة الأطهار عليهم السلام في بعض الأخبار من أنهم قالوا نحن الأسماء الحُسنَى ، أو قولهم نحن المقصودون بالصلاة في كتاب الله ، أو قولهم نحن وجه الله ؛ أو ما ورد في بعض الزيارات مثل : **السَّلَامُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ الرَّضِيِّ** ونظير هذه العبارات ؛ فإمّا أن يكون ذلك من قبيل المجازات والكنيات ، أو هي إشارة إلى معانٍ أخرى صحيحة ذات مضمون رفيع ؛ وليس المراد بها هذه الخزعبلات والتلفيقات السفيهة كما ذُكرت في الكتب المفصلة والشروحات المطوّلة^١ .

نعم ! لقد كان الشيخ الأحسائي عالماً وزاهداً ، إلا أن السبب في انحراف عقيدته ، برأي الحقير من خلال ما توصلتُ إليه في مطالعاتي ، يرجع إلى عاملين :

الأول : أنه لم يدرس الحكمة ولم يسمع بالفلسفة ، وعمد بدلاً من ذلك إلى الاعتماد على فهمه الناقد وذهنه الوقاد دون اتّخاذه لأستاذ ، فشرع بدراسة كتب الحكمة والفلسفة ومطالعتها والاطّلاع على عالم الأسرار ورموز العالم الربوبيّ والفلسفة الأولى وما وراء الطبيعة .

الثاني : أنه مارس أنواع الرياضات الشاقّة مستهدفاً من ذلك الوصول إلى الغايات العرفانيّة الراقية والمكاشفات الربّانيّة دون اتّخاذه لأستاذ أو خضوعه لتعليمه .

وقد تسبّب هذان العاملان معاً إلى وقوعه في الخطأ في الآراء

١- «جَنَّةُ المَأْوَى» ص ١١٥ إلى ١١٧ ، طبعة تبريز ، مطبعة شركة چاپ ؛ تعلّيقه آية الله

القاضي رحمه الله.

والمسائل الفلسفية، وما كان في مكاشفاته مصاناً من همزات الشياطين، ولم تصطبغ جميع مدركاته ومشاهداته بصبغة رحمانية؛ مع أنهم ذكروا أنّ الشرط الأساس والخطوة الأولى في الحكمة النظرية والعرفان العملي يكمن في أستاذ كامل ومرتبّ ماهر على الإطلاق.

وعلى هذا يكون قد سهى وغفل عن قول الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام الذي يقول: هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ يُرْشِدُهُ^١.

ويبدو أنه لم يسمع بغزلية الخواجة لسان الغيب:

مرا به رندی و عشق آن فضول عیب کند

که اعتراض بر اسرار علم غیب کند

کمال سرّ محبتّ بین نه نقص گناه

که هر که بی هنر افتد نظر به عیب کند

ز عطر حور بهشت آن نفس برآید بوی

که خاک میکده ما عبیر جیب کند

چنان بزدره اسلام غمزه ساقی

که اجتناب ز صہبا مگر صہیب کند^٢

١- هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ يُرْشِدُهُ؛ وَذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يَعْضُدُهُ. («كشف الغمة في معرفة الأئمة» لعلبي بن عيسى الإربلي، ص ٢٠٩، الطبعة الحجرية، سنة ١٢٩٤هـ، وفي الطبعة الوزيرية، تبريز سنة ١٣٨١هـ: ج ٢، ص ٣٢٥).

٢- يقول: «يُعبيني الفضول على إخلاصي ووفائي؛ وهو في الحقيقة لا يُعيب إلا أسرار علم الغيب.

انظر إلى كمال سرّ حُبِّي و غصّ النظر عن قلّة ذنوبي وقبحها؛ فإنّ عيون من خلا من الفنّ والكمال لا ترى إلا القبح والنقص.

لن يفوح عبير أنفاس حوريات الجنة؛ حتّى يتعطرن بتراب حانتنا».

كليد گنج سعادت قبول اهل دل است
 مباد کس که درین نکته شک و ریب کند
 شبان وادی ایمن گهی رسد به مراد
 که چند سال به جان خدمت شعیب کند
 ز دیده خون بچکاند فسانه حافظ
 چو یاد وقت و زمان شباب و شیب کند^۱
 وکأن لم يمر هذا البيت الذي هو لحافظ عليه أيضاً :
 گذرت بر ظلمات است بجو خضر رهی
 که در این مرحله بسیار بود گمراهی^۲
 وهذا البيت كذلك :

﴿ إن غمزة الساقی تصیب قلوب المسلمین بشكل تُغري حتى صُهِيباً (أي أبو یحیی صهیب بن سنان الرومی، الصحابي الذي قال عنه الرسول صَلَّى الله عليه وآله : نَعَم العبدُ صُهِيب؛ لو لم يَخْفِ الله لم يَعِصه) إلى شُرب الخمر.﴾
 ۱- يقول: «إن مفاتيح الكنوز والسعادة والاقبال هي بيد العُشاق؛ ولا يجب على أحد الشك أو الارتياب في هذه المسألة.
 إن راعي الوادي الأيمن (كناية عن موسى عليه السلام) ما كان ليصل إلى مراده (في النبوة)؛ إلا بعد أن خدم شعبياً النبي عليه السلام عدة سنوات.
 لقد زفت عينا (حافظ) دماً؛ لتذكره أيام شبابه (ومقايسة ذلك مع ما هو عليه الآن من الشيخوخة)».

«ديوان حافظ الشيرازي» ص ۵۷، الغزلية ۱۲۵، طبعة حسين پژمان.

۲- يقول: «عند مرورك في الظلمات اطلب الخضر؛ فهذه المرحلة محفوفة بالمتاهات والطرق المتوية».

«ديوان حافظ الشيرازي» ص ۲۱۳ الغزلية ۴۶۶.

گر در سرت هوای وصال است حافظا

باید که خاک درگه اهل هنر شوی^١

أو هذا البيت :

قطع این مرحله بی همرهی خضر مکن

ظلمات است بترس از خطر گمراهی^٢

أو البيت التالي :

به کوی عشق منه بی دلیل راه قدم

که من به خویش نمودم صد اهتمام ونشد^٣

وكان الشيخ الأحسائي يمتلك ذهنًا وقادراً وذكاءً حاداً وذاكرة عجيبة ،

وكان مضافاً إلى ذلك مثلاً يُحتذى به في الزهد وترك الأهواء الدنيوية ، إذ

١- يقول : «إذا كان هوى الوصال والقرب يداعب خيالك يا حافظ ؛ عليك أن تكون تراب عتبة أهل هذا الفن» .

«ديوان حافظ الشيرازي» ص ٢٣٠ ، الغزلية ٤٩٩ .

٢- يقول «لا تقطعن هذه المرحلة (الصعبة والمحفوفة بالمخاطر) دون صُحبة الخضر؛ لأنّ فيها من الظلمات ما قد يُعرضك إلى خطر الضياع والضلّال» .

«ديوان حافظ الشيرازي» ص ٣٤٧ ، تصحيح محمّد القزويني والدكتور قاسم غني ؛ وهذا البيت موجود في تلك الغزلية المذكورة بتصحيح (پژمان) وقد ورد فيها البيت :

* قطع این مرحله بی همرهی خضر مکن *

مع البيت القائل :

* گذرت بر ظلمات است بجو خضر رهی *

لكنّ طبعة محمّد القزويني اكتفت بإيراد البيت الثاني هذا فقط .

٣- يقول : «لا تَطأ سبيل العشق دون (اتخاذك دليلاً معك ؛ فإنّي قد اعتمدتُ على نفسي واتكلتُ عليها كثيراً ومع ذلك فلم يُجد ذلك شيئاً» .

«ديوان حافظ الشيرازي» تصحيح پژمان ، ص ١٠٣ ، الغزلية ٢٣٠ .

كان يُشار إليه بالبنان في ذلك .

وجاء ذكره في «ريحانة الأدب» على النحو التالي : «هو الشيخ أحمد ابن زين الدين بن الشيخ إبراهيم الأحسائي البحراني المتوفى حوالي سنة ١٢٤٢ هـ. كان ماهراً في الحكمة والفقه والحديث والطب وعلم النجوم والرياضيات وعلم الحروف والقراءة والأعداد والطلسمات ، وكان وحيد عصره وفريد دهره في معرفة أصول الدين»^١ .

لكن ما الذي يمكن فعله مع العمى ، وخاصة إذا هذا العمى عمى باطناً؟! فما تُظهره الآية التالية لا يحتاج إلى توضيح : وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ^٢ .

وللحكيم المسلم الكبير وفخر فلاسفة العالم^٣ كتاب بعنوان «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة» مطبوع في أربع مجلدات مطوّلة بالقطع الرحلي ، حيث كشف فيه بحق الحجاب عن الأسرار والرموز في مبادئ التوحيد بالبرهان القاطع والاستدلال التام الواضح مبيّناً حقائق الأمور ونفائس المواضيع ، ويمكن اعتبار ذلك الكتاب في مقدّمة الكتب العلميّة والفلسفيّة .

وللحكيم المذكور كتاب آخر باسم «العرشيّة» وهو كتاب مختصر جداً يشمل جميع بحوث «الأسفار» بصورة موجزة وهو غير كتاب «طبيعيّات الأسفار» ؛ ويمكن القول إنّ هذا المؤلّف وهو آخر كتبه ، قد بلغ شأواً بعيداً من الكمال والاشتمال على الرموز والأسرار .

١- «ريحانة الأدب» ج ١ ، ص ٧٨ .

٢- ذيل الآية ٤٠ ، من السورة ٢٤ : النور .

٣- صدر الدين محمّد الشيرازي ، المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ . (م)

وقد قام العلامة الحكيم الملا إسماعيل بن الملا سميع الإصفهاني المعروف «واحد العين» وأحد أكبر علماء المعقول في أواخر القرن الثالث عشر الهجري وأحد تلامذة الحكيم البارز الملا علي النوري^١ بشرح عرشيّة الحكيم الملا صدرا. وجاء في ذلك الشرح أن :

«لما لم يكن يوجد شرح على «العرشيّة» لكي يتم به رفع ما أُشكِل من عباراتها وتسهيل بياناتها وإزاحة الستار عن وجوه معانيها، فقد حثني بعض الأحاب على كتابة شرح عليها حتى يُزال به الحجاب عن وجه معانيها الراقية وإظهار محيّا المحبوب كما هو مطلوب؛ لذا قمتُ بكتابة هذا الشرح.

وذلك لأنّ الشرح الذي كتبه المولى الجليل والفاضل النبيل البارع الشامخ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي حرسه الله تعالى من الآفات وحفظه عن العاهات كان مطوّلاً ومفصّلاً، لكنّه احتوى أكثر ما احتوى على حكم الدمل والقروح والخُراج. (فَشْرَحَهَا شَرْحاً كَانَ كُلُّهُ جَرْحاً). وذلك لأنّه لم يفهم المراد من الألفاظ ولم يستوعب المقصود من العبارات، لعدم اطلاعه على الاصطلاحات؛ مع كونه عظيم الشأن في فهم الأمور والمطالب، ومنيع المكان في نيل المقاصد والمآرب، ورفيع الرتبة في تحقيق الحقائق، وجميل المرتبة في تدقيق الدقائق».

والجدير بالذكر أنّ الشرح الذي كتبه الشيخ الأحسائي على «العرشيّة»

١- «ريحانة الأدب» ج ٦، ص ٢٨٥؛ وقال كذلك :

«قام بتحرير حاشية «المشاعر» للملا صدرا، وحاشية «الأسفار» وحاشية «الشوارق» للملا عبد الرزاق اللاهيجي، وكانت وفاته سنة ١٢٧٧ هـ».

ويظهر من دعائه له «حرسه الله عن الآفات» أنّه قام بتلك الشروحات في عصر الشيخ أحمد الأحسائي.

كان مُسهباً جداً ، ويقع في ثلاثمائة وخمسين واثنين من الصفحات بالقطع الرحلي ، وقد تمّ طبعه طبعة حجرية منذ أكثر من قرن . ولغرض توضيح طريقة بحثه ومواضع تزييفه وعيوبه الموجودة في ذلك الشرح نكتفي هنا بإيراد بحث واحد من أوائل بحوثه ، ثمّ سنأتي على ذكر بعض من أقواله الأخرى في ردّه على الحكيم المتألّه ذلك بنقل نصّ عباراته في ذلك الشرح .

فأمّا البحث الذي نحن بصدده ، فيقول فيه :

«قَالَ : الْمَشْرُقُ الْأَوَّلُ ، فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَأَيَاتِهِ ؛ وَفِيهِ

قَوَاعِدُ :

قَاعِدَةٌ لَدُنِّيَّةٌ ، فِي تَقْسِيمِ وَإِثْبَاتِ أَوَّلِ الْوُجُودِ :

إِنَّ الْمَوْجُودَ إمَّا حَقِيقَةُ الْوُجُودِ أَوْ غَيْرُهَا ، وَنَعْنِي بِحَقِيقَةِ الْوُجُودِ مَا لَا يَشُوبُهُ شَيْءٌ غَيْرُ الْوُجُودِ مِنْ عُمُومٍ أَوْ خُصُوصٍ أَوْ حَدٍّ أَوْ نِهَائَةٍ أَوْ مَاهِيَّةٍ أَوْ نَقْصٍ أَوْ عَدَمٍ ؛ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِوَجِبِ الْوُجُودِ .

فَنَقُولُ : لَوْ لَمْ تَكُنْ حَقِيقَةُ الْوُجُودِ مَوْجُودَةً لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَوْجُوداً ؛ لَكِنَّ اللَّازِمَ بَاطِلٌ بِدَيْهَةٍ فَكَذَا الْمَلْزُومُ» .

«أقول» (ويعني أنّه يتحدّث في الشرح والردّ عن الملا صدرا) .

وهنا وبعد إيراده بعضاً من الشرح والبيان في تحليل وتركيب

عبارات الحكيم ونواحيه الأدبية يصل به القول إلى :

«يَكُونُ أَوَّلُ الْوُجُودِ عِنْدَهُ هُوَ مَحَلُّ التَّقْسِيمِ ، وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ عَلَيَّ رَأْيِ الْمُصَنِّفِ . لِأَنَّ أَوَّلَ الْوُجُودِ هُوَ حَقِيقَةُ الْوُجُودِ ، وَحَقِيقَةُ الْوُجُودِ عِنْدَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ هِيَ مَحَلُّ التَّقْسِيمِ ؛ بِأَنَّ يَكُونُ الْخَالِصُ مِنْهُ وَاجِبَ الْوُجُودِ وَالْمَشُوبُ عَنْهُ بِالتَّقَائِصِ مُمَكِّنَ الْوُجُودِ لِمَا لِحَقَّهُ مِنْ عَوَارِضِ مَرَاتِبِهِ .

وَلِهَذَا صَدَقَ إِطْلَاقُ الْوُجُودِ عَلَى الْخَالِصِ وَالْمَشُوبِ مِنْ بَابِ

الإشتراك المعنوي ، وَيَكُونُ إِطْلَاقُ لَفْظِ الْوُجُودِ عَلَى الْوَاجِبِ وَالْمُمْكِنِ
كَإِطْلَاقِ الْبَيَاضِ عَلَى بَيَاضِ الْقِرْطَاسِ وَبَيَاضِ الثُّوبِ وَالتَّرَابِ .
وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُ إِلَّا أَنَّهُ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ بَعْضُ أَفْرَادِهَا وَاجِبُ الْوُجُودِ
وَهُوَ خَالِصُهَا قَبْلَ تَنْزِيلِهِ ، وَبَعْضُ أَفْرَادِهَا مُمَكِنُ الْوُجُودِ إِذْ بَعْدَ تَنْزِيلِهَا
اِخْتَلَطَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهَا بِعَوَارِضِ رُتْبَةِ تَنْزِيلِهِ .
وَهَذَا وَأَمْثَالُهُ هُوَ الْجَوَاهِرُ الزَّوَاهِرُ وَالْعِلْمُ اللَّدُنِّيُّ ؛ «فَالْحُكْمُ لِلَّهِ
الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ»^١ .

وَأَمَّا عَلَى رَأْيِنَا الْمُسْتَفَادِ مِنْ مَذْهَبِ سَادَتِنَا وَمَوَالِينَا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّ
مَحَلَّ التَّقْسِيمِ هُوَ الْوُجُودُ الْحَادِثُ الَّذِي أَحْدَثَهُ بِفِعْلِهِ لَا مِنْ شَيْءٍ ؛ عِنْدَ مَنْ
يَقُولُ بِقَوْلِنَا وَعِنْدَ الْمُصَنِّفِ وَمَنْ يَقُولُ بِقَوْلِهِ .
وَأَمَّا عِنْدَنَا فَظَاهِرٌ ، وَأَمَّا عِنْدَ الْمُصَنِّفِ وَاتِّبَاعِهِ فَيَلْزِمُ أَنَّ مَحَلَّ
التَّقْسِيمِ لَا يَكُونُ إِلَّا حَادِثًا لِأَنَّهُ مُكْتَنَةٌ وَلَوْ إِجْمَالًا . فَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ فَرْدًا مِنْ
أَفْرَادِ الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ الصَّادِقَةِ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ لِذَاتِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، أَيْ مَعَ
قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ عَوَارِضِ التَّرْتِبِ اللَّاحِقَةِ لَهُ ؛ فَقَدْ أَدْرَكَ صِرْفَ تِلْكَ
الْحَقِيقَةِ .

وَمَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ لَيْسَ إِلَّا كَالْخَشَبِ ؛ فَإِنَّ صِرْفَهُ هُوَ هَذَا الْهَيُولَى
وَالصُّورَةُ النَّوْعِيَّتَانِ ، وَأَمَّا الْأَفْرَادُ الَّتِي لِحَقَّتْهَا الْعَوَارِضُ الْغَيْرِيَّةُ كَالْبَابِ
وَالصَّنَمِ وَالسَّرِيرِ ، فَإِنَّ حِصَصَهَا هِيَ بِعَيْنِهَا تِلْكَ الْهَيُولَى وَالصُّورَةُ
النَّوْعِيَّتَانِ ؛ وَإِنَّمَا لِحَقَّتْهَا عَوَارِضُ مَرَاتِبِ تَنْزِلَاتِهَا فَتَغَايَرَتْ بِالْمَشْخِصَاتِ .
وَالعِبَارَةُ الصَّرِيحَةُ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى مَادَّةُ كُلِّ شَيْءٍ كَمَا
قُلْنَا فِي الْخَشَبِ ، وَالصُّورَةُ الْمَوْهُومَةُ هِيَ الْعَبْدُ مِنْ حَيْثُ نَفْسِهِ .

١- ذيل الآية ١٢، من السورة ٤٠: غافر .

وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ : أَنَا اللَّهُ بِلَا أَنَا . يَعْنِي أَنَّ الْأَنَابِيَّةَ هِيَ الْعَبْدُ . وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ حُدُودٌ خَارِجَةٌ عَنِ حَقِيقَةِ الْحِصَّةِ الْمَحْدُودَةِ .
 وَاسْمَعْ قَوْلَ إِمَامِهِمْ مُمِيتِ الدِّينِ فِي «الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ» نَقَلْتَهُ مِنْ
 ائْتِخَابَاتِهَا لِلشَّيْخِ أَبِي حَيَّانِ الطَّبِيبِ الشِّيرَازِيِّ :
 قَالَ فِي الْبَابِ الْمِائَتَيْنِ وَاحِدَى وَثَمَانِينَ فِي مَعْرِفَةِ مَنْزِلِ الضَّمِّ
 وَإِقَامَةِ الْوَاحِدِ مَقَامَ الْجَمَاعَةِ مِنَ الْحَضْرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ :
 صَلَاةُ الْعَصْرِ لَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ لِضَمِّ الشَّمْلِ فِيهَا بِالْحَبِيبِ
 هِيَ الْوُسْطَى لِأَمْرِ فِيهِ دَوْرٌ مُحْصَلَةٌ عَلَى أَمْرِ عَجِيبِ
 وَمَا لِلدَّوْرِ مِنْ وَسْطٍ تَرَاهُ وَلَا طَرْفَيْنِ فِي عِلْمِ اللَّيْبِ
 فَكَيْفَ الْأَمْرِ فِيهِ فَدَتَكَ نَفْسِي فَخُصَّ الْعَبْدُ بِالْعِلْمِ الْغَرِيبِ
 فَإِنَّ الْأَسْمَاءَ فِي حَقِّ الْكَامِلِ تَمْنَعُ ، فَيُودِّي ذَلِكَ التَّمْنَعُ إِلَى عَدَمِ

١- وهنا يورد محيي الدين بحثاً مُسهباً إلى أن يصل إلى قوله :

«وسبب أهميّة صلاة العصر هو كون الصلوات الأربع الأخرى محدودة الوقت باستثناء صلاة العصر، فوقت صلاة المغرب مثلاً محدود بغروب الشمس وهو أمر محسوس ومحقق، وأول العشاء محدود بغيوبة الشفق وهو أمر محسوس ومحقق أيضاً، وصلاة الفجر محدود أولها بالبياض الظاهريّ عرضاً في الأفق بشكل مستطير لا مستطيل، وهو كذلك أمر محسوس ومحقق، وصلاة الظهر محدودة بزوال الشمس والظلّ الشاخص وهو أمر محسوس ومحقق أيضاً. لكننا لا نشهد مثل هذه الحدود في صلاة العصر، فهي منزّهة عن الحدود المحقّقة؛ ولذلك عيّن الرسول صلى الله عليه وآله وقتها وحدّد موعدها بالشكل التالي وهو ظهور الشمس بشعاعها الأبيض والنقيّ في كبد السماء، ولأنّ هذا الحدّ الوارد في صلاة العصر لا يظهر فيها مثل بقيّة الحدود في الصلوات الأخرى لهذا عظّمها الرسول لأنّها تنفي تحديد الحدود وتحقيقتها».

وهنا يصل الشيخ محيي الدين في شرحه إلى النقطة التي يقول فيها : فإنّ الأسماء...

إلى آخره.

تَأْثِيرَهَا فِيمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ . فَيَبْقَى مُنْزَهَا عَنِ التَّأْثِيرِ مَعَ الذَّاتِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي لَا تُقَيِّدُهَا الْأَسْمَاءُ وَلَا النُّعُوتُ .

فَيَكُونُ الْكَامِلُ فِي غَايَةِ الصَّحْوِ كَالرُّسْلِ وَهُمْ أَكْمَلُ الطَّوَائِفِ ؛ لِأَنَّ الْكَامِلَ فِي غَايَةِ الْقُرْبِ يَظْهَرُ بِهِ فِي كَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ مُشَاهِدًا كَمَالَ ذَاتِ مُوْجِدِهِ . وَإِذَا تَحَقَّقَتْ مَا قُلْنَا عِلِمَتْ أَيْنَ ذَوْقَكَ مِنْ ذَوْقِ الرَّجَالِ الْكَمَلِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ فِيهِ وَاخْتَارَهُمْ مِنْهُ وَنَزَّهَهُمْ عَنْهُ . فَهُمْ وَهُوَ ، كَهُوَ وَهُمْ . فَسَمَّاهُ الْكَامِلُ مِنْهُمْ الْعَصْرَ . لِأَنَّهُ ضَمَّ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ لِاسْتِخْرَاجِ مَطْلُوبٍ . فَضُمَّتْ ذَاتُ عَبْدٍ مُطْلَقٍ فِي عُبُودِيَّتِهِ لَا يَشُوبُهَا رُبُوبِيَّةٌ بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، إِلَى ذَاتِ حَقٍّ مُطْلَقٍ لَا يَشُوبُهَا عُبُودِيَّةٌ أَضْلًا بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، مِنْ اسْمِ إِلَهِيِّ بَطَلَبِ الْكَوْنِ .

فَلَمَّا تَفَابَلَتِ الذَّاتَانِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُقَابَلَةِ ، كَانَ الْمُعْتَصِرُ عَيْنَ الْكَمَالِ لِلْحَقِّ وَالْعَبْدِ . وَهُوَ كَانَ الْمَطْلُوبُ الَّذِي لَهُ وَجِدَ الْعَصْرِ . فَإِنْ فَهَمْتَ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ فَقَدْ سَعَدْتَ ، وَالْقَيْتُكَ عَلَى مَدْرَجَةِ الْكَمَالِ فَارَقَ فِيهَا . وَلِهَذَا الْمَعْنَى الْإِشَارَةُ فِي نَظْمِنَا فِي أَوَّلِ الْبَابِ :

صَلَاةُ الْعَصْرِ لَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ
لِضَمِّ الشَّمْلِ فِيهَا بِالْحَبِيبِ^١
قَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجِيلَانِيُّ فِي كِتَابِهِ «الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ» بَعْدَ كَلَامِ
طَوِيلٍ فِي اسْمِ اللَّهِ :

قَالَ : فَاسْتِدَارَةٌ رَأْسِ الْهَاءِ إِشَارَةٌ إِلَى دَوْرَانِ رَحَى الْوُجُودِ الْحَقِّيِّ وَالْخَلْقِيِّ عَلَى الْإِنْسَانِ . فَهُوَ فِي عَالَمِ الْمِثَالِ كَالدَّائِرَةِ الَّتِي أَشَارَ الْهَاءُ إِلَيْهَا .

١- قمنا بنقل نصّ كلام محيي الدين مع تفصيل أكثر من «الفتوحات المكيّة»، ج ٢ ، ص ٦١٤ و ٦١٥ ، لأنّ عبارة الأحسائيّ هنا على «شرح العرشية» فيما يتعلّق بمواضيع محيي الدين مغلوطه ومختصرة.

فَقُلْ مَا شِئْتَ ! إِنْ شِئْتَ قُلْتَ : الدَّائِرَةُ حَقٌّ وَجَوْفُهَا خَلْقٌ ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : الدَّائِرَةُ خَلْقٌ وَجَوْفُهَا حَقٌّ ؛ فَهُوَ حَقٌّ وَهُوَ خَلْقٌ ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : الأَمْرُ فِيهِ بِالْإِلْهَامِ .

فَالأَمْرُ فِي الْإِنْسَانِ دَوْرِيٌّ بَيْنَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ لَهُ ذُلُّ الْعُبُودِيَّةِ وَالْعَجْزِ ، وَبَيْنَ أَنَّهُ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ فَلَهُ الْكَمَالُ وَالْعِزُّ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ^١ يَعْنِي الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ الَّذِي قَالَ فِيهِ : «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»^٢ .

لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ الْخَوْفُ وَالْحُزْنُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ،^٣ «وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ؛^٤ أَيِ الْوَلِيِّ .

فَهُوَ حَقٌّ مُتَّصِرٌ فِي صُورَةِ خَلْقِيَّةٍ ؛ أَوْ خَلْقٌ مُتَّحِقٌّ بِمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ . فَعَلَى كُلِّ حَالٍ وَتَقْدِيرٍ ، وَفِي كُلِّ مَقَالٍ وَتَقْرِيرٍ ؛ هُوَ الْجَامِعُ لَوْصَفِي النَّقْصِ وَالْكَمَالِ ، وَالسَّاطِعُ فِي أَرْضِ كَوْنِهِ بِنُورِ شَمْسِ الْمُتَعَالِ .

فَهُوَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ، وَهُوَ الطُّولُ وَالْعَرْضُ ؛ وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قُلْتُ :

لِي الْمُلْكُ فِي الدَّارَيْنِ لَمْ أَرِ فِيهِمَا

سِوَايَ فَارْجُو فَضْلَهُ أَوْ فَاخْشَاهُ

إِلَى أَنْ قَالَ مِنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ وَهِيَ طَوِيلَةٌ :

١- قسم من الآية ٩ ، من السورة ٤٢ : الشورى : فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ .

٢- الآية ٦٢ ، من السورة ١٠ : يونس .

٣- ذيل الآية ٢٨ ، من السورة ٤٢ : الشورى : وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ .

٤- ذيل الآية ٩ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

وَإِنِّي رَبُّ لِلْأَنَامِ وَسَيِّدٌ
 جَمِيعُ الْوَرَى اسْمٌ وَذَاتِي مُسَمَّاهُ
 لِي الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ نَسْجِي وَصَنَعْتِي
 لِي الْغَيْبُ وَالْجَبْرُوتُ مِنِّي مَنْشَأُهُ
 إِلَى آخِرِ الْقَصِيدَةِ وَكَلَامِهِ»^١.

١- بسبب الأخطاء التي كانت موجودة في «شرح العرشية» للأحسائي فقد أوردنا هنا عبارات العارف الكبير الشيخ عبد الكريم الجيلي عن النسخة الأصلية لكتاب «الإنسان الكامل» ص ١٩ و ٢٠، الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية المصرية، باعتبارها من أبداع المنظومات سنة ١٣١٦هـ؛ وفي طبعة مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، سنة ١٣٨٣ هجرية: ص ١٩ و ٢٠.

وقد ارتأينا نقل قصيدة الشيخ عبد الكريم الجيلاني أعلى الله مقامه هنا كاملة في باب توحيد ذات الحق تعالى، وهي لا تقل شأنًا عن القصائد التي نظمها ابن الفارض المصري، أملين أن يتتفع بها الطلبة الكرام:

سِوَايَ فَارْجُو فَضْلَهُ أَوْ فَأَخْشَاهُ	لِي الْمُلْكُ فِي الدَّارَيْنِ لَمْ أَرْ فِيهِمَا
وَلَا بَعْدَ مِنْ بَعْدِي فَأَسْبِقَ مَعْنَاهُ	وَلَا قَبْلَ مِنْ قَبْلِي فَأَلْحَقْ شَأْنَهُ
جَمَالَ جَلَالِ الْكُلِّ مَا أَنَا إِلَّا هُوَ	وَقَدْ حُزْتُ أَنْوَاعَ الْكَمَالِ وَإِنِّي
وَحَيَوَانِهِ مَعِ إِنْسِهِ وَسَجَايَاهُ	فَمَهُمَا تَرَى مِنْ مَعْدِنٍ وَنَسَابَتِهِ
وَمِنْ هَبَاءٍ لِلأَصْلِ طَيْبِ هَيُولَاهُ	وَمَهُمَا تَرَى مِنْ عُنْصُرٍ وَطَبِيعَةٍ
وَمِنْ شَجَرٍ أَوْ شَاهِقٍ طَالَ أَعْلَاهُ	وَمَهُمَا تَرَى مِنْ أَبْحَرٍ وَقِفَارَةٍ
وَمِنْ مَشْهَدٍ لِلْعَيْنِ طَابَ مُحْيَاهُ	وَمَهُمَا تَرَى مِنْ صُورَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ
وَعَقْلٍ وَنَفْسٍ أَوْ فِقْلَبٍ أَوْ حِشَاهُ	وَمَهُمَا تَرَى مِنْ فِكْرَةٍ وَتَخِيلٍ
وَمِنْ مَنظَرٍ إِبْلِيسَ قَدْ كَانَ مَعْنَاهُ	وَمَهُمَا تَرَى مِنْ هَيْئَةٍ مَلَكِيَّةٍ
لِطَبْعٍ وَإِثَارٍ لِحَقِّ تَعَاطَاهُ	وَمَهُمَا تَرَى مِنْ شَهْوَةٍ بَشْرِيَّةٍ
وَمِنْ لَأَحِقِّ بِالقَوْمِ لَفَاهُ سَاقَاهُ	وَمَهُمَا تَرَى مِنْ سَابِقِ مُتَقَدِّمٍ
وَمِنْ عَاشِقٍ صَبَّبَ صَبَابًا نَحْوَ لَيْلَاهُ	وَمَهُمَا تَرَى مِنْ سَيِّدٍ مُتَسَوِّدٍ
وَكَرْسِيِّهِ أَوْ رَفْرِفٍ عَزَّ مَجْلَاهُ	وَمَهُمَا تَرَى مِنْ عَرْشِهِ وَمُحِيطِهِ

فَقَالَ أَيْضاً فِي الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ:

وَمَا الْخَلْقُ فِي التَّمَثَالِ إِلَّا كَثَلَجَةٍ وَأَنْتَ بِهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَابِعٌ
وَمَا الثَّلَجُ فِي تَحْقِيقِنَا غَيْرَ مَائِهِ وَغَيْرَانِ فِي حُكْمِ دَعْتِهِ الشَّرَائِعُ
وَلَكِنْ يَذُوبُ الثَّلَجُ يُرْفَعُ حُكْمُهُ وَيُوضَعُ حُكْمُ الْمَاءِ وَالْأَمْرُ وَقِعُ
تَجَمَّعَتِ الْأَضْدَادُ فِي وَاحِدِ الْبَهَا وَفِيهِ تَلَاشَتْ وَهُوَ عَنَّهُنَّ سَاطِعٌ^١

وهذا الرجل (الشيخ عبدالكريم الجيلي) هو من أكابر أئمة أهل العرفان . ولو تتبعت في كتب المؤلف (الملا صدرا الشيرازي) كهذا الكتاب وغيره ، لوجدت أن كلامه مشابه لكلام العرفاء ، مع اختلاف في عباراته واستدلالاته التي سببها على نمط الحكماء خلافاً لعبارات أهل العرفان والتصوف .

وَمَهْمَا تَرَى مِنْ أَنْجَمِ زُهْرِيَّةٍ وَمَهْمَا تَرَى مِنْ سِدْرَةٍ لِنَهَائِيَّةٍ
فَإِنِّي ذَاكَ الْكُلُّ وَالْكُلُّ مَشْهَدِي وَإِنِّي رَبُّ لَلْأَنَامِ وَسَيِّدٌ
لِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ نَسْجِي وَصَنَعْتِي وَهَا أَنَا فِيمَا قَدْ ذَكَرْتُ جَمِيعُهُ
فَقَبِيرٌ حَقِيرٌ خَاضِعٌ مُتَذَلِّلٌ فَيَا أَيُّهَا الْعُرْبُ الْكِرَامُ وَمَنْ هُمُو
قَصَدْتُكُمْ أَنْتُمْ قُصَارَى ذَخِيرَتِي وَيَا سَيِّدًا حَارَ الْكَمَالِ بِإِثْرَةِ
لِأُسْتَاذِ شَيْخِ الْعَالَمِينَ وَشَيْخِهِمْ عَلَيَّكُمْ سَلَامِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ

وَمِنْ جَنَّةٍ عَدِنٍ لَهُمْ طَابَ مَثْوَاهُ
وَمِنْ جَرَسٍ قَدْ صَلَّصَلَا مِنْهُ طَرْفَاهُ
أَنَا الْمُتَسَجِّلِي فِي حَقِيقَتِهِ لَا هُوَ
جَمِيعُ الْوَرَى اسْمٌ وَذَاتِي مُسَمَّاهُ
لِي الْغَيْبُ وَالْجَبْرُوتُ مِنِّي مَنْشَاهُ
عَنِ الذَّاتِ عَبْدٌ آئِبٌ نَحْوُ مَوْلَاهُ
أَسِيرٌ ذُنُوبٍ قَيْدَتُهُ خَطَايَاهُ
لِصَبِّهِمُ الْوَلَهَانَ أَفْخَرُ مَلْجَاهُ
وَأَنْتُمْ شَفِيعِي فِي الَّذِي أَنْمَنَاهُ
فَأَضْحَى لَهُ بِالسَّبْقِ شَاؤُ تَعَالَاهُ
وَنُورٌ حَوَاهُ الْأَكْمَلُونَ وَالْأَلَاهُ
تَزِيدٌ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ تَحْيَاهُ

١- لقد نقلنا هنا جميع الآيات الواردة في كتاب «الإنسان الكامل» عن طبعة سنة

١٣١٦، ص ٢٨، وعن طبعة سنة ١٣٨٣: ص ٢٨.

ويمكن استشماع العلم بذات الواجب والحق تعالى من تلك المصنّفات دون شكّ أو غموض ، لأنّ الوجود عندهم عبارة عن الحقيقة الواحدة ؛ مع وجود الاختلاف في أنّ دلالة العبارات الصوفية على مطلوبهم ومرادهم أكثر من عبارة المصنّف نفسه . لكنّه صرح بذلك في كثير من عباراته ، مثل : **كَوْنُ الْخَلْقِ مِنْهُ بِالسَّنْخِ** ، ومثل : **الْوُجُودُ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ صِرْفُهَا وَاجِبُ الْوُجُودِ وَمَشُوبُهَا الْمُمْكِنُ** . وبين في «المشاعر» وغيره أنّ : النقصان الموجود في الموجودات المشوبة ليس ذلك من ذاتها ، لأنّ ذاتها منزّهة من النقص ، وأنّ عروض النقصان فقط تنزل عليها من جهة لحوق خصوص المراتب .

(كان كلّ ذلك بحثاً في معنى الوجود بناء على رأي الحكيم الملام صدر الشيرازي وعقيدته) .

وأما على رأينا الصادق وعقيدتنا الحقّة في أنّ أصل محلّ التقسيم هو وجود ممكن الوجود وحسب ، فيجب القول : إنّ اتحاد حقيقة الوجود أمر غير صحيح ولا واقع .

وَإِنَّمَا هُوَ بِلِحَاطِ صِدْقِ الْأَسْمِ مِنْ جَهَةِ الْأَصْطِلَاحِ لَا مِنْ جَهَةِ اللَّغَةِ .
فإنّ لفظ الوجود لم يوضع لذاتٍ وإنّما وُضِعَ لِصِفَةٍ ، أعني المعنى المصدريّ ، أي الكون في الأعيان كما قاله بعض الصوفيّة من أنّ الوجود عند العوامّ هو الكون في الأعيان وأمّا عندنا فالوجود ما به الكون في الأعيان - انتهى .

أقول : وكلام العوامّ حقّ بحسب وضع اللغة ؛ وأمّا ما به الكون في الأعيان فهو الموجود ، وهو حقيقة مادّة الشّيء . إذ بها مع تحقّقها بالمعيّنات الجنسيّة أو النوعيّة أو الشّخصيّة يتحقّق الكون في الأعيان . وهذا أظهر من الشمس لمن فتح عينه ونظر في نفس الأمر . وأمّا من

غَمَضَ عَيْنَهُ وَنَظَرَ إِلَى مَنْ قَالَ ، فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّ الْوُجُودَ شَيْءٌ هُوَ جَوْهَرٌ إِلَّا أَنَّهُ يَتَصَوَّرُ شَيْئًا غَيْرَ الشَّيْءِ .

لِأَنَّهُ لَا يَفْهَمُ مَا يَقُولُ وَلَكِنْ تَبِعَ مَنْ يَقُولُ تَبَعًا لِغَيْرِهِ كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى غَيْرِنَا إِلَى عَيْونِ كَدِرَةٍ يَفْرُغُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ؛ وَذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ إِلَيْنَا إِلَى عَيْونِ صَافِيَةٍ تَجْرِي بِأَمْرِ اللَّهِ لَا نَفَادَ لَهَا .

ويواصل الأحسائي الشرح والتفصيل على هذا المنوال في سبيل إكمال مراده وإضعاف رأي الملا صدرا ، فيتابع الموضوع حتى يصل إلى حيث يقول :

«وَأَمَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُصَنَّفُ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَصَوُّرِ الْحَقِيقَةِ الْبَسِيطَةِ وَتَقْسِيمِهَا مَعَ وُجُودِ الْبَسَاطَةِ إِلَى صِرْفِ الْوُجُودِ أَيْ خُلُوصِهِ مِنَ الْخُلْطِ وَالْإِمْتِزَاجِ ، وَأَقْرَبُهُ بِأَنَّهُ الْوَاجِبُ تَعَالَى ؛ وَإِلَى الْوُجُودَاتِ الْمَشُوبَةِ بِالنَّقَائِصِ قَائِلًا إِنَّهَا وَجُودَاتُ الْأَشْيَاءِ .

وقد بالغ في بيان الجواهر الزواهر وقال : ليست هذه الأعدام والنقائص الموجودة في ذات هذه الموجودات مُلْحَقَةٌ مِنْ جِهَةِ ذَاتِهَا ، لِأَنَّ ذَوَاتَهَا مَنْزَهَةٌ عَنِ ذَلِكَ ؛ بَلِ التَّحَاقُّ هَذِهِ بِتِلْكَ مِنْ جِهَةِ عَوَارِضِ مَرَاتِبِ تَنْزَلَاتِهَا .

ومن هنا يأتي تشبيههم العوارض بقطعة ثلج والله سبحانه بالماء . فإذا حدث انكسار في الثلج فإن ذلك لا يحصل للماء . وهكذا فإنَّ الوجودات عندهم بغض النظر عن العوارض عبارة عن صِرْفِ الْوُجُودِ ، وَإِذَا طَرَأَتْ عَلَيْهَا الْعَوَارِضُ فَإِنَّ ذَلِكَ الطَّرْوُءُ وَاللِّحَاقُ يَكُونُ فِي مَرَاتِبِ التَّنَزُّلِ .

فإن قلت هنا : ليس هذا مراد المصنّف أو هدفه ؟

نقول في جواب ذلك : إن لم أكن قد فهمتُ ، فرضاً ، مراد المصنّف أو

هدفه ، فهل يمكن القول إنّ صهره الملاً محسن لم يفهم ذلك أيضاً ، ولم يسر على ذلك الممشى كذلك !؟

كلا ! ليس بإمكانك بالطبع إنكار كلامه ! ولهذا سأبين لك أنّ صهره الملاً محسن قال في «الكلمات المكنونة» ما يلي :

كما أنّ وجودنا هو بعينه وجوده سبحانه ، مع اختلاف في كونه حادثاً بالنسبة لنا وقديماً بالنسبة له سبحانه ؛ وكذا الحال مع صفاتنا الأخرى كالحيّة والقدرة والإرادة وما إلى ذلك ، لأنّ هذه هي عينها صفاته مع اختلاف في كونها صفات مُحدّثة بالنسبة لنا وصفات قديمة بالنسبة له . لأنّ هذه الصفات هي صفات منسوبة إلينا ومُلحقة بنا ؛ والحدوث الملازم لذاتنا ملازم لصفاتنا . لكنّها قديمة بالنسبة له ، وذلك لأنّ صفاته ملازمة لذاته وذاته قديمة .

وإن شئت فهم هذه الحقيقة واستيعابها جيّداً فانظر إذن إلى حياتك كيف أنّها مملوكة لك ومنسوبة إليك ومقيّدة بك ! لأنّك لا تجد هنا إلاّ روحاً واحدة مختصّة بك ، وتلك الروح هي حادثة . وإذا رفعت نظرك عن كونها مختصّة بك وتحسّست بقلبك من حيث الشهود والوجدان بأنّ حياة ووجود أيّ موجود حيّ إنّما تكون في حياة ووجود الحقّ كما كانت حياتك أنت هكذا أيضاً وشاهدت ولاحظت سريان وجريان تلك الحياة في جميع الموجودات ؛ فستعلم أنّ حياتك هذه هي عينها الحياة القائمة بالموجود الحيّ والذي به يقوم العالم كلّهُ . وتلك هي الحياة الإلهيّة .

وكذا الحال مع سائر الصفات مع اختلاف في كون أنّ الخلائق متباينة من جهة تباين قابليّاتها في اتّصافها بتلك الصفات ، كما نشهد ذلك في كثير من الأماكن . وهذه هي إحدى المعاني الموجودة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في قوله :

كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ . غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَمَفْرَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ .^١ - انتهى .

وبناء على ما قلناه ، فإن لم يكن معنى هذا القول هو القول بـ «وحدة الوجود» والذي أجمع كل العلماء واتفقوا على أن القائل بهذا هو كافر ؛ إذن ، فأبي قول غيره يعني القول بـ «وحدة الوجود»؟! بل إن هذا الكلام يشير بوضوح إلى القول بـ «وحدة الوجود» و«وحدة الموجود» معاً .

ويُطلب الأحسائي في الموضوع هنا كذلك حتى يصل إلى نهاية البحث حيث يقول :

«وَلَكِنْ لَوْ بَيْنْنَا عَلَى مَذْهَبِ الْمُصَنِّفِ وَأَتْبَاعِهِ قُلْنَا إِفَاضَةَ الْوُجُودِ الْوَاحِدِ الْمُنْبَسِطِ عَلَى الْمُمْكِنَاتِ هَلْ هُوَ كَمَالٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى أَمْ نَقْصٌ؟! فَإِنْ كَانَ كَمَالًا كَانَ فَقَدَ الْكَمَالَ قَبْلَ الْإِفَاضَةِ ؛ وَإِنْ كَانَ مُفِيضًا فِي الْأَزَلِ كَانَتْ الْمَوْجُودَاتُ غَيْبًا وَشَهَادَةً ، جَوَاهِرُهَا وَأَعْرَاضُهَا أَزَلِيَّةً . وَإِنْ كَانَ نَقْصًا فِي حَقِّهِ فَإِنْ كَانَتْ الْإِفَاضَةُ فِي الْأَزَلِ شَابَهُ نَقْصٌ لِدَاتِهِ فَلَمْ يَكُنْ صِرْفَ الْوُجُودِ ، وَإِنْ كَانَتْ بَعْدَ الْأَزَلِ سَاوَى الْوُجُودَاتِ الْمُمْكِنَةِ ، لِأَنَّهَا عِنْدَ الْمُصَنِّفِ وَأَتْبَاعِهِ لَمْ يَلْحَقْهَا النَّقْصُ لِدَاتِهَا وَإِنَّمَا لَحِقَهَا مِنْ عَوَارِضِ مَرَاتِبِ تَزَلُّلَاتِهَا ؛ فَيَكُونُ الْوَاجِبُ كَذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ لِتَسْمِيهِ مُحْصَلٌ وَلَا فَائِدَةٌ»^٢ .

١- «الكلمات المكنونة» ص ٨٠ و ٨١ ؛ الطبعة الحجرية ؛ وفي الطبعة الحروفية:

ص ٨٤ و ٨٥ .

٢- شرح الشيخ أحمد بن زين الدين بن إبراهيم بن صفر بن داغر المطيرفي الأحسائي على كتاب «العرشية» للحكيم الملا صدرا الشيرازي (القطع الرحلي ، الطبعة الحجرية) والذي انتهى الشيخ أحمد من تأليفه في تمام الساعة السابعة والنصف من ليلة الأربعاء ، السابع والعشرين من شهر ربيع الأول ، سنة ألف ومائتين وستة وثلاثين للهجرة ، في بلدة

الكلّ يعلم من خلال الإشكال الأخير الذي أورده الشيخ الأحسائي على الحكيم المتأله الصمداني الشيرازي أنّ الأحسائي كان بحق مجرد وأجوف من حيث فهم اصطلاحات العرفاء والفلاسفة الإلهيين ، وهو ما يبعث بالفعل على الدهشة والغرابة والأسف والعار على الإسلام معاً ، ويثير تساؤلاً في أنّه كيف دخل الإسلام بعقله الأجوف والتافه هذا ومذهبه وعقيدته الحشويّة؟! كيف سمح لنفسه بوضعها في مصافّ علماء كبار من أمثال الملا صدرا والشيخ إسماعيل الخواجويّ الإصفهانيّ والحكيم المتأله الحاجّ السبزواريّ تغمّدهم الله برضوانه بانتحاله هذا الدين الحنيف وهذه القواعد الحكميّة المرصوفة؟!!

حتى أنّ الذي يدرس مقدّمات الحكمة المتعالية ليعلم أنّ هناك فرقاً بين القديم الزمانيّ والقديم الرّتبّي ، وفرقاً كذلك بين الواجب بالذات والواجب بالغير .

ولو تأنّى هذا الشيخ الضالّ والمستبدّ برأيه الأعمى للحظات ووقف أمام مدرسة الحكمة المتعالية متأملاً وإن قلّ تأمّله ، وأنصتَ إلى الأدب شيئاً يسيراً لعقل أنّ جميع الموجودات الممكنة الوجود تمتلك حدوثاً ذاتياً لا زمانيّاً ، لأنّ الزمان نفسه هو أحد الحوادث كذلك . كيف يُعقل أن يكون حادثاً زمانيّاً ؟

﴿ كرامنشاهان، وبعد مرور فترة قصيرة من ذلك ، أي في عهد ناصرالدين شاه ، تمّت كتابته بخطّ السيّد محمّد رضا بن السيّد أبي الحسن الطباطبائيّ بهمة الميرزا آقاي نوري العالية وعون الحاجّ الملا محمود المعروف بنظام العلماء التبريزي في طهران . ولا توجد أرقام صفحات مطبوعة على الكتاب إلا أنّ عدد صفحات الكتاب المذكور يبلغ ٣٥٢ صفحة وذلك حسب الترقيم الخطّي عليه . وقد قمنا هنا بنقل النصوص أعلاه من ص ١٢ إلى ١٦ ، وذلك خلال بيان شرح المشرق الأوّل .

ولعلَّ أيضاً أنّ جميع الموجودات الممكنة الوجود التي تمتلك إمكاناً ذاتياً هي واجبة بالغير . ولا يمكن تصوّر تعارض بين الإمكان بالذات والوجوب بالغير على الإطلاق ، بل يربط بينهما منتهى الكمال .
وليس لكلمة الوجود عند الناس إلا معنى واحداً وهو الدارج والمعروف بينهم ؛ ألا وهو ما يعنيه الوجود في مقابل العدم . إنّ ذات واجب الوجود والحقّ تعالى تمتلك وجوداً بنفس معنى ومفهوم الوجود الذي تمتلكه سائر الموجودات .

إننا ، ومهما فكّرنا أو عصرنا مُخّنًا ، عاجزون عن إيجاد حقيقة أو حقائق متباينة لمعنى الوجود ، فنتمكّن بذلك من تسمية أحدها مثلاً بالوجود الحقّ وتسمية البقية بوجود المخلوقات والأشياء ممكنة الوجود . فذلك المفهوم هو نفسه المفهوم البسيط والبدهيّ وهو أوّل ما يخطر ببالنا في مقابل العدم ؛ سواء أكان ذلك في الذات الأزليّة أم في الصادر الأوّل في العقول العالية المجرّدة المفارقة أم في النفوس والطباع والأشياء والهيولى الأوّليّة التي يسمونها بمادّة الموادّ .

فلفظة الوجود تُطلق على كلّ تلك الأشياء جميعاً بعناية واحدة وجهة واحدة . هذا من جهة مفهومها البسيط ، وأمّا بلحاظ إدراك حقيقة الوجود وسرّ أغوارها فذلك مقام رفيع ومرتبة عالية ليس بإمكان كلّ أحد الوصول إليهما . ذلك هو كنه الوجود وواقعه والذي يؤول في النهاية إلى الاختفاء والتستّر ؛ ولا تفاوت كذلك في تلك الجهة بين إدراك حقيقة وكنه وجود الحقّ تعالى وفهمها وبين حقيقة وكنه سائر وجودات الممكنات .

لا شكّ أنّ إدراك كنه الوجود ، أنّى كان ، هو من أصعب المصاعب وأعقد المشاكل ؛ لكنّ مفهومه على نحو معنويّ مُشترَك ، سهل ويسير على جميع الموجودات .

يقول الحكيم العظيم الحاجّ الملا هاديّ السبزواريّ تغمّده الله

برضوانه :

وَلَيْسَ بِالْحَدِّ وَلَا بِالرَّسْمِ
وَكَتُّهُ فِي غَايَةِ الْخَفَاءِ

مُعَرَّفُ الْوُجُودِ شَرَحَ الْأَسْمِ
مَفْهُومُهُ مِنْ أَعْرَفِ الْأَشْيَاءِ

١- وهنا انقطع سلسبيل المصنّف العطر الجياش الطافح بشلال المسك والعنبر، وتوقّف بنانه الشامخ عن نثر اللالئ البراقة والدُرر اللامعة في المعارف الإلهية الحقّة. نعم، لقد سكّت ذلك القلب وأحجم عن النبض، بعد أن قضى عمراً في إعلاء كلمة التوحيد وتبيين مقام ولاية الله الكليّة والذود عن حياض التشيع والمبادئ الثقافية الإسلامية الأصيلة: فهوى ساكناً لساعتين بقيتا لوقت الظُّهر من يوم السبت في التاسع من صفر الخير، سنة ألف وأربعمائة وستّة عشر هجريّة، عند الأعتاب المقدّسة لثامن الأئمّة عليّ بن موسى الرضا عليه آلاف التحية والثناء؛ ملبياً بذلك نداء أرجعي، نشواناً بسَمْبُهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا معانقاً شاهِدَ الوصال. ومُحَلِّقاً نحو رياض القدس في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ.

رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَحْمَةً وَسِعَتْ

